المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
كلية الآداب ـ قسم التاريخ

موقف الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين من الحملة الصليبية الاولى

اعداد : عمر يحي محمد

اشراف : أ. د. عبدالله عقيل عنقاوي

بحث مقدم لاستكمال درجة الماجستير

١٤١٢هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

* * بانقسام الامبراطورية الرومانية القديمة في أواخر القرن الرابع الميلادي الى شطرين : شرقي وعاصمته بيزنطة، وغربي وعاصمته روما، ترسخ هذا الانقسام في الفترات التالية، وساد بين الشطرين نوع من العلاقات إتسم بالعداء والشقاق، وعملت الخلافات الدينية والتباين الحضاري واللغوي ، وتضارب المصالح على ترسيخ هذا العداء وجعلته السمة البارزة للعلاقات بين الشطرين.

واستمرت هذه العلاقة بين مد وجزر حتى جاءت الحملة الصليبية الأولى التي انطلقت من الغرب الأوروبي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ولأن هذه الحملة اتخذت أراضي الامبراطورية البيزنطية معبراً لها إلى الشرق الإسلامي، فكان لابد ان تتعامل مع الإمبراطورية البيزنطية، ولكن كان من الصعب القفز على مظاهر العداء التي كانت مستحكمة بين الشطرين .

من جانبها وجدت الإمبراطورية البيزنطية ممثلة في إمبراطورها الكسيوس كومنين أن هناك مخاطر جمة يمثلها عبور هذه القوات التي انطلقت من الغرب اللاتيني عبر أراضيها ، وأنه لابد من إنتهاج سياسة تحميها من غدر هؤلاء اللاتين الذين سبق وأن تعاملت وتصادمت معهم في ميادين مختلفة، وتحقق لها أطماعها التي تصورت أنها تستطيع تنفيذها إذا أحسنت استخدام هذه الجيوش التي كونت الحملة الصليبية الأولى .

توصل الطرفان الى ابرام إتفاقية القسطنطينية التي تنظم التعامل بين الصليبيين والإمبراطورية البيزنطية ، ولكن لأن أهداف كل فريق كانت متباينة وأطماعه كانت هي المسيطرة ، ولأنه كان من الصعب تجاوز الكثير من الفوارق والخلافات سواء منها الدينية او الحضارية او ذلك الإرث من العداء المتبادل ، فسرعان ما اصطدم الطرفان المتحالفان في الحملة الصليبية الأولى.

لقد ترتب على موقف الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين من الحملة الصليبية الأولى عدة نتائج هامة، لم يكن آخرها تجريد حملة صليبية خاصة لإسقاط الدولة البيزنطية، ثم فشل هذه الحملة فشلاً ذريعاً، وإنما لعل أهمها استحكام العداء السابق بين شقي العالم النصراني، وفشل محاولات إعادة توحيد كنيستي روما والقسطنطينية، وتصميم الغرب الأوروبي على إسقاط الإمبراطورية البيزنطية ، ليتحقق له ذلك بعد عدة محاولات في الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م/٦٠٠هـ .

إن هذ البحث يركز على دراسة موقف الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين من الحملة الصليبية الأولى وسياسته التي انتهجها وهو الموقف الذي جاء منسجماً مع نوعية العلاقة التي كانت سائدة بين الشطرين اللذين كانا يكونان الإمبراطورية الرومانية القديمة ، مغطياً جانباً هاماً من جوانب العلاقات التي سادت العصور الوسطى الأوروبية من خلال واحد من أهم حداثها ، وهو الحملة الصليبية الأولى .

A B S T R A C T

By the end of the 4th century A.D. the Roman Empire was divided into two parts: an eastern part with its capital at Constantinople, and a western one with its capital at Rome. With the lapse of time this division well established itself and the relations between the two parts were that of enmity and disunity. The religious differences, the dissimilarity in culture and language, and the conflicting interests made this enmity more deeply rooted. It became the main characteristic of the relations between the two parts. These relations continued their rise and ebb until the time of the first Crusade that started in western Europe at the end of the 11th century A.D.

Although the first Crusade used the land of the Byzantine Empire as a path to the Islamic East , and of course it had to deal in a friendly manner with the Byzantine , yet it was difficult to jump over the appearances of the well-founded enmity between the two parts. From its part the Byzantine Empire, in the person of its Empror Alexius Cominin, realized that the crossing of these latin troops through the lands of the Empire formed a great danger. Therefore, they had to follow a policy that realized a double purpose: firstly to protect themselves from the treachery of those Latins, with whom the Empire had already clashed in different fields; and secondly, to make use of those troops of the first Crusade to fulfil their aims. Thus the two parties signed the Treaty of Constantinople that organized the relations between the Crusaders and the Byzantine Empire. But because of the different aims and interests of each party, and because it was difficult to overcome the religious and cultural differences and the inherited enmity, the two allied parties soon came into clashes during the first Crusade.

The attitude of the Byzantine Empror Alexius Cominin brought forth several important results, that did not only lead to a crusade to overthrow the Byzantine Empire, which however, completely failed , but the most important results were the confirmation of the previous enmity between the two sides of the christian World, the setback of the attempts to re-unite the two churches of Rome and Constantinople, and the insistance of the european West to overthrow the Byzantine Empire, the thing wich they achieved after several attempts in the 4th Crusade in 1204 A.D.

This research concentrates on the study of the attitude of the Empror Alexius Cominin towards the First Crusade, and the policy which he followed in this respect. His attitude was, no doubt, compatible with the relations that were dominant between the two parts of the previous Roman Empire. The research thus covers an important part of the relations that dominated Medieval Europe through one of its important events: the First Crusade.

فهرس المحتويات

المقدمة

مقدمة

تعد الحملة الصليبية الاولى التي انطلقت الدعوة اليها في الغرب عام ١٠٩٥م/٤٨٩هـ على يد البابا أوربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩م/٤٨١-٤٩٣هـ) من أهم أحداث العصور الوسطى قاطبة ، وترجع أهميتها إلى ما تركته من آثار بعيدة المدى في الدولة البيزنطية والشرق الأدنى الاسلامي.

وقد اختلف الباحثون في الماضي في تكييف ماهية هذه الحروب ودلالاتها ومغزاها ، وما انطوت عليه من أهداف ومشاريع ، فبعضهم يعيدها إلى أهداف اقتصادية وآخرون الى أهداف اجتماعية او دينية ، على ان الذي يتفق عليه عديد من الباحثين أن هناك مجموعة عوامل ودوافع دينية واقتصادية واجتماعية وسياسية ، قد تكاتفت وتكاملت لتعلن عن المشروع الغربي اللاتيني الذي تمثل في الحروب الصليبية التي شغلت قرنين من العلاقات والاحداث بين الشرق والغرب.

ففي واحدة من أهم فترات العصور الوسطى الاوروبية ، والتي تجمع معظم الدراسات التاريخية أنها تبدأ من القرن الثالث الى القرن الثالث عشر الميلادي ، حيث تبدأ بعد ذلك عصور النهضة المبكرة ، وجدت أوروبا - وبالأصح البابويه التي كانت المحرك والمهيمن على الاحداث معظم هذه الفترة - كعلاج لكثير من مشاكلها الدينيه والاقتصادية والاجتماعية والعسكريةأن تعمل على تجريد هذه الحملات العسكرية ذات الجيوش الجرارة متخذة تبريرات دينيه ثبت من الدراسات التاريخيه المختلفة أنها لم تكن سوى ستار لأهداف أخرى توختها هذه الحملات وتسترت خلفها.

ولعبت الكنيسة الغربية اللاتينيه دوراً هاماً في إعداد هذه الحملات والدعوة اليها والتحريض عليها ، ومارست ضغوطاً مختلفة على السلطات العلمانية للمشاركة في هذه الحملات وتعبئتها بالجيوش والمعدات المختلفة.

ولما كان الغرب الأوروبي هو منطلق هذه الحروب، والشرق البيزنطي هو معبرها الاول، والشرق الاسلامي هو هدفها، فقد مثلت هذه الحروب حلقة هامة من حلقات العلاقات بين الشرق والغرب، سواء الغرب الاوروبي اللاتيني والشرق الاسلامي، او الغرب اللاتيني والشرق البيزنطي.

وقد تناولت عدد من البحوث احداث الحملات الصليبية وتداعياتها ونتائجها إلا أن هذا البحث يركز على نقطة هامة برزت في الحملة الصليبية الأولى ، وكان لها تداعياتها ونتائجها التي استمر تأثيرها فترة طويلة من الزمن ، وشغلت جانباً من العلاقات بين الغرب الاوروبي والشرق البيزنطي، وهي موقف الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨م/٤٧٤-٥١٢هـ) الذي عاصر الحملة الصليبية الأولى وتعامل معها.

لقد كان لموقف الامبراطور الكسيوس من الحملة الصليبية الأولى نتائج خطيرة ، جاءت معبرة عن طبيعة العلاقات الي سادت بين شطري أوروبا شرقاً وغرباً ، قبل قيام أحداث الحملة الصليبية الأولى. كما سيطرت نتائج هذا الموقف فيما بعد على طبيعة العلاقات بين الشطرين ، حتى انتهى الأمر بسقوط القسطنطينية بأيدي اللاتين واحتلالها عام ١٢٠٤م/٦٠٠هـ، وفي الحقيقة لقد ظلت آثار هذا الموقف مسيطرة في مسيرة العلاقات بين الجانبين حتى سقوط الامبراطورية البيزنطية النهائي في أيدي الاتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م/٨٥٧هـ.

فموقف الامبراطور الكسيوس من الحملة الصليبية الأولى قد حدد نوعية العلاقات التي سادت بين الغرب اللاتيني والشرق البيزنطي وكشف عن حقيقتها، وتوترها ، وأدى بالأمور إلى أن تتطور وتتفاقم حتى قيام الصليبيين أو اللاتين الغربيين بتحويل مسار الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م/ ٦٠٠هـ ناحية القسطنطينية ، واسقاط الامبراطورية البيزنطية.

فالبذرة الأولى لاسقاط اللاتين للامبراطورية البيزنطية قد ظهرت خلال هذه الحملة وموقف الامبراطور البيزنطي منها ، على أن هناك عاملين هامين لعبا دوراً بارزاً في تأصيل العداء بين الجانبين هما : ذلك الانشقاق الديني الذي ظهر بين شطري أوروبا ، والذي يسمى احياناً بالانشقاق العظيم ، والصراع النورماني البيزنطي ، وتخطيطات النورمان الدائبة

لتقويض الامبراطورية البيزنطية.

لقد كان لموقف الامبراطور الكسيوس كومنين من الحملة الصليبية الاولى اثار بعيدة المدى تمثلت في ازدياد التوتر بين شقي اوروبا والقضاء على المحاولات التي كانت تبذل بين فترة واخرى لاعادة الوحدة بين الشطرين وإنهاء الخلاف المذهبي بين الكنيستين الشرقية والغربية . فالعلاقات العدائية التي تمخضت عن احتكاك اللاتين الغربيين بالروم البيزنطيين خلال الحملة الصليبية الاولى لاتقل في اهميتها وابعادها عن الحرب الشرسة التي شنها الغرب الاوروبي ضد الشرق الاسلامي. اذ نتج عن ذلك الاحتكاك نتائج بعيدة المدى في تاريخ ونوع وتطور العلاقات بين الصليبيين والدولة البيزنطية، او بين شقي العالم النصراني ، وهي نتائج ماتزال ماثلة الى اليوم. وحقيقة انه كان هناك دائماً خلافات واختلافات وعداء متبادل بين الطرفين الا ان موقف الامبراطور الكسيوس كومنين من الحملة الصليبية الاولى هيأ ميداناً واسعاً وجلياً لبروز هذا العداء وتأجيجه.

* * *

قسم الباحث دراسته الى اربعة فصول رئيسيه وناقش فيها عدة مواضيع بادئاً بتمهيد موجز لانقسام الامبراطورية الرومانية القديمة الى شطرين : شطر شرقي وعاصمته بيزنطة ، وشطر غربي وعاصمته روما واوجه التشابه والاختلاف بين الشطرين مع التركيز على تلك الفروق التي نشأ عنها موضوع البحث.

ثم تناول في الفصل الأول اوضاع الامبراطورية البيزنطية قبيل الحروب الصليبية وخاصة الأوضاع السياسية، حيث عاد بها الباحث إلى الفترة التي تلت سقوط الأسرة المقدونية سنة ١٠٥٦م/٤٤٨هـ ودور الاضطراب الذي دخلته الامبراطورية والصراعات على العرش ، ومجيء الامبراطور ميخائيل السادس على رأس الامبراطورية منتخباً من البيروقراطيه المدنية، ثم تنازله بدوره عن العرش سنة ١٠٥٩م/٤٥١هـ ليتولى بعده قسطنطين العاشر، ثم استلام القائد رومانوس ديوجنيس العرش سنة ١٠٦٨م/ ٤٦١هـ تحت اسم رومانوس الرابع، والذي وقع أسيراً في يد السلاجقة سنة ١٠٧١م/٤٦٣هـ في موقعة مانزكرت (ملاذكرد) وتولى ميخائيل

السابع ثم اقصائه سنة ١٠٧٨م/٤٧١هـ ، واستبداله بنقفور بوتانياتس الذي اقعده المرض فنحاه الجيش عن العرش سنة ١٠٨١م/٤٧٤هـ ، وتسلم الامبراطور الكسيوس كومنين مقاليد العرش ليبدأ عصر الاسرة الكومنينية.

ويركز هذا الفصل على قضيتين هامتين هما الخلافات الدينية التي ظهرت بين اللاتين والبيزنطيين ، والصراع البيزنطي مع النورمان ، ويلي ذلك الصراع البيزنطي مع السلاجقة وهو الصراع الذي يقال إنه أدى الي استنجاد الامبراطور البيزنطي بالغرب اللاتيني والبابوية لانجاده بجيش لمحاربة السلاجقة.

ويمثل الصراع مع النورمان والسلاجقة نقطتين هامتين في هذا الفصل لما لهما من تأثير على تطور الأحداث والعلاقة بين شطري العالم النصراني، أو بين البيزنطيين واللاتين.

ويتناول الفصل الثاني أوضاع الغرب الاوروبي قبيل الحروب الصليبية، وطبيعة هذه الاوضاع وسيطرة الكنيسة عليها، وكيف تصدت البابوية للأمور في المجتمع اللاتيني مما دفع بها الى تبني الحروب الصليبية لمعالجة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتفاقم نظام الإقطاع.

ويركز هذا الفصل على انطلاق الدعوة للحروب الصليبية والعوامل الكامنة خلفها، وأهم رجالات الدعوة ووسائلها. كما يتعرض لحقيقة استنجاد الامبراطور البيزنطي بالغرب والكنيسة اللاتينية، وحقيقة رسله وسفرائه إلى الغرب، وما كان يطلبه الامبراطور، وما تقدمت به اوروبا.

ويتناول الفصل الثالث وصول الحملة الصليبية الى العاصمة البيزنطية عبر موجتين: الحملة الشعبية والحملة النظامية، وكيف تعامل الامبراطور البيزنطي مع الموجتين، وكيف تمت صياغة العلاقة معهما حتى أمكن الوصول إلى اتفاقية القسطنطينية.

ويركز هذا الفصل على دراسة الأمراء المشاركين في الحملة الصليبية وحقيقة أطماعهم وكيف كانوا ينظرون إلى الإمبراطور والامبراطورية البيزنطية، وإلى يمين الولاء الذي أصر الامبراطور علي الحصول عليه قبل أن يسمح لهم بعبور أراضيه، حتى أنه اضطر لمقاتلة بعضهم -كما حصل مع الدوق جودفروي- للحصول على هذا اليمين. كما يناقش السياسة التي اتبعها

الامبراطور مع الحملة الصليبية بشقيها الشعبي والنظامي، وكيف خطط لها، وتدرج في تنفيذها حتى يحقق ما كان يعتقد أن سيجعله في منجاة من غدرهم أو انقلابهم عليه أو على مصالح امبراطوريته.

ويتناول الفصل الرابع اوضاع الحملة الصليبية الأولى في آسيا وشمال بلاد الشام، حيث يتم تتبع مسير الحملة الى آسيا الصغرى والاستيلاء على نيقيه، مع التركيز على العلاقات التي سادت قبل وبعد ذلك خاصة وأن الاستيلاء على نيقيه كان أول محك لاختبار مدى التزام الطرفين باتفاقية القسطنطينيه التي تم إبرامها. تم متابعة الصليبيين لسيرهم واستيلائهم على قونيه وبدأ اول خرق للاتفاقية ، يلي ذلك محاصرة انطاكية وتوتر العلاقة بين الطرفين والدخول في صراع جديد ، بل وحملة صليبية جديدة خصصت هذه المرة ضد الامبراطورية البيزنطية.

يلي هذه الفصول الأربعة النتائج التي تم التوصل اليها من خلال هذا البحث . . .

* * *

اعتمد الباحث في اعداد بحثه على عدد كبير من المصادر والمراجع ، يأتي في مقدمتها المصادر المعاصرة للأحداث، خاصة وأن معظم هذه المصادر أصبح متاحاً وبعضه ترجم إلى اللغة العربية.

ويأتي في مقدمة هذه المصادر كتاب آنا كومنين ابنة الامبراطور الكسيوس كومنين «الالكسياد» والذي الفته عن والدها الامبراطور، والاحداث التي مرت بها الامبراطورية في عهده ، وكان أبرزها الحملة الصليبية الأولى وتعامله مع اللاتين والعلاقات التي سادت مع النورمان والسلاجقة.

ويعتبر الالكسياد من أهم المصادر التي تناولت تاريخ هذه الفترة بل هو في الحقيقة حصر تاريخي لفترة أبيها الامبراطور البيزنطي، وقد قسمته الكاتبة الى خمسة عشر كتاباً هي في الواقع خمسة عشر فصلاً بطريقة الكتابة الحديثة، وقد نشر هذا الكتاب باللغة الإنجليزية. وقد أنجز الدكتور حسن حبشي ترجمة عربيه له، واتيحت لي فرصة الاطلاع على النسخة الانجليزية وترجمته العربية لها، كما ان الدكتور سهيل زكار قام بترجمة الفصلين العاشر والحادي

عشر الخاصين بالحملة الصليبية الاولى وتعامل الامبراطور الكسيوس كومنين معها ، ونشرها في كتابه «الحروب الصليبية كما رواها شهود عيان لاتين واغريق وعرب وأرمن وسريان» وقد رجعت الى كلتا الترجمتين، إضافة إلى الكتاب في ترجمته الانجليزية ، واستفدت منها في معظم فصول البحث.

وهناك مصدر لاتيني هو كتاب المؤرخ المجهول والذي كان مرافقاً لحملة بوهيموند، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور حسن حبشي تحت عنوان : «اعمال الفرنجه وحجاج بيت المقدس». وهو من المصادر الاصلية التي لا غنى عنها عند دراسة العلاقات التي سادت بين البيزنطيين واللاتين وكذلك خط سير الحملة الصليبيه الأولى منذ انطلاقها من أوروبا.

واستفدت من هذا المصدر ايضاً في التعرف على حقيقة نوايا بوهيموند وخطته للاستيلاء على أنطاكية والانفراد بحكمها.

واعتمدت على مؤلف فوشيه الشارتري والذي ترجمه مؤخراً الى العربية الدكتور زياد العسلي تحت عنوان : «تاريخ الحملة إلى القدس» ، وفوشيه كان مرافقاً للحملة وهو مؤرخ حملة بلدوين شقيق جودفروي ، وقد رافقه عند استيلائه على الرها واقامته امارة خاصة به هناك ، ثم عاد للانضمام إلى الحملة الرئيسية التي توجهت إلى القدس. وقد تناول جانباً من العلاقات التي سادت بين البيزنطين واللاتين ، وقد استفدت منه في تتبع سير الحملة في آسيا الصغرى وبلاد الشام، والعلاقات التي سادت بين الطرفين، وبين الحملة وسكان هذه المناطق من الأرمن والسريان، وقدم فوشيه صيغة لخطبه البابا اوربان الثاني في مؤتمر كليرمونت الذي يقول انه شارك فيه، كما استفدت منه في التعرف على العلاقات التي سادت بين امراء الحملة.

واعتمدت ايضاً على مؤلف ريموندا جيل، المؤرخ الرسمي لحملة ريموند الصنجيلي كونت تولوز، والذي قام بترجمته مؤخراً إلى العربية الدكتور حسين محمد عطيه عن ترجمة انجليزية، وهو مصدر هام لأنه أوضح توجهات ريموند التي كانت مخالفة في بعض الأحيان لمخططات وتوجهات أمراء الحملة الآخرين، حتى ان الكونت ريموند دخل في نزاعات عسكرية مع زملائه اللاتين، وكان منهم بوهيموند الذي نافسه وقاتله في أكثر من جولة.

واعتمدت كذلك على مؤلف وليم الصوري والذي أصدر الدكتور حسن حبشي الجزء الأول منه باللغة العربية. وهو الجزء الخاص بالحملة الصليبية الأولى. والمعروف أن وليم الصوري كان من نتاج هذه الحملة.فقد ولد في بيت المقدس سنة ١١٣٠م/٥٢٥هـ ثم عمل في خدمة الملك عموري ملك بيت المقدس، وأصبح رئيساً لاساقفة كنيسة صور عام ١١٧٥م/٥٧١هـ واليها انتسب، وجاء مؤلفه شاملاً للحركة الصليبية، ومفصلاً في اوجه الخلاف بين اللاتين والبيزنطيين ، ومعبراً عن أشد وجهات النظر اللاتينية كرهاً للامبراطورية البيزنطية وإمبراطورها.

وفي الجانب الاسلامي اعتمدت على عدد من المصادر الاسلامية التي أرخت لجانب من الصراع بين الامبراطورية البيزنطية والسلاجقة ، واستفدت منها في التعرف على الفتوحات والانتصارات التي حققها السلاجقة على الامبراطورية البيزنطية، وكذلك على الصراع الذي ساد بين الجانبين خلال أحداث الحملة الصليبية الاولى، ومن هذه المصادر كتاب ابن الاثير : الكامل في التاريخ، وكتاب ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، وكتاب ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب، ويحيى بن سعيد الأنطاكي في تاريخه، وأبو المحاسن في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وغير ذلك من المصادر الاسلامية التي تناولت أحداث هذه الفترة.

وفي التعرف على المواقع الجغرافية التي تناولتها احداث البحث في الغرب الاوروبي والشرق الاسلامي اعتمدت على مصدرين هامين هما : رحلة بنيامين التطيلي والذي قام برحلته عام ١١٦٥م/٥٦١هـ في اعقاب الحملة الصليبية الاولى ، وقدم شرحاً لعدد من المواقع والمدن ، وقد قام بترجمته من العبرية الى العربية عزرا حداد.

ومن الجانب الاسلامي اعتمدت على كتاب معجم البلدان لمؤلفه ياقوت الحموي.

أما المراجع الحديثه سواء الانجليزية أو العربية او المعربة فقد اعتمدت على الكثير منها ، واستفدت منها كثيراً ، وتعرضت لكثير من وجهات نظرها وحاولت استدراك ومناقشة أخطاء البعض منها ، إلا أن التركيز في تتبع الأحداث كان في المقام الأول للمصادر.

وأرجو أن أكون قد وفقت في إعداد هذا البحث، وتغطية جوانبه المختلفة، باذلاً كل الشكر لمن أعانني في جمع معلوماته سواء في مكتبه جامعة الملك عبدالعزيز، أو مكتبه جامعة القاهرة، او دار الكتب في القاهرة، أو الجامعة الامريكية في بيروت، او لمن فتح لي مكتبته الخاصة، وسمح لي باستعارة بعض الكتب والمراجع منها، أو مد يد العون في ترجمة بعض النصوص.

والشكر الجزيل مقروناً بالامتنان لاستاذي الدكتور عبدالله عقيل عنقاوي الذي أُشرف على إعداد البحث ، والذي منحني من وقته الشيء الكثير والثمين سواء في مكتبه او بيته لقراءة مسودات البحث ، وفتح أمامي آفاقاً عريضةً للبحث العلمي ، وسدد خطواتي وقوم أخطائي ، أرجو أن أوفق في الاستفادة من توجيهاته السديدة التي منحني إياها طوال فترة ملازمتي له خلال اعداد هذا البحث وهي ملازمة اشرف بها ، و أستاذية افخر بالتعلم منها.

كما أن الشكر الجزيل لجميع أفراد أُسرتي الذين منحوني التفرغ شبه التام ، ووفروا لي الجو الملائم لانجاز هذا البحث.

وآخر دعواتي : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا . . .

التمهيد

تمهيد

انقسام الامبراطورية الرومانية الى شطرين ؛ شرقي وعاصمته بيزنطه وغربي وعاصمته روما

شهدت الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي اضطرابات وفوضى كبيرة، أدت الى حدوث هزات عنيفة في رأس السلطة. وأصبح الامبراطور لعبة في أيدي الجند فهم الذين يولونه ويعزلونه، وطغى سلطانهم على سلطات الحكومة وانتزعوا بحد سيوفهم كل ما يطمحون إليه من جاه ومال وبعد أن كان رجال الجيش أداة يستغلها الامبراطور لخدمة مصالح الامبراطورية أُصبح دور الجيش في هذه الفترة يتزايد وينحرف، فبدلاً من أن يحكم الامبراطور بواسطة الجيش، أصبح الجيش يحكم بواسطة الامبراطور وترافق مع هذا الوضع ظهور أزمات اقتصادية واجتماعية عمت أرجاء الامبراطورية وبالذات جزءها الغربي، وأُصبح الجو السياسي والاقتصادي والاجتماعي في عاصمة الامبراطورية ـ روما ـ محموماً ومنذراً بالاضطراب.

وبدا القرن الثالث في تاريخ الامبراطورية قرن الفوضى والمطامح المضطربة حتى ساد التدهور وتغير شكل الدولة وكادت أن تفقد تماسكها ومقوماتها[(١)].

تبع هذه الحالة من التدهور زيادة عدد الجيش مهما كانت كلفة ذلك ، لمواجهة الاعباء الجديدة التي خلفها كثرة الخارجين والمغيرين على أملاك الدولة والطامعين في العرش، وتوالت غارات القبائل الجرمانية ، ولم يفد توطين بعض قبائلهم داخل الحدود، بل أُسهم ذلك مع مرورالوقت في إضعاف دفاعات الامبراطورية أُكثر من ذي قبل، ومنذ ذلك الوقت بدأت البذرة الاولى لظهور الممالك الجرمانية في أُنحاء الامبراطورية[(٢)].

---

(١) بارو ، ر.هـ : الرومان ، ترجمة عبد الرازق يسري ، سلسلة الالف كتاب قم (٦١٢) ، القاهرة : دار نهضة مصر ، ١٩٦٨م ، ص١٧١.

(٢) G.Ostrogorsky, . History of the Byzantinestate , trans,By Hussey, London: T.J.press,1968,p.27.

ونتج عن الحروب الداخلية ازمات اقتصادية جاءت بدورها نتيجة لخراب الأراضي الزراعية وانعدام الأمن على الطرق، وبالتالي زادت الضرائب الامبراطورية، وهبطت قيمة النقد، وأخذت الصناعة تقتصر على الوفاء بالاحتياجات المحلية مما أودى بحياة المدن في العصر القديم[١].

وبالاضافة إلى مشاكل الامبراطورية الداخلية والغارات الجرمانية تجددت هجمات الفرس على حدودها الشرقية، وبدت الامبراطورية على شفا الهاوية وبحاجة شديدة إلى منقذ يعيدها إلى كيانها ويتصدي للأخطار الداخلية والخارجية المحيطة بها، ووجد هذا المنقذ في شخص الامبراطور دقلديانوس Diocletian الذي أوصله الضباط إلى العرش سنة ٢٨٤م[٢].

كانت المهمة التي واجهت دقلديانوس هي أن يضع حدا للانقلابات العسكرية والمنازعات المتصلة حول السلطة، فجاء بنظام الحكم الرباعي Tetrarchy أو مجلس الاباطرة الاربعة، اثنان منهما علي مرتبة الاوغسطس Augustus أي الامبراطور الكبير على أن يختار كلا منهما قيصرا ينوب عنه في الحكم ويخلفه في حالة وفاته أو تقاعده ، وقد حددت فترة الاوغسطس بعشرين عاما[٣].

وكان من أهم اعمال دقلديانوس إضافة إلى اصلاحاته الأخرى في نظام الحكم ، أن رأى ان روما لم تعد صالحة لتكون عاصمة وحيدة للامبراطورية فاختار الى جانبها ثلاث مدن رئيسية لتصبح كلا منها قاعدة لواحد من حكام الامبراطورية الأربعة[٤].

وبالرغم من هذا التقسيم في السلطة الادارية للامبراطورية، إلا أن الامبراطورية ظلت وحدة قائمة لا تتجزأ ، ولم تضعف إذ كان الانفصال ظاهريا فقط ، فما زالت نفس القوانين

---

(١) الباز العريني : الدولة البيزنطية ، بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٨٢م، ص ٢٢.
(٢) بارو : مرجع سابق ، ص ١٧٦.
(٣) دولي، دونالد. ر: حضارة روما ، ترجمة جميل يواقيم الذهبي وفاروق فريد ، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، بدون تاريخ نشر ص ٣٤٢.
(٤) فيشر ، هربرت : اوربا العصور الوسطي ، ترجمة محمد مصطفي زياده والسيد الباز العريني، الطبعة الخامسة ، القاهرة . دار المعارف ١٩٦٩م ،ص٣.

والانظمة الحكومية ، بل ونفس التقاليد الرومانية معترف بها من كلا الامبراطورين وفي كلتا العاصمتين. على أن دقلديانوس ذهب بعيدا في الابتعاد عن روما فنقل مقر حكمه إلي الشرق، حيث اتخذ نيقوميديا عاصمة له(١)

إلا أن تجربة دقلديانوس لم تحظ بالاستمرارية ولم تلق النجاح من بعده ، إذ أعقب انتهاء مدة حكمه فترة اضطراب وفوضى سادت فيها صراعات الجند والمطالبين بالعرش ، وتمخض عنها وصول قنسطنطين الأول Constantine1 وليسنيوس Licinus إلى عرش الامبراطورية على طريقة دقلديانوس ، ولكن قنسطنطين ما لبث أن قوض تنظيمات دقلديانوس الادارية ودحر كل منافسيه وانفرد بحكم الامبراطورية سنة ٣٢٤م ، إلا أنه رسخ هذه المرة انتقال العاصمة الى الشرق حيث اتخذ بيزنطة عاصمة موحدة لأمبراطوريته(٢) .

أخذت العاصمة الجديدة للامبراطورية تنمو وتزدهر، ويكثر بها عددالسكان ، بينما كانت العاصمة القديمة "روما" تفقد أهميتها ويهجرها كثير من سكانها. وبدأت العاصمة الجديدة تكتسب حضارة أغريقية بعيدا عن المؤثرات الرومانية في روما. وازدادت مع مرور الأيام حدة التباعد والتباين عن روما، وأخذت الفوارق الجوهرية في اللغة والعادات وحتي في المذهب الديني تبرز رغم التوحد السياسي .

---

(١) عاشور ، سعيد عبد الفتاح : اوربا العصور الوسطي ، الطبعة الثانية ، القاهرة . مكتبة الانجلو المصرية. ١٩٦١م، ص٢٠.

(٢) بينز ، نورمان: الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، الطبعة الثانية القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧م، ص٩. وتقع بيزنطة على شبه الجزيرة البارز من اوروبا والذي يلاقي الشاطيء الاسيوي ، وهي مدينة قوية قديمة اسسها ملاحون من ميجارا عام ٦٥٧ ق.م ، ولم تكن شواطيء بحر مرمرة مجهولة لدى المستعمرين الاغريق. وتنبه قنسطنطين الاول الى امكانيات بيزنطه وحصانتها الطبيعية خلال صراعه مع ليسنيوس منافسه على العرش في الحرب الثانية سنة ٣٢٢-٣٢٣م حيث مثلت قاعدة حصينة لهجمات ليسنيوس على قنسطنطين ، ولم تكد الحرب تضع أوزارها بانتصار قنسطنطين حتى أمر المهندسين والمساحين فداروا حول المدينة وارباضها وبدأت عمليات البناء والتي استغرقت خمس سنوات ونصف ودشنت المدينة في ١١ مايو ٣٣٠م ، عاصمة للامبراطورية وسميت روما الجديدة ، وآثر الناس أن يطلقوا عليها اسم القسطنطينية تخليدا لمؤسسها، انظر : رانسيمان: الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، سلسلة الالف كتاب رقم (٣٧٩)، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١م ، ص ٣.

على ان وفاة قنسطنطين الكبير عام ٣٣٧م عجلت بانهيار النظام الذي وضعه إلا انها لم تعد الزمن إلى الوراء، إذ خلفه على الحكم أبناؤه الثلاثة والذين كانوا في تنازع مستمر، بينما كانت الأخطار الخارجية تهدد الدولة تهديدا خطيراً، وأهمها الخطر الفارسي في القطاع الآسيوي، والضغط المتزايد للقبائل الجرمانية على الدانوب والراين ، واستطاع أحد ابنائه الثلاثة وهو قنسطنطيوس توحيد الامبراطورية مرة أخري منذ سنة ٣٥٠م تحت حكمه واستمر يحكم حتي سنة ٣٦٢م[(١)]

وتمكن أحد القاده ويدعي جوليان وهو ابن عم قنسطنطيوس من القضاء علي غزو جرماني فنادي به الجيش امبراطوراً [(٢)]، واستمر حكمه حتي سنة ٣٦٣م وهو المعروف باسم جوليان المرتد -Juline the Apostate- نظرا لتحوله إلى الوثنية ومحاولاته الفاشلة للقضاء علي النصرانية والتي سبق وأن اعترف بها قنسطنطين الكبير ديانة رسمية للدولة[(٣)]

وفي عهد خلفه المسمي جوفيان Jovian (٣٦٣-٣٦٤م) احرز الفرس انتصارات علي حساب بيزنطة ، وأخذ خطر القبائل الجرمانية يتزايد بشكل واضح حتي ان خلفه الامبراطور فالانس Valens (٣٦٤-٣٧٨م) آخر اباطرة اسرة قنسطنطين سمح لهم بعبور الدانوب والاستقرار بصفة مؤقته في جوف الامبراطورية. وعندما توجهت هذه العناصر نحو القسطنطينية خرج فالانس لتأديبهم، لكنه هزم ولقي حتفه في موقعة أدرنة سنة ٣٧٨م ، وكان أثر هذه الهزيمة علي الغرب أكثر منه علي الشرق حيث بدأ الجرمان يكثفون هجماتهم علي الجزء الغربي من الامبراطورية[(٤)]، وبذلك أصبحت هجرات الجرمان منذ ذلك الحين مشكلة خطيرة تهدد كيان

---

(١) عاشور : المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٣

(٢) كان الجنود قد ضاقوا ذرعا بقنسطنطيوس فنادوا بجوليان امبراطورا علي ان قنسطنطيوس مالبث ان توفي قبل تفشي الثورة في البلاد وخلفه عي العرش جوليان دون سفك دماء ، رانسيمان المرجع السابق ،ج١ ، ص ٢٦

(٣) اسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم ، وصلاتهم بالعرب ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتبة البولسية ١٩٨٨م ، ج١ ، ص٨١.

(٤) جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ، الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٨٤م ،ص٦٣.

الامبراطورية ، ولم يكن امام الدولة من وسيلة اخري سوي ان تعرض عليهم النزول في أراضيها والاستقرار بها، وهذه الخطة هي التي اتبعها ثيودسيوس الكبير Theudosius the Great الذي تولى الحكم سنة ٣٧٩م إذ عقد اتفاقا يقضي بأن ينزل القوط الشرقيون في باتوانيا ويستقر القوط الغربيون في الأطراف الشمالية من تراقيا ، واعترف لهم بالاستقلال الذاتي وأعفاهم من الضرائب ورتب لهم عطاء أ مجزياً مقابل الخدمة العسكرية(١).

على أن ثيودسيوس الكبير كما استطاع أن يعيد وحدة الامبراطورية لآخر مرة حين انفرد بالحكم ، استطاع أن يقسمها إلى شطرين متنافرين منفصلين لأول مرة فقد قام في آخر سنوات حكمه سنة ٣٩٥م بتقسيم الامبراطورية إلى قسمين منفصلين الواحد عن الآخر.

- القسم الغربي وأعطاه إلي ابنه هونوريوس Honorius

- القسم الشرقي واعطاه الي ابنه اركاديوس Arcadius

وبوفاته استقل ابنائه بحكم الشطرين ، اللذين لم يعودا للاتحاد مرة أخرى ، وساعدت ظروف الفترة الزمنية علي هذا الانقسام إلى شرق وغرب ، ولم يصبح بين القسمين من الامبراطورية أي صلة وسارت الحوادث في الغرب والشرق في طريقين مختلفين ، ولم يكن بين الحكومتين في الشرق والغرب من عوامل الود مايجمع بينهما .

على انه توافر من الأسباب والعوامل ما أكد هذا الانفصال وذلك التنافر الذي أخذ ينمو بين الشطرين وبين الشعبين، فحضارة كل قسم مختلفة تمام الاختلاف عن الاخرى فالقسم الغربي كان متأثراً بالحضارة الرومانية والشرقي كان متاثرا بالحضارة اليونانية الهلينستية، وكذلك فإن هنالك اختلافاً شديداً في اللغة التي يتكلمها القسمان، فالشرق يتكلم باليونانية، والغرب باللاتينية(٢).

---

(١) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في اوربا ، الطبعة الاولي ، الموسوعة التاريخية الحديثة رقم(١)، بيروت : دار الفكر الحديث ١٣٨٦هـ /١٩٦٧م ،ج١ ، ص٧٠.

(٢) Ostrogorsky, op.cit, p52.

كما ان الظروف السياسية التي تعرض لها كلا الشطرين أدت إلي بلورة هذا الانقسام وترسيخه، فالقبائل الجرمانية منذ أواخر القرن الرابع أخذت تكثف غاراتها علي القسم الغربي من الامبراطورية في الوقت الذي نجت الدولة الشرقية من خطر المغيرين واستطاعت ان تتعامل مع هجماتهم وتتجاوزها، مما أوقع الغرب فريسة سهلة في أيدي الجرمان[(١)].

ومن الأسباب الأخري التي أدت إلى ترسيخ الانقسام بين الشطرين الاختلاف في المذهب بينهما، وتنامي الخلافات الدينية بين رجال الكنيستين الشرقية والغربية والتي وصلت إلي اتهام كلا منهما للآخر بالهرطقة[(٢)].

ورغم المحاولات العديدة التي بذلت لتجاوز هذا الخلاف، الا انه كان من الصعوبة تجاوزه، بل إن هذا الخلاف الديني بالذات سيكون سببا لقيام العديد من المشاكل بين الشطرين، ومنها الموقف البيزنطي من الحملة الصليبية الأولي خلال عبورها لأراضي الامبراطورية البيزنطية متجهة إلى الشرق ، وما نتج عنه من مواقف وتطورات .

على أي حال ففي الوقت الذي استطاع الشرق أن ينجو من غزوات المتبربرين وقع الغرب فريسة لهم، وتمكنوا من إسقاط الامبراطورية الرومانية ، حيث استطاعوا اسقاطها سنة ٤٧٦م وخلعوا آخر اباطرة الغرب روميلوس اغسطولوس Romulus Augustulus . وتأسست ممالك جرمانية في الشطر الغربي من الامبراطورية الرومانية.

استفادت البابوية من الاوضاع الجديدة في الغرب وبدأ سلطانها يعلو وسيطرتها تزداد، وأخذ البابوات يحلون محل الأباطرة في نشر نفوذهم على الشعوب الغربية، وبدأت روما تستعيد أمجادها وسلطانها على أيدي هؤلاء البابوات، وظهر منهم من أخذ يطالب بالسلطة

---

(١) عفاف سيد صبره : الامبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، القاهرة : دار النهضة العربية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢، ص٦٩.

(٢) برزت الخلافات المذهبية بين الشعبين منذ اول مجمع ديني عقده الامبراطور قنسطنطين الاول في نيقية سنة ٣٢٥م بعد ظهور دعوة الاريوسية والخلاف حولها، وهدفت المجامع الدينية التي عقدت بعد ذلك الي محاولة تضييق شقة الخلاف الديني بين الشطرين، ولكن نتائجها وما صدر عنها جعلتها محاولة فاشلة اذ مالبثت شقة الخلاف العقائدي بين الشطرين ان اتسعت .

والسيادة على العالم النصراني، على أن هؤلاء البابوات وان أستطاعوا ان يظفروا بالسلطة والزعامة الدينية، فلم تتحقق لهم الزعامة السياسية وسط التيارات المتلاحقة من الجماعات المتبربرة مما حدا بهم ان يعلنوا احد ملوك الجرمان وهو شارلمان امبراطورا على الغرب سنة ٨٠٠م/١٨٤هـ، وكان ذلك بمثابة تأكيد على أنه لاسبيل لعودة الاتحاد والالتئام مع الشرق.

وكان الخلاف الديني مع الشرق وظهور ماعرف بأزمة اللا ايقونية(١)، في بيزنطة ومعارضة روما لذلك، إضافة الى أسباب أخري هي التي دفعت إلي اعلان شارلمان امبراطورا في روما.

اخذت حدة الخلاف تزداد بين الشطرين وكان الصراع بينهما يتجدد بين الحين والآخر فبينما كانت بيزنطة تحاول المحافظة علي ماتبقي من أملاكها في جنوب إيطاليا، كانت هنالك اطماع من الجانب الآخر قادها النورمان الذي تركزوا في أجزاء من إيطاليا لانتزاعها منهم، وشجعت البابوية هذه الأطماع ودعمتها مدفوعة بعدائها الدفين لبيزنطة، ورغبتها في مد نفوذها على كنائسها وعلي تحقيق مزيد من السيطرة والنفوذ، وتجاوبت هذه الأطماع مع الطموحات والمطامع الشخصية لكثير من الفرسان والأمراء فكانت الدعوة إلي الحرب الصليبية الأولي .

ولعل الحرب الصليبية الاولي هي أُول مرة يحتك فيها اللاتين بالاغريق في كثرة ضافية العدد، واتضح من خلال ذلك الاحتكاك مقدار العداء والتنافر والتمايز في المستوي الحضاري بين شطري الامبراطورية اللذين انفصلا عام ٣٩٥م. بعد ان كانا دولة واحدة هي الامبراطورية الرومانية.

---

(١) الحركة الا ايقونية او مناهضة عبادة الصور Icnoclasm ظهرت في عهد ليو الثالث الايسوري (٧١٧-٧٤٠م/٩٩-١٢٣هـ) والذي اصدر مرسوما سنة ٧٢٦ م/١٠٨هـ ينص علي منع عبادة الصور والتماثيل ، واتبع قراره بتدمير جميع الايقونات والصور ، وان كانت الحركة قد بدأت دينيا الا انها اكتسبت بعدا سياسيا لمواجهة الكنسية ونفوذها والتي كان ا متلاكها لهذه الصور يزيد من قوتها النامية ، وتبع لبو الثالث خلفاؤه في حربه علي عبادة الايقونات، وقابلت الحركة نجاحا شديدا في آسيا الصغرى الا انها وجدت مقاومة عنيفة في اراضي الامبراطورية الاوروبية، كما اضطربت العاصمة البيزنطية بين مؤيد ومعارض وادت الحركة الي شقاق جديد مع البابوية ادي الي مزيد من التباعد والتباغض بين الشطرين .وعندما تولت الامبراطورة ايرين حاولت التصالح مع روما بالقضاء على حركة مناهضة عبادة الصور ودعت سنة ٧٨٧م/١٧١هـ الي مجمع ديني لالغاء قرارات الحركة السابقة ، ولكن ذلك لم يجد في تحسين علاقة بيزنطة بروما .ويري بعض المؤرخين ان هناك تأثيرات اسلامية دفعت الامبراطور ليو الايسوري الي اعلان حركتة ضد الايقونات، لمزيد من التفاصبل عن الحركة الا ايقونية انظر : رانسيمان، الحضارة البيزنطية، مرجع سابق ص٤٣. وايضا : الباز العريني. الدولةالبيزنطية.مرجع سابق، ص١٧٩.

الفصل الاول

أوضاع الامبراطورية البيزنطية قبيل الحروب الصليبية

* الاوضاع السياسية في الامبراطورية البيزنطية (١٠٦٥-١٠٨١م/٤٥٨-٤٧٤هـ).
* الخلافات الدينية مع الغرب والانشقاق الديني سنة (١٠٥٤م/٤٤٦هـ).
* الغزو النورماني للممتلكات البيزنطية في جنوب ايطاليا (١٠٨١-١٠٨٥م/٤٧٤-٤٧٨هـ).
* الصراع بين بيزنطة والسلاجقة.

الاوضاع السياسية في الامبراطورية البيزنطية
(١٠٦٥-١٠٨١م/٤٥٨-٤٧٤هـ)

شهد عام (١٠٦٥م/٤٥٨هـ) نهاية حكم الاسرة المقدونية وهي من أشهر الأسر التي حكمت الامبراطورية البيزنطية وامتد حكمها من سنة ٨٦٧م/٢٥٣هـ الى سنة ١٠٦٥م/٤٥٨هـ وعرفت فترة حكمها بأنها العصر الذهبي الثاني للامبراطورية البيزنطية ولم يأت انهيار هذه الاسرة بوفاة آخر اباطرتها؛ الامبراطورة ثيودورا (١٠٥٥-١٠٥٦م/٤٤٧-٤٥٨هـ) بل لقد بدأ انهيارها منذ فترة مبكرة وبالتحديد بوفاة الامبراطور باسيل الثاني سنة (١٠٢٥م/٤١٦هـ).

فوفاة الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الامبراطورية السياسي والاقتصادي والعسكري، نظرا لما أعقب هذه الوفاة من انحطاط في اجهزة الدولة في الداخل ومن تدهور في أحوالها ومكانتها في الخارج[١].

فباسيل الثاني والذي عرف بـ " جزار البلغار" نظرا للهزائم التي ألحقها بهم بعد الأخطار التي كانوا يمثلونها للامبراطورية[٢]، لم يترك ابنا يرثه فانفرد شقيقة قسطنطين الثامن بعرش الامبراطورية (١٠٢٥-١٠٢٨/٤١٦-٤١٩هـ) الا أن قسطنطين هذا كان رجلا مسنا ويفتقر الاحساس بالمسئولية، ولذا فقد ترك شؤن الحكم بيد رجال البلاط وصرف معظم وقته في حضور الولائم وحفلات السباق وأحاط نفسه بالغانيات والمغنيات، في حين كانت الأخطار تحيط بالامبراطورية، حيث كانت قبائل البجناك[٣] تجتاز الدانوب وتلحق أفدح الأضرار بالامبراطورية البيزنطية[٤].

---

(١) Ostrrogorsky, op.cit,p.283.

(٢) الباز العريني : الدولة البيزنطية ، مرجع سابق ، ص٦٥٣.

(٣) البجناك، ويسمون احيانا البشناق، Pechennegs، او كما يسميهم البيزنطيون الباتزنياك Paizinoks قبائل بدوية من اصل تركي تقطن في الاصل السهول الجنوبية لروسيا ، وفي القرن التاسع تركوا موطنهم الاصلي واستقروا في الاقليم الواقع بين الدانوب الاسفل والدنيبر وكونوا فيما بعد احدي فرق الجيش البيزنطي التي استعان بها الامبراطور الكسيوس كومنين ولكنه مالبث ان تضي عليهم فيما بعد قضاء مبرما سنة ١٠٩١م/٤٨٤هـ، بعد ان ازدادت هجماتهم وثوراتهم علي الامبراطورية. ومنطقة تواجدهم هذه هي اليوم عبارة عن رومانيا والجزء الجنوبي القريب من روسيا ، لمزيد من التفصيل عن تنقلاتهم انظر : Setton,K.M.(ed),History of the Crusades,Philadelphia,1958-62, vol,1, p.p 181-182.

(٤) Camb. med Hist ,edby Hussy : The Byzantine Empire,part1: Byzantine and Neighbours,vol,IV, p.193.

واحدث قنسطنطين الثامن عدة تغيرات جذرية في نظام الحكم الذي ورثه عن أخيه عادت وبالا علي الدولة ، فقد طرد معظم الموظفين الذين استخدمهم باسيل الثاني واستبدلهم بموظفين جدد اختارهم من بين رفاقه في اللهو والمتعة ، وقام هؤلاء بدورهم بصب غضبهم وسخطهم على زعماء الأسر الارستقراطية وقادة الجيش، لتخوفهم من أطماعهم ونفوذهم ، فحرصوا علي إبعادهم من مناصب الحكومة(١)

كما أن تحولا عن سياسة باسيل الثاني العسكرية قد تم ، فلم يكتف الزعماء الجدد بتحجيم دور العسكر وتقليص عددهم وبالتالي توقفت الغزوات التي كان يقوم بها باسيل الثاني ضد المغيرين علي أملاك الامبراطورية، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فبدلاً من التصدي للأخطار لجأت السلطة المركزية إلى دفع اتاوة للمغيرين لتأمن شرهم ولا تلتحم معهم في قتال(٢).

كما تشدد الامبراطور قسطنطين الثامن في جمع الضرائب وأوقف التسهيلات التي كان باسيل الثاني قد أمر بها جباة الضرائب بالايتشددوا في تحصيل الضرائب السنوية في وقت معين، بل قرر إمهالهم إلا أن قسطنطين لم يكتف بالمبادرة إلى تحصيل الضرائب المتأخرة، بل اشتد طوال سنوات حكمه في تحصيل الضريبة كاملة، وتحتم علي جميع سكان الامبراطورية الأغنياء والفقراء، برغم سوء الأحوال الطبيعية وبرغم الجفاف الذي ضرب أنحاء متعددة من أراضي الامبراطورية، أن يؤدوا في السنوات الثلاث التي حكمها قسطنطين ما ينبغي أن يؤدوه عن خمس سنوات، وبرغم ذلك فان قسطنطين صرف ماحصله على مباذله ولهوه. (٣)

وتجمعت نذر الثورة علي قسطنطين الثامن فاضافة إلى سياسته الاقتصادية وإبعاده العسكريين من البلاط ، مما أدى إلى حقدهم عليه، تفاقمت الأخطار الخارجية فتحرك البلغار مرة ثانية، واندلعت الثورات في ارمينيا والكرج وتعرضت جزر بحر الأرخبيل لهجمات أسطول

---

(١) الباز العريني : مرجع سابق ، ص ٧١٧.

(٢) Camb ,Med ,Hist,Vol IV,p 319.

(٣) Ibid.

إسلامي ضخم خرج من موانيء تونس ، كما فقدت الامبراطورية عددا من المواقع التي كان باسيل الثاني قد استولي عليها في إيطاليا(١).

ولم يؤخر قيام الثورة الى علي قسطنطين الثامن سوى تعلق الرأي العام البيزنطي بالاسرة المقدونية لما لها من حقوق شرعية اكتسبتها بدورها الفذ ، وبالذات في شطرها الأول، في الحفاظ علي الامبراطورية وحماية وتوسيع ممتلكاتها الى مدى لم تصله منذ حملات هرقل ضد الفرس في القرن السابع(٢).

واجهت الامبراطور قسطنطين الثامن نفس المشكلة التي واجهت باسيل الثاني فهو رغم تقدمه في العمر لم ينجب ابنا يرثه على العرش، وكان له ثلاث بنات الكبرى ايدوكسيا التي شوه الجدري وجهها واضحت راهبة في أحد الأديرة، والاميرتان الأخريات هما زوي ، وثيودورا، ورغم تقدمهما في السن فإن الامبراطور نظرا لانشغاله باللهو والعبث والفجور لم يفكر أن يلتمس لإحداهما زوجا صالحا يعينها علي أمور العرش الا قبيل وفاته(٣).

تزوجت زوي سنة ١٠٢٨/٤١٩هـ وهي في الخمسين من عمرها البطريق رومانوس ارخيوس الذي كان يلي وظيفة والي المدينة (ايبرخس القسطنطينية)Eparchos والذي يعتبر خليفة الملك في النظر في أمور المدينة ، وخير ممثل للارستقراطية المدنية بالعاصمة(٤).

وبعد زواجها بثلاثة ايام توفى والدها قسطنطين الثامن، وارتقي زوجها العرش باسم رومانوس الثالث(٥).

---

(١) الباز العريني : مرجع سابق ، ص٢٢٠
(٢) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة رقم (١٤٩) الكويت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٨٤.
(٣) Ostororirsky, op.cit.p284.
(٤) يحي بن سعيد الانطاكي:التاريخ،(نشر في باريس سنة١٩٢٤م وبذيله ترجمة بالفرنسية قام بتحريره جي. كراتشكوفسكي و أ. فاسيليف ضمن مجموعة الـ (Patrolgia Orientaiis)، ص ٢٥١ .
(٥) لم يكن ثمة ما يمنع نساء الاسرة المقدونية اعتلاء العرش، الا انه تكون الفائدة ان يتم اختيار زوج لها ليعينها علي تحمل مسئوليات العرش.

وبدأ رومانوس عهده بأن قضى على آخر معالم سياسة باسيل الثاني الاقتصادية حين الغي الضريبة التي كانت مفروضة علي الملاك الأقوياء والأغنياء وهي الضريبة المعروفة باسم Allelengy ، ومعناها الضمان المتبادل ، وهدف من ذلك توفير الرخاء للأقوياء واسترضاء كبار رجال الدين وكبار الملاك والواقع ان الغاء رومانوس الثالث لهذه الضريبة جاء استجابة لطلب من سلفه قسطنطين الثامن الذي طلب قبل وفاته أن تلغى هذه الضريبة.

ومالبثت العلاقة أن ساءت بين زوي ورومانوس الثالث نتيجة لإهماله لها وتقتيره عليها، فأحبت شابا وسيما ودفعت الي زوجها من يقتله بدس السم له، فتداعت صحته، ثم تلى ذلك اغتياله في ١٢ ابريل ١٠٣٤م/٤٢٦هـ . وفي الليلة التالية تمت المناداة بعشيقها ميخائيل الذي جاء من بافلاجونيا Paphlagonia امبراطورا، تحت اسم ميخائيل الرابع(١) Michael IV. وما لبثت العلاقة أن ساءت بين ميخائيل الرابع وزوي نظرا لشكوكه فيها وخوفه من أن تكرر معه مافعلته مع زوجها السابق، فأخذ يقيد حريتها فلايأذن لأحد بمقابلتها مالم يحصل علي إذن من قائد الحرس وبالتالي فقدت زوي دورها، وتفاقم الخلاف بين زوي وبين الامبراطور حتي أنه قام في ١٢ ابريل١٠٤٢م/٤٣٤هـ بطردها نهائيا من القصر ، وبعد محاكمة صورية تقرر أن ينفيها إلى دير Prinkipo بعد أن تم حلق شعرها(٢). إلا أن الجماهير مالبثت أن ثارت وهي تستمع إلي قرار نفي الامبراطورة المقدونية ، وكان للثورة دويها في العاصمة الامبراطورية حيث هاجمت الجماهير الامبراطور وخاله قسطنطين الذي كان يدبر له ويخطط ، ولم يجدا مفراً سوى اللجوء الي مذبح الكنسية. وأثناء نفي زوي نهضت شقيقتها ثيودورا للمطالبة بالعرش المقدوني، وانضمت إليها الجماهير، وقاد حاكم المدينة الجماهير وكان يحمل أمرا من ثيودورا بالقاء القبض

---

(١) Camb .Med .Hist. op.cit, Vol. IV. p 101. وايضا : Ostrogorsky ,op..cit,p286.
وكان قبل توليه الامبراطورية يمتهن الصرافة ، وجرى فيما بعد اتهامه بتزييف النقود .

(٢) Camb , med, Hist, Vol. IV,p.106.

على الامبراطور وخاله ولكنهما رفضا مغادرة الكنيسة، فاقتحمت الجماهير الكنيسة وصاروا يطاردونهما خارجها، وصدرت أوامر ثيودورا بسمل عينيهما، وانتهت الثورة في ٢١ ابريل سنة ١٠٤٢م/٤٣٤هـ(١).

خلا العرش لزوي وثيودورا اللتين حاولتا اقتسام السلطة ولكن الخلافات وتقدم السن بهما وتنافرهما جعل هذه الحكومة ذات الرأسين لاتصمد طويلاً ، ورأى رجال السناتو حاجة الامبراطورية إلى رجل يسهر على أمور البلاد وماليتها ويقوم بأمور الجيش الذي يستطيع رد الطامعين في الامبراطورية ، فتقرر تدبير خطط لزواج الامبراطورتين أو إحداهما ، ولأن ثيودورا كانت نافرة من الزواج وزوي راغبة فيه رغم عمرها الذي تجاوز الرابعة والستين ، فإنه وقع اختيارها على السناتور قسطنطين مونا ماكوس Monomachus الذي تزوجته وأعلن امبراطوراً يوم ١٠ يونيه ١٠٤٢م/٤٣٤هـ(٢). ولكن موناماكوس انصرف إلى ملذاته وأهمل شؤون الحكم في حين تفاقمت الأخطار على الإمبراطورية في عهده ، فمن جهة ازداد خطر البجناك ، حتى اضطر الامبراطور إلى السماح لفئة منهم بالاستقرار على طول نهر الدانوب ليقوموا بحماية الامبراطورية ، ومن جهة ثانية ظهر الخطر النورماني على أملاك الامبراطورية البيزنطية في جنوب إيطاليا، وبلغ الخلاف الكنسي والسياسي بين روما والقسطنطينية ذروته بالقطيعة بين الكنيستين عام ١٠٥٤م/٤٤٦هـ(٣).

وكانت ثورتان عسكريتان على الامبراطور قسطنطين مونوماكس قد اندلعتا في القسطنطينية،كان الباعث لهما ما يكنه الجيش من كراهية لرجال الادارة المدنية الذين سيطروا على العاصمة منذ موت باسيل الثاني، وناهضوا رجال الجيش. قاد الثورة الأولى جورج مانياكس Georg Maniacex سنة ١٠٤٣م/٤٣٥هـ، ولكنه قتل عند اوسترافو Ostravo

(١) Camb, Med , Hist, Iv , Op.Cit. P. 108.

(٢) Ostrogorowsky , Op.Cit. P. 286.

(٣) عادل زيتون : العلاقات السياسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ط١، دار دمشق ١٩٨٠م، ص٤٦.

في مقدونيا العليا نتيجة لاصابته بسهم طائش[(١)]. وقاد الثورة الثانية ليوتورنيكيوس Thor nikos سنة ١٠٤٧م/٤٣٩هـ واستطاع هذا القائد أن يحرز عدة انتصارات ويتقدم حتى محاصرة القسطنطينية، الا أن الامبراطور نشط في الدفاع عن عاصمته، متخذاً كل السبل واهمها رشوة عساكر تورنيكيوس الذين تفرقوا عنه، فسهل على الامبراطور أُسره، وسملت عيناه وقضى نحبه بعد فترة قصيرة[(٢)]. وكان من أهم اسباب فشل هاتين الثورتين التفاف الرأي العام في القسطنطينية حول بقايا الأسرة المقدونية ، وسيطرة الارستقراطية المدنية الحاكمة في العاصمة .

انفردت ثيودورا بالعرش ولم يتح لزوي ان تتزوج للمرة الرابعة لانها توفيت عام ١٠٥٤م/٤٤٦هـ، في حين توفى زوجها بعد ذلك بعام واحد في عام ١٠٥٥م/٤٤٧هـ. ولكنها لم تعمر طويلاً فقد بقيت في الحكم ثمانية عشر شهراً فقط اذ توفيت في سبتمبر ١٠٥٦/٤٤٨هـ[(٣)]، وبوفاتها انقرضت الاسرة المقدونية.

كانت السمة المميزة للحكام البيزنطيين في هذه الفترة التي تلت وفاة باسيل الثاني سنة ١٠٢٥م/٤١٦هـ هي أنهم افتقدوا المقدرة والكفاية التي تمتع بها اباطرة البيت الهرقلي أو الاسرة الايزورية أُو بعض المقدونيين مثل باسيل الاول وسميه الثاني ولولا الولاء الشعبي الذي تمتعت به الاسرة المقدونية نتيجة لدورها وخاصه في الشطر الاول من فترة حكمها، لما استطاعت الاستمرار في الحكم طوال الشطر الثاني، لأنه لم يتجاوب مع هذا الولاء قيادات مقتدرة[(٤)].

ظلت ثيودورا ، على الرغم من بلوغها السبعين من عمرها تؤمن بنبوءة تشير إلى انها سوف تحكم سنوات عديدة، ومع ذلك لم تلبث أن توفيت بعد بضعة أشهر من حكمها فبادر حزب البلاط بترشيح موظف طاعن في السن من موظفي الادارة المدنية اسمه ميخائيل سترا

---

(١) Ostrogorowsky , Op.Cit. P. 294.

(٢) Camb, Med , Hist,vol, IV , P. 114.

(٣)وليم لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩م ، ج٢ ، ص٦٨٣.

(٤) ج. م. هسي : العالم البيزنطي، ترجمة د. رأفت عبدالحميد، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م، ص١٦٤.

تيكوس Micheal Stratioticus ليخلفها على العرش تحت اسم ميخائيل السادس[١].

علي ان ميخائيل هذا لم يستمر في الحكم سوي سنة واحدة ، حيث أنه انحاز إلى حزب الارستقراطية المدنية الذى جاء منه فاغدق عليهم الهبات والمنح والامتيازات مما زاد في تضاؤل شأن العسكريين ، الذين تراكمت عليهم حوافز الثورة بعد تزايد الاهمال طوال الفترات السابقة،فزحفوا إلى القسطنطينية واصروا علي أن يتولي العرش قائد الجيش، فانسحب ميخائيل دون أن ينشب قتال، وصار القائد اسحاق كومنين[٢] إمبراطورا في أول سبتمبر ١٠٥٧م/٤٤٩هـ ، وبذلك فازت الارستقراطية العسكرية في الجولة الاولي ، بعد ان تجاوبت معها الجماهير الثائرة في القسطنطينية ، وساندتها الكنيسة ممثلة في البطريرك كريولاريوس الذي انحاز الي الجماهير وقادة الجيش[٣].

أكد الامبراطور الجديد ان هناك عهداً جديدا ، ومجموعة حاكمة جديدة ، ففي أول لقاء بين الامبراطور الجديد ومجلس السناتو ، أظهر أعضاء السناتو الخضوع التام، ووجه إليهم الامبراطور حديثا قصيراً استشعروا منه العزم وقوة الارادة وأحسوا بهيبته واشتد بهم الجزع والخوف منه .

لقد كانت الفترة التي تلت حكم باسيل الثاني فترة اضطراب ، وضعف في هيئة الحكم، حيث تولي الحكم عدد من النساء وكبار السن وبعضهم كان مريضا بالصرع والآخر تسيطر عليه شهوة الحكم وملذاته، وظن الرأي العام في القسطنطينية أن وصول اسحاق كومنين كممثل اللارستقراطية العسكرية إلى الحكم سيكون فيه الخلاص من الاضطراب الذي ساد الدولة، واظهر الامبراطور حماسا شديدا منذ اعتلائه العرش لانتشال الامبراطورية من كبوتها،

---

(١) ستيفن رانيسمان :تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني ، الطبعة الاولي ، بيروت دار الثقافة ، ١٩٦٧م ،ج١،ص٨٦.

(٢) تنتمي اسرة كومنين الي الجزء الشرقي من الامبراطورية حيث جاءت اصلا من كومن Comne بالقرب من ادرنه ، وملكت ضياعا شاسعة من منطقة قسطموني Castamos بآسيا الصغري ، وكان والد اسحاق ، مانويل ايروتيكوسEroticus من اشهر الولاة في زمن باسيل الثاني، تزوج من ابنة ملك بلغاريا وانجب منها ولدين وابنه، وولي اسحاق واخوه وظيفتين من اعلي الوظائف:د. الباز العريني : الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص٧٧١.

(٣) الباز العريني : مرجع سابق ، ص ٧٧٦.

وانبري للقيام باصلاحات في مختلف المجالات ولكن محاولاته باءت بالفشل.

واجه الامبراطور اسحق كومنين ظروفا قاسية، فالخزينة كانت خاوية والجيش يعيش في فوضي، وأعداء الامبراطورية في الخارج يتزايدون، وبرغم الجدية والدأب الذي أبداه إسحق كومنين لادارة دفة الحكم الا أن المصاعب كانت له بالمرصاد، لقد حاول أن يقيم حكما عسكريا يقابل ماجري قبل عهده من قيام حكومة مدنية. كانت أول فقرات برنامجه إعادة تنظيم الجيش الذى كان يحتاج إلى المال، مما دعاه إلى التزام سياسة التقشف والاهتمام بجباية الضرائب، والغاء منح الاراضي التي جعلها الاباطرة السابقون لافراد معينين وصادر ممتلكات الاديرة[(١)]. وكان لابد من أن يظهر مؤيدون ومعارضون لسياسته ، وكانت الارستقراطية المدنية ورجال الكنيسة هم أكبر المعارضين لاصلاحاته.

كان اهم المعارضين الذين اصطدم بهم الامبراطور إسحق كومنين البطريرك كريولاريوس[(٢)] و الذي لعب دورا مهما في وصول اسحق الى العرش، الا أنه مالبث أن انقلب عليه بعد أن مسته نار اصلاحات إسحق كومنين. ورغم أن الامبراطور حاول أن يكسب البطريرك إلى جانبه وان يكافئه على دوره في الوصول الي السلطة، حيث جعل له حق تعيين هيئة إدارة

(١) Ostrogorowaki , Op. Cit. , P. 299.

(٢) البطريرك ميخائيل "الاول " كريولاريوس (١٠٤٣ ـ ١٠٥٨م/٤٣٥-٤٥٠هـ) بطريرك الكنيسة الارثوذكسية في القسطنطنية كان احد اهم واشهر الشخصيات الدينية في كنسية القسطنطينة والذي لعب دورا خطيرا في الانقسام الديني الذي حصل مع الغرب سنة ١٠٥٤م/٤٤٦هـ واحد محركي الاحداث في القرن الحادي عشر في عام ١٠٤٠م/٤٣٢هـ كان كريولاريوس طرفا في المؤامرة للاطاحة بالامبراطور ميخائيل الرابع عن العرش غير ان المؤامرة فشلت ، ،وعندها قرر الامبراطور معاقبة كريولاريوس باجباره علي دخول سلك الرهبنة ولكن كريولاريوس وقف في وجه الامبراطور رافضا الاذعان، وعندما انتحر شقيقه طرأ على حياته تغير كبير ، اذ قصد الي احد الاديرة وانخرط في سلك الرهبنة وفي عام ١٠٤٣م/ ٤٣٥هـ استولي قسطنطين التاسع مونا ماخوس علي الحكم ولما كان صديقا لكريولاريوس فقد اختارهلكرسيالبطريركيه خلفا للبطريرك المتوفيالكسيوس .واشتهر بصلابته وطموحه وحرصه علي ان يكون له نصيب كبير في ادارة الكنسية والحكومة ايضا ، ينحدر من اسرة شريفة مثلت مرارا في مجلس الشيوخ ، امتد نفوذه الى الكنائس الاخرى الشرقية غير الارثوذكسية مثل الكنسية الارمنية ، انظر :د. اسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمي، منشورات المكتبة البولسية، بيروت ط ١٩٨٨م،ج٢، ص٢٣١. وكذلك :
Steven Runciman,The Eastern Schism, Oxford : The clarendon press, 1956, P.29.

كنيسة القديسة صوفيا بعد أن كان هذا الحق من امتيازات الامبراطور.وهي قضية هامة، ومكسب كبير للبطريركيه، كما أن الامبراطور تعهد بعدم التدخل في شؤون الكنسية، فلم يعد لنوابه الإشراف علي أملاكها، ومواردها وصار كل ذلك في يد البطريرك[١]. ولكن البطريرك بطموحه الكبير الذي كان يحركه وأهدافه في السيطرة على السلطة الدينية والسياسية كان يريد أكثر من ذلك ، وبدأ يتدخل في شؤون الدولة ، وانتهي به المطاف الي التطاول علي الامبراطور فبعث إليه قائلا :"لقد رفعتك إلى كرسي العرش. أيها الغر ، وسوف أهوي بك منه."[٢] وبدأ البطريرك يلعب بورقة خطيرة استند عليها في دعاويه هي منحه قنسطنطين[٣] التي أضحت لاول مرة عاملا حاسما في تطور الأمور في بيزنطة ـ والتي سنجد فيما بعد أن الغرب يعتمد عليها في تقرير بعض امتيازاته الدينية - ولم يجد الامبراطور اسحق كومنين مفرا من الاصطدام مع البطريرك كريولاريوس فاصدر قرارا بالقاء القبض عليه[٤]. ولكن لم يكن من السهل تنفيذ هذا القرار اعتمادا على تأييد الحزب المدني للبطريرك وتأييد الرأي العام له ، ولذلك لم يجرؤ أحد على أن يشهر عليه السلاح في القسطنطينية، واستغل الجند فرصة خروج البطريرك في زيارة لأحد الأديرة باطراف المدينة فالقوا القبض عليه ، وطلب منه التنازل عن

---

(١) Camb. Med. Hist. , Vol.IV, P323.

(٢) الباز العريني : مرجع سابق ، ص ٨٢٦.

(٣) منحة قسطنطين ، اوهبته ورقة لعبتها الكنيسة في الشرق والغرب لتأكيد نفوذها وسلطتها على السلطة السياسية، وكانت الكنيسة تلجأ اليها اذا احتدم الخلاف مع سلطة الامبراطور، ويعود اصل هذه المنحة الى ما ذكر ان قنسطنطين الاول الكبير (٣٠٥-٣٣٧) مؤسس العاصمة البيزطنية - بيزنطة او القسطنطينية - والذي نقل مركز الدولة من الغرب الى الشرق، كان قد ابتلى بداء عضال هو مرض الجذام ، ولم يشفى منه - كما اعتقد - الا بصلوات وبركات البابا سلفستر الاول Sylvester I (٣١٤-٣٣٥م) فكافأه قنسطنطين باصدار قانون يبيح للبابا او البطريك لبس التاج والقرمز واستعمال الصولجان تماماً كالأباطرة، كما منح الاساقفة وهيئة كبار رجال الدين نفس الامتيازات التي كانت لشيوخ الامبراطوريه، وقد ثبت اختلاق هذه الرواية وقامت ردود كثيرة عليها : جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الاوربية وحضارتها (مكتبة التاريخ الوسيط)، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨م ، ص١٩١.

(٤) Ostrogorowski : Op. Cit, P300.

منصبه ولكنه رفض بقوة، فعقد الامبراطور مجمعا صغيرا خارج العاصمة، وقدمت عريضة الاتهام التي اشتملت على خمس تهم : المروق من الدين، الاستبداد والقتل، وانتهاك حرمة الأماكن المقدسة وتدنيسها وارتكاب الفاحشة[١]، وكلها تهم تكفي لعزله من منصبه. ولكن البطريرك لم يكتب له مواجهة المجمع الذي انعقد لمحاكمته، اذ توفي وهو في طريقه الي المجمع .

شعر الامبراطور أنه تخلص من أكبر أعدائه ومعارضيه ولكنه شعور لم يكن في محله، فرغم محاولاته إظهار أسفه وجزعه على وفاة البطريرك وبكائه على قبره إلا أن ذلك لم يشفع له عند رجال الكنيسة وأهالي القسطنطينية.فاشتدت حدة المعارضة له، واتحدت الكنيسة مع زعماء الارستقراطية المدنية لإسقاط الإمبراطور، وشعر الامبراطور بالكراهية التي أخذت تتفاقم ضده، ومظاهر السخط من الشعب والكنيسة، وفي لحظة يأس أثناء مرضه تخلى إسحق كومنين عن العرش في ديسمبر ١٠٥٩م/٤٥١هـ بعد حكم استمر سنتين فقط ولجأ إلى أحد الاديره، متخلياً عن الحكم لعدم وجود وريث له لقسطنطين دوكاس الذي ولى العرش تحت اسم قسطنطين العاشر[٢] .

بوصول قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩-١٠٦٧م/٤٥١-٤٦٠هـ) الى العرش، نتيجة للتحالف بين الكنيسة والارستقراطية المدنية، استعادت هذه الفئة العرش والسيطرة، وعادت مرة أخرى الى ابعاد العسكرية ورجالها والى اهمالهم، ورغم أن الامبراطور الجديد كان من أسرة اشتهرت بمن قدمت من العسكريين للامبراطورية فإنه كان يمقت الجندية ، ويدين بولائه للحزب المدني لذلك توسع في إغداق المناصب عليهم والوظائف وتمكينهم من استعادة سيطرتهم على الحكم[٣]، ولم يجد الامبراطور حلاً لخزينته الخاوية وحماية عرشه سوى أن يعمل على انقاص عدد القوات المسلحة، ويصح أن يدافع عن هذا الاجراء باعتباره من دواعي السياسة الداخلية،

(١) Camb. Med. Hist. Vol. IV ,P323.
(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص ٨٧.
(٣) Setton. , Op. Cit. , Vol. I , P.198.

على أنه لم يحدث طوال التاريخ البيزنطي ان كان اضعاف قوة دفاع الامبراطورية من الامور الحكيمة ، فهو إجراء بالغ الضرر ، اذ اخذت العواصف تهب من الشرق بينما انبعثت عاصفة جديدة من الغرب هي التحركات النورمانية[(١)] كل ذلك ولم يكن من هم لدى الارستقراطية المدنية وفي زعامتها الامبراطور سوى مزيد من اضعاف الجيش والزراية به لدرجة تعيين مدنيين في قيادة الجيش، وشراء السلام على اطراف الامبراطورية بالمال، او بالصلوات. فقد حدث في بعض المواقع على اطراف الامبراطورية التي لم يكن بها قوة عسكرية كافية انه حينما تعرضت للغزو تقرر اقامة الصلاة العامة والتمس الناس من الله وقوع المعجزات[(٢)] .

كانت النتيجة الطبيعية لفترة حكم قسطنطين العاشر دوكاس والتي استمرت ثمان سنوات، مزيد من الاضطراب ومزيد من الاخطار الخارجية التي لم يستطع الامبراطور مواجهتها، الى جانب الاضطراب في مالية الدولة التي استنفدت من الاغداق على الوظائف المدنية وفي شراء السلام الذي اصبح اقل كلفة من اعدادالعساكر لقتال اعداء الامبراطورية ، مما كان حافزاً لتوسع السلاجقة في آسيا الصغرى والنورمان في جنوب ايطاليا .

توفى الامبراطور في مايو سنة ١٠٦٧م/ ٤٦٠هـ وبوفاته انتقل العرش الى زوجته ايدوسيا وصية على ابنائها الصغار ميخائيل واندرونيكوس وقنسطنطين ، الا ان تفاقم الاخطار التي كانت تحيط بالامبراطورية وخاصة خطر السلاجقة في آسيا الصغرى واشتداد قوى المعارضة استدعى قيام حكومة عسكرية على رأسها قائد يستطيع ان يتصدى لهذه الاخطار ، فلم يكن أمام الامبراطوره ايدوسيا الا أن تتزوج من القائد رومانوس ديوجنيس والذي جرت المناداة به امبراطوراً سنة ١٠٦٨/٤٦١هـ[(٣)] .

اشتهر رومانوس الرابع بأنه قائد مجرب تشهد له حروبه أمام البجناك ، وكان اولى المهمات التي تنتظره ملاقاة السلاجقة ، وحيث قد تم في الفترات السابقة له تفتيت قوى الجيش

---

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١، ص ٨٧.
(٢) الباز العريني : مرجع سابق ، ص ٨٣٠.
(٣) Ostrogorwski : Op. Cit. P.304.

البيزنطي وتقليص عدده ، فلم يجد الامبراطور سوى اللجوء إلى المرتزقة والمأجورين ليكون منهم جيشاً متنافراً لمقابلة السلاجقة ، تكون هذا الجيش من خليط عجيب من البجناك والغز والنورمان والفرنج[(١)] ، ورغم تنافر هذا الجيش الا أنه نظراً لكفاءة رومانوس استطاع تحقيق بعض الانتصارات في جولتين ، ولكن في الجولة الثالثة وقع الامبراطور أسيراً في الموقعة المدوية موقعة مانزكرت اوملاذكرد في ٢٦ اغسطس ١٠٧١م/١٤ ذي القعدة ٤٦٣هـ[(٢)].

ورغم ان الامبراطور استطاع ان ينجو من الأسر السلجوقي بعقده معاهدة مع السلطان الب ارسلان تضمنت دفع الجزية السنوية وان يبذل الفديه عن نفسه وأن يتعهد باطلاق سراح الاسرى الترك ، إلا أنه لم يستطع العودة إلى عرشه ، لأنه حدث انقلاب جديد بتدبير من الحزب المدني الذي رأي في عودة العسكرية ممثلة في رومانوس خطراً عليه ، فاشتدت المعارضة التي أصرت على عزله ، وعندما عاد وجد سمل عينيه ينتظره ولم يلبث أن مات متأثراً بجراحه سنة ١٠٧٢م/٤٦٥هـ[(٣)].

تولت الامبراطورة ايدوسيا وابنها الأكبر ميخائيل دوكاس العرش ، إلا أن ميخائيل مالبث أن الغى وصاية والدته وقرر في اكتوبر١٠٧١م/٤٦٤هـ أن ينفرد بالحكم وان ينزل والدته في الدير بناء على توجيهات الحزب المدني ، وشهد عهد ميخائيل قمة التفكك والفوضى والثورات التي قادها رجال الارستقراطية العسكرية والقواد العسكريون، ففي الأقاليم الأوروبية نادى حاكم دورازو[(٤)] نقفور برينيوس Nicephorus Bryennius بنفسه امبراطوراً، في حين نصب أعيان وسادة آسيا الصغرى نقفور بوتانياتس Botaniates إمبراطوراً. وكان مما

---

(١) Ibid.

(٢) سنفرد بعض الصفحات عن معركة ملاذكرد في مكان آخر من هذا الفصل عند الحديث عن علاقات بيزنطة بالسلاجقة.

(٣) Ostrogorwski : Op. Cit. P.304.

(٤) دورازو ، احدى المدن البيزنطية ، وتقع على الساحل الشرقي للادرياتي جنوب سكوتاري ، وستكون محطة هامة للنزاع مع النورمان ، ونقطة انطلاق اولى للصليبيين في املاك الدولة البيزنطية في طريقهم الى القسطنطينية.

دفع هؤلاء الثائرين الطموح الشخصي من جهة وشدة التأثر بضعف حكم ميخائيل واستبداد الارستقراطية المدنية[١]. غير أن نقفور لم يكن الا قائداً لاجيش له ، وفي سبيل الحصول على القوة التي يحتاجها حشد تحت لوائه اعداداً كبيرة من الترك واستخدمهم لحراسة المدن التي كان يستولي عليها أثناء زحفه إلى العاصمة. كان ميخائيل السابع ضعيفاً متردداً بعيداً عن الجيش ولايرغب في الحرب والقتال، فتدخل الشعب في العاصمة لوضع حد لهذه الفوضى، واهتم رجال الكنيسة بالأمر نفسه فنادى اميليانوس بطريرك انطاكية الذي كان آنئذ في العاصمة بنقفور امبراطوراً[٢]، ونزل ميخائيل السابع عن العرش ولبس ثوب الرهبنة حيث تحقق ميله الصميم، وكان أسعد حظاً من معظم الاباطرة المعزولين، فلم تمض الا سنوات قليلة حتى ارتقى كرسي البطريركية بفضل كفايته ومؤهلاته الثقافية، اما زوجته ماريه القوقازية والتي كانت اجمل اميرات عصرها والتي تخلت عنه فإنها رأت من الحكمة أن تتزوج المغتصب، الامبراطور الجديد[٣].

كان لزاماً على الامبراطور الجديد وقد استولى على العرش في العاصمة ان يقضي على الثورات التي مازالت تطالب بالعرش، فاوفد قائده الكسيوس كومنين في جماعة صغيرة من العسكر اليونانيين الذين كان يعوزهم التدريب، إضافة إلى جماعة من الفرنج الذين تخلو عنه كعادتهم لمواجهة نقفور برينيوس حاكم دورازو، ولم يتمكن الكسيوس من هزيمته الا حينما وصلت اليه نجدة تركية من الجند المأجورين[٤]. وواصل الكسيوس جولته في القضاء على الثائرين حيث مضى الى تساليا ليسحق مغتصباً آخر هو باسيلاكيوس Basilacius فاستطاع هزيمته[٥]. ويبدو أن الثورات والانفصالات قد استهوت القادة العسكريين فما لبث نقفور

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٠٦.
(٢) اسد رستم : كنيسة انطاكية ، ج٢ ، ص٢٥٨.
(٣) رنسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص١٠٦.
(٤) المرجع السابق ، ج١ ، ص١٠٧.
(٥) Ostrogorwski : Op. Cit. P.317.

مليسنيوس أشهر قادة آسيا الصغرى أن أعلن الثورة واتجه إلى العاصمة متحالفاً مع السلطان السلجوقي سليمان بن قتلمش ، وأتاح هذا التحالف للسلطان السلجوقي بدوره أن يسير إلى بثينيا دون أن يلقى مقاومة ، حيث رحبت به الحامية التركية التي سبق أن أقامها بوتنياتس، ولما فشل مليسنيوس في الاستيلاء على القسطنطينية ، تمسك سليمان بما استولى عليه من مدن واستقر في نيقيه ، التي تعتبر من أجل مدن العالم المسيحي والتي لا تبعد عن القسطنطينية أكثر من مائة ميل واتخذ منها عاصمة للسلطنة السلجوقية باسيا الصغرى[١].

ولقد ترك صراع المغتصبين الامبراطورية البيزنطية على حافة الانهيار واستنفد قمع الثائرين ما تبقى في خزائن الدولة ولم يستطع الامبراطور العجوز رغم طموحه أن يوقف حالة الانهيار التي تداعت إليها الامبراطورية، ولم يشفع له زواجه من ارملة الامبراطور السابق في الحصول على دعم عائلة دوكاس وثراءها في انقاذ الامبراطورية، ومثل عهده القصير (١٠٧٨-١٠٨١/٤٧١-٤٧٤هـ) المشهد النهائي لتلك الحقبة المأساوية من حياة بيزنطة على الصعيدين الداخلي والخارجي[٢].

استفاد من هذه الأوضاع التي سادت في الامبراطورية البيزنطية أعداؤها الذين كانوا يتربصون بها في الغرب والشرق، وأضحت الامبراطورية في اشد حالات الإنهاك والتدهور، ولم يستطع الامبراطور أن ينقذ الوضع وانهمك مرة أخرى في الصراعات والمؤمرات الداخلية. كما أنه أضاع الفرصة الوحيدة للبقاء على العرش بما لجأ اليه من الشجار مع أسرة كومنين التي أعانته للوصول اليه واخلص رجلان منها هما الكسيوس واسحاق في خدمته وكانا يأملان في أن يحافظ على وده وحسن نيته بما كان لهما من صداقة وثيقة مع زوجته الامبراطورة مارية، ولكن هذه الصداقة التي جمعتها مع الاخوين واتهامها بأنها كانت عشيقة لالكسيوس أدت الى أن ينقلب عليهما نقفور، ويزداد خلافه مع اسرة كومنين ، ولم يجد الأخوان كومنين - محافظة على

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، ص١٠٧ ؛ وايضاً : Camb , Med, Hist , Vol. IV , P.335.
وتعود اهمية نيقية الى أنها اولى المدن البيزنطية التي عقد بها مجمع ديني ، وكانت تمتاز بحصانتها وعمارتها الدينية.

(٢) عادل زيتون : مرجع سابق ، ص٤٩.

حياتهما- سوى اعلان الثورة عليه(١)، ولما كان الرأى العام والكنيسة قد يئسا من الامبراطور نقفور ، لم يجدا بدأ من الانضمام الى الكسيوس كومنين،واقنع البطريرك الامبراطور ان ينسحب بنفس الطريقة التي انسحب بها سلفه الامبراطور (ميخائيل) عن العرش ليقضي أيامه الأخيرة راهباً(٢).

بهذا التنازل لنقفور بوتانياتس تكون الامبراطورية قد اختتمت فترة من أسوأ فتراتها استمرت منذ وفاة باسل الثاني (١٠٢٥/٤١٦هـ) الى أن تولى الكسيوس كومنين العرش (١٠٨١/٤٧٤هـ) ولم يتوقف هذا الفساد عند انحسار الدولة وانفصال اجزاء هامة منها وطمع المحيطين بها واختلال مواردها العسكرية وصراعات الحكم وتسيد النساء على العرش طوال فترات متعددة، وإنما تعدى ذلك إلى انهيارات مختلفة لم ينج منها الجيش والفلاحة ونواحي الحياة الاجتماعية ، ومسألة التجنيد العسكري والعوز في القوى البشرية ، وتأثرت القوة البحرية والأسطول التجاري والرسوم الجمركية نتيجة لتعطيل كثير من طرق التجارة(٣). وسرى الضعف الى أجهزة الحكومة المركزية، وقامت مصاعب مالية خطيرة هددت سلامة الاقتصاد الوطني، مما أدى بدوره الى خفض قيمة العملة البيزنطية وفي بعض الأحيان تزييفها(٤).

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، ج١ ، ص١٠٨.

(٢) Edward. M. H. : The Middle Ages, Revised edition , NewYork , henry holt and company, 1929, P.378.

(٣) هسي : مرجع سابق ، ص ١٧٧.

(٤) د. نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية (دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري) دمشق ١٩٣٩م ، ص٢٥٧.

والجدير بالذكر ان المركز المرموق الذي بلغته القسطنطينية في التجارة الدولية يعود في الدرجة الأولى الى الثقة في قيمة عملتها الذهبية "النوميزما" Nomisma او البيزنط Bezant، وتخفيض قيمة العملة البيزنطية اخذيظهر منذ عام ١٠٧١م/٤٦٤هـ فصاعداً تحت دعوى الاسراع بعلاج الازمات المالية، عندما فقد البيزنطيون معظم اراضي آسيا الصغرى بسبب استيلاء السلاجقة عليها، ومع ذلك فقد اصبح واضحاً الآن نتيجة لتحليل التضخم الذي وقع ان المسئولية الحقيقة عن هذا التخفيض الهائل للعملة البيزنطية ترتبط بقسطنطين التاسع (١٠٤٢-١٠٥٥م/٤٣٤-٤٤٧هـ) الذي خفض قيمة النوميزما من اربعة وعشرين كارتاً Carots الى ثمانية عشر فقط ، وبلغت فيما بعد في عهد ميخائيل السابع(١٠٧١-١٠٧٨م/٤٦٤-٤٧١هـ) ما بين اربعة عشر الى اثني عشر كارتاً فقط . أنظر : هسي : العالم البيزنطي، ص ١٧٠-١٧١.

كـان اهم العـوامل المحـركـة لهـذا الانهـيـار هو الصـراع بين الارسـتـقـراطيـة العـسكرية ومنافستـهـا المدنية والتي مثلها مجلس السناتو، والاهمال المتعـمد للعسكرية البيزنطية التي كـانت أحـد أهم دعـامـات الامـبـراطورية، والتي بالغت الحكومات المدنيـة التي توالت على العاصمة في اهمالها وعدم الاهتمام بشؤونها ومرات كثيرة محاربتها واستعداء قياداتها وحرمانها من الهبات والمنح والوظائف والتقليل من شأنها، مع ملاحظة ان افضل سنوات وفترات الحكم البيزنطي هي تلك الفترات التي تولى الحكم فيها قيادات عسكرية كما حصل في عهد أسرة هرقل والأسرة الايزوريه والأسرة المقدونية، وايضاً في عهد الأسرة الكومنينيه كما سنلاحظ ذلك فيما بعد.

اعتلاء الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية :

من موقع قرب هادريانوبل (مقاطعة مكدونياMacdonia) تحرك الكسيوس كومنين بجيشه الذي استطاع جمعه وضم جميع أنصاره ومؤيديه، مستغلاً قضية الخطر السلجوقي الذي كان يهدد الامبراطورية، وعجز الحكومة عن مواجهته في المطالبة بالعرش[١]، وبوصوله الى العرش استعادت الارستقراطية العسكرية البيزنطية السيطرة ، بعد فترة طويلة أُبعدت فيها هذه الفئة عن المشاركة في الحكم وتعرضت للإهمال والاضطهاد.

تسلم الكسيوس فى (ابريل ١٠٨١م/٤٧٤هـ) امبراطورية متهاوية تملؤها المشاكل والخلافات في الداخل ويحيط بها الأعداء الطامعون من الخارج متربصين ، تبوأ العرش وهو في الثالثة والثلاثين من عمره وتصف آنا كومنين[٢]والدها الامبراطور الكسيوس بأنه كان قصيراً ممتلىء الجسم ، قاسي الوجه أسود اللحية ، براق العينين ، ثاقب النظر وتعترف بأنه كان ينقص والدها شيء من الهيبة والوقار حين يخالط القوم ويمتزج معهم، لكنه كان جليلاً عظيماً عندما يجلس على عرشه ويتولى السلطة ويحكم بين الناس[٣].

بدأ الكسيوس أُولى خطواته لتوطيد مركزه وسلطانه بان اتخذ زوجة من أُسرة دوكاس ليهديء من مؤامرات وتحركات الارستقراطية المدنية ويقضي على اي محاولات لاغتصاب العرش، كما حرص على أن يجمع حوله في البلاط أفراداً ينتمون إلى البيوت الامبراطورية

---

(١) C. Stephenson : Mediaeval History, Revised edition , New York , Harper & Birothers Publishers, 1943. P. 293.

ود. نبيه عاقل : مرجع سابق ، ص.٢٦٠.

(٢) آنا كومنين هي مؤلفة كتاب "الالكسياد" أهم المصادر البيزنطية عن هذه الفترة وهي ابنة الامبراطور الكسيوس كومنين، ولدت في ديسمبر ١٠٨٣م/٤٧٦هـ وتزوجت من نقفور برينيوس وتوفيت سنة ١١٤٨م/٥٤٣هـ، مثقفه وغزيرة العلم وعلى معرفة بآداب اليونان القدماء وكتب اللاهوت، وضعت كتابها الالكسياد باللغة اليونانية ليكون سجلاً حافلاً لتاريخ والدها، وقد صدر الكتاب باللغة الانجليزية في ترجمتين، ويقوم الدكتور حسن حبشي حالياً باصدار الترجمة العربية للكتاب، وقد اطلعت على مسودة الترجمة المعدة للطبع، كما قام الدكتور سهيل زكار بترجمة الفصول الخاصة بالحملة الصليبية الأولى ونشرها ضمن كتابه : الحروب الصليبية حسب روايات شهود عيان والذي صدر في مجلدين عن دار حسان للطباعة والنشر في دمشق عام ١٩٨٤م.

(٣) Anna Commnen, The Alexiad, Trans, By E. A. Daes, London, 1967, P.110

السابقة حرص أن يرتبط معهم بالتحالف على أساس المصاهرة[١]، فأقام بالقصر الامبراطوري مارية الامبراطورة السابقة، وكذا ابنها قسطنطين دوكاس ، الذي جعله في البداية قسيماً له في الملك ثم مالبث أن زوجه ابنته الكبرى "آنا"، كما نزل بالبلاط أيضاً أبناء رومانوس ديوجنيس، فزوج احدهم من أخته ثيودورا، وتزوج ابن نقفور برنييوس آنا بعد وفاة زوجها قسطنطين دوكاس، اما نقفور مليسنيوس فتزوج من أخت الامبراطور ايدوسيا، وتنازل لصهره عن دعاويه في الامبراطورية مقابل الحصول على لقب قيصر، لقد اراد الكسيوس بهذه المصالحات والمصاهرات ان يقضي على حركات الثورة والاغتصاب التي كانت مزدهرة في الفترة التي سبقت وصوله الى العرش، كما أنه اراد أن يوجد استقراراً داخلياً يمكنه من التفرغ للأخطار التي كانت تحيط بالامبراطورية وكان اهمها في تلك الفترة خطران : الغز النورماني ، والهجمات السلجوقية، وقد أثمرت هذه السياسة التي اتبعها الكسيوس في أحداث الاستقرار والالتفاف حول القضايا الهامة. كما انه اراد تجنيد جميع القطاعات والاستعانة بجميع الخبرات والكفاءات المتوفرة لتجديد بناء الدولة وقد اتاحت له هذه السياسة ان يكتشف أولاً بأول ما يدبر ضد حكومته من مؤمرات ، أو محاولات اغتياله ، إلا أنه كان يقابل كل ذلك بالاعتدال في إنزال العقوبة والرأفة وبعد النظر[٢].

كان الجانب الثاني الذي أولاه الكسيوس اهتمامه هو الجيش ، فعندما تولى السلطة لم تكن القوات البيزنطية الرسمية تزيد عن ٣٠٠ جندي وبعض القوات الاحتياطية المساعدة[٣]، الا أنه استطاع خلال ستة أشهر أن يجمع جيشاً من سبعين الف مقاتل وسار بهم لمحاربة النورمان في جنوب إيطاليا[٤].

لقد كان الاعتماد سابقاً يتم على المرتزقة الأجانب ولكن من فئات محددة ، فلما تولى

---

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) Vasiliev, A. A. : A history of the Byzantine Empire, 2 Vols , Madison 1961, Vol.2, P.320.

(٣) Anna. Op. Cit, P.90.

(٤) ادوارد جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة د. محمد سليم سالم ، القاهرة :الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٩م . ج٣ ، ص١٦٦.

الكسيوس -ونظراً للحاجة الماسة للمجندين- احتوى الحرس الامبراطوري على أجانب من كل جنس ووصف فمنهم الروس والترك واللان والانجليز والفرنجة والالمان والبلغار، الذين كونوا نواة الجيش بأجمعه مع كتيبة الهيكاناتي Hicanatia وكتيبة الفستيانتي Vostiantes وكتيبة الخالدين وهم بقايا التاجماتا[١] القديمة الذين جمعهم الخصى نيقيفوروس بعد معركة ملاذكرد في ١٠٨٧م/ ٤٨٠هـ، ثم كتيبة الارخونتو بولي Archontopuli التي أُسسها الكسيوس لأبناء النبلاء الذين توفوا، واقتصر الكسيوس على قائدين كبيرين هما الدوميستق في الشرق، والدوميستق في الغرب، بدلاً من تعدد القواد لأن في كثرتهم ترتفع احتمالات الثورة واغتصاب الحكم وكانت القوات الاضافية تزود بمرتزقه أُجانب[٢] كما حاول الامبراطور الكسيوس كومنين أن يعيد بناء البحرية الامبراطورية، للتصدي للنورمان وحلفائهم من البيزيه والجنويه ، فوجد نفسه مضطراً للتحالف مع البندقية وتوقيع معاهدة معها منح بموجبها تجار البندقية مطلق الحرية في التنقل في أُنحاء الدولة دون دفع جمارك أو مكوس[٣]، وهي سياسة ستعود على خلفائه فيما بعد بالوبال وستؤثر اقتصادياً على تجارة بيزنطة.

وأولى الكسيوس كومنين الناحية الاقتصادية المنهارة اهتمامه في هذا الظرف الدقيق، ولكن ولأن الظروف لم تمكنه من أن يتفرغ لمعالجة المشاكل الاقتصادية فإنه سارع لوضع الاقتصاد الامبراطورى في خدمة الدفاع عن الامبراطورية[٤]. ولم يكن الكسيوس من البارعين في تدبير الاموال ، وما اتبعه من الوسائل قد يثير دهشة رجل الاقتصاد الحديث ، ومع ذلك فإنه بما لجأ اليه من اثقال كاهل رعاياه بالضرائب، وبما ابتزه قسراً من الأعيان والكنيسة من القروض الاجبارية ، ومصادرة الأملاك وفرض العقوبة بالغرامة لا بالحبس ،

---

(١) التاجماتا : هي الفرق الاربع للحرس الامبراطوري . وهي فرقة المدارس (Scholae) ، والديادبه (Excubitors) ، ووحدة الجند المسماه اريثموس (Arithmos) وهي فرقة المراقبة اي (Vigla)انظر : رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، مرجع سابق ، ص ١٦٤.

(٢) رانسيمان : المرجع السابق ، ج١، ص١٧٣.

(٣) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية، ترجمة د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، الطبعة الثانية، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧م، ص٢٨٩.

(٤) د. عادل زيتون : مرجع سابق ، ص٥٠.

وبيع الامتيازات ، وتفضيل الصناعات الامبراطورية (الاحتكارية) أستطاع أن يسد نفقات النظام الاداري الضخم ، وأن يعيد انشاء الجيش والبحرية، وأن يبقي في الوقت ذاته على أبهة البلاط ، وأن يبذل العطايا والمنح للمخلصين من رعاياه، ولمن يقدم عليه من القصاد والأمراء، لأنه أدرك أن المكانه والمجد في الشرق إنما تتوقفان اساساً على الأبهة العظيمة، فالشح والبخل هو الذنب الوحيد الذي لا يغتفر واضطر الكسيوس الى تخفيض قيمة العملة البيزنطية لمواجهة الاعباء الكثيرة والاقتصاد المثقل[١].

عبر هذه الاصلاحات والسياسات استطاع الامبراطور الكسيوس كومنين أن يوقف التدهور الذي كان يحيط بالامبراطورية ويهددها بالاضمحلال، وأن يعيد للامبراطورية مكانتها ووجودها وسط قوى تلك الفترة الزمنية[٢].

كانت الامبراطورية البيزنطية قد شهدت خلال فترة الفوضى الطويلة والانهيار الذي سادها منذوفاة الامبراطور باسيل الثاني سنة ١٠٢٥م/٤١٦هـ الى تولي الامبراطور الكسيوس كومنين ١٠٨١م/٤٧٤هـ عدة احداث في الداخل والخارج قدر لها أن تلعب دوراً هاماً في اشعال نار الحروب الصليبية وان تدخل في تحديد شكل العلاقات بين الجانبين الاغريقي واللاتيني خلال الحروب الصليبية من أهمها :

- العلاقات الدينية والشقاق مع الغرب (قطيعة ١٠٥٤م/٤٤٦هـ).
- الغزو النورماني للاراضي البيزنطية.
- الهزائم العسكرية البيزنطية أمام السلاجقة.

وهو ما سنناقشه بتوسع في الفقرات التالية استكمالاً لهذا الفصل الذي يلخص اوضاع الامبراطورية البيزنطية قبل قيام الحروب الصليبية ، بل ويمهد لها في بيزنطة ، او كما يرى بعض المؤرخين أن هذه الأوضاع هي التي مهدت لقيام الحروب الصليبية[٣].

(١) رانسيمان : الحروب الصليبية ، ج١ ، ص١١١.

(٢) Charles Diehl, History of the Byzantine Empire, Trans By George. B. Ives, London 1963, P.121.

(٣) نورمان بينز : مرجع سابق ، ص٧١.

الخلافات الدينية مع الغرب والشقاق الديني سنة ١٠٥٤م/٤٤٦هـ :

لم يكن الخلاف الديني الذي اشتعل بين الشرق والغرب أو بين روما والقسطنطينية سنة ١٠٥٤م/٤٤٦هـ هو أول الخلافات الدينية التي شهدها الطرفان، فالخلافات الدينية بين الطرفين قديمة قدم تأسيس الامبراطورية فى الشرق وانتقال أجهزتها من الغرب، ولكن أهمية خلاف وانشقاق ١٠٥٤م تأتي من أن الخلاف هذه المرة جاء حاسماً وكبيراً، لأنه بعد هذا الخلاف فشلت المحاولات العديدة التي بذلت لتوحيد الكنيستين كما ان أثر هذا الخلاف على العلاقة بين اللاتين وبين الاغريق كان واضحاً وبارزاً فيما ساد بعد ذلك من أحداث وأهمها الحروب الصليبية.

ولو اردنا تتبع بعض مراحل الخلافات بين الكنيستين لوجدنا ان هناك خلافات عديدة مثل مسألة الايقونات[١]، وزواج الامبراطور ليو السادس للمرة الرابعة (٨٨٦-٩١٢م/٢٧٣-٣٠٠هـ)[٢] وقطيعة فوشيوس وغير ذلك من الفتن الدينية الكبرى التي تم تجاوزها إلا أن هذه الفتنة التي سميت بـ «القطيعة الدينية الكبرى» لم يتم تجاوزها وإن تعددت المحاولات لإنهائها، حتى ان هناك اجماعاً بين كثير من المؤرخين الغربيين على ان هذه القطيعة تعتبر أسوأ الاحداث التي مرت بها النصرانية في تاريخها الطويل ولاتزال آثارها باقية إلى يومنا هذا[٣].

بدأ الخلاف بين الكنيستين هذه المرة بأن علم البطريرك كريولاريوس (١٠٤٣-١٠٥٨م/٤٣٥-٤٥٠هـ) وهو الشديد الحماس لعقيدته المحارب عن كنيسته، بأن النورمان قد منعوا اليونانين في جنوب إيطاليا من ممارسة طقوسهم الدينية وذلك بموافقة كنيسة روما، وكان النورمان قد بدأوا يتوغلون داخل عدد من مدن جنوب ايطاليا البيزنطية، ورداً على هذا الموقف امر كريولاريوس الكنائس اللاتينية في القسطنطينية باتباع الشعائر اليونانية،

(١) د. أسد رستم : حرب فى الكنائس، منشورات الجامعة اللبنانية - قسم الدراسات التاريخية (١٥)، بيروت ١٩٥٨م، ص٨ .

(٢) د. وسام عبدالعزيز فرج : الزواج الرابع للامبراطور ليو السادس (٨٨٦-٩١٢) ، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩١م ، ص١٢٥.

(٣) د. جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩م ، ص١١٨.

وعند رفضها أُمر باغلاقها وكان ذلك في نهاية عام ١٠٥٣م/٤٤٥هـ[١]. ولما علم البابا ليو التاسع في روما بإغلاق الكنائس اللاتينية في بيزنطة أرسل للامبراطور البيزنطي (الامبراطور قسطنطين موناكوس ١٠٤٢-١٠٥٥م/٤٣٤-٤٤٧هـ) رسالة يتهم فيها البطريرك بالوقاحة وبتحدي قانون الله -كما يعتقد- وزاد سكرتير البابا الكاردينال همبرت من سلفا كانديدا بان السلطات البطريركيه في بيزنطة دبرت فتنة عند غلق الكنائس اللاتينية وأُنها أُمرت بأن «يداس خبز التناول اللاتيني تحت الأقدام»[٢].

ويبدو أن البطريرك البيزنطي تصرف هذا التصرف من لدنه ، إذ ان الامبراطور كان مهتماً في تلك الفترة بتحسين العلاقات مع البابويه حتى يضمن موقفها معه ضد الهجمات النورمانية على مدن جنوب ايطاليا. فكانت الدوائر السياسية البيزنطية تعمل عن طريق ممثلها ارجيروس على التحالف مع البابويه لكبح جماح النورمان[٣]، بينما كانت الدوائر الدينية في بيزنطة تفكر بطريقة أخرى وتنظر إلى جوانب أُخرى بعيدة عن المصالح السياسية التي كان يسعى الامبراطور البيزنطي لتحقيقها.

ولما كان البطريرك كريولاريوس يشك في (ارجيروس) بل وكان يكرهه اشد الكره ويشك في نسبه وماضيه، وكان ممتعضاً من نفوذه على الامبراطور البيزنطي، لم يشأ ان يترك رسالة البابا تمر دون تحرك منه، ولكنه آثر -نظراً للظروف- أن لايصعد الموقف من جانبه فحرض صديقه، ليو من اخريدا رئيس اساقفة الكنيسة البلغارية وكانت ارثوذكسية في هذه الفترة على ان يكتب الى يوحنا أسقف مدينة تراني رسالة ليسلمها إلى البابا وسائر اساقفة اللاتين ، وكان من نتيجة هذه الرسالة ان الهبت العداء الدفين بين الكنيسة واعادته في صورة أكثر عنفاً[٤].

تبدأ رسالة ليو بتوضيح ان الكنيسة اللاتينيه باستخدامها «الخبز غير المخمر Azymes

---

(١) د. أسد رستم : كنيسة انطاكية ، ج٢ ، ص٢٣٣.
(٢) د. اسحاق عبيد : روما وبيزنطة (من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين) ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٠م ، ص٢٥.
(٣) د. عادل زيتون : مرجع سابق ، ص٣٣٨.
(٤) المرجع السابق ، ص٣٣٩.

في التناول Sacrmant تبقيها في شركة مع اليهود الذين يفعلون نفس الشيء، وفق القوانين اليهودية، وأوضح ليو أن الخبز الذي تناول منه المسيح هو وحواريوه في العشاء الاخير مخمر، اما الخبز غير المخمر فلاحياة فيه فهو أصم كالحجر، ثم يمضي مستنكراً على اللاتين صيام السبت .. وكتب :"ان رجال الكنيسة اللاتينيه يماثلون الفهد لأن جلده لاهو بالأبيض ولا بالأسود، وعلى هذا فاللاتين يظلون معلقين بين طرفي نقيض فهم ليسوا يهوداً ولا هم نصارى. ثم هاجم اللاتين لأنهم يأكلون المنخنقه ويحرمون الزواج على القساوسة"[(١)].

وصل خطاب ليو الى ايطاليا في وقت حرج من عام ١٠٥٣م/٤٤٥هـ إذ أن جيوش بيزنطة والجيش البابوي قد لقيت هزيمة فادحة على يد النورمان ، ففي موقعة سيفيتاتي Cifitate (يوليه ١٠٥٣م) وقع البابا ليو التاسع اسيراً في يد النورمان ، فحملوه الى مدينة بينفنتو غير انهم سمحوا له بادارة شؤون الكنيسة من هناك ، إذ كان النورمان انفسهم اعضاء متحمسين للكنيسة اللاتينيه ، وفي مدينة تراني تسلم سكرتير البابا همبرت رسالة رئيس أُساقفة بلغاريا السالفة. لم يكن همبرت ضالعاً في اللغة اليونانية، فقام بعمل ترجمة سريعة للرسالة، ولأنه كان كارهاً لبيزنطة وكنيستها ، ضخم من عبارات الهجوم على كنيسة روما، وعندما وصل الى بينفنتو سلم البابا الرسالة وترجمتها، ولما لم يكن البابا على دراية كاملة باليونانية تمكنه من مراجعة ترجمة همبرت فقد ثار عندما قرأ ترجمة الرسالة[(٢)].

أمر البابا سكرتيره همبرت بان يكتب رسالتين ، احداهما موجهة في لهجة غير مهذبة الى كريولاريوس وليو من اخريده ، والثانية لم ينص فيها على الشخص المرسلة اليه ، وأهم ما ورد في هاتين الرسالتين أن كنيسة روما لم تلطخ طوال تاريخها بالهرطقة ، أما الكنيسة اليونانية فقد كانت منبعاً للتجديف، وان كرسي روما هو الذي تصدى لتلك البدع[(٣)]، وقد

---

(١) اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص ٢٦.
(٢) Runciman : The Estern Schism, Op. Cit, P.42.
(٣) المعروف ان التحريف طال النصرانية بمذهبيها الكاثولوكية والارثوذكسية ، ولم يكن وقفاً على مذهب دون الآخر، فالاباء النصارى هم الذين ادخلوا هذه الطقوس من عبادة الايقونات الى الثالوث الى غير ذلك من المخالفات والتفسيرات التي غيرت وحورت في منهج الله الذي انزله على عيسى عليه السلام ، حتى الاناجيل التي بين ايديهم فهي محرفة وكتبت بيد الحواريين وليس ما انزل من عند الله.

أُصر البابا على ابراز امارة روما على سائر الكنائس والبطريركيات الاخرى مفضلاً كنيسة الاسكندرية وانطاكية واورشليم على كنيسة القسطنطينية ، طالباً خضوعها جميعاً لكنيسة روما ، ثم ذكر أن كنيسة روما هي التي قضت على هرطقة تحطيم الايقونات، واختتم ليو التاسع كلامه بمهاجمة كنيسة بيزنطة بطريق غير مباشر اذ ألمح بأنه لايميل إلى تصديق الاشاعة القائلة بان الكثير من رجال الكنيسة البيزنطية هم من الخصيان[١] .

وليضمن مؤيدين لقضيته كتب البابا ليو التاسع رسالة الى بطرس بطريرك انطاكية أملاً في كسب تأييده، واخذ يتملقه ممتدحاً حصافته وعلمه ومذكراً اياه بان بطرس كان اول أسقف لمدينة أنطاكية[٢] .

على ان هاتين الرسالين اللتين أعدهما همبرت بلسان البابا، لم يتم ارسالهما وذلك نتيجة لتوسط يوحنا أسقف تراني بين الطرفين، حيث نجح في إقناع البطريرك البيزنطي كريولاريوس بأن المصلحة البيزنطية في جنوب ايطاليا تقضي بالبقاء على أفضل العلاقات مع روما، وأكد له ان البابا ليو انسان فاضل ويجب مخاطبته باسلوب اكثر اعتدالاً. نجحت هذه الوساطة وكان نتيجتها أن كتب كريولاريوس رسالة الى البابا تختلف في أسلوبها ولهجتها اختلافاً جذرياً عن الرسالة التي كتبها أُسقف بلغاريا، كما أن الامبراطور كتب رسالة إلى البابا يشرح فيها ضرورة التحالف السياسي ودعمه لهذا التحالف للتصدي للعدوان النورماني وابتعدت الرسالتان عن القضايا التي تختلف حولها الكنيستين[٣] ولكن هاتين الرسالتين لم تخففا من غلواء العداء الذي مالبث أن احتدم إذ أن رسالة البطريرك رغم ودية محتواها فإنها احتوت على خطأ كبير ازعج البابا فالبطريرك استهل رسالته الى البابا بمخاطبته «كأخ» وفي الوقت ذاته وقع رسالته باسم البطريرك المسكوني[٤]. وكان يمكن تجاوز هذين الخطأين اللذين

---

(١) د. اسحاق عبيد : مرجع سابق ، ص٢٨.

(٢) اسد رستم : كنيسة انطاكية ، ج٢ ، ص٢٣٥.

(٣) Runciman : Op. Cit, P.43.

(٤) Ibid.

لم يقصدهما البطريرك ولكن الكراهية الشديدة والتي كان يضمرها مستشارو البابا لكنيسة بيزنطة جعلت البابا يتشددفي موقفه، وقد زاد الامور سوءاً أن ساءت صحته الى حد اضطره لأن يترك تدبير شؤون الكنيسة الى سكرتيره المقرب همبرت، الذي كان ذا طابع ناري ولايقبل الهواده، فوجد فرصته لتصفية حساباته مع كنيسة بيزنطة. فكتب رسالتين الى البطريرك والى الامبراطور، تناول في رسالته الاولي شخص البطريرك باقذع الشتائم والاتهامات، ومهددا باتخاذ قرارت تأديبية ضده، وحوت الرسالة الثانية الى الامبراطور مزيدا من التوبيخ لكريولاريوس(١).

وحملت الرسالتين انباء بعثة ينوي البابا إرسالها إلى بيزنطة لتصفية كل القضايا العالقة.

رأس الكاردينال همبرت البعثة البابوية ، وكان لايقل غطرسة عن البطريرك كريولاريوس ، ورافقه في البعثة فردريك اللوريني المستشار البابوي وبطرس اسقف امالفي ومر أعضاء الوفد بابوليا حيث اجتمعوا بارجيروس ـ الممثل البيزنطي في جنوب ايطاليا - والذي كان يبادل البطريرك كريولاريوس الكراهية ، فنصحهم بأن يقصروا اجتماعهم بالامبراطور، وأن لا يلتقوا بالبطريرك ، وهي نصيحة في غير محلها، لان البطريرك كان أشد بأسا من الامبراطور وأشد قبولا عند الرأي العام في القسطنطينية(٢).

بمجرد وصول الوفد إلى القسطنطينية بدأت المشكلة مجددا فبرغم الاستقبال الحافل من الامبراطور الا ان استقبال البطريرك لهم لم يكن لائقا .. وبدأ كريولاريوس يمارس لعبة تحريض أعوانه من جديد فقام نيكيتياس ستيتاتوس أحد رهبان دير ستوديوم بمهاجمة الشعائر الدينية اللاتينية وخاصة صيام أيام السبت واستخدام الخبز الخالى من الخميرة، ومنع القسيسين من الزواج فرد همبرت عليه ردا أكثر عنفاً ، اذ أعلن أن هذا الراهب لاينحدر " من أحد الأديرة وإنما من بيت دعارة " وبأنه حشرة ثعبانية متسخة " وبأن هجومه ضد الكنيسة الرومانية يهبط به الى مستوي " الكلاب المسعورة " فله ولاتباعه جهنم وبئس المصير ، ولم يهمل في رده البطريرك البيزنطي ولا رئيس أساقفة بلغاريا ولم يهمل كذلك الشعائر البيزنطية(٣).

(١) Vasiliev : op.cit. vol,1,p336.

(٢) Camb .med . Hist,vol Iv, p 269.

(٣) د. اسحق عبيد ، مرجع سابق ، ص ٣١ -٣٢.

وتحت ضغط الامبراطور قسطنطين موناماكوس الذي كان يري ضرورة تهدئة غضب الكاردينال ورفاقه إذ كان بالدرجة الاولى مهتما بتقوية أواصر حلفه السياسي مع البابوية ضد النورمان أجبر الراهب نيكيتياس على الحضور والاعتذار إلى الكاردينال وتراجعه عما كتبه ضد الكنيسة اللاتينية، وشجع هذا الموقف من الامبراطور الكاردينال همبرت في الاستمرار في صلفه ، ولكن كريولاريوس كان محيطا بما يجري حوله ، وبما يجري هناك في روما حيث كان البابا أُسيرا .. ومريضا وبدأ يثير الرأي العام في القسطنطينية ضد البعثة البابوية ، واستغل فرصة عودة الكاردينال الي الحديث عن موضوع انبثاق الروح القدس من الابن[1] وهي القضية الأكثراثارة للخلاف بين الكنيستين ، فأهاج الرأي العام ضد السفراء اللاتين في العاصمة وضد الامبراطور ذاته ، ولكنه بقي هو محافظا علي هدوئه وترك المندوبين اللاتين يتخبطون، وكان قمة تخبطهم حين قصدوا كنيسة ايا صوفيا فيما كان القداس منعقدا يوم السبت ١٦ يوليو ١٠٥٤م/٤٤٦هـ[2] ، فدخلوا الى المذبح ووضعوا عليه قرارا بلعنة وحرمان البطريرك كريولاريوس ورئيس أُساقفة بلغاريا ، وميخائيل قسطنطين المستشار البطريركي وخرج اعضاء الوفد من الكنيسة وهم ينفضون الغبار عن اقدامهم ، وذلك علي مشهد من جمهور الحاضرين، وكان ان التقط احد الشمامسة هذه الوثيقة وأُسرع وراء المندوبين البابوين يتوسل اليهم استردادها دون جدوي فرمي بها الي عرض الطريق ، وسرعان ماوقعت الوثيقة في يدي كريولاريوس فأمر بعمل ترجمة يونانية لها ، وصعق البطريرك لما ورد فيها .

تبدأ الوثيقة بذكر اسماء الوفد البابوي علي أُنهم رسل البابا الشرعيون والابناء المخلصون لكنيسة روما وبابويتها ، وتمضى الوثيقة لتتهم كرويولاريوس بعدم استحقاق منصب البطريركية بسبب سلوكه الوقح وتعاليمه المغلوطة التي أدت إلى ظهور داء الهرطقة من قبيل

---

(١) تعتبر هذه القضية من اكثر انحرافات العبادة النصرانية حيث يعتقدون بالوهية عيسي والعياذ بالله ويضعونه في مرتبة الاله وهوفساد في العقيدة مابعده فساد ، بل هو اكبر دلالات فساد عقيدتهم من اساسها.

(٢) د. الباز العريني ، مرجع سابق ، ص٧٦٧، ويذكر ان ذلك تم في ١٥ يوليو بينما اسحق عبيد ورانسيمان يذكرون ان ذلك تم في يوم ١٦ يوليو.

السيمونية[١] والخصى وإعادة عماد اللاتين والسماح للقسس بالزواج وتعميد النساء وهن في وقت الحيض، وتحريف القوانين اليهودية[٢].

وتلى ذلك الشكوي من قيام كريولاريوس باغلاق الكنائس اللاتينية في القسطنطينية، وتصب اللعنة والحرمان على كريولاريوس وليومن اخريده والمستشار البطريركي، دامغة عقيدتهم بالهرطقة[٣].

ولكن هل هذا الحرمان كان خاصا بالبطريوك وجماعته، ام كان عاماً للكنسية الشرقية؟ فكثير من المؤرخين يرون ان ذلك كان خاصا بالبطريرك ورفاقه، ولكن الوثيقة في اكثرمن موقع تعرض بالطعن واللعن لكنيسة بيزنطة ككل، وذلك ان الشعائر المنبثقة منها قد قد وصفت في مجموعها بالهرطقة، وأهم من هذا أن الايمان بانبثاق الروح القدس من الآب (فقط) قد نعت بالتجديف، ولما كان هذا النص وتلك الشعائر ليست من ابتكار كريولاريوس ورفاقه، وانما هي أركان اساسية في الارثوذكسية فإن وثيقة الحرمان لاشك قد قصدت الكنيسة الشرقية ككل لامجرد شخص البطريرك ورفاقه .

أسرع البطريرك ومعه ترجمة يونانية للوثيقة ليعرض الأمر علي الامبراطور غير أن الامبراطور لم يصدق ماقرأ، وشك في هذه الترجمة ، لذا فقد ارسل مندوبا امبراطوريا ليلحق بالوفد ويحصل منهم على نسخة أصلية للقرار ولحق بهم الرسول عند سلمبريا ، وحصل على بغيته وعاد وسلمها إلى الامبراطور، وصدم الامبراطور، وأرسل رسولا ثانيا يطلب من المندوبين

(١) السيمونية هي بيع الوظائف الدينية وقد كانت احد بنود الاصلاح الكلوني الذي تعرضت له الكنيسة في روما في عهد البابا جريجوري السابع (١٠٧٣- ١٠٨٥م/٤٤٦-٤٧٨هـ)، وجاءت هذه التسمية من احدي روايات الانجيل وموجزها ان سيمون Simon الساحر حاول اغراء القديس بطرس ببذل المال مقابل ان يبارك له عمله فاجابه القديس بطرس وفقا لما جاء في سفر اعمال الرسل الاصحاح الثاني "فضتك معك للهلاك لانك حسبت ان تفتن موهبة الله بدراهم." وقد انتشرت السيمونية للحصول علي المناصب الدينية، فالاديرة والكنائس التي جنت ثروات هائلة تطلع اليها رجال الكنيسة عند خلو مناصب شاغليها، وتنافسوا على تقديم الاموال للحكام او كبار رجال الكنيسة لشغل هذه المناصب .

(٢) المعروف ان عيسي عليه السلام ارسل ليصحح المعتقدات اليهودية التي تم تحريفها بعد موسي عليه السلام ، حيث جدف فيها اليهود وحرفوا ، ولكن الغريب ان نجد الكنيسة الكاثولبكية تصر علي وجود هذه القوانين رغم انها محرفة انطلاقا من دعوة عيسي .

(٣) Runciman : op. cit , p48.

البابويين العودة الى القسطنطينية للتفاهم، ولكن همبرت وقد اقترب من الاراضي الايطالية لم يعر هذه الدعوة اهتماما وواصل طريقه إلى الغرب(١).

ويئس البطريرك من موقف الامبراطور فلجأ إلى الرأي العام الذي قام بثورة عارمة ومظاهرات صاخبة ضد اللاتين وضد سياسة اللين التي اتبعها الامبراطور ، فخاف الامبراطور مونوماكوس فبعث الى البطريرك يسترضيه وبرر سلوكه ازاء مندوبي البابا باعتبارهم سفراء ، وأطلق له حرية التصرف(٢).

وفي يوم السبت ٢٤ يوليو ١٠٥٤م/٤٤٦هـ عقد كريولاريوس مجمعا حضره جميع ممثلي الكنائس اليونانية تقرر فيه بعد خطاب طويل استعرض فيه كريولاريوس مساوئ المندوبين البابوين وأنهم مجرد عملاء لارجيروس اللمباردي : قطعهم من الكنيسة وكل من اتصل بهم، وقد سجلت اللعنة عليهم بحضور مندوبي الامبراطور، واحتفظ بوثيقة اللعن في كنيسة القسطنطينية، وتقرر إحراق قرار مندوبي البابا بحرمان البطريرك ولم يحتفظ منه الا بنسخة واحدة بقيت بمحفوظات البطريركية(٣).

بهذا التبادل للحرمان حل الشقاق بين الكنيستين ، مما كرس مزيدا من الانشقاق والتباعد بين الشعبين، واصبحت العلاقات بين بيزنطة وغرب أوروبا بعد انشقاق ١٠٥٤م/٤٤٦هـتتسم بالكراهية، والحقد المتبادل، ففي عام١٠٥٥/١٠٥٦م/٤٤٨هـ كان ليبرت اسقف كامبريا في طريقه الى الحج الى بيت المقدس، ولكن السلطات البيزنطية لم تسمح له بعبور حدود الامبراطورية واصرت على ترحيله إلى قبرص، كما حرضت السلطات الفاطمية على طرد ٣٠٠ لاتنيا من بيت المقدس(٤).

كل هذه التطورات الدينية دعت البابوية إلي إعادة النظر في التحالف الذي كان قائما

---

(١) د .اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص٣٤.
(٢) د. الباز العريني ، مرجع سابق ، ص ٧٦٧.
(٣) Camb, Med. Hist, Vol. IV, P. 272.
(٤) د .اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص٤٦.

بينها وبين بيزنطة ضد النورمان لذلك قام البابا نيقولا الثاني (١٠٥٩-١٠٦١م/٤٥١-٤٥٣هـ) بمصالحة النورمان وعقد معهم معاهدة امالفي سنة ١٠٥٩م واعترف بسلطة زعيمهم روبرت جويسكارد علي ابوليه والامارات اللومباردية[١]. مقرا بهذا تأييد البابوية الكامل لمشروعات النورمان ضد الممتلكات البيزنطية في الجنوب الايطالي .

كانت أولى النتائج المباشرة لهذه القطيعة بين الكنيستين هي اشتداد الكراهية بين أنصار المذهبين وصعوبة إعادة اللحمة إلى الكنيستين رغم المحاولات التي بذلت وبالذات في بيزنطة، واستمر بابوات الغرب يطلقون قرار الحرمان لكل قادم جديد علي عرش بيزنطة فقد حرم البابا جريجوري السابع نقفور بوتنياتس من الكنيسة لانه اغتصب العرش من ميخائيل السابع[٢]، كما أن الامبراطور الكسيوس كومنين تعرض هو الآخر لقرار الحرمان البابوي[٣] .

ولعل تطورا جديدا طرأ هنا على موقف بابوية روما الى جانب عدائهم وقطيعتهم مع الشرق، هو تحالفهم مع النورمان في الحرب التي اعلنوها ضد الممتلكات البيزنطية في جنوب ايطاليا.

لقد أُلقى خلاف ١٠٥٤م ، والقطيعة بين الكنيستين بظلاله على العلاقة بين اللاتين والبيزنطيين ، وامتدت هذه الظلال الى بداية حركة الحروب الصليبية ، وليس من تفسير لكراهية الصليبيين الكاثوليك وحقدهم نحو الإغريق الارثوذكس، سوى العودة الى ذلك التنافر الديني الذي ترسخ بقطيعة ١٠٥٤م بين الكنيستين وتبادل قرار الحرمان بين الزعامات الدينية ، لقد لعب هذا العامل اضافة الى عوامل اخرى مثل السبق الحضاري للبيزنطيين على اللاتين ، وعامل اللغة واختلافها على ترسيخ القطيعة وإيجاد التنافر وفتح الثغرات لسوء التفاهم الدائم بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني.

على أن الدكتور أسد رستم المؤرخ الارثوذكسي يرى أن أسباب هذه القطيعة لم تكن عرقية أو ثقافية أو سياسية ، فجميع هذه الاسباب قد توفرت في القرون الأولى ، ولم ينتج

(١) د. أسد رستم : كنيسة انطاكية ، ج٢ ، ص٢٥٤-٢٥٥.
(٢) رانسيمان : الحروب الصليبية ، ج١ ، ص١٤٩.
(٣) اصدر الباب جريجوري السابع قراراً بحرمان الامبراطور الكسيوس بعد تسلمه للحكم البيزنطي تحت ضغط النورمان الذين مازالوا حانقين على بوتنياتس الذي اغتصب العرش من مخائيل السابع.

عنها هذا الانشقاق ، وإنما السبب الحقيقي يعود الى الذين مهدوا لهذا الانشقاق من رجال الكنيستين وفساد روحهم[١]، وهو تبرير عاطفي فمع الاقرار بغطرسة كريولاريوس وصرامة الكاردينال همبرت ، إلا أنه لايمكن إغفال الجوانب الأخرى التي فجرت هذا الخلاف ، كما ان مؤرخاً آخر يعيد أسباب هذا الخلاف الى رغبة كنيسة روما في السيطرة والزعامة ، فعندما كانت هذه السيطرة خاصة بالغرب فإن بيزنطة لم تعترض، ولكن ما ان بدأت هذه السيطرة تسعى لمد نفوذها الى سائر أنحاء العالم البيزنطي بدأت المصاعب في الظهور ، ويعترف هذا المؤرخ بأن الفروقات السياسية والثقافية والحضارية قد أدت الى تباعد تدريجي بين الشقين ، ولكن عندما بدأت الفتن الكبرى مثل قطيعة فوشيوس وقطيعة ١٠٥٤ فقد تأكد الانشقاق والفرقة والتي مازالت الى العصر الحاضر[٢].

وهناك من المؤرخين من يرى ان هذا الانشقاق عاد بالوبال اكثر من اي شيء على الامبراطورية البيزنطية، إذ أنه أكد زيادة سلطة البطريرك وتفوقها في بعض الاحيان على سلطة الامبراطور[٣]، كما أن هذه القطيعة قضت على كل احتمال لما يمكن ان يجري مستقبلاً من تفاهم مع الغرب ، ونظراً لأن الامبراطورية البيزنطية كانت في حاجة ماسة الى مساعدة الغرب ، وخاصة أمام تقدم هجوم السلاجقة وتهديداتهم في الشرق، وفعلت هذه القطيعة فعلها في ضياع جنوب ايطاليا حيث نقضت البابوية تحالفها مع البيزنطيين وتحالفت مع النورمان[٤].

إن قطيعة ١٠٥٤ كانت إحدى المظاهر التي تعرضت لها الامبراطورية قبيل الحروب الصليبية، واثرت في اوضاعها وكان لها دورها في الاحداث التي تلت ذلك سواء في هجمات وغزوات النورمان لجنوب ايطاليا حيث ممتلكات الامبراطورية البيزنطية أو لجنوب الامبراطورية حيث كان السلاجقة يبرزون وينتزعون أملاك الامبراطورية، وهو ما سنستكمله في النقطتين التاليتين.

---

(١) أسد رستم : كنيسة انطاكية ، ج٢ ، ص٢٤٧.
(٢) تيموثي وير : الكنيسة الارثوذكسية، ترجمة هاشم الحسيني، بيروت : منشورات دار النور ١٩٨٢م، ص٧٠.
(٣) Vasiliev : Op. Cit, I , P. 339.
(٤) Camb, Med. Hist, Vol.IV, P. 337.

الغزو النورماني للمتلكات البيزنطية في جنوب ايطاليا (١٠٨١-١٠٨٥م/٤٧٤-٤٧٨هـ)

تعود أول علاقة للنورمان بمنطقة البحر المتوسط عن طريق الحج للأماكن المقدسة، فأول اتصال واضح للنورمان بايطاليا يرجع إلى سنة ١٠١٦م/٤٠٧هـ ، عندما عادت مجموعة من الحجاج النورمان من بيت المقدس ومكثوا في مونت جارجانو Monte Gargano على الشاطىء الشرقي للادرياتيكي. وكانت هناك كنيسة قديمة للقديس ميخائيل موضع احترام من الحجاج النورمان. وهناك جرت محادثات بين النورمان الذين اشتهروا بالعسكرية وبين ميلس Miles الذي قام بثورة فاشلة في أبوليا ، وأوضح ميلس للنورمان أنه بعدد قليل مثلهم من الجنود يستطيع ان يهزم البيزنطيين بسهولة، فوعدوه أن يعودوا واهل بلدهم ليساعدوه.[١]

وهناك رواية أخرى تحكي انه حدث في العام نفسه أن أربعين حاجاً نورمانياً وهم في طريقهم الى وطنهم عائدين من بيت المقدس وجدوا جماعة إسلامية تحاصر سالرنو ، فقاموا بجمع الاسلحة والفرسان من أهل البلد وهزموهم، وعندما طلب منهم أهل سالرنو ان يمكثوا معهم اجابوا بأن كل ما عملوه ما هو الا في حب الله، ولكنهم وافقوا على أن يحملوا معهم وهم عائدين لبلادهم الليمون والجوز والمنتجات الاخرى من الجنوب كوسيلة لجذب النورمان الآخرين لكي يأتوا وليستقروا في أراضي اللبن والعسل[٢]، ولاشك أن الأسطورة لعبت دوراً في هذه الروايات، وهناك احتمال بأن مبعوثا لومبارديا قد اصطحب الحجاج النورمان الى وطنهم لكي يساعد في عملية تجنيد النورمان. و على أي حال فمن المؤكد أنه في سنة ١٠١٧م/٤٠٨هـ عادالنورمان إلى إيطاليا مستعدين للحرب، الا أنه لم يكن هناك شيء يستدعي ذلك بعدما هزم

---

(١) محمود سعيد عمران : معالم تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٢م ، ص٢٧٤ ؛ و رنسيمان : الحروب الصليبية ، ج١ ، ص٨٩.

(٢) محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص٢٧٤.

ميلس في شمال ابوليا هزيمة ساحقة من قبل البيزنطيين في مدينة كان(١).

وهكذا فقد بدأ النورمان من أوائل القرن الحادي عشر يجربون حظهم في الفوضى السياسية الشاملة في جنوب ايطاليا، إذ ظلت المدن الساحلية - التي كانت من بقايا فتوحات جستنيان - تقاوم أمارات اللامبارديين القديمة وجمهوريات الموانيء مثل نابولي وامالفي(٢)، اما جزيرة صقلية الكبيرة التي تبعد عن الشاطيء فكانت تحت سيطرة المسلمين، او بالاحرى كانت مقسمة بين العديد من الأمراء المسلمين، الذين بادل بعضهم بعضاً العداء، وباختصار كانت المنطقة بوتقة ضخمة للفوضى السياسية الإسلامية والبيزنطية، ولم يكن هناك استقرار سياسي، فكان ذلك بشير خير للنورمان ومحل طموحهم(٣).

وفي بداية الأمر عمل النورمان لحساب الآخرين كجند مرتزقة بيد أنهم سرعان ما أقاموا امارات لحسابهم الخاص. وقد أقيم أول مركز نورماني في افرسيا سنة ١٠٣٠م شمالي نابولي إلا أن تجمعهم في مراكز محددة جعل نموهم بطيئاً، ولكن عددهم كان يتزايد باستمرار(٤). لقد كان القرن الحادي عشر هو عصر التوسع النورماني سواء كان ذلك في فرنسا ام في انجلترا ام في جنوب ايطاليا. فقد امتاز العنصر النورماني بنشاطه في التنقل والحرب

---

(١) Edward M. H. , Op. Cit. , P. 371.

(٢) نابولي : هي بريثنوب Parthenopo القديمة ، انشأها الاغريق في القرون الأولى على مقربة من بركان فيزوف ثم استولى عليها الرومان سنة ٣٢٨ ق.م. ، واخضعها القوط سنة ٥٣٦م ، وكانت قد انشقت على عهد الامبراطورية فصارت الاحياء القديمة فيها تدعي بليو بوليس Palaeopolis والاحياء الجديدة تدعى Neopolis اي المدينة الجديدة فعرفت به ، وقد اطلق الرومان هذا الاسم على تسع مدن اخرى خارج ايطاليا منها بلدة شكيم القديمة في فلسطين المعروفة اليوم باسم نابلس ، كما طرقتها فتوحات العرب سنة ٢٢٨هـ.

أما امالفي Amalfi فهي احدى الجمهوريات البحرية الايطالية القديمة ، وكانت سفنها تحمل الى ايطاليا سلع الشرق وخيراته وقد استولى عليها اللنكبرديون سنة ٥٨٩م، وضموها الى دوقية بنفنيتو، وكان لها شأن يذكر ايام سيطرة العرب على حوض البحر المتوسط في القرون الوسطى : انظر : بنيامين التطيلي، رحلته، ترجمة عزرا حداد الطبعة الأولى، بغداد المطبعة الشرقية، ١٩٤٥م ، ص ٦٧، ٦٨.

(٣) هلستر (س.ورن) : اوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة د. محمد فتحي الشاعر ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ص١٧٣.

(٤) محمود سعيد عمران : مرجع سابق ، ص٢٧٤.

-

وركوب البحر [١] وقد جاء توسعهم في جنوب ايطاليا على حساب الممتلكات البيزنطية، في وقت تراجعت فيه قوة الامبراطورية وعسكريتها، وتضاءل فيه نفوذها في المواقع البعيدة عن العاصمة.

من بين الجماعات النورمانية التي نزحت الى الجنوب الايطالي تبرز أُسرة هوتفيل Houtville التي كانت تمثل القوة النورمانية الكبرى في هذه الفترة التكوينية، وتولي رئيس الاسرة تانكرد Tancred بارونيه هوتفيل في نورماندیا ولكنها لم تكف ابناءه الاثني عشر فذهب بعضهم يجرب حظه في الجنوب الايطالي [٢]. واشتهر منهم زعماء ثلاثة هم : وليم وهمفري Hamfri ودروجو Drogo وقد نال الثلاثة صيتاً ذائعاً في ميدان الحرب والقتال، وتقدم هؤلاء الاخوة لمساعدة الامبراطورية البيزنطية سنة ١٠٣٨م لاخراج المسلمين من صقلية وأصبح وليم هوتفيل أميرا على النورمان في ابوليا ١٠٤٢م/٤٣٤هـ وبعد موت وليم سنة ١٠٤٦م/٤٣٨هـ اعترف الامبراطور الالماني الغربي هنري الثالث باخيه دروجو اميرا على ابوليا [٣]. وحدث في ذلك الوقت ان جاء روبرت جويسكارد Robert Guiscard من نورماندیا وهو الاخ الرابع من اسرة هوتفيل ولم يلبث أن أصبح زعيما للنورمان بعد وفاة همفري سنة ١٠٥٧م/٤٤٩هـ، واشتهر روبرت كسياسي ماهر وقائد شجاع لايعرف الرحمة او الوفاء بالعهد في سبيل الوصول الى هدفه [٤]، ووجه كل جهوده نحو غزو جنوب إيطاليا وسلب الدولة البيزنطية نفوذها دون ان يدري ان توسع النورمان في جنوب إيطاليا، وما صحبه من النهب والسلب قد اثار البابوية ضده كما أُثار مخاوفها.

---

(١) حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولي، الطبعة الاولي ، القاهرة دار الفكر العربي ، ١٩٥٨م ، ص٣٨.

(٢) Carlton. J.H.&Marshall.W.Baldwin : History of Europe, NewYork ,the MacMillan company, 1959, Vol.1, p193.

ايضاً فيشر : اوروبا العصور الوسطي، ج١، ص١٣٣.

(٣) جيبون ، مرجع سابق ، ج٣، ص١٥٣،

(٤) محمود سعيد عمران : مرجع سابق ، ص٢٧٥.

واستطاع النورمان أن يهزموا بقيادة روبرت جويسكارد سنة ١٠٥٣م/٤٤٥هـ تحالفا ثلاثيا تكون من البابا والامبراطور هنري الثالث والامبراطور البيزنطي وكانت هزيمة ساحقة حتى أن البابا ليو التاسع اسر ولم يتم فك اسره الا بعد ان اعلن تخليه عن سياسته نحو النورمان[(١)]، وكانت هذه آخر محاولة مشتركة لوقف التوسع النورماني حيث مات هنري الثالث سنة ١٠٥٣م، ولم يكن خليفته وقت ذاك الا طفلا صغيرا، وقررت البابوية ان تكون واقعية ففي سنة ١٠٥٩م/٤٥١هـ، وفي مجمع امالفي اعترف البابا نيقولا الثاني بروبرت جويسكارد دوقا على ابوليا، مما هيأ للنورمان ان يواصلوا فتوحاتهم في يسر فلم تلبث الجمهوريات البحرية ان خضعت لهم ، ولم تحل سنة ١٠٦٠م/٤٥٢هـ حتى لم يبق لبيزنطة سوي حاضرتهم في باري[(٢)]. والتي سقطت بعد ذلك في عام ١٠٧١م/٤٦٤هـ بعد حصار دام ثلاث سنوات ، ورأي البيزنطيون انه رغم الجهود العسكرية والديبلوماسية - التي بذلوها - لكبح جماح النورمان واحتفاظ الامبراطورية باملاكها في جنوب إيطاليا الا أن النورمان نجحوا في طرد البيزنطيين نهائيا من شبه الجزيرة الايطالية. اذ ان سقوط باري هو حدث علي جانب كبير من الأهمية بالنسبة للعلاقات البيزنطية النورمانية، فهو لايعني فقط طرد البيزنطين من إيطاليا وإنما فتح الطريق امام النورمان لتهديد الاملاك البيزنطية عبر الادرياتيكي والبلقان، بل وتهديد وجود الامبراطورية ذاتها[(٣)]. فالزعيم النورماني جويسكارد كان رجلا طموحا، اخذ يتطلع نحو القسطنطينية التي ربما بدت له فريسة سهلة يمكنه الاستيلاء عليها، فبدأ يضع مخططاته التي قد تنتهي في عرش القسطنطينية خاصة وأنه كان يعلم ولمس بنفسه الظروف القاسيةالتي تمر بها الامبراطورية انذاك، فقد مضى اكثر من ربع قرن من الفوضى عاشتها بيزنطة، لم تترك سوى اشباح جيش.

أدرك البيزنطيون خطورة مايجري في ممتلكاتهم في جنوب ايطاليا ، وأدركوا عجزهم عن مواجهته عسكريا، ورأوا أنفسهم بين نارين النورمان في ايطاليا والسلاجقة في آسيا

---

(١) رانسيمان : الحروب الصليبية ، ج١ ، ص٩٠.
(٢) حسن حبشي : الحملة الصليبية الاولي ، ص٤٦. وايضاً : Camb. Med. Hist. , Vol. IV, P.184.
(٣) عادل زيتون : مرجع سابق ، ص ٥٢.

الصغري، وبدأوا يتبنون سياسة جديدة هي سياسة الموادعة ،ولا بأس من المصاهرة طالما ان ذلك سيكسبهم صداقة الزعيم النورماني جويسكارد ويضع حدا لمطامعه .

كان أول من بدأ هذه السياسة هو الامبراطور رومانوس الرابع ديوجنيس (١٠٦٨-١٠٧١م/٤٦١-٤٦٣هـ) والذي عرض زواج أحد أولاده من إحدى بنات جويسكارد الا أن الأخير رفض هذا المشروع[١]، وتابع ميخائيل السابع (١٠٧١-١٠٧٨م/٤٦٤-٤٧١هـ) سياسة سلفه وسعى الي كسب صداقة زعيمهم لتحقيق هدفين هامين : حماية الامبراطورية من أهداف جويسكارد ، واستخدام النورمان في كبح جماح السلاجقة في آسيا الصغرى[٢]، خاصة وقد حلت هزيمة ملاذكرد (١٩ أغسطس ١٠٧١م/٤٦٤هـ). ونجح ميخائيل في اتصالاته التي استمرت مابين (١٠٧٢-١٠٧٤م/ ٤٦٥-٤٦٧هـ) مع النورمان . واسفرت هذه المحادثات عن توقيع معاهدة بيزنطية/نورمانية في اغسطس ١٠٧٤م تضمنت قيام تحالف سياسي بين الطرفين تعهد جويسكارد بموجبه بعدم الاعتداء علي الامبراطورية البيزنطية، والدفاع عنها ضد أعدائها، كما نصت الاتفاقية ضمنيا على اعتراف الحكومة البيزنطية بالوجود النورماني في جنوب ايطاليا من جهة وتنازلها عن حقوق الامبراطورية في تلك المنطقة من جهة اخرى، على أن أهم نصوص الاتفاقية كان الاتفاق على خطوبة ابنة جويسكارد واسمها هيلانه لقسطنطين ابن الامبراطور ووريثه علي العرش البيزنطي[٣]، وجاءت الاميرة النورمانية الى القسطنطينية و تأجل الزواج لان العروسين كانا صغيري السن، ولكن مالبث أن فسد مشروع الزواج ومعه الاتفاقية ، إذ أن خلع ميخائيل السابع عن العرش عام (١٠٧٨م/٤٧١هـ) واعتلاء نقفور بوتانياتس العرش جعل مشروع الزواج وبالتالي الاتفاقية فارغة المضمون حيث أرسل الامبراطور المخلوع الى الدير، كما أرسلت ابنة جويسكارد الى دير للراهبات[٤].

---

(١) Camb , Mid , Hist ,Vol. V, .P181 & Vasilieve , Op. cit. , Vol. 1, P.361.

(٢) Setton : Op.cit.,Vol. I , P. 187.

(٣) Anna Commnen : The Alexiad, Op. Cit . , .P.31.

(٤) د. اسد رستم : كنيسة انطاكية ، ج٢ ، ص٢٥٨

استعان جويسكارد لاعلان الحرب على الامبراطورية بدعى على أنه ميخائيل السابع المخلوع، وأعلن مطالبته بعرشه، وبعودة ابنته هيلانه ، وحصل علي دعم من البابا جريجوري السابع، حين أعلن حرمان الامبراطور المغتصب بوتانياتس وأعلن الحرب عليه(١).

انشغلت بيزنطة بالحروب الداخلية ، واستنفذت فترة حكم بوتانياتس في القضاء علي المتمردين ، ولم تهتم بالتهديدات الحقيقية التي كان يعلنها النورمان ، في الوقت الذي اهتم روبرت جويسكارد في الاعداد لمشروعه الكبير بغزو بيزنطة رغم المعارضة التي لقيها مشروعه لدي بعض أتباعه الذين رأوا في مشروع مثل هذا حربا غير عادلة ضد نصارى(٢).

وفي الوقت الذي كان الكسيوس كومنين يعتلي العرش في أبريل ١٠٨١م/٤٧٤هـ كان روبرت جويسكارد يستعد للانطلاق ضد الامبراطورية مستعينا على ذلك بدعاويه السابقة ، وبالحرمان الجديد الذي أطلقه البابا جريجوري السابع على إمبراطور بيزنطة الجديد . وجد الكسيوس كومنين نفسه امام تحد لابد أن يواجهه بعد أن تخلي عن الشعور باليأس الذي لازمه في الأيام الأولي من فترة حكمه .واتصفت سياسته هنا بنقطتين هامتين عالج بهما هذه الأزمة التي بادرته وستكون محورا لسياسته في المستقبل وعنوانا لها، هما : الدبلوماسية والشجاعة فعلى الصعيد الداخلي : بعث الي الحكام البيزنطيين -الذين لازالوا في مواقعهم في آسيا الصغري- يطلب منهم الحضور الى القسطنطينية بما لديهم من قوات ، ومايمكنهم الحصول عليه من متطوعين جدد، كما قام بعزل حاكم مدينة دورازو واسمه مونوماخوس لانه كان شخصا مشبوها ، وعين مكانه صهره جورج باليولوغوس Gorge Palaeologus(٣) ، وبعثه علي الفور لتلك المدينة ليقوم بتجهيز دفاعاتها واسوارها. وحذر زعماء المناطق الساحلية من مغبة تحركات جويسكارد وطلب منهم اتخاذ الإستعدادت اللازمة.

---

(١) S. Runciman , OP.cit . , P. 59.

(٢) د. عادل زيتون : مرجع سابق ، ص٥٣.

(٣) Anna ,OP.cit, P. 90.

وعلى الصعيد الخارجي اتصل بهنري الرابع ملك المانيا وعرض عليه مشروعاً يقوم بموجبه هنري بهجوم على جويسكارد يتحمل نفقاته الامبراطور البيزنطي ، وأن تكون هناك معاهدة بين العائلتين المالكتين ، ولدفعه الى قبول هذا العرض صحب سفراؤه معهم مقداراً كبيراً من الهدايا والوعود بالمزيد من المال. كما أنه راسل سراً عدداً من القيادات والزعامات النورمانية المناوئة لجويسكارد للوقوف معه مقابل عروض سخية[1]. ووقع معاهدة صلح مع سليمان بن قتلمش زعيم السلاجقة في آسيا الصغرى الذي زوده بفرقة تزيد على سبعة الاف جندي[2]. كما عقد اتفاقية مع جمهورية البندقية لمساعدته بحرياً نظير امتيازات تجارية واسعة في القسطنطينية[3]. وهكذا اتخذ الامبراطور احتياطات واسعة ، ووفر للمواجهة القادمة مع النورمان ما تستحقه من استعداد.

كانت خطة جو يسكارد تقضي باحتلال مدينة دورازو الواقعة على الساحل الشرقي للادرياتيكي وذات الأهمية الكبرى حيث أنها بوابة الامبراطورية البيزنطية من الغرب، فمنها يمتد الطريق الروماني القديم المشهور Viaegnatia إلى تسالونيكا[4] ثم يتجه شرقاً الى القسطنطينية ، وكانت هي عاصمة إقليم ايلليريا والحصن المنيع على الساحل الشرقي للادرياتيكي ولكل هذه المميزات الاستراتيجية قرر جويسكارد أن تكون دورازو هدفه الاول.

---

(١) عادل زيتون : مرجع سابق ، ص٥٧ نقلاً عن : Chalandon, Alixis, P. 69.

(٢) Anna, Op. Cit. , 95.

(٣) قاسم عبده قاسم : مرجع سابق ، ص٩٠ و د.عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ط١ ، دار دمشق للطباعة والنشر ، دمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص٦٥.

(٤) تسالونيكا : هي المدينة الكبيرة المعروفة في مقدونية والثغر التجاري الشهير على الزاوية الشرقية الشمالية من الخليج المعروف باسمها ، كانت في العصور القديمة تدعى ثرمه Therma ، جدد بناءها القائد قسندر Gassander الذي تولى الملك على مقدونيه سنة ٣٠٠ ق. م. واطلق عليها اسم تسالونيكه Thessalanica تكريماً لتساليه زوجته ، اخت الاسكندر الكبير وابنة فيليب المقدوني ، استولى عليها الرومان سنة ١٦٨ ق.م. واصبحت مدينة حرة سنة٤٢ ق.م. لأهمية موقعها ، ولهذه المدينة مقام كبير في تاريخ الكنيسة النصرانية ، اذ زارها بولس مبشراً سنة ٥٣م. وكتب فيها رسالتين الى اتباع المسيح فيها ، انظر بنيامين التطيلي ، الرحلة ، ص٥٧.

ففي النصف الثاني من شهر مايو ١٠٨١م عبر جويسكارد بقواته الادرياتيكي بعد أن ترك ابنه روجربورصا نائباً عنه في أبوليا وكلابريا ووصل إلى آفالونا التي كان ابنه بوهيموند قد احتلها حيث ضم إليه ابنه واتجها معاً الى جزيرة كورفو البيزنطية[١] وتمكنا من احتلالها، ومن ثم بدأت القوات النورمانية تتجه شمالاً الى دورازو واحتلت السهل الممتد أمامها ثم بدأت في حصارها في ١٧ يوليه ١٠٨١م[٢]. وكان من حسن حظ دورازو أن جورج باليولوغوس كان قد وصلها قبل وصول جويسكارد فاصلح من تحصيناتها وقوى الروح المعنوية لدى سكانها الذين هالتهم أدوات الحصار ودك الحصون التي جاء بها جويسكارد معه. وهنا جاء دور البندقية حيث ابحر اسطولها بقيادة الدوج دومينكو سيلفو الى دورازو، ودخل في معركة عنيفة مع الاسطول النورماني الذي لقي هزيمة منكرة حتى ان بوهيموند نجا بصعوبة بالغة، ثم نقل البنادقة المعركة الى البر فهاجموا معسكر جويسكارد واعملوا فيه القتل والسلب والنهب وعادوا الى سفنهم[٣]. كان من نتيجة هذا الهجوم البندقي المباغت ان تحطم الاسطول النورماني وفك الحصار عن دورازو، كما ان بقايا حملة جو يسكارد اصبحت محاصرة حيث قطع اي اتصال بينها وبين ايطاليا فانقطعت الامدادات الغذائية والعسكرية والبشرية، وكان نتيجة ذلك ان تقوت الروح المعنوية للمحاصرين في دورازو، كما أن المدن الأخرى التي سبق أن احتلها النورمان أعلنت الثورة والتمردعلى التواجد النورماني.

وصل الامبراطور الكسيوس كومنين الى قرب المدينة المحاصرة حيث عسكر هناك وفي ١٥ اكتوبر ١٠٨١م عقد اجتماعاً لكبار قادته لمناقشة الخطة القتالية، وبعد مناقشات مطولة قرر الامبراطور - رغم معارضة بعض قادته- شن هجوم مباشر على القوات النورمانية، ودارت معارك قاسية صباح يوم ١٨ أكتوبر كانت وبالاً على الجيش البيزنطي، حيث تمزق هذا الجيش

---

(١) جزيرة كورفو Corfu هي جزيرة Carcyra القديمة في بحر اليونان على مسافة من شاطيء ابيروس Apirus، كان تنازع السيطرة عليها من أهم الاسباب التي أدت الى حرب البالوبونيز بين اثينه واسبرطه سنة ٤٣١ ق.م. أنظر : بنيامين التطيلي، الرحلة، ص٧١.

(٢) Anna, Op. Cit. , P.P. 98-99.

(٣) Ostrogorowski, Op. Cit., P. 317.

ونجا الامبراطور بصعوبة بعد أن فر من المعركة وبلغت خسائره اكثر من خمسة آلاف قتيل[(١)]. وكانت أهم نتائج المعركة تمزق جيش الامبراطور الذي اجتهد في جمعه حيث انسحبت بعض الفرق عائدة الى بلادها ، وأصبحت دروازو بدون حامية ولقمة سائغة للنورمان ، وشد هذا الانتصار من الروح المعنوية للنورمان وزادتهم انتعاشاً المكاسب المادية التي حصلوا عليها من المعسكر البيزنطي وكان أهمها الخيمة الامبراطورية[(٢)].

ابتعد الامبراطور قليلاً عن أرض المعركة حيث اتجه الى مدينة تسالونيكا ليتمكن من لملمة جراحه وإعادة تكوين جيشه المهزوم، وهنا تتبدى شجاعة الامبراطور الكسيوس وطموحه فرغم هزيمته القاسية الا انه بدأ يراسل زوجته وأمه وشقيقه في القسطنطينية ليمدوه بالاموال ليتمكن من جمع الجيش وكسب الحلفاء والمرتزقه، وتكونت في القسطنطينية حركة لجمع كل ما يمكن جمعه للمجهود الحربي، فأرسلت أم الامبراطور وزوجته كل ما تملكان من ذهب وفضه الى دار السك الامبراطوري، واستطاع شقيقه حنا ان يقنع البطريرك - وكان بطريرك القسطنطينية في هذه الفترة البطريرك بوستراس (١٠٨١-١٠٨٤م/٤٧٤-٤٧٧هـ)- بتحويل ثروة الكنائس الذهبية والفضية وايقوناتها الى عملات[(٣)] ، ووقفت بعض العائلات البيزنطية موقفاً مشرفاً.[(٤)]

حل الشتاء فعاد الامبراطور إلى عاصمته ، وعاد جويسكارد الى باري بعد أن فك الحصار عن دورازو ، ولكنه ما لبث أن عاد الى حصارها. وفي هذه المرة جاء مزوداً بخطط جديدة كان أهمها الضغط على المدينة ، واخذها عن طريق المفاوضات أو الخديعة والتآمر وبعد حصار قصير استطاع جويسكارد شراء أحد حراس الأبراج واسمه دومنيك Dominic[(٥)] الذي

---

(١) جيبون : مرجع سابق ، ج٢ ، ص١٦٩ - ١٧٠.
ويرجع جيبون اسباب هزيمة الامبراطور الى احتماء جويسكارد وجيشه بنهر صغير، والى تفتيت الامبراطور لقوة جيشه وتقسيمه الى فرقتين، والى وجود زوجة جويسكارد جايتا Gaita بين المحاربين النورمان تنصح وتحض وتحذر.

(٢) Anna ,Op.cit, P.115.

(٣) Anna ,Op.cit, P.117.

(٤) المعروف ان الامبراطور الكسيوس كومنين رغم انه جاء ممثلاً للارستقراطية العسكرية ، الا انه استطاع ان يجمع حوله ايضاً الارستقراطية المدنية وينهي ذلك الخلاف الذي استمر طويلاً بين الفئتين المتنافستين.

(٥) يشير شالندون الى هذه الخيانة ، كما يذكر جيبون ان الثمن كان عروساً غنية (ج٣ - ص١٧١) ، فيما نجد آنا كومنين تغفل هذه النقطة ربما مجاملة للبنادقة حلفاء والدها في هذه الحرب.

سهل له الاستيلاء على المدينة عن طريق الخيانة. وبالاستيلاء على دورازو في ٢١ فبراير ١٠٨٢م/٤٧٥هـ يكون جويسكارد قد نفذ المرحلة الأولى من خطته، وكانت مرحلته الثانية هي الاستيلاء على تسالونيكا، التي ستفتح أمامه الطريق الى القسطنطينية وهي المرحلة الثالثة من خطته .

وبدأ الامبراطور يجدد اتصالاته بامبراطور ألمانيا، وبأعداء جويسكارد في ايطاليا، واثبتت هذه الدبلوماسية نجاحها ، فقد وصلت الى جويسكارد الأنباء وهو يواصل تقدمه في اراضي الدولة البيزنطية حتى وصل الى كستوريا أن هناك تمرداً وقلاقل في مملكته، كما وصلته استغاثة من البابا جريجوري السابع (نصيره في هذه الحرب) ليسرع لإنقاذه من عدوه هنري الرابع الذي كان يحاصره في روما[١]. وقعت هذه الأنباء على جويسكارد وقع الصاعقة ، فعقد اجتماعاً موسعاً لقادته ومرافقيه وأبلغهم بما يجري في ايطاليا ، وعرض عليهم المبررات التي توجب عودته اليها لمعالجة الموقف ، وقال لهم : "ان الرجل الذي يهاجم أراضي الآخرين يجب ان لايهمل اراضيه" ومن ثم غادر المعسكر بعد ان عين ابنه بوهيموند قائداً للحملة ونصحه بعدم التخاذل أمام البيزنطيين[٢].

وبدأ بوهيموند في قيادته للحملة بتغيير خط سيرها فبدلاً من أن يتقدم لامتلاك تسالونيكا ، نجده ينحرف جنوباً ويحتل مدينة يوانينا Jaunina ، ولعله أراد بذلك أن ينتظر والده للهدف الأكبر وهو احتلال القسطنطينية وبالتالي أراد أن يوسع قاعدته في هذه المدينة ويجعلها قاعدة جديدة للهجوم ، كما أن هذا الانتشار يمثل مزيداً من الانهاك للامبراطورية البيزنطية وجيوشها، واستطاع بوهيموند في مرتين متتاليتين هزيمة جيشين قادهما الامبراطور الكسيوس بنفسه.وتدافع آنا كومنين عن هزيمة والدها وتعيدها الى الجواسيس الذين كانوا في جيش والدها من المرتزقة ، وخيانات بعض الفرق وانسحابها أثناء القتال[٣]. ويبدو أن هذا

(١) د. اسحاق عبيد : مرجع سابق ، ص٥٤.
(٢) Stephenson, Op. Cit., P. 301.
(٣) Anna ,Op.cit, P.124.

كان أمراً معتاداً فكثيرة هي تجارب الامبراطورية البيزنطية مع انسحاب الفرق المرتزقة في أصعب الاوقات.

استمر بوهيموند يحقق الانتصارات ويستولي على المدن ، إلا أن أول هزائمه جاءت حين كان يحاصر مدينة لاريسا Larissa الواقعة في مقاطعة تساليا ، فاستغاث سكانها بالامبراطور، الذي عاد مسرعاً من القسطنطينية ولأول مرة استطاع هزيمة القوات النورمانية وكان ذلك في ربيع ١٠٨٣م[١].

عاد الامبراطور الكسيوس الى اسلحته التي يجيدها وهي الدبلوماسية والحيلة فبدأ يتصل سراً بكبار قادة الحملة النورمانية وطلب منهم احراج بوهيموند لكي يدفع لهم كافة مرتباتهم عن السنوات السابقة ، ووعدهم إذا لم يستطيعوا الحصول عليها من بوهيموند بدفعها لهم اذا هم انضموا اليه ، وعمل جواسيس الامبراطور عملهم في تفريق رجال بوهيموند من حوله ولم يجد بوهيموند من حل سوى ان يعود الى ايطاليا ليحضر الاموال بعد أن عين اشهر قادته برينيوس Bryennieus لتولي أمر الحملة[٢].

تحرك الامبراطور سريعاً مستغلاً مغادرة بوهيموند للمعسكر النورماني وبدأ بالهجوم عليهم عبر حملات متعددة وتمكن أخيراً من استعادة معظم المدن التي سبق أن استولى عليها جويسكارد وابنه، ماعدا ثلاثة مراكز رئيسية هي دورازو وافالونا وجزيرة كورفو.

وبدأ الامبراطور يحث حلفاءه البنادقة لمعاودة الهجوم على الحاميات النورمانية حيث استطاع استخلاص دورازو منهم في صيف ١٠٨٣م[٣]. كما استعاد آفالونا في خريف عام ١٠٨٤م/٤٧٧هـ.

نجح جويسكارد في اخماد ثورة أتباعه ، وفي اجبار هنري الرابع على مغادرة إيطاليا ، ولكنه صعق بعودة ابنه بوهيموند إليه فاشلاً ، وصمم على استئناف الحرب ضد بيزنطة. ونظراً

---

(١) Anna ,Op.cit, P.126.

(٢) د. اسحاق عبيد : مرجع سابق ، ص٥٥.

(٣) د. عادل زيتون : العلاقات السياسية والكنسية ، مرجع سابق ، ٦٦.

للحالة النفسية لابنه بوهيموند فقد شاركه إبناه روجر بورصا وجاي، حيث قادوا حملة لاستعادة افلونا والتي استطاعوا استعادتها وأضافوا اليها مدينة بوترينتو ، وفي أكتوبر ١٠٨٤ غادر جويسكارد ميناء برنديزي[١] على رأس قوات كبيرة وأسطول حوى ١٢٠ سفينة والتقى بولديه عند بوترينتو ومن ثم تابع طريقه إلى جزيرة كورفو لاجهاض الثورة التي قام بها سكان هذه الجزيرة ضد الوجود النورماني ولرفع الحصار البيزنطي البندقي الذي فرض على الحامية النورمانية[٢]. والتقت الجيوش الثلاثة في ساحل جزيرة كورفو وهناك حلت هزيمة ساحقة بالتحالف البيزنطي البندقي سببها إهمال البنادقة. وكان لهذه المعركة أبلغ النتائج على القوى المتصارعة، فبالنسبة للنورمان فقد تمكنوا من رفع الحصار وثبتوا مواقعهم، وبالنسبة للبنادقة فقد كانت الهزيمة قاسية نفسياً بعد انتصاراتهم المتوالية، وقد خسروا سفناً كثيرة وحملوا الدوق دمينكو سيلفو مسؤلية الهزيمة فعزلوه وعينوا خلفاً له، وبالنسبة لبيزنطة فقد بدت هذه الهزيمة مثبطة لهمة الامبراطور والجيش البيزنطي الذي بدأ يتنسم الانتصارات، وكانت مفزعة لهم خوفاً مما سيتبع هذا الانتصار بعد عودة روبرت جويسكارد لقيادة الجيوش النورمانية.

إلا أن القوات النورمانية عقب هذا الانتصار ما لبثت ان منيت بكارثة هائلة في شتاء ١٠٨٥م، حيث انتشر وباء ذهب ضحيته عدد هائل من الجنود والقادة، حتى ان بوهيموند -الذي كان قد عاد وانضم إلى الحملة- قد سقط نفسه مريضاً، وعاد إلى إيطاليا للمعالجة، ولم ينج من هذا المرض- الذي قد يكون الطاعون[٣] - روبرت جويسكارد نفسه ، حيث سقط مريضاً ومالبث ان توفى في ١٧ يوليو ١٠٨٥م/٤٧٨هـ ، عن عمر يناهز السبعين عاماً[٤].

كان جويسكارد كما يذكر احد كتاب الحوليات في القرن الثاني عشر[٥] يخطط لتتويج

---

(١) برنديزي Brindisi ، بلدة تجارية مشهورة لعبت ادواراً تاريخية ، على شاطيء البحر الادرياتيكي ، كان عرب صقليه قد احتلوها سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م وحكموها مدة من الزمن. انظر : رحلة بنيامين ، ص٧٠.

(٢) Anna ,Op.cit, P.145.

(٣) اسحاق عبيد : مرجع سابق ، ص٥٦.

(٤) Anna ,Op.cit, P.147.

(٥) هو : Richard Pictavenis وورد قوله في Chronica, in, m. Co. H. SS. Vol 26, P.79. نقلاً عن اسحق عبيد ، ص٥٨.

ابنه بوهيموند على عرش الامبراطورية البيزنطية، كما كان يطمع في تكوين امبراطورية شاسعة في الشرق الاسلامي، ولكن موته أنهى كل هذه المخططات اذ ما لبث جنود وقوات الحاميات النورمانية أن أخذوا في العودة الى إيطاليا ، وتنفس البيزنطيون الصعداء ، ولم يبق امام الكسيوس كومنين سوى أن يسترجع دورازو ، والتي استعادها مقابل كميات هائلة من الاموال والعروض السخية حيث رتب سكانها مؤامرة انتهت بإجلاء الحامية النورمانية[١].

لقد كانت هذه الحرب التي استمرت خمس سنوات (١٠٨١-١٠٨٥م/٤٧٤-٤٧٨هـ) محكاً عسكرياً للامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ، فقد صقلته وتبدت فيها مهارته العسكرية والدبلوماسية ، كما أنها كانت تجربة عملية للتصادم بين البيزنطيين واللاتين بما مثل كتاباً مفتوحاً للامبراطور البيزنطي للتعرف على خطط واحلام اللاتين وعلى ذلك القدر من الحقد والكراهية اللتين يحملونها لبيزنطة، كما أنها قدمت نموذجاً للاستراتيجية التي يمكن ان يعتمدها الامبراطور مستقبلاً بعقده لتحالفات كالتي عقدها مع الامبراطور الالماني وجمهورية البندقية وحتى السلاجقة.

على الجانب الآخر كانت هذه الحرب هي التي لفتت انظار أبناء روبرت جويسكارد واللاتين عموماً نحو الشرق ، المليء بالكنوز والثروات والمغامرة.

إلا أن أهم افرازات هذه الحرب هو تلك العداوة التي ما تلبث ان تكبر بين النورمان والامبراطورية البيزنطية، حتى تصبح الامبراطورية البيزنطية هدفاً يسعون الى اسقاطه والاستحواذ عليه، بل وستكون مبرراً لمشاركة بوهيموند على رأس جماعة النورمان في الحرب الصليبية الأولى، وستكون من أهدافهم الرئيسية في هذه المشاركة تحقيق المكاسب على حساب الامبراطورية البيزنطية، وفي أراضيها ، لذلك كان هناك ما يبرر شك الامبراطور الكسيوس وخوفه من اللاتين عموماً ومن النورمان خصوصاً الذين أقبلوا في ركاب الحملة الصليبية الاولى، ذلك الشك والخوف الذي تطور إلى صراع مرير خاضته الإمبراطورية البيزنطية ضدهم.

---

(١) Anna ,Op.cit, P.148.

لقد كان التهديد الذي وجدت الامبراطورية نفسها تقاسيه حيث تهددها الانهيار الكامل نتيجة لهذه الحرب التي شنها النورمان بتأييد من البابوية مما ضاعف من كراهية البيزنطيين للنورمان والغرب اللاتيني عموماً، وأصّل العدواة التي يكنها الطرفان لبعضهما، وهي عداوة ما تلبث أُن تبرز بعد أول احتكاك عند مقدم الحملة الصليبية الأُولى إلى الاراضي البيزنطية.

على أن هذه الحرب التي شنها النورمان على الامبراطورية البيزنطية كان لها فوائدها لدى الادارة البيزنطية ، فقد كشفت عن عوامل على قدر كبير من الأهمية في مستقبل العمل الدبلوماسي البيزنطي، كما ان القوى الصغيرة والعديدة في منطقة البلقان كانت على استعداد لاعطاء ولائها لمن يدفع بسخاء ، ولهذا كان لابد ان تراقب باهتمام. واتضح أنه من الضروري معالجة ذلك العجز الذي كان يعوز البحرية البيزنطية، ورغم أُن الحل السريع الذي لجأ اليه الامبراطور كان باهظ التكاليف الا أنه كان فعالاً ، ولكنه لايصلح ان يكون بديلاً عن البحرية البيزنطية القوية والقادرة على حماية شواطيء الامبراطورية.

كما وجد الامبراطور أن ضرب الاعداء ببعضهم هي سياسية ناجحة وتمثل دفاعاً جيداً عن الامبراطورية ، وستكون أحد أمضى أسلحته في المشاكل القادمة ، خصوصاً خلال الصراع مع السلاجقة ، ومع اللاتين في حربهم الصليبية الاولى وعند بروز أطماعهم في الامبراطورية البيزنطية وخلافاتهم معها.

وكان من الفوائد أيضاً اعادة النظر في المجندين الذين يمكن أن يستخدموا في الجيش البيزنطي ، على أنه يبقى من الأفضل لو خلا هذا الجيش من الفرق المرتزقة.

وكلها دروس وعاها الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين، وستكون محوراً لسياساته وسياسة خلفائه من بعده طوال حكمهم الذي امتد من عام ١٠٨١م/٤٧٤هـ الى عام ١٢٠٤م/٦٠٠هـ ، حين لم يستطع حكام تلك الفترة ان يواصلوا سياسة الكسيوس ، فانقض عليهم اللاتين وحققوا أهم أهدافهم باسقاط الامبراطورية البيزنطية.

كانت الحرب النورمانية هي إحدى العواصف التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية ، وكانت العاصفة الثانية تلك التي جاءت من الشرق ، عبر الصراع مع السلاجقة.

الصراع بين بيزنطة والسلاجقة

يعود أصل السلاجقة الى الترك الذين كانوا يقيمون في الصحراء الواسعة الشاسعة التي تمتد من حدود الصين الجنوبية والغربية حتى شواطيء بحر قزوين ، وكثرت هجراتهم إلى شواطيء جيحون ، خصوصاً وقت انهيار الدولة السامانية[١].

وقد أطلق على هذه القبائل اسم السلاجقة بعد ان تولى رئاستها سلجوق ويذكر ابن الاثير ان «سلجوق كان ابن تقاق وكان شهماً ذا رأي وتدبير وكان مقدم الاتراك الغز ومرجعهم ، كما كان قائد جيش ملك الترك الذي يسمى بيغو، وان هذا الملك أراد ان يغزو بلاد الاسلام فنهاه تقاق عن ذلك وحصلت بينهما مشادة الا أنه عاد لرأي تقاق، ولما كبر سلجوق ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك واتخذه قائداً للجيش، وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من تقدمه وطاعة الناس له والانقياد إليه وأغرته بقتله، ولما سمع سلجوق ذلك سار بجماعته كلهم ومن يطيقه من دار الحرب الى دار الاسلام وسعد بالإيمان ومجاورة المسلمين[٢]». ويسر اعتناق السلاجقة الاسلام لهم، فرصة التقرب من حكام المسلمين المجاورين لهم والتدخل أحياناً في المنازعات التي تثور بينهم[٣].

وبوفاة محمود الغزنوي سنة ٤٢١هـ-١٠٣٠م، اخذت قوة الغزنويين بعده في الضعف، مما يسر للسلاجقة التوسع على حساب جيرانهم، وكان أن هزم زعيم السلاجقة في هذه الفترة طغرل بك السلطان مسعود الغزنوي في معركة "نسا" في عام ٤٢٦هـ(١٠٣٤م)، فاضطر مسعود الى عقد صلح مع السلاجقة وترك لهم منطقة خرسان[٤]. وواصل السلاجقة انتصاراتهم على الغزنويين ، حيث أنزلوا هزيمة ساحقة بجيش السلطان مسعود في موقعة داندانقان

---

(١) عصام الفقي : بلاد الجزيرة في اواخر العصر العباسي، القاهرة : دار الكتاب العربي، (بدون سنة نشر)، ص٦٣.

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، بيروت : طبعة دار الفكر ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م حوادث سنة (٤٣٢) جـ٨ ، ص٢٢ ، وتقاق او دقاق تعني بالتركية القوس الجديد.

(٣) عبد النعيم محمد حسنين : دولة السلاجقة ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥م ، ص١٨.

(٤) ابو الفضل البيهقي : تاريخ البيهقي ، ترجمه الى العربية يحي الخشاب وصادق نشأت ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٢م، ص٥٨١ ، وايضاً : ابن الجوزي (ابو الفرج عبدالرحمن بن علي) : المنتظم في تاريخ الملوك والامم، الطبعة الأولى ، الدكن : دائر المعارف العثمانية ، ١٣٥٩هـ ، ج٨ ، ص٢٣٣.

سنة ٤٣١هـ(١٠٣٩م) ومن ثم اتجهوا الى نيسابور واستولوا عليها وأعلنوا قيام الدولة السلجوقية.

وتوج السلاجقة انتصاراتهم حين دخلوا بغداد سنة ٤٤٧هـ(١٠٥٥م) وأسقطوا الدولة البويهية التي كانت مسيطرة على الخلافة العباسية ، واعترف الخليفة العباسي القائم بأمر الله بطغرل بك سلطاناً.(١).

انقسم السلاجقة بحسب المواقع التي سيطروا عليها الى عدة أسر ، ومنها تلك الاسرة التي سيطرت على منطقة آسيا الصغرى ، ويسمون بـ «سلاجقة الروم» وجد هذه الأُسرة ومنشؤها سليمان بن قتلمش بن ارسلان بن سلجوق ، وكان أبوه قتلمش من أُبطال السلاجقة الذين عملوا تحت إمرة طغرل بك ، وقد عهد السلطان ملكشاه(٢) الى سليمان بقيادة الحرب ضد البيزنطيين ، حيث ولى القيادة العليا على جميع الجيوش السلجوقية بآسيا الصغرى(٣).

على أن الاحتكاك العسكري بين السلاجقة والدولة البيزنطية يعود إلى زمن باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م/٣٦٦-٤١٦هـ)، حينما كان السلاجقة لايزالون خاضعين لحكم الغزنويين، وازدادت غارات السلاجقة بعد استحواذهم على فارس، اذ قاموا بقيادة طغرل بك سنة ٤٤٦هـ(١٠٥٤م) بتخريب الجهات القريبة بين بحيرة فان في أُرمينيا(٤) ولكنهم فشلوا في الاستيلاء على حصن مانزكرت (ملاذكرد).

وفي سنة ٤٥١هـ(١٠٥٩م) اندفعت الجيوش السلجوقية لأول مرة حتى بلغت سيواس(٥). وأُثار ألب أرسلان الذي خلف طغرل بك بعد وفاته سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م احتمال قيام تحالف بين الفاطميين والبيزنطيين فحرص على أن يحمي نفسه من البيزنطيين بالاستيلاء

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، مصدر سابق ، جـ٨ ، ص٧٢.

(٢) ملكشاه هو ابن الب ارسلان ، ولي السلطنة بعد مقتل والده سنة ٤٦٤هـ . ابن الاثير م المصدر السابق ، جـ٨، ص١١٣.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، اصدرها بالعربية احمد الشنتاوي وابراهيم زكي خورشيد وعبدالحميد يونس ، القاهرة : طبعة دار الفكر ، ١٩٣٣م ، المجلد الثاني عشر ، ص٣٣.

(٤) ابن الاثير : الكامل ، جـ٨ ، ص٦٧.

(٥) فايز نجيب اسكندر : غزو الامبراطورية البيزنطية لارمينية، دراسات في تاريخ وحضارة ارمينية، رقم (٦)، الاسكندرية : دار الفكر الجامعي ١٩٨٨م ، ص١٥.

على ارمينيا قبل ان يمضي الى تحقيق غرضه الأصلي وهو مهاجمة الفاطميين(١) فاشتدت حدة الغارات السلجوقية على أملاك الامبراطورية البيزنطية ، ففي ٢٩ شعبان ٤٥٦هـ/١٦ أغسطس ١٠٦٤م تعرضت "آني" حاضرة أرمينيا لدمار على يد ألب أرسلان(٢) ثم ما لبث ان تبع الاستيلاء عليها ، انتصارات أخرى جعلت السلاجقة هم المسيطرون على أرمينيا.

على أن أهم الغارات الحاسمة بين البيزنطيين والسلاجقة كانت سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م حين خرج الجيش البيزنطي لاسترداد أرمينيا حيث التقى مع السلاجقة في موقعة ملاذكرد الشهيرة التي انهزم فيها البيزنطيون هزيمة ساحقة وتعدى أثر هذه الهزيمة إلى تأثيرات كبيرة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً على الدولة البيزنطية، وجاء هذا التحرك البيزنطي كمحاولة من الامبراطورلوقف الاعتداءات السلجوقية على الامبراطورية ، بل ان السبب في اختيار رومانوس الرابع امبراطوراً بعد أن آل العرش البيزنطي إلى ايدوكيا، كان لمقاومة وردع الخطر السلجوقي الذي أخذ يمزق الامبراطورية.

على أن الامبراطور البيزنطي أرادها معركة فاصلة أعد لها عدتها ، فكون جيشاً كبيراً تصل المبالغات به الى نحو ٣٠٠ ألف مقاتل(٣) وأدوات حصار كثيرة ، وتجاوزاً لهذه المبالغات نقول ان هذه الحملة فاقت استعداداتها ما سبقها من حملات ، على ان السمة الغالبة هنا ان معظم جند هذه الحملة تكونوا من المأجورين حيث كانت الامبراطورية تعاني نقصاً هائلاً في الجند

---

(١) رانسيمان : الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٤.

(٢) فايز نجيب اسكندر : استيلاء السلاجقة على عاصمة ارمينية آني، دراسات في تاريخ ارمينيه ، رقم (٣) ، الاسكندرية : دار الفكر الجامعي ١٩٨٧م ، ص٩.

(٣) ابن القلانسي (ابويعلي حمزه) : ذيل تاريخ دمشق، بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٨م، ص١٠٢، ويروي ابن الاثير في حوادث سنة ٤٦٣ انهم كانوا مائتي الف مقاتل ، الكامل ، ج٨ ، ص١٠٩. ويذكر ابن الجوزي ان جيش الب ارسلان بلغ عشرين الفاً ، وجيش الامبراطور تكون من خمسة وثلاثين الفاً من الافرنج وخمسة ثلاثين الفاً ... (بياض في الاصل) في مائتين بطريق ومقدم مع كل رجل منهم بين الفي فارس الى خمسمائة، وكان معه خمسة عشر الفاً من الغز الذين من وراء القسطنطينية، ومائة الف نقاب وحفار، ومائة الف روزجاري واربعمائة عجلة عليها السلاح والسروج والعرادات والمجانيق منها منجنيق يجره الف رجل ومائتا رجل، ابن الجوزي، المنتظم، ج٨ ، ص٢٦١.

بسبب الاهمال الواضح للعسكرية والعسكريين الذي ساد في هذه الفترة وغلب على الحكم سيطرة الارستقراطية المدنية. شكل الكومان الترك أكثر الفئات المأجورة عدداً، وتولى قيادتهم يوسف تارخانيتوس Tarchaniones التركي المولد، أما الفرقة المختارة فتتمثل في الفرسان الدارعين من الفرنج والنورمان بقيادة روسل باليل النورماني Rousel Bailleul[١]، الذي سنجده في أعقاب الهزيمة التي كان احد اسبابها خيانته ينقلب على الامبراطورية البيزنطية، كما شارك فيها ايضاً فرقة من الروس في عشرين ألف فارس[٢]، وبهذا الجيش الضخم، المتعدد المشارب والنزعات الذي لايصح الوثوق به خرج رومانوس في ربيع سنة ١٠٧١م/٤٦٣هـ ليسترد ارمينيه من السلاجقة.

ويورد المؤرخون في تفاصيل موسعة خبر سير الامبراطور نحو الشرق ، وقد سلك الطريق البيزنطي القديم الذي اجتازه الاباطرة في حروبهم وجعل نصب عينيه أن يستولي على حصن أرمينيه وأن يشحنها بالعساكر قبل أن يقدم الترك من الجنوب ، ويذكر نقفور برينيوس[٣] ان الامبراطور عقد مجلساً حربياً استشارياً ضم كبار قادته وأشهرهم وناقشوا خطة القتال واستشارهم الامبراطور حول مواصلة الزحف لقتال السلاجقة في عقر دارهم او البقاء في أراضي الامبراطورية انتظاراً لوصول الاعداء ، فاختلفت الآراء وكان رأي فريق المنافقين المتخلفين - على حد قول برينيوس - هو عدم الانتظار إطلاقاً والإسراع بالزحف . وكان هناك معارضة لهذا الرأي ، وانفض المجلس بفوز فريق الداعين الى مواصلة الزحف ، وانحاز الإمبراطور إلى هذا الرأي لأنه كان ثملاً بانتصاراته السابقة التي ملأته بالتكبر والغطرسه[٤].

وكان ليون دياباتينوس Leon Diabatenos -وهو السفير الذي بعثه الإمبراطور

---

(١) رانسيمان : الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٧.
(٢) ليلى عبدالجواد اسماعيل : تاريخ الروس من خلال المصادر العربية، القاهرة : دار الثقافة العربية ١٩٩٠م، ص١٨.
(٣) د. فايز نجيب اسكندر : البيزنطيون والاتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد في مصنف نقفور برينيوس ، بحوث ودراسات في تاريخ الامبراطورية البيزنطية، رقم (١)، الاسكندرية : دار نشر الثقافة ، ١٩٨٤م ، ص١٣.
(٤) المرجع السابق ، ص١٤.

رومانوس الى ألب أرسلان - قد كتب رسالة الى الامبراطور البيزنطي يعلن فيها أن السلطان ألب أرسلان علم باخبار الحملة البيزنطية فانتابه الرعب بسبب هذا الحشد الهائل من الجند لذا ترك بلاد فارس ولاذ بالفرار الى بغداد [١]. فصدق رومانوس ما ورد في هذا التقرير وقام بتقسيم جيشه الى قسمين، احتفظ بالقسم الأول، أما الثاني فقد أرسله إلى اخلاط.

كانت خطة الب ارسلان تقوم على جذب الامبراطور داخل البلاد ، واثارته ليخاطر بنفسه ويتقدم الى الأمام ، وكان السلطان يرسل بفرسانه الى المعسكر البيزنطي وبمجرد وصولهم اليه يعودون على أعقابهم كأنهم يلوذون بالفرار ، وبفضل تكرار هذه التكتيكات الحربية تمكن السلاجقة من القبض على بعض القادة البيزنطيين [٢].

تلقى رومانوس أثناء مقامه في مانزيكرت أنباءاً عن اقتراب ألب أرسلان، فانحرف إلى جهة الجنوب الغربي ليلحق من جديد بالجيش قبل أن ينقض عليه السلاجقة، غير انه تناسى هنا مباديء الحرب البيزنطية بارسال الكشافه فكان ان انقض عليه ألب أرسلان وهو ينزل بالوادي في الطريق الى اخلاط مترقباً أتباعه (الجمعه ٢٦ أغسطس ١٠٧١م/١٤ ذي القعدة ٤٦٣هـ). وكانت هزيمة ساحقة حيث وقع الامبراطور اسيراً بعد أن اصابته الجراح [٣].

لقد اقترنت حملة رومانوس بمظاهر الفشل منذ بدايتها، فهذا الخليط العجيب الذي حواه

(١) اورد سبط بن الجوزي رواية تكاد تكون متفقه مع رواية برينيوس ، اذ قال : «ووردت رسل ملك الروم ، وضجر السلطان من المقام بحلب فكر راجعاً .. وكان رجوعه شبه الهارب ، وعاد رسول الروم مستبشراً الى صاحبه ، فقوي بذلك عزم ملك الروم على اتباعه وحربه» ولم يذكر سبط ابن الجوزي اسم السفير الذي اعتقد ان الب ارسلان قد فر هارباً ، مما يؤكد جهل البيزنطيين بتكتيكات واستراتجية السلاجقة ، انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٩ ورقة ٣٧٠ ، مخطوط بمكتبة احمد الثالث في استانبول رقم (٢٩٠٧) . نقلاً عن صفحة رقم ٦٤ ، هامش رقم ٦٩، من ملاحظة مترجم كتاب نقفور برينيوس السابق.

(٢) برينيوس : المرجع السابق ، ص١٦.

(٣) ابن الاثير : الكامل ، مصدر سابق ، ج٨ ، ص١١٠. وهناك خلاف بين المصادر والمراجع في تحديد تاريخ معركة ملاذكرد فأدرجها البعض تحت أحداث يوم الجمعة ١٩ اغسطس سنة ١٠٧١م/٧ ذي العقدة ٤٦٣هـ والبعض الآخر ادرجها تحت أحداث يوم الجمعة ٢٦ غسطس ١٠٧١م/١٤ ذي القعدة ٤٦٣هـ ، ويذكرها الدكتور الباز العريني (ص٨٥٤) بتاريخ ١٦ اغسطس ويبدو ان تاريخ ٢٦ اغسطس هو الأصوب لأن مؤرخاً بيزنطياً معاصراً هو اثنيسيسي Atheniensis ادرجها تحت ذلك التاريخ ، انظر فايز اسكندر : البيزنطيون والسلاجقة في معركة ملاذكرد في مصنف برينيوس ، مرجع سابق ، ص٩٩.

جيشه من القوميات المتنافرة كان عاملاً هاماً في عدم التئام وحدة الجيش، وكان فريق من القادة يكن العداوة للامبراطور، في حين انحازت فرقة الكومان الاتراك الى السلاجقة بعد ان تغلبت عليهم رابطة الدم ولأنهم لم يتقاضوا اجورهم المتأخرة، كما ان روسل باليل ومن معه منالفرنجة قرروا أنهم لن يخوضوا المعركة، بالاضافة الى ان اندرونيكوس دوكاس وهو احد القادة الرئيسيين في جيش الامبراطور قد سارع عندما رأي أن القضية خاسرة بترك المعركة والتوجه الى القسطنطينية[١]، كل ذلك أدى الى الهزيمة .

ويحاول بعض المؤرخين البيزنطيين ان يشككوا في بسالة الامبراطور، وجهله بفنون الحرب والقتال مستندين الى خطأ الامبراطور حين قام بتقسيم جيشه الى قسمين[٢]، كما ان هناك مؤرخين بيزنطيين ايضاً يرجعون ذلك الى ان الامبراطور أراد أن ينفرد بالنصر دون القسم الثاني من جيشه[٣]. وهناك سبب آخر هو ان الارمن قد انسحبوا مثلهم مثل الكومان والاتراك من القتال، بسبب العداوات التي سادت بينهم وبين بقية الفرق قبيل الحرب، كما أن سوء الحظ الذي لازم رومانوس جعله يرتكب عدة أخطاء لم تكن مقصودة أدت في مجملها الى هزيمته[٤].

وتسهب المصادر العربية في وصف كيفية اسر رومانوس وكيف تم التعرف عليه من بين الاسرى، وتذكر حواراً تم بينه وبين الب ارسلان سبق عملية اطلاق سراحه واخذ الفدية منه وتوقيع معاهدة[٥]. على أن الذي يجدر ذكره هنا ان الامبراطور لقي في أسره معاملة طيبه

---

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٩.

(٢) برينيوس : مرجع سابق ، ص٨٤.

(٣) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٤) من هذه الاخطاء ما ذكر من انه بمجيء المساء اعتقد رومانوس ان الاتراك السلاجقة سوف لايخوضون غمار القتال ، لذا قرر ايقاف عملياته الحربية قبل اسدال الليل ، ولابلاغ ذلك الى جيشه الجرار اصدر اوامره باعادة الراية الامبراطورية الى المعسكر، ولكن هذه الاشارة اسيء فهمها، اذ اعتقد الجميع ان الامبراطور اما هزم او توفى ، فعمت الفوضى العارمة ربوع المعسكر البيزنطي ، وانتهز السلاجقة تلك الفرصة المواتية لينقضوا على الجيوش البيزنطية المنسحبه. برينيوس ، ص٩٤.

(٥) ابن القلانسي، ص١٠٤ ؛ ابن الاثير : الكامل، ج٨، ص١١٠ ؛ ابن العبري (ابي الفرج جمال الدين) : تاريخ الزمان ،ترجمة اسحاق ارملة ، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦م، ص١١١. ويذكر ابن الاثير ان الفدية كانت(=)

وتقرر اطلاق سراحه بعد ثمانية أيام، وجرى الاتفاق على أن يبذل فدية، وأن يؤدي جزية سنوية، وأن تعقد مهادنة بين الجانبين، وأن يتم تبادل الاسرى، وان يرسل عساكر الروم متى طلبها ألب أرسلان.

كانت موقعة ملاذكرد نقطة تحول في التاريخ الاسلامي بصفة عامة، وتاريخ غرب آسيا بصفة خاصة، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الروم في أكثر أجزاء آسيا الصغرى[(١)] إلا أن تأثيرها على الدولة البيزنطية كان أكبر وأخطر، واشد ما وقع على الامبراطورية البيزنطية من كوارث حاسمة ، ولم يخف البيزنطيون انفسهم احساسهم وشعورهم، إذ اشار مؤرخوهم مرة بعد أخرى الى ذلك اليوم العصيب، وظهر أن البيزنطيين فقدوا على أرض المعركة ما اتخذوه من لقب حماة العالم النصراني، حتى ان وليم الصوري أدرك أن كارثة مانزكرت بررت الحركة الصليبية، لأن بيزنطة لم يعد بوسعها حماية العالم النصراني في الشرق[(٢)]، ومن أهم الدلالات على عظم الكارثة ان الامبراطورية البيزنطية صارت عاجزة عن أن تلقي بجيش في المعركة لسنوات عديدة مقبلة، كما ان خسارتها لاسيا الصغرى قد افقدها اهم مستودع لتزويد الجيش بالمدافعين عن الامبراطورية، فمن أقاليمها جند الاباطرة معظم قوات الاسطول البيزنطي[(٣)].

كما أن تأثير مانزكرت على الامبراطورية تمثل فيما سادها من تخبط سياسي بعد ذلك حيث أن رومانوس بعد عودته الى القسطنطينية لم يجد ما ينتظره سوى العزل والسمل لعينيه،

(=) الف الف دينار وخمسمائة الف دينار ، بينما يذكر ابن العبري ، انها كانت عشرة الف الف دينار ثم خفضت الى الف الف دينار وثلاثمائة وستون الف الف دينار جزية سنوية !! ويبدو ان المصادر العربية تعودت المبالغة في الارقام دون تدقيق بينما تشير المراجع الاجنبية الى ان رومانوس التزم بدفع الفدية والتي تم جمع جزء منها بعد ذلك من عدة مصادر بعيداً عن خزانة الامبراطورية وفاءاً بالتزام رومانوس وتعهده.

(١) عبدالنعيم محمد حسن : دولة السلاجقة ، مرجع سابق ، ص٥١.

(٢) وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ترجمة د. حسن حبشي ، الطبعة الاولى ، سلسلة تاريخ المصريين رقم (٤٥) ، القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١م ، ج١ ، ص٨٤.

(٣) فيشر : تاريخ اوروبا – العصور الوسطى ، مرجع سابق ، ج١ ، ص١٧٥.

الا أنه قبل أن يتم ذلك خاض رومانوس حروباً اهلية مع ميخائيل السابع وأمه ايدوكيا ومع الحزب المدني الارستقراطي الذين اصروا على عزله ، وقد أدت هذه الحروب التي تمت في جولات الى مزيد من الانهاك لقوى الامبراطورية[1] كما أدت في النهاية الى عزل رومانوس وسمل عينيه، والى استعادة الارستقراطية المدنية للعرش. ولكن لعل سؤالاً يبرز هنا : لماذا لم يقم الب ارسلان بمساعدة الامبراطور رومانوس وفقاً للمعاهدة المبرمة بينهما في حروبه التي خاضها خلال عام وفي أكثر من جولة لاستعادة العرش ؟ ! ولعل الاجابة هي أن ألب أرسلان كانت خطته في تلك الفترة دعم سلطته في منطقة فارس والعراق تحت راية الخلافة العباسية في الظاهر ونفوذ السلاجقة في الواقع كما أنه انشغل بمواجهة بعض الثورات التي اندلعت ضده كما حصل في حصن فضلون الذي اعلن صاحبه العصيان، وانشغاله في قمع فتنة الخانيين بزعامة شمس الملوك صاحب طمعاج[2]. على أن السبب الأهم هو أن ألب أرسلان يمكن ان يكون قد أراد أن تزداد الدولة البيزنطية ضعفاً على ضعفها حتى يسهل عليه بعد ذلك التوسع ومواجهة البيزنطيين وهم أكثر ضعفاً[3].

ومن بين المظاهر التي برزت في أعقاب معركة ملاذكرد ان الامبراطور ميخائيل السابع لم يجد قوة يستعين بها لكبح المتمردين مثل روسل باليل النورماني سوى الاستعانة بالاتراك ،

---

(١) فايز نجيب اسكندر : موقعة ملاذكرد وصداها في القسطنطينية ، بحوث ودراسات في تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية رقم (٤) ، الاسكندرية : دار الفكر الجامعي ١٩٨٨م ، ص١٢.

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج٨ ، ص١١٢.

(٣) يتهم محرر دائرة المعارف الاسلامية السلاجقة بأنهم كانوا ابعد الناس عن التعصب للاسلام، مستدلاً على ذلك من اطلاق سراحهم للامبراطور رومانوس، ومن حسن معاملتهم للنصارى من رعاياهم، (ص٢٩، المجلد الثاني عشر)، وهو اتهام في غير محله، فإن السلاجقة هم ممن حسن اسلامهم ودافعوا عن الدولة الاسلامية فترات طويلة، وقد يكون في تصرف الب الرسلان في اطلاق سراح الامبراطور الاسير، حسن سياسة وحكمة تصرف، وفي معاملتهم للرعايا النصارى تطبيق لشرائع الاسلام في حسن معاملة أهل الذمة لطمأنتهم وأمن جانبهم، كما أن الجوار والعلاقات المستمرة بين السلاجقة والبيزنطيين استدعت وتستدعي مثل هذا التصرف، على اننا سنلاحظ فيما بعد حينما أحسن الامبراطور الكسيوس كومنين معاملة أهل مدينة نيقيه وكان من ضمنهم زوجة السلطان السلجوقي قلج ارسلان بعد ان استسلمت نتيجة لحصار الصليبين لها، ان ذلك التصرف يغضب الصليبين الذين لم يتعودوا مثل هذه التصرفات من العفو عند المقدرة ، وتأمين الاسرى، واطلاق سراحهم احتساباً لما قد يحدث بعد ذلك من احداث ، فلاموا الامبراطور وشكوا في انه خان قضية الحرب الصليبية وبدأ يتعامل حسناً مع عدوهم.والجدير بالذكر ان محرري دائرة المعارف الاسلامية هم المان وقد صدرت أولاً باللغة الالمانية والفرنسية والانجليزية، لذلك لانستغرب هذا الاتهام، كما لانستغرب اتهام الصليبيين للامبراطور الكسيوس، فقد يكون ذلك هو المنطق اللاتيني.

كذلك عندما ثار نقفور بوتانياتس لم يجد أُمامه سوى الاتراك يستعين بهم[(١)]، وكل ذلك مكن للسلاجقة في آسيا الصغرى، وفسح الطريق امامهم لمزيد من الاستقرار، ولمزيد من التوسع وتعاظم القوة.

على أن أهم هذه المظاهر هي ما قام به الامبراطور ميخائيل السابع حين أُستنجد بالبابا جريجوري السابع بابا روما ضد السلاجقة[(٢)]، فاتحاً باباً سيصعب اغلاقه فيما بعد من التدخل اللاتيني في أُمور بيزنطة ، فقد وجد البابا جريجوري السابع في طلب ميخائيل السابع فرصة نادرة لمحاولة فرض سلطان روما من جديد على الكنيسة البيزنطية المنشقة، لأن وحدة الكنيسة النصرانية تحت إمرة البابا كانت أُحد الأهداف الرئيسية لحركة الاصلاح الكلوني التي سبق واعلنها البابا جريجوري السابع، وعلى هذا فقد كتب البابا الى الامبراطور في ٩ يوليو ١٠٧٣م/٤٦٦هـ يدعوه الى بذل قصارى الجهد لتوحيد الكنائس، كما أرسل كتاباً موجهاً الى «سائر النصارى» في غرب اوروبا يدعوهم للتطوع في حملة لمساعدة اهالي القسطنطينية ضد هجمات العدو المتبربر - على حد قوله - وفي نفس العام أرسل خطاباً ثانياً يحث فيه اهالي الغرب اللاتيني للهجوم على الشرق وانقاذ اخوانهم النصارى الذين يهددهم العدو. كما اعلن انه سيقوم بنفسه بقيادة هذه الحملة لينقذ النصارى، غير ان احداث اوروبا بعد ذلك، والانقلاب السياسي الذي حدث في القسطنطينية، وخلع ميخائيل السابع، جعل البابا يتراجع عن حملته، وبدأ يصدر قرارات حرمانه ضد أباطرة القسطنطينية الجدد[(٣)]. بل وجد من المؤرخين بعد ذلك من يؤكد ان الحملة الصليبية الاولى لم تكن إلا ثأراً من هزيمة ملاذكرد[(٤)]. على أن هناك من

(١) Setton , Op. Cit., Vol. 1 , P.149.

(٢) د. اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص٤٩ ، وأيضاً : S. Runciman, Op. Cit. , P.59.

(٣) ارنست باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٦٧م ، ص١٩ ، وهو يرى ان البابا جريجوري السابع لم يقترح كما تردد القول ، دائماً الدعوة الى حرب صليبية بل اشار بحملة كبيرة تستطيع ان تسترد آسيا الصغرى من يد المسلمين وتعيدها الى الامبراطورية البيزنطية (نفس المرجع ونفس الصفحة) ، وكذلك اسحاق عبيد ، مرجع سابق ، ص٥٠ ؛ وفيشر ، مرجع سابق ، ص١٥٦ وهو يرى ان فكرة الحروب الصليبية نبعت لامن القسطنطينية ، بل من روما.

(٤) علي حبيبه : المسلمون والصليبيون ، القاهرة : مكتبة الشباب ، ١٩٩٠م ، ص٥٥.

المؤرخين الغربيين من يرى أن المبرر الوحيد لتعطيل دعوة البابا جريجوري السابع لانقاذ بيزنطة وامبراطورها الذي بلغ كبرياؤه وناشد الغرب المساعدة، هو عودة قضية الخلاف الديني الى البروز، وشعور اوروبا بالرضا عن الحالة التي وصل اليها الامبراطور والامبراطورية البيزنطية[١].

وهكذا سقطت آسيا الصغرى في أيدي السلاجقة وأخذوا في التوسع على حساب الأراضي البيزنطية، وعندما تولى الكسيوس كومنين العرش البيزنطي (١٠٨١م/٤٧٤هـ) كان السلاجقة يسيطرون على ساحل بحر مرمره الشرقي، كما كان زعيمهم سليمان بن قتلمش قد اتخذ من نيقية عاصمة له، وبدأ يشن الغارات على اقليم بيثينيا، بل حاول اجتياز بحر مرمره الى الشاطيء الاوروبي[٢].

وحاول الكسيوس إبعاد السلاجقة من بعض المواقع التي احتلوها، متبعاً في ذلك نوعاً من حرب العصابات، حقق من ورائها شيئاً من النجاح حيث اضطر السلاجقة الى التخلي عن مواقعهم على طول ساحل بحر مرمره[٣].

ولكن مشاريع الإمبراطورية ما لبثت أن توقفت بسبب الضغط النورماني، فاضطر إلى تحسين علاقته مع سليمان بن قتلمش وعقد معه معاهدة حصل بموجبها على فرقة سلجوقية مشاركة في حرب الكسيوس ضد النورمان، وقدرت بسبعة آلاف مقاتل[٤].

وبدأت العلاقات البيزنطية السلجوقية بالتوتر منذ وفاة السلطان سليمان بن قتلمش عام ٤٧٩هـ(١٠٨٦م) حيث قتل خلال حربه مع تتش[٥]، فسادت الفوضى بين خلفائه وظهر

---

(١) هلستر، مرجع سابق، ص١٧٤.

(٢) عادل زيتون: العلاقت السياسية والكنسية، مرجع سابق، ص٧٧.

(٣) Anna, Op. Cit. , P.94.

(٤) أحمد عبدالكريم سليمان: المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط، الطبعة الأولى، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٨٤م، ج١، ص٢٤٥.

(٥) ابن الاثير: الكامل، مصدر سابق، ج٨، ص١٤٠. وتتش هو حاكم دمشق السلجوقي وابن الب ارسلان وكان اخاه ملكشاه قد اقطعه بلاد الشام وما يفتحه في تلك النواحي سنة ٤٧٠هـ. انظر: ابن الاثير، نفس المصدر، ص١٢٦.

عدد من الأمراء التركمان على مسرح الأحداث وفي مقدمتهم ابو القاسم الذي كان سليمان بن قتلمش قد عينه على نيقيه قبل موته، وغيره من الأمراء، وحاول الامبراطور الكسيوس تفتيت قوة هؤلاء الأمراء واستعادة أملاك الامبراطورية في آسيا الصغرى، خاصة وأن أبا القاسم كان يخطط لأن يكون سلطاناً على كافة اتراك آسيا الصغرى، بل والاستيلاء على القسطنطينية حتى إنه بنى أسطولاً لهذا الغرض[1].

بدأ الامبراطور يستفيد من هذه الأوضاع لمصلحته، مستخدماً سلاح الدبلوماسية والتآمر الذي اشتهر به في ضرب الواحد بالآخر، ويعرض عليهم الرشاوي ويعد الواحد بعد الآخر بالتحالف، وظلت نيقيه ست سنوات في حوزة أبي القاسم، ولم يخرجه منها سوى مجيء قلج أرسلان (ابن سليمان بن قتلمش) سنة ١٠٩٢م/ ٤٨٥هـ بعد ان اطلق بركيارورق سراحه بعد وفاة ملكشاه[2].

استطاع الامبراطور خلال هذه الفترة أن يوطد مركزه وأن يسترد عدداً من الاملاك ، وكان يحلم باستعادة موطن أسرته "قسطموني" في بافلاجونيا ، ولم يمنعه من ذلك سوى مؤمرات البلاط التي وضع حداً لها بعد ذلك[3]. كما استطاع الامبراطور الكسيوس التخلص من أحد أهم أعدائه في آسيا الصغرى وهو جكا أمير ازمير الذي كان بالغ الخطورة ، وكان يتطلع الى أن يلي عرش الامبراطورية ولجأ الى استخدام اليونانيين الثائرين على الكسيوس ، لأنه ادرك أهمية الحاجة الى قوة بحرية كما حاول أن ينظم الأمراء الأتراك في تحالف فزوج ابنته لقلج ارسلان ، واصبح في الفترة (٤٧٣-٤٨٣هـ/١٠٨٠-١٠٩٠م) سيداً على ساحل بحر إيجه وجزائر

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية، الطبعة الثانية، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١م، ج١، ص١١٨.
(٢) روى ابن الاثير أن سبب وفاة ملكشاه انه اكل لحم صيد فاكثر منه فاخذته حمى حادة فتوفى منها ، وكان مولده في جمادى الاولى سنة ٤٤٧هـ ، وكان عمره ثمانية وثلاثين سنة وستة اشهر ، وكان ملكه نحو عشرين سنة ، ولما توفى ضبطت زوجته (تركان) العسكر وكتمت موته فلم يلطم احداً وجهاً ، ولم يشق عليه ثوباً ، ولم يسمع بسلطان مثله توفى لم يصل عليه احداً ، ولم يجلس اصحابه للعزاء سواه ، وارضت زوجته العسكر وحلفتهم لولدها محمود، وعمره اربع سنين ، وسارت الى اصفهان ، وظهر الملك بركياروق أبن ملكشاه -وهو الاكبر- فطلب السلطة فأخذها وتوفى محمود : ابن الاثير ، التاريخ الباهر للدولة الاتابكية في الموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات ، القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٣م ، ص١١ ، ١٢.
(٣) رانسيمان : الحروب الصليبية ، ج١ ، ص١١٨.

لسبوس ورودس وغيرها . واستطاع الامبراطور هزيمته عند مدخل بحر مرمره [١] ، غير أن خطره ظل باقياً، حتى استطاع الامبراطور اقناع صهره قلج أرسلان بالتخلص منه حتى لا يطغى على شخصيته، فكان أن استجاب لنصيحة الامبراطور ودبر لعمه وليمة مسمومة في نيقية ذهب ضحينها [٢] . وفي أواخر عام (٤٨٤هـ/١٠٩١م) احتل تزاخاس [٣] اكبر جزيرة بيزنطية في بحر ايجه وهي جزيرة ميلتين، وشعر الامبراطور بضرورة توجيه ضربة له ، وبعث له بجيشين، وأستطاع هزيمته واستعادة جزيرة ميلتين منه ، الا أنه عاود تمرده فاتفق الكسيوس مع السلطان قلج ارسلان ضد تزاخاس ، الا ان تزخاس استمر في تمرده حتى مجيء الحملة الصليبية ، فكان سهلاً على الامبراطور مطاردته حتى ازمير [٤] .

استمر الامبراطور الكسيوس كومنين في سياسته العسكرية والديبلوماسية مستخدماً الحرب تارة والديبلوماسية تارة اخرى، ومستعيناً في حربه مع السلاجقة بالجنود المرتزقة، في الوقت الذي اخذت فيه دولة السلاجقة في التدهور، ففي سنة ٤٨٥هـ(١٠٩٢م) مات ملكشاه الذي كان يسيطر ويضبط الدولة التركية، وتلى وفاته نشوب الحرب الداخلية بين أبنائه وشارك أمراء آسيا الصغرى في هذه الحرب الداخلية وانشغلوا بها، ولذلك خف ضغطهم على الامبراطورية البيزنطية، وبالتالي فإن هذا ينسف الرأي الذي روجه اللاتين من أن السلاجقة وتعسفهم هو وراء إعلان الحروب الصليبية، فهم في عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥م أضعف مما جردته لهم أوروبا من حملات، وكان اكثر العارفين بذلك الامبراطور الكسيوس كومنين الذي فوجيء بمقدم العدد الغفير من رجال الحملة الصليبية بشقيها الشعبي وحملة الأمراء، ولكن الكنيسة الغربية كان لها أهداف أخرى غير نجدة الامبراطورية البيزنطية.

---

(١) Osrrogorowski, Op. Cit. , P. 318.

(٢) رانسيمان : المرجع السابق ، ج١ ، ص١١٩.

(٣) تزاخاس : هو قرصان تركي ، كان يعيش في شبابه بالقسطنطينية ، وكان قد حصل من الامبراطور بوتانياتوس على القاب تشريفية ، وكان يعرف ضعف البحرية البيزنطية فتجهز باسطول صغير على سواحل آسيا الصغرى ، مما اتاح له في عملياته الاولى التي خاضها نهب الموانيء واصبح ثرياً ووسع من اسطوله البحري ، واصبحت له مطالبه السياسية ، حتى انه اصبح مهيباً يخشى بأسه . انظر : Anna , Op. Cit. P.281.

(٤) عادل زيتون ، المرجع السابق ، ص٨١.

الفصل الثاني

أوضاع الغرب الاوروبي قبيل الحروب الصليبية

* سيطرة الكنيسة والبابوية.
* الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والاقطاع.
* حركة الحج النصراني الى الاراضي المقدسة.
* الد عوة الى الحروب الصليبية.

سيطرة الكنيسة البابوية

كانت أوروبا في القرن الحادي عشر لاتزال تعيش في ظلام العصور الوسطى فقد كانت مجرد منطقة متخلفة بالقياس الى كل من العالم البيزنطي والعالم العربي الاسلامي، إذ أعقب سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب على أيدي الجرمان سنة ٤٧٦م(١) فترة قاتمة امتدت حتى القرن الحادي عشر ، ولم يقتصر التدهور على الانحلال السياسي ، وانما امتدت مظاهره الى الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. كما أن الغرب الأوروبي في أعقاب انهيار دولة الميروفنجيين التي أقامها شارلمان(٢)، ما لبث أن تعرض لغارات جديدة من الفايكنج(٣) والهنغاريين قضت على ذلك البصيص من الصحوة التي حاولت ملكية شارلمان أن تطلقه في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الميلاديين/الثالث الهجري، فكان نتيجة ذلك أن انحلت

(١) ناقشنا في التمهيد انقسام الامبراطورية الرومانية الى شرق وغرب ، ونضيف هنا ان الجرمان الذين انثالوا على الامبراطورية في هذه الفترة كانوا يسمون احياناً بالبرابرة Barabrus ، وبالطبع لايقصد بلفظ البربريه هنا الهمجية او الوحشية ، فالمقصود بالبربريه مرحلة من التنظيم الاجتماعي القبلي الذي لم يرق بعد الى مرحلة الاستقرار المدني واقامة الدول ذات الحدود الثابتة ، وكان الجرمان قد توخو الناحية الفردية في كل شيء ، فالفرد هو محور الحياة وعلى اساس قوته الشخصية وسيطرته كانت اهميته ونفوذه. انظر : سعيد عبدالفتاح عاشور : أوروبا في العصور الوسطى، (التاريخ السياسي) ط٢ ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦١م ، ج١ ، ص٥٦.

(٢) شارلمان Charlemagne او Carlus Magnus اي شارل العظيم، هو وريث الاسرة الميروفنجيه والذي انفرد بالحكم سنة ٧٧١م/١٥٥هـ، ونهض بمشاريع خطيرة في المجالات العسكرية والداخلية والدبلوماسية ، ونجح في تكوين دولة ضخمه في غرب اوروبا وحماية البابوية ونشر النصرانية واحياء كثير من مظاهر الحضارة الرومانية في الغرب ، وقد مكنت له حروبه المستمرة التي خاضها والتي بلغت اكثر من خمسين حملة ان يصبح سيد روما ، وكانت أهم حروبه قضاؤه على اللمباردين، ودعمه للبابا ليو الثالث الذي قامت ثورة ضده في روما بعد اتهامه بالسيمونيه والزنا والحنث بالايمان وخروجه مطروداً من روما، وكان ان رد له البابا ليو الثالث هذا الجميل بأن توجه امبراطوراً على غرب اوروبا في عيد ميلاد سنة ٨٠٠م/١٨٤هـ في كنيسة القديس بطرس في روما مما عنى في حينه تكريساً لمزيد من الانفصال بين الشرق والغرب ، ولكن امبراطوريته ما لبثت ان انهارت بعد وفاته ، انظر : ديفز : شارلمان ، ترجمة الباز العريني ، القاهرة ، مكتبة النهضة ١٩٥٩م، (عدة صفحات).

(٣) الفايكنج : يطلق على الدانيين (الدانمرقيين) والسويديين والنرويجيين ، اسم النورثمن او الفايكنج ، وهم وان كانوا ينتمون للعنصر التبوتوني الا انهم يختلفون عن الجرمان الاوائل ، إذ ان اوروبا لم تعرف شيئاً عن اسكنديناوه قبل القرن التاسع الا ما رواه عدد من التجار المغامرين ، او من قصص القراصنة ، وكانوا وقتذاك ما زالوا وثنيين لم يعرفوا الا ما ساد عند التيوتون من صورة بدائية للحكومة والمجتمع والديانة ، انظر : الباز العريني : اوروبا في العصور الوسطى ، مرجع سابق ، ص٣٥٠.

السلطات المركزية واضطر الاباطرة والملوك الى التنازل عن كثير من حقوقهم وسلطاتهم لأمراء لاقطاع[(١)]، وما لبث ان ترسخ نظام الإقطاع الذي كان له تأثيراته العديدة على الحياة بمختلف جوانبها في أوروبا.

في ظل هذه الظروف السياسية والاقتصادية التي فرضها نظام الاقطاع، ظهرت البابوية والكنيسة كسلطة مسيطرة على الاوضاع، وبدأت يوماً بعد الآخر تؤكد سيطرتها وسلطتها وتوسع من نفوذها، الا أنه قبل ان يتم لها ذلك فقد كان عليها أن تخوض صراعاً عنيفاً مع قوة اخرى نافستها في تلك الفترة. فقد أقتسم الصراع على السلطة في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى قوتان كبيرتان هما البابوية والامبراطورية ، وقد ظل التنافس بين هاتين القوتين السمة المميزة للغرب اللاتيني مما أثر في رسم السياسة العامة للقوى اللاتينية في ذلك الوقت داخلياً وخارجياً، فقد كان شغل البابوية الشاغل هو الانفراد بالسلطان الروحي في الغرب، بينما كانت القوة الأخرى وهي الامبراطورية تحاول ان تفوز بالسيطرة الزمنية والحكم، ومن ثم اشتعل النزاع بين الامبراطور والبابا حول من يجب ان تكون له السيادة والسيطرة على مقدرات الأمور، كل يعتقد انه هو الاحق وانه ظل الله في الأرض، فكان الخلاف الدائم بين البابا والامبراطور في اكثر الاحيان أهم عوامل التفكك والانحلال والضعف التي عانت منها اوروبا الغربية في العصور الوسطى، مما أدى الى قيام الحروب الأهلية بين القوتين، واقحم في هذا الصراع نبلاء الاقطاع ، فمنهم من يأخذ جانب الكنيسة حتى يأمن الحرمان والقطع ، ومنهم من يأخذ جانب الامبراطور[(٢)].

لقد استعملت الكنيسة كل ما استطاعته من اسلحة لتؤكد تفوقها وسموها وانها مركز جميع السلطات، ولم توفر سلاحاً إلا واستخدمته حتى سلاح الحرب مع الامبراطورية الغربية الرومانية المقدسة. إلا أن اول خطواتها لتأكيد ذلك هو قيامها بحركة اصلاحية استهدفت نظام الكنيسة ومعاشها.

---

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص١٨.
(٢) د. فتحية النبراوي : العلاقات السياسية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى ، (١٠٠٠-١٣٠٠) ، ط١ ، القاهرة : دار الثقافة للطباعة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص٨٧.

عرفت عملية اصلاح الكنيسة «بالكلونيه» نسبة الى دير كلوني[1] الذي انطلقت منه، وتعرف أيضاً "بالحركة الجريجوريه" نسبة الى البابا جريجوري السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م/٤٦٦-٤٧٨هـ) الذي اعلنت هذه الاصلاحات في زمن ولايته للبابويه في روما. وكان هدف هذه الحركة اصلاح امور الكنيسة والقضاء على معالم الفساد التي سادت نظامها، وبالتالي أفقدتها هيبتها وجعلتها لقمة سائغة في ايدي الحكام العلمانيين[2].

وبالرغم من أن الامبراطور الالماني هنري الثالث قد ساهم في اصلاح الكنيسة[3] الا ان خلفه هنري الرابع مالبث ان اصطدم بها عندما جاءت لتنتقص من سلطته التي توارثتها أسرته، وهيمنتها على الكنيسة والاسقفيات والاديرة.

وكانت قمة هذا الصراع حين اصدر البابا جريجوري السابع سنة ١٠٧٥م/٤٦٨هـ مرسوم الاملاء البابوي Dictotuspapae والذي حوى أكثر من ٢٥ مادة[4] تركزت كلها على سمو مركز البابويه وعلى كيفية اختيار البابا وعلى سلطاته التي تعلو على كل السلطات وأنه هو الذي يسمح له بعزل الاباطرة، وغير معرض للعزل، وكان نتيجة ذلك أن ثار هنري الرابع في المانيا على قرارات البابا، فقام البابا بعزله وحرمانه من الكنيسة فاندلعت ضده الثورة في المانيا، فشعر الامبراطور بحرجه وأنه لاسبيل امامه للاحتفاظ بعرشه سوى التماس عفو البابا، ففي يناير ١٠٧٧م/ ٤٧٠هـ وفي قلعة كانوسا Canossa بمدينة توسكاني Tuscany تقابل

---

(١) ديركلوني : يقع ديركلوني الرئيسي بالقرب من الحدود الفرنسيه الالمانية على بعد عدة اميال من مدينة ماسون ، وقد بدأت الحركة الكلونية ضعيفه في اول الأمر ، ثم اخذت تتسع تدريجياً الى أن اصبحت في القرن العاشر مثلاً يحتذى به من امثلة الاصلاح ، وقد كان اساس نظام كلوني هو الاستقلال التام عن السلطات الدينية المحلية والدنيوية والاتصال المباشر بالبابوية ، والقضاء على استقلال الاديرة عن بعضها ، وأخيراً المناداة باصلاح الكنيسة والبابوية من المفاسد والشرور التي تغلغلت فيهما . انظر : كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف ، ط٣ ، بيروت : دار النهضة العربية ١٩٨٢م ، ص١٧٢.

(٢) د. نور الدين حاطوم : مرجع سابق ، ص٦٧٥.

(٣) هلستر : مرجع سابق ، ص١٨٢.

(٤) د. قاسم عبده قاسم : الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، القاهرة : الدار العربية للدراسات والنشر ١٩٨٥م، ص٥٠ ، ٥١ وقد نشر نصوص قرار الاملاء البابوي كاملة وخطابات جريجوري السابع حول صراعه مع الامبراطور الالماني ، وميزة هذا الكتاب انه اختار عدداً من النصوص والروايات الخاصة بالحروب الصليبية مكوناً منها قصة الحروب الصليبية.

الرجلان لقاءً يصفه احد المؤرخين بأنه ربما كان اكبر لقاء مسرحي وغير متوقع في التاريخ الوسيط، إذ كان هنري الرابع عاري القدمين، ذليلاً ومرتدياً ثياب التوبة الرثه مما دعا البابا الى إلغاء قرار حرمان هنري الذي عاد الى المانيا بعد أن وعد باصلاح احواله واجراء تغييرات واسعة لسلطته[١]. صحيح أن هنري الرابع تراجع بعد ذلك عن توبته واعلن الثورة مجدداً على البابا جريجوري السابع وجرد حملة الي روما سنة ١٠٨٠م/٤٧٣هـ اضطرت البابا إلى الفرار من روما والاستنجاد بالنورمان -كما مر بنا- الذين استطاعوا هزيمه الامبراطور ورده إلى المانيا ، الا ان قرارات جريجوري السابع وبرنامجه الاصلاحي كانت قد ترسخت واصبحت هي التي تحكم العلاقة بين سلطة البابوية وغيرها من السلطات.

لقد أعطت «الفترة الجريجورية»[٢] الكنيسة مزيداً من الهيمنة والسيادة على الغرب الاوروبي، عاد عليها في شكل مزيد من السلطات والثروات المالية حصلت عليها نتيجة لهذه السيطرة التي ساهمت في ايجاد فائض نقدي من الأموال يضاهي تقريباً ما حوته جميع خزائن ملوك اوروبا من اموال، وكان نتيجة ذلك ان ظهر تنظيم كنسي فاق التنظيم السياسي في تراتيبه قوة ومتانة، وكانت ديمومة هذا التنظيم السياسي تثير حسد النبلاء وخوف الملوك ، فبينما كانت الارض المقطعة تنتقل من تابع الى آخر بحكم الوفاة او تحلل النبيل من العقد كانت ملكية الكنيسة لهذه الأرض مستمرة حتى شبهت الكنيسة بأنها : «اليد التي لا تموت»[٣]. لقد بررت الكنيسة الاقطاع لأنه يصب في مصلحتها حتى أنها أصبحت تمتلك حوالي ثلث الارض في بعض المناطق بمن عليها من اقنان، وكانت ضريبة العشور من أثقل الضرائب التي امتدت الى جميع الفئات الشعبية ، كما اصبحت الهبات التي كانت العامه تقدمها إلى رجال الكنيسة فيما مضى باختيارهم ملزمة الآن. لقد حولت الكنيسة انتصاراتها

---

(١) هلستر : مرجع سابق ، ص١٨٥.

(٢) Hans. E. Mayer : The Crusades, Tranc By John Gillingham, Oxford University Press, 1972, P.20.

(٣) د. محمد مخزوم : مدخل لدراسة التاريخ الاوروبي (عصر النهضة) ، الطبعة الأولى ، (بيروت : دار الكتاب اللبناني ١٩٨٣م ، ص٢٨.

التي حققتها على مستوى النضال ضد الامبراطورية الى مكاسب وسيطرة كبيرة على ارض الواقع المعاش في حياة الناس.

ومكنت هذه المكاسب التي حصلت عليها الكنيسة ، من أن تمضي في مزيد من الاصلاح ، فاصلحت نظامها الداخلي وعالجت موضوع السيمونيه واوجدت نوعاً من الاستقرار الداخلي لمن يتولون مناصب الكنيسة ووظائف الاسقفيات ، وكان نتيجة كل ذلك ان اصبحت الكنيسة قوة محركة للاحداث[١]. أصبحت الكنيسة موجودة في كل مكان ومتغلغلة في حياة الناس، عبر ممثليها وخدامها العديدين وعبر الجيوش من موظفيها. حيث يلي رجال الكنيسة في الطبقات الاولى او الدرجات الكنسية، القساوسة فالشمامسه، فمعاونوهم مع من يعلوهم من كبار الأحبار والمطارنة او الاساقفة، وهؤلاء جميعاً اصبح محظور عليهم الزواج قانوناً[٢]، ويلي هؤلاء طائفة كبيرة من الكتبه في الطبقات الصغرى، ولم تكن هذه الطبقة محرومة من الزواج، وكان افرادها يعيشون من دخل وظائفهم الصغيرة كالتراتيل والخدمات الدينية الصغرى أو العمل ككتبة ابرشيات أو مسك الدفاتر، واحتاجت الكنيسة إلى هذا الجيش من الموظفين لمواجهة أعباء اقطاعاتها من الاراضي التي انتشرت في انحاء مختلفة من أوروبا، وتذهب بعض التقارير الى حصر عدد رجال الكنيسة بكافة درجاتهم بما لايقل عن $\frac{1}{٧٠}$ من جملة الاشخاص البالغين في الشعب، بينما تقدر تقارير أخرى عددهم بأكثر من ذلك ، فالمرء يجدهم في كل مكان وهم في طريقهم للعمل ، لقد كانوا موجودين في كل مكان أيضاً بوصفهم ملاكاً للأراضي[٣].

كل ذلك جعل الكنيسة هي المركز الرئيسي للحياة في الغرب ، ثم انتقل نفوذها ايضاً إلى المدينة ، وبالتالي توسعت الأعمال التي كان يناط القيام بها إلى

---

(١) د. عبدالعظيم رمضان : الصراع بين العرب واوروبا ، من ظهور الاسلام الى انتهاء الحروب الصليبية، القاهرة : دار المعارف ١٩٨٣م ، ص١١٢.

(٢) Leon Bernard, and Thedore B. Hodges, : Readings In Euroean History, New York,The MacMillan Company, 1958, P.53.

(٣) كولتون : مرجع سابق ، ص١١٢.

الكنيسة ، ففضلاً عن الخدمات الكنسية والصلوات كانت ثمة تلاوة للعزائم لصرف الأرواح الشريرة وأعمال السحر، كما ان أجراس الكنيسة كانت تدق للحيلولة دون اقتراب العواصف التي كانت الساحرات تثيرها (!!) كما كان الكاهن أحياناً ينزل اللعنة رسمياً برش الماء المقدس على آفات الديدان والجراد [١]، وبالطبع فهذه اعمال فرضتها عقلية المجتمع الاوروبي في العصر الوسيط ونفوذ الكنيسة في عقولهم وحياتهم. وكان كل طفل يعمد في الكنيسة، أما إذا أُهمل العماد عن سوء نيّة فتلحق وصمة الهرطقة بوالديه، وكان الخروج على التعاليم الكنسية يعتبر هرطقة وكل مخالفة خطيرة يعاقب صاحبها اذا أُصر على موقفه بتعليقه على عود. ولقد امتدت سلطة رجال الكنيسة حتى جاوزت بكثير ما تعارف على تسميته بأنه أمر روحي بحت او مجرد شؤون ثقافية [٢]. كما أن الكنيسة احتكرت التعليم الديني وغير الديني فالنشاط الفكري او الثقافي بقي وقفاً او حكراً على رجال الكنيسة [٣]. فضلاً عن السلطة الهائلة الاجتماعية والسياسية التي استمدتها من شرعية الاعتراف، فقد كان من حق رجل الكنيسة اصدار الاحكام وتوقيع العقوبات في كافة الشؤون الاخلاقية الهامة ، وكل ما يمتد الى قوانين الزواج. لقد شكلت الواجبات والوظائف الكنسية ملامح شديدة الوضوح في حياة كل أُوروبي في العصر الوسيط [٤].

كان كل من المدني والقروي يعرف عن رجل الكنيسة أنه من كبار ملاك الأرض ، وقد قدرت ثرورة الرهبان وحدهم في بعض الأحيان بثلث ثروة الدولة ، مما يعطي مؤشراً بأنها كانت ثروة هائلة. وكان لهذا الوضع اثره الكبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فقد كان الرهبان والاساقفة وغيرهم من رجال الكنيسة يقتنون الاقنان اقتناءهم للارض سواء بسواء ، وكما كان يفعل ملاك الارض العلمانيون كانوا هم أيضاً يتصرفون في العبيد بالبيع والشراء أو يتبادلونهم

(١) كولتون : مرجع سابق ، ص١٠٨.
(٢) Edward, M , Hulme , The Middle Ages, Op. Cit. , P. 304.
(٣) د. محمد مخزوم : هيمنة البابوية على غرب اوروبا في القرون الوسطى ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد (١٤) ، بيروت : ديسمبر ١٩٧٩م ، ص٢٤.
(٤) Camb, Med, Hist, Vol. VI , P. 137.

أو يقسمونهم فيما بينهم، وكانوا كذلك يقسمون نسل من شاء حظه العاثر أن يصبح تابعاً لأحد السادة اللوردات، فيما غدت زوجته هي الأُخرى أمة لسيد آخر، وليس لنا ان ننحي باللائمة على رجال الكنيسة لقبولهم الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي كانت قائمة في زمنهم، خاصة إذا عرفنا أن الفلسفة النصرانية وقتذاك كانت تبرر صراحة تلك الأحوال(١).

لقد هيأت الثروة الكبيرة والنفوذ الواسع للكنيسة سيطرة على مختلف نواحي الحياة، فاصبح للبابوية دخل ثابت جعلها من الناحية العملية في غنى عن أي حاكم علماني، الا أن هذا الغنى جعل منها هيئة اقطاعية ضخمة لها أراضيها واقنانها(٢) وتجارتها وخزائنها أيضاً، وسجلاتها المكتوبة التي كانت أدق من تلك السجلات التي كان يمتلكها أصحاب الاقطاعيات من النبلاء والأمراء، لذلك كانت أكثر سهولة في تحصيل الضرائب لاقتناع الفلاحين والمقطعين بأنها أكثر دقة ولأن رجال الكنيسة هم عادة الذين يعرفون القراءة والكتابة(٣).

كان تأثير هذه السيطرة والنفوذ على المجتمع في غرب أوروبا كبيراً، حتى ان البابوية وجدت مهمتها سهلة في إقناع الناس بمشروعها الجديد الذي راحت تدعو إليه وهو الحروب الصليبية، ساعية من خلاله إلى مزيد من السيطرة والنفوذ والى عالمية الكنيسة اللاتينية عندما تتحقق لها السيطرة على كنيسة القسطنطينية في الشرق(٤)، وحلاً للمشاكل الاخرى التي مازالت ماثلة مثل قضية الفروسية وأمراء الاقطاع الذين سرعان ما وجدوا أنفسهم مشدودين الى الانضمام للمشروع البابوي الجديد.

لقد شكلت الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط وفي أعقاب حركة الاصلاح الكلوني ما يمكن تشبيهه بالحكومة الملكية من الناحية الادارية، يقف البابا على رأس هذه

---

(١) كولتون : مرجع سابق ، ص١١٧.

(٢) Sidney Painter : A History of The Middle Ages, London : MacMillan, 1970, P. 149.

(٣) كولتون : مرجع سابق ، ص٢٧٢.

(٤) Donald Maithew, The Medieval EuropeanCommunity, London : B. T. Barstford LTd, 1977, P. 35.

الحكومة وهو السيد المطلق في الشؤون الروحية والمشرع الأعلى. وليس هناك من مجلس مهما سمت منزلته له حق أن يشرع قوانين ضد ارادته وان كل تشريع يعتمد على موافقته، ويمكن للبابا إلغاء أي قانون مهما كان قديماً لم يشر له الانجيل، ويساعد البابا في إدارة شؤون هذه الحكومة ذات المهام الكثيرة المجلس الاعلى الذي يسمى «Curia» والذي يتألف من الكرادله والموظفين البابويين.[١].

بهذه الحكومة المنظمة ، وبذلك التصميم الذي نتج عن الاصلاح الذي قادته الكنيسة ، راحت البابوية تخطط للحرب الصليبية التي تنوي شنها تحت شعار استعادة بيت المقدس من المسلمين، إلا أن هدفها في الحقيقة كما يرى بعض المؤرخين ، كان استعادة السيطرة على الكنيسة الشرقية في القسطنطينية، بعد أن يتحقق لها السيطرة على كنيسة القسطنطينية وكنائس الشرق ويتم توحيدها تحت سيطرة البابوية[٢]، إلى جانب حل المشاكل الأخرى.

ومهدت البابوية لتحقيق أهدافها بتهيئة جميع السبل. كما سيتضح عند التعرض للنقاط التالية .

---

(١) د. عبدالقادر احمد يوسف : العصور الوسطى الاوروبية ، دراسات تاريخية رقم (٢) ، بيروت : المكتبة العصرية ١٩٦٧م ، ص٢٤٠.

(٢) H. Mayer, Op. Cit. , P.291.

الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والاقطاع :

سادت في الغرب الأوروبي بصفة عامة أوضاع اجتماعية واقتصادية تضافرت في مجموعها الى تهيئة المجتمع الأوروبي لقبول الفكرة التي طرحتها البابوية باعلان الحرب الصليبية ضد المشرق ، الا ان الذي لا يمكن إنكاره أن الدوافع قد اختلفت لدى الهيئة البابوية عن تلك التي دفعت افراد المجتمع الاوروبي بطبقاته المختلفة.

وكانت السنوات العشر التي سبقت الدعوة الى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥م/٤٨٩هـ، سنوات صعبة بالفعل على سكان اوروبا ولاسيما في شمال فرنسا وغرب ألمانيا ، إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعات، فمنذ سنة ١٠٨٩م/٤٨٢هـ كان الرعب يتملك السكان في تلك القرى والمدن ، فلايتركها الا وقد حصد اغلبية سكانها بالموت والعذاب البطيء[١]. وجميع الوثائق المعاصرة تشير الى سوء الاحوال الاقتصادية في غرب اوروبا وبخاصة في فرنسا أواخر القرن الحادي عشر، فالمؤرخ المعاصر جيوبرت نوجينت Guibert Nogent يؤكد ان فرنسا بالذات كانت تعاني مجاعة شاملة، فندر وجود الغلال وأرتفعت اثمانها ارتفاعاً فاحشاً مما ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز ، وهذه الأزمة ألجأت الناس الى أكل الأعشاب والحشائش[٢]. كما يذكر الراهب رالف جلابير أن مجاعة رهيبة استمرت خمس سنوات ضربت شتى أنحاء العالم الروماني، بحيث لم ينج إقليم واحد من المجاعة ونقص الخبز ومات كثيرون بسبب الجوع ، وقال ان الاوربيين اضطروا الى اكل الحيوانات والزواحف القذرة ، كما اكلوا لحوم البشر[٣]، على أن الحدث الأجدر بالتسجيل هنا انه في سنة ١٠٩٥م/٤٨٩هـ (سنة اعلان الحملة الصليبية) حدثت مجاعة رهيبة شملت معظم

---

(١) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ص٦٢.
(٢) د. سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية، ج١، ص٣٥ ؛ وايضاً عبدالعظيم رمضان : مرجع سابق ، ص٣١٨.
(٣) R. Glabert, History Libriunique, P.34. نقلاً عن : قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية، مرجع سابق ، ص١٧.

انحاء الغرب الأوروبي، وقد وصف سيجيبر الجامباوي Sigeberrde Gembloux هذه السنة بأنها «... سنة مصائب، تفشت فيها المجاعة في كل مكان ، واخذ الفقراء يهاجمون الاغنياء لكي يسرقوهم ، واخذوا يشعلون النار في ممتلكاتهم ...»(١).

إن هذا يدعونا الى إلقاء نظرة على الزراعة في أوروبا في هذه الفترة وحياة الفلاح فيها، فقد كان الطابع الريفي هو الغالب على أوروبا في القرن الحادي عشر، وقد توزع السكان بين نموذجين هما : البلدة Hamlet التي كانت عبارة عن عدد قليل من أكواخ الفلاحين وبيوتهم المكدسة قرب ساحة الارض التي يتولون زراعتها، أما بقية مناطق أوروبا فقد كانت القرية تمثل النمط السائد لمراكز الاستقرار السكاني. وفي القرية عادة ما كانت توجد كنيسة وبيت صاحب الاقطاع ثم بيوت الفلاحين التي بنيت من الطين وأغصان الأشجار، وحول القرية زمامها من الأرض الزراعية والمراعي ثم منطقة البراري والغابات ، وعلى حواف الحقول التي تمثل زمام القرية من الأرض الزراعية كان الفلاحون يحرقون الأعشاب من آن لآخر لكي يزرعوا محصولاً او اثنين في الأرض التي خضبها الرماد الناتج عن الحرق(٢) .

وعلى الرغم من قلة المعلومات عن الزراعة ،وأساليبها في القرن الحادي عشر ، إلا أن اختراع الطواحين الهوائية التي تمت في هذه الفترة كان من وسائل تسهيل زراعة الغلال ، كما أن عمليات ازالة الغابات واستصلاح الاراضي كانت تجري في كل مكان في غرب أوروبا ، وكانت الأخشاب الناتجة عن قطع الاشجار تستخدم في بناء المساكن والقلاع والكنائس في مناطق الريف والحضر، كما ان الفلاحين غيروا من نظام الزراعة ، بعد ان تم التغيير في شكل المحراث الجرماني القديم الذي كان يفرض أن يكون حرث الحقول بشكل مستقيم على هيئة شريطين او ثلاثة مما أدى الى تحسين الإنتاج(٣). ولكن هذا التحسين لم يصب في مصلحة

---

(١) Bradford, The Sward, P.P. 30-31. نقلاً عن : قاسم عبده قاسم : الدوافع الاجتماعية للحركة الصليبية ، ندوة التاريخ الاسلامي الوسيط ، المجلد الثاني ، القاهرة : دار المعارف ١٩٨٣م ، ص٢٣١ .

(٢) Edward, Huilme, Op. Cit., P.212.

(٣) Leon Bernard and Thedore Hopges, Op. Cit . , P.33.

الفلاح وانما صب في صالح صاحب الاقطاع ، وتعود أُدق المعلومات التي عرفت عن حياة الفلاح إلى كتاب الروك النورماني Domesday Book وهو عبارة عن سجل للارض الزراعية وضع لأغراض الضرائب بناء على أمر وليم الفاتح ولايزال هذا الكتاب باقياً باعتباره أُقيم سجل من نوعه وضع في العالم اجمع، ويوضح الى أي حد كانت نسبة المواطنين الذين كانوا عبيداً بالفعل، كما يوضح عدد افراد طبقة انصاف العبيد أي رقيق الأرض، وقد زادت هذه الطبقة المتوسطة بنسبة ما حدث من نقصان في طبقة العبيد من جهة وفي الرجال الاحرار من جهة اخرى، ورغم تناقص طبقة العبيد في أنحاء متعددة من الغرب الأوروبي إلا أنها كانت في الدويلات البابوية أقرب الى الزيادة، لأن أكثر من بابا كان قد شرع العبودية كعقوبة لاعدائهم في ميدان السياسة ، كما ان تجارة الرقيق ترجع في نشأتها إلى مرسومين باباويين ، وقد سارت عملية تجريد الأمراء من ممتلكاتهم خلال الشطر الاول من الحقبة الوسيطة بخطوات اوسع [١] .

ولقد تعددت الاسباب التي جعلت الرجال الأحرار يتحولون الى عبيد ومنها :

١- ان يكونوا قد طلبوا للخدمة في الحرب فرفضوا، فعوقبوا بانزالهم الى مرتبة القنيه أي العبودية.

٢- وربما قد يكونوا وهبوا أنفسهم للكنيسة.

٣- ببيع انفسهم كما يحدث اذا افتقر رجل فيذهب الى أحد السادة اللوردات ويقول له: أعطني كذا فأصبح رجلك وأكون رهينة عندك.

٤- للدفاع عن انفسهم ضد طاغية أو عدو محلي بتسليم انفسهم الى رجل اقوى [٢] .

لذلك اصبح الاقنان يشكلون قطاعاً هاماً من سكان الريف الاوروبي ، وكان اولئك الاقنان يمثلون مكانة في البناء الاجتماعي بين الفلاحين الاحرار وعبيد الارض الارقاء، ولم تكن أعدادهم أو نسبهم متساوية في كل أنحاء أوروبا. وفي ظل تلك الظروف نجد الكثيرين ممن

---

(١) كولتون : مرجع سابق ، ص٧٥.

(٢) كولتون : المرجع السابق ، ص٨١.

ولدوا في الشطر الثاني من القرن الحادي عشر قد وقعوا في اغلال القنانه ، لأن واحداً من اسلافهم المجهولين قد اجبر على التخلي عن حريته[١] .

شجعت الكنيسة نمو نظام الاقطاع الذي وجدت في ظله، هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية، فزوال حكم الحكومات المركزية حول ولاء الجماعات عن تلك الحكومات إلى أعداد من السادة المحليين Local Potentates ممن تأسست على أيديهم اسر اقطاعية كبيرة ، واصبح امتلاك الارض مقروناً بحق امتلاك السيادة والنفوذ في من يكون بتلك الأرض من الناس اي ان الارض والسلطان صارا ممتزجين بعضهما ببعض، ومن ثم نشأت بين السيد والمسود علاقة قوامها عدد من تعهدات مشتركة والتزامات متبادلة وأصبحت تلك العلاقة هي القاعدة السائدة ، وبدأ في الظهور نظام وسط بين اللاحكومة والحكومة الملكية المركزية[٢] ، هو نظام الاقطاع الذي شجعته الكنيسة ويكاد يكون نظام الاقطاع خصيصه أوروبية ، فهذا النظام الذي عكس انهيار السلطة المركزية في الدولة وعجزها عن ممارسة حقوقها وواجباتها استمد وجوده وقوته من الروابط الجديدة في المجتمع، ذلك أن ملاك الأرض في أوروبا بحشوا عن اتباع مسلحين على أهبة الاستعداد للدفاع عن الاخطار الداهمة المفاجئة ، على حين لجأ صغار الملاك الى الدخول في حماية من هم أقوى منهم من رجال السلطان في بيئتهم المحلية. ولما كانت الارض هي عماد الناس والمحور الذي دارت عليه حياتهم ومعاملاتهم في العصور الوسطى فإن تنظيم ملكيتها صار النواة التي بنيت منها الظاهرة الاقطاعية التي اتسع نطاقها فيما بعد حتى شملت سائر حياة الناس في المجتمع الأوروبي[٣] .

وتم تنظيم ملكية الأرض على أساس التعاقد، وظهرت فكرة التابع والمتبوع، فكل فرد يأخذ ارضاً يعتبر تابعاً للشخص الذي ينال منه تلك الارض ، فالمالك الكبير يعتبر تابعاً

(١) قاسم عبده قاسم : مرجع سابق ، ص٦٥.

(٢) كوبلاند (ج. و) : الاقطاع والعصور الوسطى بغرب اوروبا ، ترجمة مصطفى زيادة ، ط٢ ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م ، ص١٩.

(٣) د. ابراهيم العدوي : المجتمع الاوروبي في العصور الوسطى، القاهرة : مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٤م، ص٩٩.

للامبراطور أو للملك، والمالك الصغير يعتبر تابعاً للمالك الاكبر، وهكذا تسير التبعية(١).
ويطلق على أولئك الساده من التابعين اسم الافصال، وكل فصل مهما كانت درجته في ظل النظام الاقطاعي فهو رجل حر، وتعددت التزامات هذا التابع إلا أن أهم التزاماته كانت الحرب تحت راية سيده في حملة او مبارزة او الدخول في حلف اقطاعي. او مساعدة الكنيسة في إخماد حركة من حركات الهرطقة، وتحمس البارون أو الفصل للواجب الحربي تحمساً كبيراً فاق ما عداه من الالتزامات(٢). فيما التزم الملاك الصغار أمام سيدهم الاقطاعي بعدة التزامات كان منها : الخدمة الأسبوعية وتقضي بأن يرسل كل حائز على ثلاثين فداناً أو خمسة عشر فداناً ، فلاحاً واحداً من عنده ليعمل في مزرعة السيد الاقطاعي مدة تبلغ تقريباً نصف اسبوع، فيحضر ومعه محراثه وثيرانه ويشترك مع زملائه في تزحيف الارض وتغطية البذور وجمع المحاصيل، كما يسهم في بناء الاسوار وحفظها وصيانة السدود والقنوات والخنادق ودرس الغلال وتخزينها ورعاية الأغنام وجز صوفها(٣).

وأدت سيطرة البابوية وانتشار نظام الاقطاع الى أن ينقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات متباينة كل التباين مثلت بمثلث : البعض فيه يقاتل والبعض يصلي والبعض يعمل(٤). وهذه الطبقات الثلاث هي : طبقة الفرسان وطبقة رجال الكنيسة وطبقة الكادحين العاملين في الارض، وتحددت وظيفة تلك الطبقات في ظل النظام الاقطاعي فالنبلاء والفرسان تولوا شؤون الحكم والحرب ورجال الكنيسة اختصوا بالعبادة وهداية الناس ، أما الطبقة العاملة فنصيبها الكدح من أجل سد مطالب الطبقتين الأخريين ، وكل ذلك أكد ارتباط الاقطاع بالأرض وملكيتها، فمن نتاج الارض يأخذ الفرسان والحكام ما يساعدهم على أداء واجباتهم ، ومن الأرض ينال رجال

---

(١) كوبلاند : مرجع سابق ، ص٢٢.
(٢) Sidney Painrer : A History of the Middle Ages, Op. Cit., P.45.
(٣) فينوجرادوف : النظام الاقطاعي ، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة ، القاهرة : مطبعة النهضة ، ص١١٢.
(٤) ينسب هذا القول الى الملك الفرد الكبير ملك انجلترا (٨٧١-٩٠١م/٢٥٨-٢٨٩هـ) وكان من كبار المثقفين في عصره وممن فهم حقيقة الظاهرة الاقطاعية وقواعدها . انظر : نورمان ف. كانتور : التاريخ الوسيط ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، ط٢ ، القاهرة : دار المعارف ١٩٨٦م ، ج٢ ، ص٣٢١، والبعض ينسبها الى أسقف فرنسي : انظر ندوة التاريخ الوسيط والاسلامي ، المجلد الثاني ، ١٩٨٣م ، ص٢١٥.

الكنيسة نصيبهم، ومن الأرض يستمد الفلاح قوت يومه وقوت سادته. أما مكونات واختصاص هذه الطبقات فكانت على النحو التالي :

طبقة الفرسان : تكونت هذه الطبقة من الأشراف أو العناصر التي اكتسبت صفات النبل عن طريق الوراثة ، وكانوا رجالاً أحراراً اتخذوا الحرب صفة لهم ، واستخدموا الخيول في خروجهم للقتال ولقب الجندي منهم باسم الفارس Knight ، وعلا شأن الفرد في هذه الطبقة وكان يضطلع بواجب الدفاع وتوفير الحماية للطبقتين الاخريين ، وارتدى الفارس منهم في الميدان ملابس ثقيلة ، وتبعه تابع باسم حامل الدروع Esquire مهمته مساعدة الفارس في ارتداء ملابسه الثقيلة وحمل اسلحته حتى يمتطي جواده ، وكان التابع يصبح فارساً عندما يبلغ سن الرشد وينتهي من التدريبات المقررة(١). ويتم تنصيب الفارس في حفل ديني بعد ان يصل سن العشرين ، واشتهر الفرسان بجرأتهم في القتال واعتزوا بشخصيتهم وكان واجبهم الاول الحرب وحماية الضعيف والمبارزة لاظهار مهاراتهم في أوقات الفراغ، وأحياناً كانوا يستبدلون المبارزة بالصيد ومطاردة الحيوانات البرية واقتناصها، وكان هؤلاء الفرسان يقيمون في الحصون التي بناها السادة الاقطاعيون كملجأ للناس فراراً من الهجمات المفاجئة، وشيدت تلك الحصون من كتل حجرية ضخمة شكلت سداً منيعاً في وجه المغيرين، واشتمل الطابق الاسفل منها على الآبار ومخازن الطعام والاسلحة، أما الطابق الأوسط فيقيم فيه السيد الاقطاعي واسرته، ودأب الفرسان على عقد اجتماعاتهم مع سيدهم الاقطاعي في القاعة الفسيحة بالحصن للتشاور في شؤون الحرب ، أو قضاء أمسيات السمر أيام السلم(٢) .

طبقة رجال الكنيسة : وكانت تضم البابا وحكومته من الموظفين من الكرادلة ورؤساء الاساقفة والقسس والرهبان والكتبة، ومثلوا دولة ليس للسلطات الزمنية نفوذ عليها، وعاش البابا ورجاله في بلاط اشبه ما يكون ببلاط الملوك والاباطرة محاطاً بسائر مظاهر أبهة السلطان

---

(١) Camb, Med. Hist . , Op. Cit. Vol. VI, P. 301.

(٢) C. Stephenson : Mediaeval History , Op. Cit. P. 70.

وجيوش الموظفين[١]. وأُخذت البابوية تنظم سياستها على سائر قوى المجتمع على أسس اقطاعية ، فدعمت التنظيم الكنسي في الأقاليم، وأقامت جهازاً في استطاعته تبليغ أوامرها ورغباتها في شتى أرجاء البلاد ، وعقدت المجامع المختلفة للفصل في القضايا ، وأُخذت المؤسسات الكنسية تبعث إلى البلاط البابوي بضرائب معينة مقابل تمتعها بالحماية والارشاد وعلى نحو ما سار عليه الاتباع بالنسبة لسادتهم الاقطاعيين ، واستخدمت البابوية في سبيل تدعيم سلطتها سلاحين قويين : عقوبة الحرمان والقطع من رحمة الكنيسة للفرد النصراني، فإذا وقع هذا الحرمان على فرد فلا يصح لأحد التعامل معه او الاقتراب منه، والثاني هو عقوبة الحرمان الجماعي والتي توقع على جماعات كبيرة سواء مدينة أو قرية أو اقليماً[٢] ، ويترتب عليه اغلاق الكنيسة لابوابها وبالتالي تهديد مصالح الناس المدنية المتعلقة بشؤن الدين وتعطيل مراسيمها وهي عقوبة خطيرة كان الجميع يتحاشاها. وتوسعت سلطة الكنيسة وثروتها حين تراكمت عليها الهبات والعطايا والأوقاف التي أوقفت على الكنائس من أجل النهوض باعبائها وتقرباً الى الله ، مما ترتب عليها زيادة املاكها واقطاعياتها وشملت سلطات الاساقفة اقطاعيات عديدة، وقاد بعضهم الجند كأنه امير من الأمراء ، أو فارس من الفرسان[٣].

وكان الانضمام إلى طبقة رجال الكنيسة ممكناً لكل من يتلقى تعليماً كنسياً ويترقى في سلمها ، بعكس طبقة الفرسان التي كان الانضمام اليها مقصوراً على أبناء النبلاء[٤] والانتساب اليها بالوراثة ، مما أعطى الكنيسة امكانية تكوين جيش، من الموظفين الذين كانوا يديرون هذه الاقطاعيات الكثيرة وتلك المهام الجسيمة.

طبقة العاملين : واشتملت هذه الهيئة على فئتين مختلفتين الاولى ضمت الرجال الاحرار غير الاشراف ممن مارسوا التجارة والصناعة ونتيجة لأن المجتمع اعتمد في حياته على الأرض فقد

---

(١) هارتمان وبار كلاف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف ، بيروت : الطبعة الثالثة ، دار النهضة العربية ١٩٨١م ، ص١٢٠.

(٢) د. محمد مخزوم : هيمنة البابوية ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، مرجع سابق ، عدد (١٤) ، ص٢٥.

(٣) Camb, Med. Hist . , Op. Cit. Vol. VI, P. 527.

(٤) د. ابراهيم العدوي : مرجع سابق ، ص١١٠.

اصبح دورهم هامشياً ، اما الفئة الثانية فقد اشتملت في الاصل على الملاك الصغار، الذين اضطروا أمام اضطراب الاحوال في أوروبا الى التنازل عن ممتلكاتهم للسادة الأقوياء من طبقة النبلاء ، والتصقوا بالأرض وتفرغوا لفلاحتها وعرفت هذه الجماعة باسم رقيق الأرض أو الاقنان. Serfs او Villeins وشكلوا أدنى طبقات المجتمع(١).

وساعد نظام الإقطاع على انتشار القنية Serfdom وجعلها القاعدة الكبرى التي ارتكز عليها، كما اقرته الكنيسة في فلسفتها وفي تعاملها، وتمتع القن في ظل هذا النظام بحق واحد ضئيل مقابل ما وقع على كاهله من واجبات، وكان هذا الحق أن سيده الاقطاعي لايستطيع قتله كالعبيد، أما التزاماته فكانت لا نهاية لها، فكان ملزماً بالعمل في مزرعة سيده ، ويدفع ضريبة سنوية رمزاً لتبعيته، وأن يبعث لسيده بعشر انتاج الارض وأن يطحن غلته في طاحونة سيده، ولا يخبز الا في فرنه ولا يعصر الا في معصرته، وأختص النظر في قضايا الاقنان بالمحاكم الاقطاعية، التي كانت تتفنن في اصدار العقوبات بالغرامات العالية، كما أنه اذا تزوج بعد موافقة سيده، او جاءه مولود او مات له ميت او اراد تزويج احدى بناته، فإن عليه ان يدفع غرامة لسيده(٢). وقد تكون غرامة الـ "heriot" والتي كانت مفروضة في شكل بهائم حية أو مواش مذبوحة او اموال تؤول الى السيد الاقطاعي عند وفاة القن ، هي أغرب الغرامات الا أن الاغرب منها ما عرف بضريبة الوفاة "Mortuany " فعندما يموت القن وفي نفس اللحظة التي تكون فيها اسرته قد غدت في أشد الحاجة والعوز كان للسيد ان يستولي على اجود ما تركه القن من حيوان باعتباره ملكاً غير موروث، ويستولي الكاهن على ما يليه جودة على شريطة ألا يقل ما تملكه الأسرة في الجملة عن ثلاث بهائم، وكان يحدث في الحالات الكثيرة التي يكون فيها الدير صاحب الاقطاعية وراعي الابرشيه في نفس الوقت، ان الاسره التي كانت تمتلك ثلاث ابقار فقط، يتعين عليها أن تتنازل عن بقرتين منها عند وفاة ولي أمرها، وفي المدن كان اجمل رداء للمتوفي يؤخذ على أنه ضريبة وفاة وكذلك الماعون النحاسي والسرير

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص١١١.
(٢) كوبلاند : مرجع سابق ، ص٣٥.

الذي مات الرجل عليه[١].

وعندما شعرت الكنيسة أنها قد أحكمت سيطرتها وسلطتها على السلطات السياسية بانتصارها على الامبراطورية، وعلى الشعب بسيطرتها على الفلاحين وأقنان الأرض عبر العديد من المراسيم والأوامر، لم يبق أمامها سوى طبقة الفرسان مثيرة للازعاج. وشعرت أن هذه الفئة مصدر ازعاج خطير في وقت السلم بالحروب الاقطاعية التي تثيرها وباعتداءاتها على اراضى الفلاحين وبعض ممتلكات الكنيسة، لذلك فكرت في التعامل معها ، ولكن بشكل لا يجعلها تستثير غضبها أو تتعرض لسيوفها، وكان أن نادت الكنيسة بما عرف بـ «سلام الرب» و «هدنة الرب» حيث عقدت عدة مجامع كنسية ابتداء من المجمع الذي عقد في شاروا في اكيتانيا بفرنسا سنة ٩٨٩م/٣٧٩هـ، واستمرت المجامع تعقد من وقت لآخر ومن مجمع الى آخر ، وكلها تدعو الى إيقاف الحروب في أيام معينة وفي أيام الاعياد، وصولاً الى تحريم هذه الحروب الاقطاعية حتى زادت الأيام المحرمة وجعلت هذه الحروب مستحيلة عملياً ، وان كانت هذه الحركة قد بدأت في فرنسا الا أنها امتدت الى الانحاء الاخرى في أوروبا[٢].

لقد سعت الكنيسة بهذا التدخل لايقاف الحروب الاقطاعية لحماية أملاكها ورجالها، ولكن المجتمع كله استفاد من نتائج هذه الحركة وحاول الفرسان أن يبحثوا لأنفسهم عن ميدان جديد لحروبهم، فكان أن ابتكروا المبارزة، ولكن المبارزة بين الفرسان كانت تتم بطريقة استعراضية استهدفت إظهار أكبر شطر من المهارة بأقل قدر من الاصابات وإراقة الدماء، لذلك لم يقنع الفرسان بتلك الوسيلة، وما ان ظهرت فكرة الحروب الصليبية حتى وجدوا فيها ميداناً اوسع وحقيقي.

لقد استفادت الكنيسة من الأوضاع التي سادت الغرب الأوروبي في القرن الحادي عشر، ومن التقسيمات التي فرضها النظام الاقطاعي، لذلك نجد اثار ذلك النظام وتلك السيطرة واضحة في أهداف الذين استجابوا لدعوة البابوية وشاركوا في الحملة الصليبية الاولى.

---

(١) كولتون : المرجع السابق ، ص١٢٢.

(٢) حاطوم : مرجع سابق ، ص٥٥٠-٥٥١.

فالفرسان وجدوا في الحملة الصليبية ميداناً لممارسة ما اعتادوا عليه من حروب، بعد أن وجدوا أنفسهم يعيشون في بطالة ، اضافة الى أن طبقة الفرسان دأبت على اتباع عدة وسائل للحفاظ على إقطاع العائلة دون تفتيت ، ففي شمال فرنسا كان حق الإرث قاصراً على الابن الاكبر، اما الابناء الذين يصغرونه فكان عليهم ان يبحثوا عن منفذ آخر، إما بالانضمام الى الكنيسة او البحث عن وريثه اقطاعية (وهو امر نادر) او البحث عن مستقبل عسكري مع البارونات اللصوص ، واما ضمن اتباع احد الساده الاقطاعيين الكبار ، ثم جاءت حركة الحروب الصليبية كمتنفس جديد لطبقة الفرسان التي كان عددها ينمو باستمرار[١].

وفي جنوب فرنسا وايطاليا تم تجنب تقسيم الارض بعدة أشكال من الملكية الجماعية ، مثل ملكية الاخوة froternitia حيث الارض مشاعة بين الاخوة واحياناً الأعمام وأبناء الأخوة ، وإذا كثر عدد الورثة كان لابد لبعضهم ان يلحق بالاديرة او الكاتدرائيات، بما يعني الفرار من قيود العائلة الى الكنيسة بقيودها، فكان الانضمام الى الحملة الصليبية فرصة حقيقية للهرب من نظام ملكية الأخوة، وتحقيق الاستقلال والتوسع في ملكية الارض[٢]. كذلك كان للفلاحين دوافعهم أيضاً في المشاركة في الحروب الصليبية والاستجابة لنداء البابوية ، فالاقتصاد الزراعي الذي كانوا يعيشون عليه شهد منذ سنوات عديدة تعود الى أكثر من قرن عدة مشاكل هددت الناس بالمجاعات، ونقص الانتاج، وعجز الارض عن اطعام أُعداد السكان المتزايده ، ولم يعد التوسع في الارض الزراعية او تحسين وسائل الانتاج يمكن من استيعاب المتطلبات الجديدة للسكان وأعدادهم المتزايدة حتى اننا نجد ان البابا أوربان الثاني يركز على هذه النقطة بالذات حين راح يغري الناس بالانضمام الى الحملة الصليبية فـ «هذه الارض التي تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب ، وتحوطها سلاسل الجبال ، وتضيق باعدادكم الكثيرة، وهي لاتفيض بالثروة الهائلة وأنها لا تكادتحقق من الطعام ما يكفي زراعها فقط، وهذا السبب في

---

(١) د. قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ص٧٦.

(٢) هلستر : اوروبا في العصور الوسطى ، مرجع سابق ، ص١٧٤.

انكم تشنون الحرب ضد بعضكم بعضاً، بل وتقتلون بعضكم بعضاً»[١]. وهناك سبب آخر دفع هؤلاء الفلاحين للمشاركة في الحروب الصليبية هو الرغبة في التخلص من رق الأرض والعبودية[٢] التي كانوا يعيشونها في ذل وسيطرة النظام الاقطاعي، كما أن الكنيسة قدمت للجميع وعوداً بحياة الخلود والنعيم في الآخرة ، وغفراناً للذنوب تدفع للتسابق إلى الحرب التي صورتها على أنها طريق الفردوس والجنة[٣].

وكذلك الأمراء الذين شاركوا في الحروب الصليبية كان لهم دوافعهم، حتى إن بعضهم لم يستطع اخفاء هذه الدوافع وسارع الى تنفيذها قبل أن تبلغ الحملة الاولى هدفها، فارتباط نظام الاقطاع بالأرض وبقدر ما يكون لدى الأمير او الفارس من أرض تكون سيطرته ونفوذه، ولأن الارث يؤول غالباً للابن الاكبر، فقد وجد امراء وفرسان بدون اراض[٤] ووجد امثال هؤلاء في نداء البابوية ميداناً واسعاً لتحقيق ما حرموا منه او يرغبون في زيادته من اراض وثروات.

كما أن أحلام الثروة والارض جذبت كثيراً من الأفاقين والمفلسين وشذاذ الطرق والهاربين من الرق[٥]، على أن هذا الجذب الدنيوي تجاوب معه جذب اخروي ، احسنت الكنيسة الضرب على وتره ، فمنذ القرن التاسع الميلادي كان هناك ترويج بابوي للسبيل الجديد للاستشهاد، ألا وهو الموت في الحرب ضد المسلمين ، وفي القرن الحادي عشر ظهر مفهوم غفران الخطايا للمحاربين ، وفكرة جندي المسيح في تدبير مفصل قامت به البابوية وترسخ خلال دعوة البابا اوربان الثاني للحرب الصليبية ، إذ لم يكتف بأنه أعطى لنفسه حق غفران الذنوب

---

(١) المعروف ان هناك خلافاً على النص الاصلي لخطبة البابا اوربان الثاني في مجمع كليرمونت ، فهناك خمس روايات وربما اكثر لهذه الخطبة وهذه الفقرة مأخوذة عن النص الذي نقله روبير راهب ديرسان ريمي Sant-Remi عن روايته لخطبة البابا.

(٢) يوشع براور : عالم الصليبين، ترجمة د.قاسم عبده قاسم ود. محمد خليفة حسن ، الطبعة الاولى ، القاهرة : دار المعارف ١٩٨١م ، ص٤٤.

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٢.

(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة.

(٥) ارنست باركر : الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ص٢٢.

للمحاربين في صليبيته ، بل أعطى هذا الحق للقساوسة والاساقفة[(١)] . كما أن المدن الايطالية أو الجمهوريات والتي شاركت بحماس في الحروب الصليبية تكاد تكون المنفعة الاقتصادية هي المبرر الوحيد لمشاركتها في هذه الحملات ، فقد كانت هذه المدن مهتمة بتنمية تجارتها مع مدن وموانيء البحر المتوسط ، ولما بدأت الدعوة للحروب الصليبية وجدت فيها هذه المدن فرصاً ثمينة للبدء في سلسلة من المشاريع التجارية التي قد يكون تحقيقها عن طريق الحرب والسيطرة على البحرالمتوسط اسهل من الطريق الذي كانت تسلكه هذه الجمهوريات سابقاً عبر الاتفاقيات التجارية مع القوى الاسلامية في المنطقة ، وظهر فيما بعد أن مشاركة هذه الجمهوريات في هذه الحروب أعطت لتجارتها الصفة العالمية واعطتها منفذاً هاماً للتجارة مع الشرقين الأدنى والأقصى ، كما مكنتها من تحطيم احتكار القسطنطينية لتجارة الشرق الاقصى وطرقها[(٢)] .

لقد استغلت البابوية جميع العوامل سواء الدينية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية لتحقيق هدفها في تجريد الحملة الصليبية ، وساعدتها هذه العوامل مجتمعة في إحداث التفاعل الفوري مع الدعوة للحرب التي صبغت عليها البابوية الصفة الدينية ، على ان عاملاً هاماً قد ادى الى تسهيل مهمة البابوية هو حركة الحج النصراني ، وتطورها في القرن الحادي عشر وهو ما سنتحدث عنه في النقاط التالية من هذا الفصل .

---

(١) جوناثان رايلي سميث : ما هي الحروب الصليبية، ترجمة د. محمد فتحي الشاعر، القاهرة : (بدون دار نشر) ١٩٩٠م ، ص٢٩.

(٢) د. عادل زيتون : العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، مرجع سابق، ص١٢٩.

حركة الحج الى الاراضي المقدسة :

سيطرت على أفكار الناس ووجدانهم في الغرب الأوروبي في مطلع العام ١٠٠٠م/٣٩١هـ أفكار ومشاعر دينية غريبة، فقد سرت اشاعات ان نهاية العالم قد اقتربت، وظهرت الأحلام والرؤى والمعجزات والتغيرات الكونية والتي فسرها الناس تفسيراً دينياً، كان اولى نتائج هذه الافكار أن شهدت المجتمعات في اوروبا اتجاهاً دينياً مشوباً بالخرافات والماديات، وانتعشت زيارة الاماكن المقدسة والكنائس المأثورة عند النصارى، وكان من بين هذه التوجهات الرحلة الى بيت المقدس، وزيادة عدد الرحلات التي قام بها الحجاج من غرب اوروبا صوب بيت المقدس في السنوات القليلة التي سبقت وتلت الألف الأولى لميلاد المسيح .

وكان النصارى منذ وقت مبكر يزورون القدس وفلسطين لأنهم يريدون ان يقتفوا آثار خطوات المسيح وحوارييه، وخطوات الأنبياء[١] ...ويقول القديس باولينوس St. Paulinus ان سبب الحج الى فلسطين كان «الرغبة في رؤية الأماكن التي تجسد فيها المسيح ولمسها ،وديننا (يقصد النصرانية) يحفزنا الى رؤية الاماكن التي جاء المسيح اليها ... لقد كان النصارى يحجون الى الاراضي المقدسة لاستعادة افضل ذكريات العهد القديم والعهد الجديد ، إذ كانوا يحجون الى القدس والى طريق الانبياء»[٢].

وفي الأيام الاولى للنصرانية كان الحج أمراً نادراً، ولم تشجع السلطات الرومانية الارتحال الى فلسطين، بل ان مدينة بيت المقدس ذاتها التي دمرها تيبتوس سنة ٧١م ظلت خرائب واطلالاً حتى اعاد الامبراطور الروماني هادريان بناءها سنة ١٣٥م[٣].

وفي عهد الامبراطور قنسطنطين الاول الذي اعترف بالنصرانية ديانة للامبراطورية نمت شعيرة الحج وتطورت ، وقامت امه الامبراطورة هيلين برحلة إلى فلسطين وجمعت خلالها كل ما

---

(١) Alfred Duggan : The Story of the Crusades, London, Faber and Faber, 1963, P.15.

(٢) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ص٢١.

(٣) Duggan. , Op. Cit. , P.11.

تبقى من آثار المسيح ، كما شيد ابنها الامبراطور كنيسة القيامة.

وبدأت الرحلات المنتظمة الى بيت المقدس ، ومنها رحلة اثيريا Aetheria والتي عرفت باسم سيلفيا Silvia الاكيتانيه[(١)].

وحوالي نهاية القرن الرابع استقر بفلسطين احد كبار آباء العالم النصراني اللاتيني هو القديس جيروم[(٢)] ، وفي خلوته في بيت لحم كان يستقبل مواكب المسافرين، أما القديس اوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م)[(٣)] ، وهو من اشهر آباء الكنيسة الرومانية في الغرب ، فإنه اعتبر الحج لا علاقة له بالدين ، بل يعتبر مصدر خطر عليه، وهو ما يبدو ان آباء الكنيسة الأرثوذكسيه قد نزعوا الى الاتفاق عليه فيما بعد.

وفي مستهل القرن الخامس الميلادي صار في بيت المقدس وحولها مائتي دير ونزل جرى تشييدها لاستقبال الحجاج تحت رعاية الامبراطورية[(٤)]. وشهد منتصف القرن الخامس ذروة هذا الميل الى زيارة بيت المقدس، فالامبراطورة ايدوكيا Eudocia استقر بها المقام في بيت المقدس، وشجعت ما جرى وقتذاك من تجميع الآثار والذخائر الدينية ووضعت اساس ما صار منها بالقسطنطينية من مجموعة كبيرة[(٥)]، ثم ما لبث ان نشأت تجارة كبيرة هي تجارة «الذخائر الدينية» والتي لعبت دوراً هاماً في إثارة الاهتمام بالأرض المقدسة في الغرب الأوروبي، وكانت

---

(١) تعود أهمية رحلة سيلفيا الاكيتانية الى ما تركته من كتابات عن رحلتها قبل نهاية القرن الرابع ، وما اسهمت به من اقامة عدد من النزل، وهي من بلاد الغال اي فرنسا.

(٢)قضى جيروم عشر سنوات (٣٧٢-٣٨٢م) جائلاً في الاماكن المقدس في الشرق وبعد عودته الى ايطاليا لم يبق هناك الا ريثما ينتهي من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس حيث عاد بعد ذلك سنة ٣٨٥م حيث استقر بالقدس، انظر ، عزيز سوريال عطيه : الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة د. فيليب صابر سيف ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الثقافة ١٩٩٠م ، ص٢٩.

(٣) على زيعور : اوغسطينوس ،بيروت : الطبعة الاولى ، دار اقرأ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص١٠١.

(٤) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٦٥.

(٥) سنجد فيما بعد ان هذه الذخائر التي حوتها القسطنطينية كانت واحدة من عوامل الجذب التي احتوت عليها رسالة الامبراطور الكسيوس كومنين التي يقال ان الامبراطور بعث بها الى كونت الفلاندرز يستنجد به لمده بجيش لانقاذ الامبراطورية من الوقوع تحت الغزو التركي، وهي رسالة ثبت انها مزوره ومنحولة، كما سنعرض لذلك في حينه.

هذه الذخائر هي رفات القديسين وملابسهم وأُدواتهم الشخصية، وقد استقر في أذهان الناس في الغرب الأُوروبي - بكل ما تميز به من تدين مشوب بالخزعبلات- أَن الذي يجلب معه شيئاً من هذه الذخائر يكتسب مجداً . . ومكانه في عيون اهل بلده وتوضع هذه الذخائر في الكنائس لتزيينها ، وكثيراً ما كانت تلك الذخائر مزيفه استدعتها التجارة الرابحة.

وحوالي نهاية القرن الثامن الميلادي جرت محاولة لتنظيم أُمور الحج تحت رعاية شارلمان، إِذ أُن عهده ارتبط بشيء من الأمن والرخاء والعلاقات الطيبة مع الخلافة الاسلامية فتم تشييد عدد من الفنادق في بيت المقدس التي وصلها عدد كبير من الحجاج ، الا أُن ذلك ما لبث أَن توقف بسبب الانهيار الذي تعرضت له الامبراطورية الكارولنجيه ، والهجمات القادمة من الشمال التي تعرض لها الغرب الاوروبي ، واضطراب حركة الملاحة في البحر المتوسط[(١)]. على أُن عهد الحج الكبير يبدأ بالقرن العاشر حينما أُصبح الحج وسيلة من وسائل غفران الذنوب والتحلل منها والتوبة[(٢)] ، وما رافق هذا القرن من افكار اخرويه والفيه سيطرت على أُهل الغرب الذين اعتقدوا أَن فناء العالم يقترب منهم ، وساعدت النواحي السياسية التي شهدها القرن العاشر على زيادة عدد الحجاج الذين رحلوا الى الشرق ، فقد تقلص النفوذ العربي في السيطرة على كثير من موانيء البحر المتوسط ، وضاعت منهم السيطرة على بعض الموانيء في جنوب فرنسا وايطاليا ، وفقدوا جزيرة كريت ، وشهدت التجارة بين بيزنطه والمراكز التجارية البحرية في ايطاليا ازدهاراً زاد من تقدمه حركة الحجاج الذين كانوا يفضلون السفر عن طريق بيزنطة حيث يشاهدون ذخائرها أولاً[(٣)]. الا أَن الحج في هذه الفترة لم يقتصر على الفقراء ، بل تعداهم الى أصحاب السلطة والسطوة وذوي الاسماء الضخمة في التاريخ ، وكان بعضهم من المذنبين الذين اضروا بمصالح الكنيسة او انتهكوا سلام أو هدنة الرب.

---

(١) رانسيمان : الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٧٠.
(٢) د. عزيز سوريال عطيه : مرجع سابق ، ص٢٨.
(٣) د. حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ، : مرجع سابق ، ص٩٩.

كان للحج في العصور الوسطى تقاليده الخاصة، اذ يتحتم على الراغب فيه أن يستأذن الاسقف، ويتناول منه عصا الحج ومزوداً، يستوي في ذلك الغني والفقير، حتى ان روبرت دوق نورماندیا خرج حافي القدمين سنة ١٠٣٥م/٤٢٧هـ، وبصحبته كثير من الفقراء الذين كان يصلهم من جيبه الخاص، أما العصا فتكاد تبلغ طول الحاج وفي وسطها عقدة وقد تزاد اخرى في اعلاها، أما المزود فيعلق برباط، ويزود الحاج بكتب توصيه الى جميع الاديرة التي سيمر بها، ويخرج أهله وأحباؤه وكاهن القرية لتوديعه وقد يعمد الحاج في بعض الاحيان الى المرور على روما فيتناول من البابا ذاته الصليب ويتلقى تبريكاته، ثم يمضي الى أحد الموانيء الايطالية راكباً البحر الى القسطنطينية ومنها عبر آسيا الصغرى الى بيت المقدس[١]. ولخدمة حركة الحج اقيمت العديد من دور الضيافة، واخذ الكلونيون يشيدون المنازل على امتداد الطريق، في ايطاليا والقسطنطينية.وفي بيت المقدس اشتهر مستشفى القديس يوحنا الذي انشأه تجار امالفي[٢].

ولكن ما هو موقف الدولة البيزنطية والحكومات الاسلامية من حركة الحج من غرب أوروبا ؟ ! لم تكن الدولة البيزنطية تعارض في وفود الحجاج المنظمين الذين لم تكن بغيتهم إلا تأدية الواجب الديني، غير انها بدأت تخاف من الحجاج النورمنديين الذين رأت فيهم فرساناً مسلحين وكانت بيزنطة أكثر ادراكاً لما يبيته النورمان نحوها، فعندما كان يداخلها الشك في هؤلاء الحجاج كانت تعمل على مضايقتهم خوفاً على نفسها. وفي زمن باسيل الثاني فرضت ضريبة على الحجاج وجيادهم، وهو أمر لم يكن مألوفاً، وتجددت هذه الضريبة في عهد ثيودورا في أعقاب القطيعة الدينية سنة ١٠٥٤م/٤٤٦هـ، مما اضطر البابا فيكتور الثاني (١٠٥٥-١٠٧٥م/٤٤٧-٤٦٨هـ) على أن يبعث برسالة في ديسمبر ١٠٥٦م/٤٤٨هـ الى الامبراطوره ثيودورا يلتمس فيها إلغاء هذا القرار[٣].

---

(١) C. Stephenson, Mediaeval History, Op. Cit. , P.279.

(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٧٨.

(٣) Camb, Med. Hist, Vol. V , P.31.

أما المسلمون والدولة الاسلامية فلم يعرف عنهم مضايقة الحجاج النصارى ، ولم يكونوا يصادفوا العنت أو الارهاق الشديد من جانب المسلمين الأوائل، حتى ان بطريرك بيت المقدس ثيودسيوس كتب إلى زميله بطريرك القسطنطينية اجناتيوس في القرن التاسع بتقرير عن السلطات الاسلامية جاء فيه : «إنها عادلة ولم تنزل بنا الضرر ، ولم تظهر شيئاً من العنف نحونا »[١] ولاتذكر عادة فترات أرهق فيها الحجاج النصارى سوى فترة الحاكم بامر الله الفاطمي (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م) الذي كان قد استولى على بيت المقدس. ولكن بعد نهاية فترة حكمه استعادت حركة الحج نشاطها[٢] حتى إن سنة ١٠٥٠م/٤٤٢هـ شهدت جموعاً كبيرة من الحجاج[٣]. وفي سنة ١٠٦٥م/٤٥٨هـ منع المسلمون الحجاج الغربيين ويذكر أن ذلك تم بايعاز من الامبراطورية البيزنطية نتيجة لخلافها الشديد مع روما، وانه تم طرد ثلاثمائة لاتيني من بيت المقدس[٤]. على أن هؤلاء الحجاج النصارى كانوا في كثير من الاحيان مصدر كثير من المتاعب والقلاقل للسلطات الإسلامية، فكانوا لايتورعون عن اثارة المشاكل وكان لابد للسلطات الاسلامية من مواجهتهم.

إلا ان الأمر الجدير بالتأكيد أن المسلمين لم يكونوا يستفيدون تجارياً من ازدهار حركة الحج النصراني الى بيت المقدس ، لأن الدخل الذي كانت السلطات الاسلامية تحصله من الحجاج اللاتين كان تافهاً بالقياس الى موارد المسلمين الهائلة آنذاك[٥]. إضافة إلى تقشف هؤلاء الحجاج أثناء رحلتهم فأي فائدة تجنى من فقراء ومتقشفين ؟ !

---

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ص٤٧. وقد وردت هذه الرسالة الموجهة من ثيودسيوس بطريرك بيت المقدس الى اجناتيوس بطريرك القسطنطينية في :

Mansi : Concilla , ed J. B. Maritin and L. Petit, Paris, Vol. XVI, P.P. 26-27.

(٢) المعروف ان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لم يختص بسياسته فئة معينة من الناس ، ولذا لم تسلم طائفة من الطوائف من اضطهاده وظلمه ، على أن هناك خلافاً بين المراجع حول هدم كنيسة القيامة الذي امر به الحاكم بأمر الله ، ففيما ترى المراجع اللاتينية ان امر الهدم تم ، ترى المراجع العربية أن الامر لم يتم وانما هدد به الحاكم بأمر الله فقط ثم تراجع عنه واخذ يتقرب الى النصارى ، انظر : باركر : المرجع السابق، ص١٥ ، وعبدالعظيم رمضان، مرجع سابق ، ص٣١١.

(٣) A. Duggan, Op. Cit. , P.15.

(٤) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٧٩.

(٥) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ص٢٦.

ومن الملاحظ أنه في فترة جريجوري السابع جرت الدعوة الى تسليح الحجاج. مما يعني أن تحولاً خطيراً بدأ يظهر على حركة الحج النصراني، ففي عام ١٠٧٤م/٤٦٧هـ دعت البابوية الى قيام فرق عسكرية مسلحة بالسلاح لا بالعصي - التي تعود الحجاج أن يأخذوها معهم لطرد الوحوش- كما دعم الامبراطور هنري الرابع هذا القرار البابوي[1] ، وبديء فعلاً في تنفيذه . فإذا ربطنا هذا التحول الذي استجد على حركة الحج بما حدث سابقاً في أسبانيا حين شجع دير كلوني زيارة الحجاج لاسبانيا ودعمها مالياً، لتتحول حركة الحج بعد ذلك في اسبانيا الى حركة استرداد وحرب صليبية، يتضح لنا كيف تحولت حركة الحج الى بيت المقدس، وتسليح الحجاج، واعتبار ذلك تكفيراً عن الذنوب، وكيف أصبحت تطوراً طبيعياً ومنطقياً لما حدث بعد ذلك من اعلان الحرب الصليبية من قبل البابوية ، والاندفاع الى المشاركة فيها من قبل الاهالي الذين تشبعوا بالحكايات التي يرويها لهم العائدون من بيت المقدس ، فتيار الحج المتواصل كان لابد أن يؤدي بالضرورة الى فكرة أن الأرض التي شهدت قصة المسيح وفيها ضريحه - حسب اعتقادهم- لابد ان تكون تحت سيطرة أتباعها.

وقد استفادت الكنيسة الغربية من الحجاج الذين يعودون من الشرق الاسلامي محملين بالتقارير والحكايات من ناحيتين :

أولاً : حصولها على تقارير مفصلة عن أوضاع الحكومات الاسلامية وضعفها وقوتها، مما افادها في رسم سياستها في الدعوة للحروب الصليبية.

ثانياً : استفادت من حكايات هؤلاء العائدين في شحن الرأي العام الغربي وتهيئته لتقبل مبدأ المشاركة في الحروب الصليبية، عبر تصوير وتضخيم المعاناة التي يمر بها نصارى الغرب في الشرق سواء الشرق الاسلامي أو البيزنطي، ويذكر وليم الصوري ان بطرس الناسك عند زيارته لبيت المقدس حاجاً راح يلقي السؤال تلو السؤال على مضيفه مستفسراً عن أحوال النصارى فتجمعت لديه تفاصيل جمه.. أما الاخبار التي فاته سماعها من مضيفه فقد أدركها بالملاحظة الدقيقة التي أسعفته بها عيناه. كما دلته استقصاءاته الخاصة دلالة جليّة على صدق

---

(١) عزيز سوريال عطيه : مرجع سابق ، ص٣٣ ، ٣٤.

ما سمعه من الآخرين، ولم يكتف بطرس بذلك بل اتجه الى بطريرك بيت المقدس «سيمون» وأُخذ يحاوره ويحفزه على طلب النجدة من اخوانه في الغرب، وأخذ منه مكتوباً بذلك ، ووعد أن يقدم تقريراً الى البابوية ، وان يسعى جاهداً لانقاذ النصارى في بيت المقدس[١].

ولابد ان التقارير عن أُوضاع بيت المقدس والشرق الاسلامي كانت تصل الى البابوية من أُكثر من واحد من الألوف التي زارت بيت المقدس من الحجاج اللاتين غير بطرس.

ولابد أن البابوية قد أحسنت استخدام هذه التقارير عندما حانت ساعة إعلان الدعوة الى الحروب الصليبية.

---

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص ٩٠-٩٢.

الدعـوة الى الحــروب الصليبيــة :-

أ خطبة البابا أوربان في كليرمونت :-

يبدأ مؤرخوا الحروب الصليبية قديماً وحديثاً تناولهم للدعوة الى الحروب الصليبية عادة بلاشارة الى مؤتمر كليرمونت[١] وخطبة البابا فيه التي دعا فيها الى الحروب الصليبية، ويستدعي المقام هنا أن نلقي نظرة سريعة على طبيعة العلاقات في هذه الفترة بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني، أي بين بيزنطة والبابوية والاتصالات التي جرت وتمخض عنها اعلان الحروب الصليبية.

فقد استمرت العلاقات متوترة بين بيزنطة والبابوية في أعقاب القطيعة الدينية وهزيمة النورمان أمام الامبراطور الكسيوس كومنين[٢]، حتى ان بابوية روما قد قابلت اعتلاء الكسيوس كومنين العرش البيزنطي بقرار الحرمان، ولكن، ما أن اعتلى المنصب البابوي اودو الليجيري odo of lager'y تحت اسم البابا اوربان الثاني Urban II سنة ١٠٨٨م/٤٨١هـ، وكان شاباً نبيلاً، متخرجاً من ديركلوني[٣] وأحد تلاميذ البابا جرجوري السابع، حتى استعاد مشروع جرجوري السابع القديم بقيام حملة صليبية تنقذ النصارى في الشرق، وتوحد الكنيسة تحت زعامة روما، ولكي يتم ذلك كان لابد من أن يستعيد العلاقة مع بيزنطة، خاصة وأنه رأى أن المسألة البيزنطية قد عولجت بشكل خاطيء ومتوتر، وان بيزنطة الآن اصبحت في وضع افضل بعد أن هزمت النورمان وأبادت البرابرة البجناك، وتصدت للسلاجقة الاتراك. ورأى أن تتخذ روما الخطوة الاولى[٤]، فكان أن بعث بوفد رفيع من قبله إلى القسطنطينية سنة

---

(١) كليرمونت : مدينة وسط فرنسا، وتنقسم الى قسمين احدهما جبلي مرتفع، والثاني سهل منبسط، وتعرف حاليا باسم كليرمونت فران Clermont Ferran .

(٢) سبق : ان تناولنا هذه الحرب بين الامبراطور الكسيوس والنورمان في الصفحات (٤٠-٥٣).

(٣) C. stephenson : op. cit, p 294.

(٤) S. Runciman: eastern Schisn, op. cit, p 16.

١٠٨٩م/٤٨٢هـ يحمل رسالة الى الامبراطور الكسيوس ملؤها المحبة والدعوة الى نبذ القطيعة، وتحمل رجاءً بان تفتح الكنائس اللاتينية التي أغلقت والسماح لاتباعها بأداء الشعائر الدينية. سر الامبراطور بالمبادرة البابوية، وارسل يدعوا البابا الى القدوم الى القسطنطينية للاشتراك في مجمع ديني يبحث القضايا الدينية التي هي موضع الخلاف بين الكنستين، كما ارسل بطريرك القسطنطينية نيقولا الثالث (١٠٨٤-١١١١م/٤٧٧-٥٠٥هـ) خطاباً إلى البابا يعده بفتح الكنائس اللاتينية ويدعوه الى زيارة القسطنطينية او ارسال وفد، ورغم ان خطاب البطريرك قد عنون باسم الأخ وليس الأب، إلا أن البابا تجاوز هذه النقطة التي كانت تثير المشاكل قديماً، وأرسل بالفعل وفداً الى القسطنطينية، ولدى وصول الوفد اعلن رئيسه رفع قرار الحرمان عن الامبراطور، وقابل الامبراطور ذلك بان طلب من البطريرك نيقولا البحث في ادراج اسم البابا اوربان في الـ "ذبتيخا"[١] البيزنطية، لكن هذا الامر لم يتم لان البابا لم يرسل بيان ايمانه، لان بيان ايمانه لابد ان يحتوي كلمة "ومن الابن" وبالتالي العودة الى مشكلة الـ "Filioque" أو الانبثاق، ولكن دبلوماسية البابا اوربان دعته الى تجاوز هذه النقطة أيضاً، وكان أن استعيدت العلاقات بين بيزنطة والبابوية وتجاوز الطرفان موقف البابا جريجوري السابع وحل الوفاق[٢].

كان اوربان الثاني يواجه معضلة في روما فإن بابا آخر هو جيبرت[٣] كان قد اغتصب الكرسي البابوي في أعقاب نزاع جريجوري السابع مع الامبراطور الالماني ثم أسر النورمان له، ولكن الكرادلة لم يوافقوا على اغتصابه للكرسي البابوي واختاروا في أعقاب وفاة جريجوري سنة ١٠٨٥م/٤٧٨هـ رئيس دير مونتي كاسينو، والذي اتخذ اسم فيكتور الثالث، وقد عرف

(١) الذبتيخا "diptychs" لوائح يحتفظ بها بطريرك القسطنطينية كسجلات في الكنيسة، وتحوي اسماء البطاركة الآخرين في الكنائس الأخرى، كدليل اعتراف بهم، انظر: تيموثي وير: الكنيسة الارثوذكسية، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٢) Setton, Hist of the Crusades, op. cit, vol.1. p 227.

(٣) ويعرف أيضاً باسمه البابوي وهو كليمنت الثالث وقد نصبه الامبراطور هنري الرابع بابا سنة ١٠٨٠م في أعقاب نزاعه مع جريحوري السابع وتوفى سنة ١١٠٠م. أنظر : هوامش الكتاب الأول من فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة الى القدس، ترجمة د. زياد العسلي، الطبعة الأولى، عمان، دار الشروق ١٩٩٠م، ص ٨٨.

بتردده وضعفه، غير أن اختياره أيضاً لم يرض جميع الكرادله فأعلن كاردنيال اوسينا عدم موافقته على اختيار فيكتور، واستمر الوضع في روما هكذا، بابا مغتصب، وآخر لا يعترف به جميع الكرادلة، الى أن توفى فيكتور في سبتمبر ١٠٨٧م/ ٤٨٠هـ واجتمع الكرادلة في تيراشينا Terracina ليختاروا أوربان الثاني بابا لهم، وكانت احدى اهم نقاط ترشيحه ماسبق وأن أعلنه البابا جريجوري السابع في أن يخلفه أوربان على الكرسي البابوي(١).

ولى اوربان ارثاً شاقاً، وكانت روما في حوزة البابا المغتصب، وكان في وسع اوربان أن يتوغل حتى ضواحي روما، على أنه لن يتجاوز ذلك إلا بإراقة الدماء، وهو - ما كان يرفضه، الا انه لقي التأييد في اقصى الشمال من ما تيلدا صاحبة تسكانيا، ودأب على العمل دون انقطاع ليستعيد روما واتبع الكياسه والدبلوماسية وانفق الكثير من المال ولكن دون أن يلجأ الى السلاح، حتى إذا حلت سنة ١٠٩٣م/٤٨٦هـ تغير كل شيء، واستطاع اوربان أن يقضي بروما عيد ميلاد تلك السنة(٢)، وخلال السنتين التاليتين استطاع اوربان الثاني أن يوطد مركزه وحصل على اعتراف مختلف أنحاء اوروبا به سيداً على كرسي روما، بعد أن أظهر مع الأمراء العلمانين الصبر والتحمل الذي تجاوز كل الحدود، طارحاً جنباً سياسة جريجوري السابع من الدعاوي من أجل السيادة السياسية(٣).

والواقع أن الامبراطور الكسيوس كومنين بدملوماسيته وقراءته لحقيقة القوى في ايطاليا، لم يشأ أن يقيم اتصالا مع البابا المغتصب(٤)، والذي كان تحت سيطرة الامبراطور هنري الرابع، ولكنه اهتبل الفرصه التي اتاحها له البابا اوربان الثاني، كما سبق توضيح ذلك.

---

(١) رانسيمان : الحروب الصليبية، مرجع سابق، ج ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) Camb, med, hist, vol. V p. 271.

والواقع أن نفوذ كليمنت الثالث أخذ يضعف بينما أخذ نفوذ اوربان يزداد واضطر كليمنت الى ترك روما والانتقال إلى مواقع سيطرة الامبراطور الالماني وسرعان ما تلاشى البابا المغتصب.

(٣) Denys Hay: The medieval centuries, London, Methuen and Co. Ltd,1964. p.91.

(٤) رانسيمان : مرجع سابق، ج١، ص ١٥٤.

أتاحت العلاقة الجديدة التي أُقامها الامبرطور الكسيوس كومنين مع البابا اوربان الثاني، الفرصة لأن يعود إلى إرسال الوفود إلى مختلف أنحاء الغرب الأُوروبي للبحث عن عناصر المرتزقه التي يمكن أن تضم إلى الجيش البيزنطي، الذي كان يحتاج اليه لمقاومة أعدائه في الشمال والجنوب ولتأمين حدوده أمام النورمان، الذين وان كان الامبراطور قد هزمهم إلا أنه لم يأمن جانبهم أو مغبة قيامهم بهجوم جديد، وتكريس انتصاراته التي كان يحققها في آسيا الصغرى ، تارة بالقوة وتارة بالدبلوماسية.

ويشير المؤرخون إلى أن الامبراطور الكسيوس كومنين سبق أن كتب إلى روبرت الأول أمير بلاد الفلاندرز في مستهل العقد الأخير من القرن الحادي عشر يطلب من الاوروبيين ان يساعدوه حربياً في الأناضول ضد ألاتراك[١] وهي دعوة يثار حولها العديد من الجدل سنعود إلى مناقشتها عند الحديث عن حقيقة المساعدات التي كان يطلبها الامبراطور البيزنطي. على ان الثابت أن وفداً بيزنطياً كان يتجول في أوروبا في عام ١٠٩٥م/٤٨٩هـ بغرض جمع الجنودللمحاربه في صفوف الجيش البيزنطي كمرتزقة[٢]. وصادف مرور هذا الوفد بمدينة بياتشنزا[٣] - الواقعة في شمال ايطاليا- عقد مجمع خصص لمناقشة بعض قضايا الكنيسة اللاتينية، وعلم البابا بوجود هذا الوفد فدعاه لبسط قضيته أمام حضور هذا المجمع من القساوسة الذين يمثلون مختلف كنائس الغرب. ومرة أخرى يدور جدل حول طبيعة هذا الوفد،

(١) د. عزيز سوريال عطيه : مرجع سابق، ص ٣٦، وباركر : الحروب الصليبية، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٢) A. Duggan, op. cit, p 21.

(٣) من الجدير بالذكر أن مؤلفاً عربياً من أوائل القرن الرابع عشر الهجري هو سيد على الحريري قد ألف كتاباً عن الحروب الصليبية اسماه :الأخبار السنيه في الحروب الصليبية، وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في شهر ربيع الأول سنة ١٣١٧هـ/ يوليو ١٨٩٩م، ورغم أنه اعتمد على المصادر الاسلامية فقط - كما يقول محققه - إلا أنه أحاط بجوانب أخرى عن أسباب الحروب الصليبية في الغرب، فاشار إلى مؤتمر بياتشنزا تحت اسم "مؤتمر بلاصانس" وذكر أن المؤتمر عقد بالحاح من بطرس والذي يسميه السايح، وان البابا قد فشل في اقناع الاوروبيين في المشاركة والذين اعتراهم الخوف من ترك بلادهم والانتقال إلى الشرق لمقاتلة الترك بناء على دعوة ملك بيزنطه، ويذكر أن أعداداً كبيرة حضرت المؤتمر، ثم يشير إلى مؤتمر كليرمونت الذي تلاه ويذكر أن أعداداً أكبر حضرته، ثم يذكر خطبه على لسان البابا اوربان لم ترد في المراجع الاجنبية. والكتاب محاولة جيدة ومبكرة لكتابة تاريخ الحروب الصليبية، ووضع في فترة تاريخية هامة هي فترة الاطماع الاوروبية في الدولة العثمانية، فهو اراد أن يستعيد طمع الغرب في السابق ويقارنه بطمعهم في زمانه، وقد صدر الكتاب مؤخراً محققاً وقام بتحقيقه الدكتور عصام محمد شبارو، وصدر من دار التضامن للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٨م.

فمن الذي رتب وجوده في هذه المدينة في هذا الوقت؟ أهو البابا أم الامبراطور؟ ، أم أن الوفد صادف مروره بهذه المدينة أثناء هذه الفتره، فانتهز فرصة عقد المجمع واخذ يطرح قضيته؟ والواقع أن جدلاً كبيراً يثور حول هذا الموضوع، نؤجل مناقشته عند الحديث عن حقيقة المساعدة التي كان يطلبها الامبراطور، ولكن الاكيد أن الوفد قد ضخم في طرح قضيته، ورغم أنه لم يمكن الوقوف على شيء من أحاديث أعضاء الوفد، غير أنه في سبيل اقناع الحاضرين بان يعملوا في خدمة الامبراطور، اشاروا بصفة خاصة إلى المتاعب التي يتعرض لها النصارى في الشرق، وضرورة اخراج المسلمين من آسيا الصغرى، ودعا الوفد كنائس الغرب إلى تشجيع التطوع في الخدمة العسكرية حيث لم يكن الإغر اء المادي كافياً.

تقرر أن يعود الاساقفة إلى ديارهم على ان يدرسوا كيفية المساهمة في ارسال عساكر للقتال في الجيش البيزنطي[١]، وبدأ البابا اوربان الثاني يبلور خطته.

اختار البابا لخطوته الجديدة مدينة كليرمونت الواقعة في جنوب فرنسا حيث موطنه الأصلي، ونفوذه الكبير، والاقطاع ورجاله، فقد عقد مجمعاً كنسياً في نوفمبر سنة ١٠٩٥م/٤٨٩هـ شهده نحو ثلاثمائة من رجال الكنيسة الذين تشعبت أعمالهم[٢]، واتخذت في المؤتمر قرارات عديدة حـــول قضايا التقليد العلماني والسيمونية وزواج القسس، وتأييد هدنة الله والمطالبة بترسيخها، كما اتخذ قرار بقطع فيليب ملك فرنسا من الكنيسة لما اتهم به من الزنا، وتقرر حرمان أُسقف كومبراني. وأراد البابا أن يستغل عقد هذا المجمع الكبير والضخم منذ توليه الكرسي البابوي في القضية الهامة التي تشغل باله منذ انتهاء مؤتمر بياتشنزا. وربما من قبل، وذكر ان البابا سيعقد جلسة علنية في عاشر أيام المؤتمر الثلاثاء ٢٧ نوفمبر ليلقي اعلاناً هاماً، واحتشد القسس والعلمانيون حتى بلغوا من الضخامة ان الكاتدرائية التي يعقد فيها المجمع لم تتسع لهم، فتقرر إقامة الكرسي البابوي على منصة مرتفعة تطل على الفضاء خارج الباب الشرقي للمدينة فلما اكتمل اجتماع الجماهير ألقى عليهم اوربان

(١) رانسيمان ، مرجع سابق ، جـ ٢١ ، ص ١٥٨.
(٢) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ١٦١.

خطبتـه[١] واستخدم فيها كل براعته فـي الخطابـة واستعرض فيها مشاكل الكنيسة والمجتمع الغربي، ثم عرج على بيت المقدس وموقف الأتراك السلاجقة به وبالحجاج الذاهبين اليه. ودعا إلى القتـال لخلاصـه وانقاذ النصاري الشرقـيين، باذلاً الغـفران للمـتطوعين، وتعـهـد بحمـاية عائلاتهم وأملاكهم ومناهم بالاراضي التي تفيض عسلاً ولبناً[٢] ولم يكن أمام الحضور ـوقد استغرقتهم وعود البابا وحفزهم غفرانه، وصورت لهم خيالاتهم ماينتظرهم من نعيم- سوى أن يردوا عليه بصوت واحد It is Gods will = Deus le volt = هكذا ارادة الله[٣].

فـاق الحماس الذي قـوبلت به خطبـة البـابا اوربان كل تـوقعـاته، فكانت كليرمـونت هي التي اطلقت شعلة الحرب الصليبية، ولكن البابا لم يكن يتوجه بدعوته فقط إلى هؤلاء الضعفاء الفقراء الذين احتشدوا في كليرمونت بل هو يريد الفرسان الذين يستطيعون فعلاً أن يسهموا في المجهود الحربي، لذلك عاد البابا للاجتماع باساقفته مرة أخرى واصدر المجمع بناء على طلب أوربان قـراراً ببذل التـحلل من العقـوبات الدنيـوية، عن الذنوب التي ارتكبـها من يشـترك بنية خالصة في الحرب المقدسة - ليغري الفرسان- وأضيف إلى هذا القرار، أن كل ما امتلكه

---

(١) أنظر خطبة اوربان الثاني في مؤتمر كليرمونت، كما رواها فوشيه الشارتري الذي يقول أنه كان حاضراً المؤتمر، ص (٣٢)، وسبق أن ذكرنا أن هناك خلافـاً على النص الأصلي لخطبـة البـابا، وروايات مـختلفـة في كـثـيـر من تفاصيلها والفاظها، وربما يعود السبب إلى أن الخطبـة لم تسـجل في حينه وانما سجلت بعد ذلك وبعد ان حققت الحملة الصليبية الأولى أهدافها، وبعد أن جاء الدور على رجال الكنسية والكتبة والذين شارك بعضهم في الحملة، ليسجلوا، فبعضهم كان يكتب ما رآه ومنهم يكتب ماسمعه من بعض العائدين من الحملة، لذلك لاغرابة ان نجد تناقضاً في هذه الروايات وبالذات في خطبة البابا، وقد كتبت الكاتبه الامريكية دانا مونرو دراسة عن نص خطبة البابا اوربان الثاني في كليرمونت على أمل الحصول على النص الأصلي للخطبة بجمع هذه النصوص ومقـارنتـها بالتركيز على النقاط التي اتفقت فيها انظر : Dana. C. Munro, the speech of Pope Urban II at Clermont, in American histrical review, New York, 1906,vol. XI. P. 231.

ولدينا خـمسة نصـوص لكل من فـوشيـة الشـارتري والمؤرخ المجهـول، وروبر الراهب، وجيـوبرت النوجنتي وبلدريك الدولي . وباستـعراض هذه النصـوص تبدو الاختـلافات كـثيرة جداً ليس في الألفاظ فقط وانما في الأفكار ايضاً والنقاط التي تناولتها كل خطبة.

(٢) وليم الصوري، مصدر سابق، ص ١٠٥.

(٣) Maurice Keen, The pelican histroyof medieval Europe, London: Penguin Books, 1986, p 118.

المشتركون في القتال من متاع الدنيا سوف يكون تحت حماية الكنيسة، أثناء تغيبهم في الحرب، ويعتبر الأسقف المحلي مسؤولاً عن سلامته وينبغي أن يرده كاملاً حينما يعود المحارب إلى وطنه، ثم اتخذت عدة قرارات تخدم غرض قيام الحملة كان منها[١] :

١- ينبغي على كل مشترك في الحملة أن يحمل علامة الصليب.

٢- كل من اتخذ الصليب ينبغي أن يفي بالوعد بالمسير إلى بيت المقدس فإذا بادر بالرجوع أو لم يتوجه إلى الحملة تعرض للقطع من الكنيسة.

٣- لاينبغي لرجال الكنيسة والرهبان أن يتخذوا الصليب الا باذن الأُسقف ورئيس الدير.

٤- ينبغي ان لايشترك في الحملة المتقدمون في العمر والمرضى.

٥- ينبغي ان يتجهز كل فرد لمغادرة وطنه في عيد العذراء (١٥ أغسطس) في السنة التالية بعد ان يتم جمع المحصول، وعلى أن تلتقي الجيوش في القسطنطينية.

واختار البابا أُسقف لي بويه ادهيمار (Adhemer de Monteil) مشرفاً على الحملة، وكان ادهيمار ينتمي إلى أُسرة كونتات، وكان في ربيع العمر وسبق أن زار بيت المقدس قبل تسع سنوات، وأول من استجاب لدعوة البابا[٢]. ثم استخدم البابا مبعوثين خاصين للترويج للحملة إضافة إلى رحلاته وتنقلاته التي قام بها في طريق عودته إلى ايطاليا وألقى عدداً من الخطب، ومنح تفويضاً إلى روبرت من اربسيل Robert of Arbissel للدعوة إلى الحرب في وادي اللوار، وأمر جرينتو Grento رئيس دير القديس بينين من ديجو St. Benigne of Dijon للإعلان عن الحروب الصليبية في نورماندي[٣]. وبدأت جولات البابا وخطبه ورسله تؤتي ثمرها فكثر عدد الأمراء والنبلاء الذين طلبوا الانضمام إلى الحملة، وكان ريموند كونت تولوز أول من طلب من السادة الأمراء الاشتراك في الحملة، وقام البابا بزيارته في تولوز التي اتخذها مقراً لقيادته في شهري مايو ويونيو، وتهيأت له فرص عديدة ليناقش الحرب الصليبية القادمة مع

---

(١) رانسيمان : مرجع سابق جـ ١ ، ص ١٦٤.
(٢) فوشية الشارتري، مصدر سابق ، ص ٣٧.
(٣) جوناثان سميث، مرجع سابق، ص ٤٤.

مضيفه الكونت ريموند، وبدأ مبشرو البابا يذرعون أوروبا للتبشير بالحملة، وكان في مقدمة هؤلاء المبشرين بطرس الناسك والذي لم يكتف بالتبشير وانما أخذ يجمع الجموع (١).

شعر البابا بالاطمئنان أن خطته كانت تسير كمارسمها فهاهي الجموع تسارع إلى اتخاذ الصليب، وهاهم الفرسان الذين كانوا أكثر من يعنيهم في دعوته قد بدأوا ينضمون إلى الحملة، وهاهم الأغنياء يهبون أموالهم للمجهود الحربي.

لقد تجاوبت أصداء دعوة البابا مع طموحاته التي أراد أن يحققها في ضربة واحدة، فقد رأي البابا اوربان ان الحملة تحقق له اربعة اهداف أخرى غير هدفها الرئيسي والواضح وهو استعادة الأرض المقدسة من المسلمين، فهي ستؤدي إلى إعادة توحيد العالم النصراني في الغرب اللاتيني، بعد المنازعات المريره التي أدت إليها اصلاحات جريجوري السابع، وستزيد في هيبة البابوية في وقت كان فيه انصار الامبراطور الالماني موجودين حتى في روما نفسها (٢)، وستعمل على إنهاء الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية (الارثوذكسية والكاثوليكية) (٣) ووجود قوة مثل هذه ستجعل صاحب القوة هو المتحكم في إقرار شروطه فيصبح الامبراطور البيزنطي معتمداً أو حتى خاضعاً لجيش لاتيني، وستمثل حلاً لمشكلة الفرسان الفرنسيين والجيوش الاقطاعية الفرنسية - نظراً لتركيزه على فرنسا- وتلبي حاجات الكثيرين من السادة الاقطاعيين والفرسان كما أنها ستسخر جهودهم وطاقاتهم في خدمة الكنيسة، وتهيئ لهم مجالاً خصباً يمارسون فيه تطلعهم للمغامرة والحروب. وحلاً مناسباً لزيادة عدد السكان وزيادة عدد الفرسان الذين لايملكون أرضاً في فرنسا (٤).

على أن هناك دوافع وطموحات أخرى يقال إنها سيطرت على البابوية في تلك الفترة منها تحقيق عالمية الكنيسة وتوسيع دائرة نفوذها حتى تشمل الشرق الاسلامي إضافة إلى الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني.

---

(١) S. Painter, op, cit, p 202.

(٢) اشارة إلى البابا المغتصب الذي كان في روما، وبقايا انصاره.

(٣) نورمان كونتور : مرجع سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥.

(٤) C. Stephenson , op. cit, p 292.

ب دوافع وأهداف الحركة الصليبية (من خلال تحليل خطبة البابا اوربان الثاني):-

ان قراءة متأنية لمقاطع من خطبة البابا اوربان الثاني في كليرمونت توضح لنا حقيقة هذه الدوافع والنوايا التي جاشت في صدر البابا وهو يعد لحملته الصليبية بإعلان الشرارة الأولى لها في كليرمونت. وسبق أن قلنا إن هناك اختلافاً بين المؤرخين الذين سجلوا خطبة البابا اوربان الثاني، فكل منهم يورد النص الذي تصور أن يكون البابا قد قاله في خطبته، أو كان ينبغي أن يقوله[١]، لذلك سنورد نصوصاً مما أورده هؤلاء المؤرخون نتلمس من خلالها دوافع وأهداف البابا من إعلان دعوته للحروب الصليبية.

يقول فوشيه الشارتري إن البابا قد ذكر سامعيه بوعودهم التي قطعوها على انفسهم بحفظ السلام ومراعاة حقوق الكنيسة، وقال لهم ايضاً " .. فإن عليكم وقد قوم الله اعوجاجكم أن تؤدوا مهمة ملحة لكم ولله تستطيعون ان تظهروا فيها مدى صدق نواياكم، عليكم ان تسارعوا لمد يد العون لاخوانكم القاطنين في الشرق الذين يحتاجون إلى مساعدتكم وطالما التمسوها. إن الاتراك وهم شعب فارسي[٢] قد هاجموهم،كما يعلم الكثيرون منكم. وتقدموا داخل الاراضي الرومانية[٣] إلى ان وصلوا إلى ذلك الجزء من البحر المتوسط الذي يدعى "ذراع القديس جورج[٤]" لقد انتزعوا شيئاً من اراضي «النصارى»، كما هزموهم في سبع معارك[٥] حتى الآن ، وقتلوا وأسروا الكثيرين، وهدموا الكنائس ... وإن سمحتم لهم

---

(١) Dana Munro , op. cit, p 232.

(٢) يلاحظ هنا الخلط في المعلومات والجهل الواضح بعناصر وشعوب الشرق.

(٣) يقصد الاراضي البيزنطية.

(٤) يقصد بهما بحر مرمره ومضيق البوسفور.

(٥) لايوجد أصل لعدد هذه المعارك التي وردت في خطاب البابا، ولابد ان الرقم الذي ذكر هكذا من أجل التهويل، أو أن يكون له مغزى ديني.

بان يتابعوا عدوانهم يصبح احتلالهم وقهرهم لشعب الله المؤمن اشمل وأعم، لذا وبصلاة خاشعة فانني، لا بل إن الله وليس انا، يحثكم ياجنود المسيح على أن تحضوا الرجال مهما كانت مراتبهم، فرساناً كانوا ام مشاة، اغنياء كانوا أم فقراء، ان يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أراضينا ويمدوا يد العون للسكان النصارى قبل فوات الأوان.. »[١].

فهنا الهدف الأكبر استعادة القدس وانقاذ الدولة البيزنطية من هجمات الاتراك التي توشك على اكتمال الانقضاض عليها. وهناك سبب أو دافع آخر نجده في النص الذي أورده روبير الراهب يقول: «... ان هذه الارض التي تقطنونها تحيط بها البحار وقمم الجبال وهي تضيق عن استيعاب اعدادكم الكبيرة كما انها بلاد ليست موفورة الثراء إذ أنها لاتنتج إلا مايكفي زراعهابالكاد، وربما أنكم تقتلون بعضكم بعضاً بحيث تهلكون من جراء الأذى المتبادل، فلتنبذوا الكراهية من بينكم ولتجمدوا منازعاتكم، ولتوقفوا حروبكم، ولتتخلوا عن كافة الشقاق والخلاف. سيروا على طريق الضريح المقدس، وحرروا هذه الارض من الجنس الشرير، وكونوا انتم سادتها، فهذه الارض التي يقول الكتاب المقدس أنها تفيض باللبن والعسل، وقد منحها الرب ملكاً للمؤمنين...»[٢]، فهنا دافع آخر هو نبذ الحروب الاقطاعية وتوجيه طاقات الفرسان إلى الشرق وإلى الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، وبالتالي ايجاد الحل الامثل للمشكلة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا من مجاعات وفقر وحروب اقطاعية.

وسبب آخر نجده في النص الذي أورده بلدريك، كبير اساقفة دول فهو يقول "... اسمعوا وعوا أنتم يامن تختالون بشارة الفروسية، وقد ملأكم الغرور الشديد أنكم تحاربون اخوانكم وتمزقون بعضكم إرباً، وليست هذه هي الجندية الحقة.. ان الكنيسة المقدسة حفظت لنفسها نمطاً من الجندية لمساعدة شعبها ولكنكم ترتكبون الشر الذي يؤذيها ويهبط بها... وإذا كنتم حقاً تريدون ان تحرصوا على أرواحكم، فإما ان تطرحوا شارة هذا النمط من الفروسية،

(١) فوشيه الشارتري، مصدر سابق، ص ٣٦.

(٢) Edward Peters, The First Crusade, Philadelphia, University of Pennsylavania Press, 1971, P. 3.

وإما ان تتقدموا بجسارة كفرسان للمسيح، وتندفعوا باقصى سرعة ممكنه للدفاع عن الكنيسة الشرقية ، . . . أيها الاخوة يجب أن ترتجفوا فزعاً حين ترفعون يداً بالعنف ضد النصارى، فإن تجريد سيوفكم ضد المسلمين أقل شراً إنها الحرب الوحيدة الصائبة، لأنه من الخير والاحسان ان تخاطروا بحياتكم من أجل إخوانكم . . . »[١].

فهنا اضافة إلى العوامل السابقة اعلان للحرب المقدسة الصائبة التي تسعى إليها الكنيسة الغربية حسب وجهة نظر البابا لتحقق الوحدة مع الكنيسة الشرقية في كنسية واحدة، ولتقضي على كثير من أمراض المجتمع الغربي.

وسبب آخر نجده في النص الذي أورده جيوبرت مقدم دير نوجنت فهو يقول على لسان البابا : « . . . وإذا كنتم تعتبرون أنكم يجب ان تتحملوا مشاق كبيرة للقيام برحلة حج إلى مقابر الحواريين في روما أو أضرحة غيرهم . . . فما هو الثمن الذي ترفضون دفعه في سبيل انقاذ الصليب والدم والقيام برحلة حج إلى بيت المقدس، فحتى الآن خضتم حروباً غير عادلة، غالباً ما وجهتم حرابكم في وحشية ضد بعضكم البعض في مجازر متبادلة بسبب الطمع والكبرياء فقط وهو الأمر الذي تستحقون بسببه الدمار الأبدي واللعنه الابديه، والآن نقترح عليكم ان تشنوا الحرب التي تجلب لكم المجد الابدي. . . ويجب ان تفكروا بقدر ما يمكنكم في هذا . . . إذا كان الرب يتصرف من خلالكم بحيث تنتعش أم الكنائس[٢] من جديد بفضل تعاونكم لنشر النصرانية في آفاق جديدة . . . وإذا لم تكن أقوال الكتاب المقدس تحرككم، وإذا لم تكن تحذيراتنا تصل إلى عقولكم، فإن البؤس الشديد الذي يعانيه أولئك الذين يرغبون في زيارة الأماكن المقدسة ينبغي أن تكون حافزاً لكم . . ما الذي يمكن أن نقوله عن أولئك الذين لايملكون شروي نقير والذين يسعون للحج في فقر وعرى وليس لديهم شيء يخسرونه سوى أجسادهم فالنقود غير الموجودة تستخرج منهم بالتعذيب القاسي، فيشق جلد كعوبهم الخشن وينتزع لئلا يكونوا قد دسوا شيئاً تحتها، بل إن قسوة هؤلاء الرجال. . لتصل الى حد

(١) Edward Peters, Op. Cit. p. 7.
(٢) يقصد كنيسة روما ومقر البابوية.

أنهم يظنون أن أولئك التعساء قد ابتلعوا الذهب أو الفضة فيضعون في شرابهم مادة مسهلة ويجبرونهم على أن يتقيأوا أو يتبرزوا أو يمزقون ارباً كل الامعاء بعد ان يبقروا بطونهم بحيث ينكشف كل سر مخبوء (١) .. اتوسل اليكم ان تتصرفوا من اجل اورشليم التي جاءت منها الأسس الاولى لديانتكم ..» (٢).

وهنا نجد أكثر من دافع وسبب فالرغبة في الوحدة او بالاصح استعادة كنيسة القسطنطينية دافع وتسهيل رحلة الحجيج النصراني الى بيت المقدس بل والاستيلاء عليها، وبسط نفوذ كنيسة روما على كل الكنائس وفتح آفاق جديدة أمامها وتوسيع دائرة نفوذها لتشمل الشرق الاسلامي، واقرار السلام في الداخل وتوحيد الجهود العسكرية إلى الخارج هي كلها دوافع للبابوية.

وبالرغم من الاختلاف الذي سبق أن اشرنا اليه في نصوص خطبة البابا (٣) إلا أنه

---

(١) ولم يرد هذا الاتهام في اي نص من النصوص الاخرى لخطبة البابا اوربان الثاني ولاندري من اين جاء هذا المدعي بكل صنوف التعذيب هذه والتي رواها على لسان البابا ، فلم يسبق ان ورد ما يشير الى حدوث مثل ذلك ، بل ان حسن المعاملة وعدم الاستفادة المالية من عوائد الحجاج النصارى الذين يزورون بيت المقدس ويصلون عادة فقراء متقشفين هو الصحيح ، وسبق ان ذكرنا وصفاً لحال النصارى في بيت المقدس على لسان بطريرك بيت المقدس ثيودسيوس في الرسالة التي وجها الى زميله اجناتيوس بطريرك القسطنطينية يصف فيها احوال النصارى في بيت المقدس ومعاملة المسلمين لهم ، بل اننا سنجد ان المسلمين عندما فتحوا القسطنطينية فيما بعد وجدوا من يثني على ايامهم ويستجير من ايام اللاتين الغربيين في القسطنطينية حين قال كبير الدوقة لوقاس نوتاراس شقيق آخر اباطرة الدولة البيزنطية : "لأحب الينا ان نرى العمامة التركية في المدينة وليس التاج الاسقفي اللاتيني" انظر : تيموثي وير ، الكنيسة الارثوذكسية ، مرجع سابق ، ص٩٩.

(٢) Edward Peters , Op. cit. , P. P. 10-15.

(٣) اورد ايضا سيد علي الحريري في مؤلفه : الاخبار السنيه في الحروب الصليبية ، ص(٢٤، ٢٥) نصاً لخطبة البابا اوربان الثاني ، وهو بالفاظ وافكار مختلفة عن النصوص السابقة ، ويبدوا ان الحريري اعتمد في هذا النص ومعلوماته على الحملة في جانبها الغربي وقبل ان تتحرك الى الشرق على كتاب :" تاريخ الحروب المقدسة في الشرق المدعوة حرب الصليب "، تأليف مكسيموس مونرود وترجمة مكسيموس مظلوم ، وقد اصدره ونشره دير الفرنسيسكان في القدس ١٨٦٥م/١٢٨٢هـ ، والكتاب اليوم مفقود لكنه كان معروفا في زمن الحريري ، وقد اصدر الحريري الطبعة الاولى لكتابه سنة ١٨٩٩م مما يعني انه قد اطلع على هذا الكتاب الغربي واستفاد من معلوماته وهذا يخالف ماذكره محقق الكتاب الدكتور عصام محمد شبارو حيث يذكر في مقدمة تحقيقه أن المؤلف الحريري «قد أعتمد وجهة النظر الاسلامية في كتابه الذي يخلو تماماً من المصادر الغربية أو من المصادر الشرقية البيزنطية والارمنية"ص(٧)، والذي يؤكد ما نذهب اليه من ان الحريري قد اطلع على هذا الكتاب واستفاد منه في معلوماته عن الحملة الصليبية واخبارها في الغرب ان مؤلفاً آخر هو سيد الكيلاني في كتابه : الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام، يذكر نص الخطبة التي اوردها الحريري منسوبة الى كتاب مكسيموس مونرود ، وهو يؤكد مانذهب اليه وعدم دقة ماذهب اليه المحقق، وبالتالي يصبح لدينا نص جديد آخر لخطبة البابا اوربان الثاني في كليرمونت. طالع نص الخطبة كما أوردها مكسيموس مونرود في الملحق رقم (٣).

يتضح لنا أن هذه النصوص تكاد تتفق على جملة اهداف حوتها خطبة البابا، وبشرت بها دعوته للحرب الصليبية ، وهي في مجملها تحددالمشروع الذي كانت تخطط له الكنيسة اللاتينية الغربية لتحقيق الاهداف التي رأت أن هذه الحرب ستحققها لها، وهو مشروع سبق ان أوضحنا أنه اكتنفته دوافع واغراض منها ما اعلنته البابوية ليكون ستاراً، ومنها ماتسترت عليه ليبرز بعد ذلك ، وقد أرادت الكنيسة ان يسير مشروعها هذا وفق برنامج مخطط ومدروس .

لقد أراد البابا من خلال خطبته ومن خلال ماحملته من أهداف ودوافع ، الترويج لحملته الصليبية ولمشروعه الكبير الذي رأي فيه حلاً لعددكبير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأوروبي، وفي نفس الوقت تحقيق نقله نوعية ومكانية لنفوذ البابوية وسيطرتها بحيث تشمل افاقا اكبر ومواقع اكثر، ورغم هذه الدوافع والأهداف التي حملتها خطبة البابا اوربان في كليرمونت الا أن اهدافاً أخرى غير معلنة، أو مؤجلة خططت البابوية لتنفيذها من خلال الحملة الصليبية الاولى، والحملات التي توالت وكانت الكنيسة الغربية توقد نارها.

نجح البابا في خدمة أهدافه بما أضفاه من قدسية على الحرب التي أعلنها ، ومن غفران على من يشارك فيها ، ووجد البابا في تصرفات اسلافه من البابوات مندوحة ومبرراً لإطلاق صفة القداسة على حملته القادمة ، فالقديس اوغسطنيوس قد أجاز الحرب في سبيل الكنيسة ، وتبعه البابا ليو الرابع(٨٤٧-٨٥٥م/٢٣٣-٢٤١هـ) فأكد الثواب لمن يسقط مدافعاً عن الكنيسة ، وجاء يوحنا الثاني (٨٧٢-٨٨٢م/٢٥٩-٢٦٩هـ) فاعتبر المدافعين عن الكنيسة شهداء ومنح البابا الكسندر الثاني (١٠٦١-١٠٧٣م/٤٥٣-٤٦٦هـ) الغفران لجميع المحاربين في أسبانيا وشجع جريجوري السابع سنة ١٠٨٠/٤٧٣هـ حملة جودفروي على اسبانيا (١) .

والآن اصبح بوسع اوربان الثاني ان يمنح القداسة لحملته، بل ويعطي الغفران لمن ينضم اليها، ولقد الهب قرار الغفران اضافة الى العوامل الآخرى حماس الغرب الاوربي في الانضمام الى حملة اوربان الثاني الصليبية، وتمثلت هذه العوامل في الدوافع الحقيقية التي دفعت هؤلاء المنضمين الى الحركة .

فالفلاحون وعبيد الأرض دفعت بهم ظروفهم المعيشية التي كانوا يعيشونها وهم الطبقة

الدنيا في المجتمع، والمجاعات التي كانوا يتعرضون لها بفعل العوامل الطبيعية، وبفعل الغارات المتتالية من المتبربرين الشماليين، أو من اعتداءات الفرسان، وحياة البؤس في أكواخهم المتواضعة، وبفعل الجهل الذي صور لهم الظواهر الطبيعة على أنها معالم لنهاية العالم.

والفرسان بعد أن تطورت الأحوال بهم في القرن الحادي عشر ، ووجدوا أنفسهم يعيشون في بطالة، جاءت الدعوة الى الحرب فرصة ذهبية لهم وجاء الإغراء بأرض الشرق وثرواته جاذباً لهم ولمشاريعهم وأحلامهم في الثروة التي اخذوا يحرمون منها بفعل زيادة عددهم، وبفعل محاربة المجتمع والكنيسة لحروبهم وغاراتهم، ولأن الحرب مهنتهم، فإنهم قد وجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل ولم تكن المبارزة التي اخترعوها لتقضي على مللهم الذي كانوا يشعرون به فقد جاءت الحرب المعلنة من البابوية سبيلا لهم وغفراناً لذنوبهم السابقة التي ارتكبوها أثناء حروبهم الإقطاعية .

إن غطاء الحرب المقدسة الذي خرجت به الكنيسة تحت قيادة اوربان الثاني كان غطاءً مناسباً وفاعلاً في تحقيق هدفه ، ولكنه لم يكن غطاءً شاملاً لاهداف كل فريق ممن شارك في الحملة أو دعي اليها ، فالفهم الشعبي اختلف عن فهم النبلاء والفرسان، اللذين اختلفا بالضرورة عن فهم الكنيسة وأغراضها .

ونظرة سريعة على الدوافع والأسباب التي دفعت من سيصبحون غداً قادة للحملة الصليبية الأولى تؤكد كم كان هذا الغطاء غير ملائم لهذه الحملات ، فريموند كونت تولوز، وجودفروي دوق اللورين (٢) ، كان يؤرقهما عدم وجود فرصة لاظهار البسالة والمغامرة في

---

(١) اسد رستم : كنيسة انطاكية ، ج٢ ، ص ٢٦٤.

(٢) شاعت قصص كثيرة حول انضمام جود فروي للحملة ، ولكن الحقيقة ان هذا الأمير المغامر كان قد دمر الاديرة في الاماكن المجاورة لاملاكه في بوايون، وكانت امه ايدا IDA المتدينة هي التي قد فرضت عليه ان يقدم بعض الهبات للكنائس لتحسين سمعته قبل الرحيل في الحملة الصليبية، ومن جانبه فقد قرر الرحيل عندما سرت الحماسة الصليبية في كل مكان وعندما رأى جيرانه من النبلاء يستعدون للرحيل والغريب ان جودفروي وهو بهذه الصفات سيصبح اول ملك لمملكة بيت المقدس، ويذكر وليم الصوري في معرض تعديده لاسباب المشاركة ان البعض شارك حتي لايفترقوا عن بعضهم، ونهض آخرون حتي لا يتهموا بالكسل والتراخي، وساهم غير هؤلاء بدوافع تافهه، او عساهم بخروجهم هذا يهربون من دائنيهم الذين اثقلوهم بالديون الفادحة، وهكذا كانت هناك اسباب مختلفة اسرعت بالجميع الى نفس الهدف ؟! انظر : وليم الصوري، مصدر سابق، ص ١٠٧، وعن الإشاعات التي ترددت عن جودفروي انظر : Setton , Op. Cit , Vol 1, P. 266.

الوطن، وروبرت كورتوز دوق نورماندي والابن الاكبر لوليم الفاتح كان يريد استعادة الهيبة التي فقدها في وطنه بإحراز نصر كبير في الشرق، وستيفن كونت بلوا انضم الي الحملة لأن زوجته الإبنة الطموحة لوليم الفاتح قد حملته على الإنضمام، والنورمان كانوا مدفوعين بكراهيتهم لبيزنطة وبرغبة أكيدة لان ينتزعوا لأنفسهم بعض الممتلكات في الشرق، والبندقية كانت متحمسة للحرب لأسباب تجارية بحته لمنافسة بيزنطة والتجار المسلمين[١].

(١) كونتور : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٣٩٩

جـ عودة البابا الى ايطاليا و مواصلة الاستعداد للحملة :

عاد البابا اوربان الثاني الى ايطاليا مطمئناً إلى ماصادف خطته من نجاح، إذ أن نداءاته بدأت تجد الاذعان والقبول وبادر كثير من مختلف الجهات بحمل الصليب، ولجأ بعضهم الى رهن أملاكهم وأراضيهم من أجل الحصول على المال اللازم للرحلة ، فيما تنازل اخرون للكنيسة عن كل ما يملكون على اعتبار أنهم لايأملون في العودة الى ديارهم(١). وبدأ العديد من الأمراء والنبلاء يؤكدون اشتراكهم في الحملة، فالى جانب ريموند كونت تولوز وهيوكونت فرماندوا، تجهز للخروج مع الحملة روبرت كونت فلاندرز وروبرت دوق اللورين الادني وأخواه يوستاس كونت بولونيا وبلدوين(٢). أما بوهيموند ابن جويسكارد الذي بلغته اخبار الحملة والاستعداد لها وهو يحاصر جسر سكافارد بأمالفي فقد سارع إلى إيقاف مطامعه في ايطاليا بعد ان أدرك ماتهيؤه له الحرب الصليبية في الشرق من فرص ، وقام بتجزئة عباءته الثمينة التي كان يرتديها إلى اجزاء صغيرة وعملت صلبانا ، وانضم إليه عدد كبير من الجنود الذين كانوا يشاركونه في حصار الجسر(٣). وشعر البابا وهو يمضي عيد الميلاد سنة ١٠٩٦م/٤٩٠هـ في روما بالإطمئنان الى أن الإستعدادات لقيام الحملة في موعدها الذي حدده ماضية في طريقها.

ومن روما اخذ البابا يواصل دعوته فيبعث بالخطابات يحث فيها رجال الكنيسة على مواصلة الدعوة الى الحملة، ويحدد تصوراته للحملة وكيفيه المساهمه فيها و يؤكد اختياره للاسقف ادهيمار مشرفاً على الحملة ويطلب التعاون معه، وفي بعض خطاباته كان يحدد من كان يريده للحملة وماهو الواجب على من أراد أن ينضم اليها، وفي بعض الخطابات أكد اوربان أنه غير مسموح للرهبان والقساوسة بالذهاب مالم يحصلوا على إذن من أساقفتهم ومقدمي

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص ١٦٧.
(٢) فوشيه الشارتري ، مصدر سابق ، ص ٤٠.
(٣) المؤرخ المجهول : اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة د. حسن حبشي ، الطبعة الاولي القاهرة دار الفكرالعربي ١٩٥٨م ، ص ٢٥.

اديرتهم، وأن الشباب المتزوجين حديثاً لايجب أن يندفعوا في رحلة طويلة كهذه دون موافقة زوجاتهم(١).

وقام دعاة البابا ورجاله بمزيد من الدعاية للحملة وكان أنشط هؤلاء الدعاة بطرس الناسك الذي اعتقد البسطاء الذين كان يتجول بينهم ويبثهم دعاويه أنه يعلم الغيب، ونشر بينهم أن القيامه الثانية اصبحت وشيكة فينبغي على الإنسان أن يستغفر ويستنفر للحرب طالما انه لاتزال امامه فسحة من الوقت ، وأن الارض المقدسة ينبغي أن تعود الى النصارى قبل هبوط المسيح للمرة الثانية (!!)، واعتقد الكثير ممن كانوا يستمعون الى بطرس أنهم باتباعهم له سيخرجون من البؤس والشقاء الذي يعيشون فيه الى الجنة أو الى الارض التي تفيض لبناً وعسلاً(٢).

ويبدو أن البابا رأي استكمالاً للإستعدادات وبناء على نصيحة الكونت ريموند أنه لابد من مساعدة قوة بحرية لإنجاح الحملة وتموينها، لذلك فقد توجه مندوبان بابويان برسالة إلى جمهورية جنوه يطلبان منها التعاون والمشاركة معهم في الحملة، ووافقت الجمهورية الايطالية على تقديم اثنتي عشرة سفينة كبيرة وسفينة نقل، غير أنها أرجأت إرسال السفن الى أن تتأكد أن الحملة جادة، وأن الصليبين فعلاً متوجهون الى الشرق، وبالفعل لم يقلع الأسطول من جنوه إلا في يوليو ١٠٩٧م/٤٩١هـ، وكان في انطلاقة فرصة لاشتراك كثير من الجنوبيين في الحملة الصليبية(٣).

---

(١) قاسم عبده قاسم : الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، مرجع سابق، ص ٨٩ -٩٢، وقد نشر اربعة خطابات الأول موجه من البابا الى الكونتات في بيسالو وامبورياس وروسيلون وسردانيا، والثاني الى كل المؤمنين في الفلاندرز والثالث الى اتباعه في بولونيا، الرابع الى جماعة دير فالومبروسا ، نقلاً عن :
Riley-smith, Louis and Jonathan, The Crusades Idea and Reality, London 1981, P. 38-39.
وقد صدرت ترجمة عربية مؤخرا لهذا الكتاب قام بها الدكتو محمد فتحي الشاعر، تحت عنوان : ماهي الحروب الصليبية ؟. ولكنها ترجمة مختصرة جدا. وتكاد تكون تلخيصاً لهذا الكتاب، ومن ضمن ما اختصره هذه الخطابات الاربعة اذ كتفي بالإشارة اليها دون ذكرها ، ثم أنه نسب الكتاب الي مؤلف واحد فقط هو : "جوناثان رايلي سميث" بعد أن جمع الإسمين في إسم واحد .

(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص١٧٢

(٣) H.mayer,Op.Cit, P.42.

برزت خلال استعراضنا في هذ الفصل جهود البابوية لإعداد الحملة الصليبية ثلاث قضايا هامة هـي :-

١- إستنجاد الامبراطور الكسيوس كومنين بروبرت الأول أمير الفلاندرز ، وحقيقة هذ الإستنجاد .

٢- مشاركة وفد بيزنطي في مؤتمر بياتشنزا، وكيف جاءت وتمت المشاركة .

٣- حقيقة ماطلبه الإمبراطور الكسيوس كومنين من البابا اوربان الثاني من قوات.

وتأتي قضية استنجاد الامبراطور الكسيوس كومنين بروبرت الأول[1] ، أمير الفلاندرز، في مقدمة القضايا التي شغلت جانباً من اهتمامات الباحثين ومناقشاتهم، وتعود أهمية هذه القضية إلى الخطاب[2] الذي يقال أن الامبراطور الكسيوس كومنين قد بعثه إلى أمير الفلاندرز يطلب منه سرعة انجاده لأن الأتراك يحاصرون عاصمته، والحقيقة أن الخطاب بالصورة التي صور بها كان بمثابة دعوة أولى للحرب الصليبية جاءت من الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين فهو يطلب من امير الفلاندرز المبادرة بإرسال نجدات إلي الشرق للدفاع عن القسطنطينية ضد الاتراك ووقف تيارهم الجارف، ثم التوجه بعد ذلك للإستيلاء على الاراضي المقدسة، وهي دعوة لم تكن خاصة بأمير الفلاندرز وإنما هي دعوة لكل من يستطيع في الغرب.

وقد انقسم الباحثون الى فريقين بين مؤيد لهذا الخطاب ولصدوره عن الامبراطور البيزنطي، وبين معارض له من الأساس لأن معني صدوره عن الامبراطور ان الدعوة الي الحرب الصليبية جاءت من الدولة البيزنطية ومن الامبراطور البيزنطي، وليس من تدبير وتخطيط الكنيسة الغربية، ثم إن ذلك يحمّل الامبراطور مسئولية فهو الذي دعا لقيام الحملة ثم تباطأ في التعاون معها.

---

(١) روبرت الأول هو الكونت روبرت الأول دي فلاندرز ، وقد حكم من سنة ١٠٧١ -١٠٩٣م/٤٦٤-٤٨٦هـ وكان من كبار رجال الإقطاع في الغرب الاوروبي ، وبلاده هي الفلاندرز أو الاراضي الواطئة أو بلاد الفلمنك إحدي مقاطعات فرنسا ، وتمتعت بمكانة مرموقة في هذه الفترة في الناحيتين السياسية والإقتصادية ، انظر : جوزيف نسيم يوسف : الدافع الشخصي للحروب الصليبية ، مجموعة ابحاث تحت عنوان : تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، دار المعرفة الجامعية ، الطبعة الثانية، الإسكندرية ، ١٩٨٨م ، ص ١٢

(٢) نص الخطاب في الملحق رقم (٢) ٠

والخطاب بالصيغة التي نشر بها في الغرب[١] يصف في مبالغة تامة مافعله الأتراك السلاجقة بالدولة البيزنطية من مذابح وتقتيل وأعمال سطو ونهب ، وأنهم أصبحوا يهددون العاصمة نفسها، ويضرب علي الأوتار الحساسة في الغرب بإثارة الحماسة الدينية عندما يذكرهم بما هو موجود في القسطنطينية من مخلفات وذخائر، كما يغريهم بالمغريات المادية ويلوح لهم بما يوجد في العاصمة من كنوز، ونفائس وأموال وذهب واحجار كريمة، وهو يعلم سلفاً بجشع اللاتين وحبهم الشديد للمال، وذكر لهم انهم اذا هبوا لنجدته فستكون هذه الكنوز والتحف من نصيبهم، أما اذا تباطأوا فستقع غنيمة بيد الاتراك، ويطلب منهم المبادرة الي إرسال الإمدادات ثم التوجه بعد ذلك للإستيلاء على بيت المقدس .

تؤيد المدرسة الألمانية هذا الخطاب وصدوره عن الإمبراطور ، ويدافع عنه المؤرخان المعروفان هاجنماير الألماني Hagenmyer ، ورهرشت Rohricht النمساوي ، ويعارض هذا الخطاب المدرسة الفرنسية وعلي رأسها المؤرخان شالندون Chalandon وشارل ديل Ch.Diel ويؤيدهما الكثير من المؤرخين أمثال فازيليف[٢] Vasiliev ،واستروجورسكي[٣] Ostrogorsky وستيفن رانسيمان[٤].

إن حقيقة أمر هذه الرسالة وورود اسم أمير الفلاندرز في هذا الموضوع هي أن

---

(١) اورد الخطاب باللاتينية جيوبرت دي نوجنت ، في كتابه الذي نشر في الجزء الرابع ضمن مجموعة مؤرخي الحروب الصليبيه (المؤرخون الغربيون) ص ١٣١-١٣٢، ونشره المؤرخ الالماني هاجنماير ضمن مجموعة وثائق باللاتينيه تحت اسم «خطابات ومراسيم متعلقة بالحروب الصليبية الاولى ص (١٢٩-١٣٦) ، ونقل الى اللغات الاوروبية الاخرى مترجماً عن الاصل اللاتيني ، حيث أنه لم يعثر له على اصل اغريقي ، انظر : د. جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، ص٥٣. والغريب ان يكون جيوبرت هو ناقل هذه الرسالة الوحيد وفي نفس الوقت ناقل ذلك النص عن صنوف التعذيب التي يتعرض لها النصارى في بيت المقدس ، ولعله خلط بين الموضوعين بما يخدم اغراضه.

(٢) انظر مقالة فازيليف بعنوان : Byzantium and Islam في Baynes and Moss, Oxford Paperbacks, Byzantium, Oxford university press,1962 , .P. 320.

(٣) G. Ostrogorsky,Op.Cit, P.321.

(٤) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١، ص١٥٧ ،ويري رانسيمان أن روبرت لم يكن إلا واحداً من المغامرين الذي استعانت بهم بيزنطة ، من ضمن من شملتهم جيوشها من مرتزقة .

هذا الأمير كان قد قام بالحج الي بيت المقدس سنة ١٠٨٧ أو ١٠٨٨م/٤٨٠-٤٨١هـ عن طريق القسطنطينية، وعند مروره بها في طريق عودته أكرمه الامبراطور الكسيوس كومنين ، ودعاه الي أن يقدم له جنوداً يعملون كمرتزقة في الجيش البيزنطي ، لمقاومة الاتراك السلاجقة ، وقد وعده الأمير بتلبية طلبه ، وعندما تأخر عليه في الرد كتب اليه رساله يذكره بوعده، فكان أن بعث اليه بفرقة مكونه من خمسمائة مقاتل[١] ، قاتلت وعاد من عاد منها إلي بلاده ، وقد وصلت هذه المساعدة عام ١٠٩٠م/٤٨٣هـ[٢].

وقد خرجت عدة نظريات ودفوعات تنفي هذه الرسالة أو أن يكون الامبراطور هو كاتبها يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

١- إن لهجة الرسالة لا يمكن أن تكون قد صدرت علي لسان الامبراطور أو سفرائه لأنه ليس من المعقول أن تنحط الكرامه البيزنطية خاصة عند مخاطبة الفرنج إلي هذا الدرك من التوسل والإستنجا د[٣] ، وخاصة ايضاً أن هناك قطيعة دينية لازالت متحكمة في العلاقات بين الطرفين ولم يتم تسويتها بعد .

٢- أنه لايوجد اصل إغريقي لهذه الرسالة ، ولم تذكر في أي مصدر بيزنطي ، والنص الوحيد الذي توجد به هذه الوثيقة مكتوب بالكتابه الدينية المحرفه المعروفه باسم الابوكريفا[٤].

---

(١) تذكر الدكتوره عليه عبد السميع الجنزوري ، أن امير الفلاندرز قد وعد بارسال خمسة الاف مقاتل ، بينما جميع المراجع تذكر ان ما وصل فعلاً هو خمسمائة مقاتل فقط، انظر : د. عليه الجنزوري : الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٩م ، ص٧٧ ؛ وارنست باركر يسميه بلدوين امير الفلاندرز ويذكر ان الاستنجاد تم مرتين في سنتي ١٠٨٧م ، و١٠٨٨م ، وانه استجاب لرجاء الامبراطور . باركر : الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ص٢٠.

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. V. P.270.

(٣) د. اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص٨٦.

(٤) د. عزيز سوريال عطيه : مرجع سابق ، ص٣٥.

٣- إن الصوره الوارده في الخطاب عن مسلك الأتراك تجاه النصاري في الشرق تنم عن خيال لاتيني خصب لايمت الي واقع التاريخ بظل من الواقع، وذلك لأن الوثائق المعاصره التي سجلها المؤرخون الشرقيون من النصاري تتحدث في تفصيل عن التسامح العظيم الذي ابداه السطان ملكشاه تجاه الرعايا النصاري في دولته، بل أن متي الرهاوي يذكر أن النصاري عند وفاة ملكشاه قد بكوا بكاء حاراً(١).

٤- إن طلبات الجنود المرتزقة من الغرب كانت عادة بيزنطية وترسخت بعد هزيمة مانزكرت، ولم يكن أمير الفلاندرز هو وحده الذي لبي الدعوه وإنما هناك آخرون كان منهم روسل باليل النورماني وغيره .

٥- إن الاسلوب والطريقة التي دُون بها الخطاب لايتفقان بأي حال مع العادات والتقاليد المرعية في ديوان الانشاء في الدولة البيزنطية ذلك الحين(٢).

٦- إن كتابات المؤرخين المعاصرين لبداية الحملة والحركة الصليبية بصفة عامة امثال فوشيه الشارتري والمؤرخ المجهول وريموندا جيل ووليم الصوري، لم تُشر الي هذه المساعدة أو الى طلب الامبراطور لها، بل ان آنا كومنين تؤكد أن والدها الإمبراطور لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الحركة وإنما فوجيء بوصول الجيش اللاتيني الى دولته(٣). إن هذه الوثيقة لم تظهر إلا في كتابات بعض المؤرخين اللاتين المتأخرين نسبياً، والذين لم يشاهدوا أحداثها، مثل روبرت الراهب وجيبرت دي نوجان، ولم ترد الاشارة لها في كل النصوص التي ذُكرت عن خطبة البابا أوربان الثاني، فهل يعقل أن يكون البابا على علم بهذه الوثيقة ومافيها من مغريات ولا يشير اليها؟!

وهناك من المؤرخين من يري أن الخطاب برمته لم يكتب اصلاً سنة ١٠٨٨م/٤٨١هـ، وانما وضع في الغرب فيما بين سنتي ١٠٩٨، ١٠٩٩م/٤٩٢، ٤٩٣هـ بغرض إثاره الشعور النصراني ضد المسلمين، وبغرض احراج بيزنطة بعد ان بدأت مشاكلها مع الغرب في اعقاب حصار

---

(١) د. اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص٨٧.
(٢) د. جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، مرجع سابق ، ص٣٥.
(٣) Anna , Op. Cit, P. 250.

انطاكية، بل ويذهب المؤرخ الكونت ريان Riant الى ان روبرت الراهب هو واضع الخطاب[١].

ثم إن أوضاع الدولة البيزنطية العسكرية في الفترة التي أورخ بها هذا الخطاب لم تكن بالشكل الذي تم تصويره فقد استطاع الامبراطور الكسيوس كومنين أن يقضي علي كثير من الاخطار التي كانت تحيط بالامبراطورية ، إذ تم له القضاء علي الخطر النورماني ، وخطر البجناك ، والسلاجقة اصبحوا قوة غير مؤثرة في اعقاب موت ملكشاه وتزايد المشاكل بين الامراء الاتراك[٢]، وكان الامبراطور يتدبر تعامله معهم مرة بالدبلوماسية ومرة بالمعارك الصغيرة، ولكن الحاجة ظلت دائمه الي الجنود المرتزقة الذين تحتاج اليهم الامبراطورية لحفظ ممتلكاتها سواء في ايطاليا أو في حوض نهر الدانوب، أو في مقاومة الأتراك السلاجقة ومحاولة استعادة أي جزء من املاك الامبراطورية السابقة. ومن المعطيات السابقة يري الباحث أن ما ذهب اليه أُصحاب الرأي من الفريق الثاني هو الأقرب للواقع وطبيعة الامور.

* * النقطة الثانية التي أثارت جدلاً كبيراً بين المؤرخين هي تواجد وفد بيزنطي رسمي في مؤتمر بياتشنزا ، ودعوة أعضاء هذا الوفد البيزنطي للمجتمعين من القساوسة ورجال اللاهوت الكاثوليكي الى مساعدة الامبراطورية فهل جاء هذا الوفد خصيصاً ليشارك في المجمع ؟ ومن رتب مشاركة هذا الوفد فيه ؟ أهو الامبراطور أم البابا اوربان الثاني ؟ ! ، ومالذي قاله وطلبه هذا الوفد من المجتمعين ؟!

---

(١) جوزيف نسيم يوسف : مرجع سابق ، ص٥٤، نقلاً عن :
Riant. P, Inventaire critique des lettres histrique des croisades, cf, A.O.L ,1. p.74.

(٢) عزيز سوريال ، الحروب الصليبية ، مرجع سابق، ص٤٠ و ٤١، والغريب أن الدكتور عزيز سوريال في معرض استعراضه للصراع بين البيزنطيين والسلاجقة وخبر الهزيمة التي اوقعها الب ارسلان بالبيزنطيين في ملاذكرد يذكر ان الذي كان يقود البيزنطبين هو رومانوس الثالث ديوجنيس، مع انه عرف بالرابع، وكذلك يذكر أنه كان نائب الحاكم البيزنطي، مع أنه كان هو الامبراطور البيزنطي، لعله خطأ في الترجمة، وإلا فخطأ مثل هذا لايمكن أن يفوت علي مؤرخ معروف كالاستاذ عزيز سوريال عطيه، اما رومانوس الثالث فكان يسمي رومانوس الثالث ارجيروس (١٠٢٨- ١٠٣٤م/٤١٩-٤٢٦هـ) وكان احد الثلاثة الذين تزوجوا الامبراطوره زوي إبنة الامبراطور قنسطنطين الثامن (١٠٢٥-١٠٢٨م/٤١٦-٤١٩هـ) الذي خلف الامبراطور باسيل الثاني، وقد تتابع الازواج الثلاثة لزوي علي عرش الامبراطورية البيزنطية، انظر الفصل الاول : اوضاع الامبراطورية البيزنطية، وكذلك ملحق اباطرة الدولة البيزنطية حتي سنة ١٠٨١م/٤٧٤هـ في كتاب الدكتور الباز العريني : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٩٤ -٨٩٩.

إن اهمية البحث في هذه النقطة لها دلالتها أيضاً، فاذا كان الامبراطور فعلا قد صعّد طلبه بالحصول على جنود مرتزقة الي هذا الحد فمعناه أن الامبراطور كان يريد من الغرب أن ينهض لنجدته ممثلا في قواه الروحية التي كانت هي أيضا في تلك الفتره مسيطرة علي مقاليده السياسية بعد تراجع سلطة الملوك وتمكن سلطة البابوية ! .إن واقع حال الامبراطورية البيزنطية ينفي أن يكون هذا ما أراده الامبراطور أو خطط له لأن ظروفه في عام ١٠٩٥م/٤٨٨هـ عندما عقد مجمع بياتشنزا كانت قد تغيرت وكانت معظم الاخطار التي كانت تحيط بالامبراطورية البيزنطية قد تضاءلت، ففي عام ١٠٩٠م/٤٨٣هـ تمكن القائد البيزنطي قسطنطين دالاسينوس من هزيمة الامير التركي تزاخاس واضطره الي الفرار إلى سميرنا، وفي عام ١٠٩١م/٤٨٤هـ، قام القائد البيزنطي يوحنا دوكاس بهزيمة الاميرين التركيين بودن وبولكان، وفي ١٩ ابريل ١٠٩١م وعلي ضفاف نهر Leburrion انقضت الجيوش الامبراطورية تساندها قبائل البولوفيتزي المتبربره (المرتزقة) علي جماعات البجناك (الباتزنياك) وأبيدت هذه الجماعات عن آخرها في مذبحة رهيبة، ولقد روع البولوفيتزي من هول هذه المجزرة البشرية الي حد انهم لاذوا بالفرار بعد النصر، دون أن يطالبوا بيزنطة بنصيبهم من الغنيمة ، خشية أن يحل بهم المصير الانكد الذي حل بالبجناك أمام اعينهم[١].

بل إنه في عام ١٠٩٢م/٤٨٥هـ توفي السلطان ملكشاه، وبموته بدأت الحرب الأهلية في الدولة السلجوقية، وكانت هذه فرصة الامبراطور الكسيوس كومنين ليسترد الأراضي التي حازها السلاجقة من قبل، بل أن بعض الجنود الاتراك عرضوا أنفسهم للخدمة في جيش بيزنطة هرباً من الامراء الذين دخلوا في سلسلة من النزاعات الشخصية العنيفة[٢].

كل هذا يقطع بأن الامبراطورية البيزنطية في عام ١٠٩٢م/٤٨٥هـ قد تغلبت على الاخطار التي كانت تواجهها في الغرب والشرق ولكن حاجتها الدائمة الى الجنود المرتزقة لحفظ

---

(١) اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص٨٠

(٢) المرجع السابق ، ص٦٥.

هيبة الدولة ورعاية حدودها الممتدة" هو الذي كان يستدعيها دائماً للبحث عن هؤلاء الجنود، الذين كان مصدرهم الأول الغرب، بعد أن فقدت المستودع الاصلي للتجنيد وهو آسيا الصغري بإحتلال السلاجقة لها.

ويبدو أن الوفد البيزنطي الذي وصل فجأة الى بياتشنزا كان هو أحد الوفود التي تعودت الامبراطورية بعثها الي الغرب لجمع المرتزقة ، ولكن الذي جعل المؤرخين يبالغون في أمر هذا الوفد ماكتبه الكاردينال برنولد Bernold في "حوليته" بأن البابا اوربان الثاني عقد هذا المجمع ليحث المشاركين فيه علي المسارعة في تقديم العون إلى إلكسيوس كومنين لمحاربة المسلمين[١].

على أن هناك مصادر آخري تؤكد أن هذا المجمع وهو أول مجمع يعقده البابا أوربان الثاني بعد أن تسلم كرسي البابوية في روما ،وقد تم انعقاده من أجل اتخاذ اجراءات ضد الإنفصاليين وأعوانهم وهم في هذه الفترة أنصار البابا المضاد جيبرت والامبراطور الألماني هنري الرابع، وبإدانة السيمونية وهي شراء الوظائف الدينية بالمال، وكذلك النظر في قضية طلاق براكسيوز زوجة الامبراطور هنري الرابع الروسية الاصل، بعد أن قصت علي البابا فضائح زوجها، وفي سابع أيام المجمع جاء موضوع الوفد البيزنطي الذي تصادف وجوده في بياتشنزا فرأي البابا أن يتيح الفرصة للوفد ليتحدث الى المجتمعين من ممثلي الكنائس والاديرة[٢].

ويبدو أن هذا الوفد البيزنطي الذي كان همه الأول البحث عن جنود مرتزقة قد بالغ في الحديث عن اوضاع الدولة البيزنطية ليستدر عطف المجتمعين ويحصل علي تأييدهم في دعم عملية الانضمام إلى جيش الامبراطور، حيث أن المرتبات الضخمة التي كانوا يدفعونها تحتاج الى قرار يدعمها من المجتمعين[٣].

---

(١) اسحق عبيد، مرجع سابق ، ص ٨١.

(٢) A.Duggan,op.cit,p.21.

(٣) رانسيمان: مرجع سابق ، ج١، ص١٥٨.

ويلاحظ أن المجتمعين في بياتشنزا لم يقرروا شيئاً إزاء طلبات الوفد البيزنطي، حتي أن البابا نفسه لم يقرر شيئاً وإنما أجل إجابته إلى بعد ثمانية أشهر حينما عقد مؤتمر كليرمونت في ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م/٤٨٨هـ.

إذن فهذا الوفد البيزنطي الذي شارك في مجمع بياتشنزا لم يكن يختلف عن غيره من الوفود البيزنطية التي كانت تجوب أنحاء أوروبا بحثاً عن الجنود المرتزقة ولكنه بالتأكيد لم يكن يبحث عن جيوش صليبية ، بل كان يبحث عن كتائب من الجنود المرتزقة لتعمل تحت القيادة البيزنطية[١] .

(١) Donald Matthew, The Medieval Eropean Community, London , B. T. Batsford Ltd, 1977, P.35.

■ ■ وتجمع معظم المصادر والمراجع التاريخية أن الامبراطور الكسيوس كومنين قد فوجيء بكتائب الصليبيين تصل الى عاصمته عبر الحملتين الشعبية والنظامية ، فالحملة الصليبية لم تكن ما طلبه الكسيوس من مساعده ، أو توقع الحصول عليها ، إذ أنه لم يلتمس إلا إرسال إمدادات مرتزقة لاسترداد بقية آسيا الصغرى من السلاجقة[١]. وتصف آنا كومنين معرفة والدها أو علمه بوصول الحملات الصليبية على هذا النحو : «وسمع الامبراطور اقاويل تتحدث عن قرب وصول عددكبير من جيوش الفرنجة لا عد لها ولاحصر، وقد خشي من وصولهم على أساس معرفته بطباعهم وأخلاقهم التي لايمكن ضبطها وبولعهم في الفوضى وحبهم لعدم الاستقرار ... ومع هذا حافظ الامبراطور على رباطة جأشه، وأقدم على اتخاذ كافة الاجراءات، واستعد لخوض الحرب اذا ما دعت الضرورة، وكان ما حدث بالفعل أكبر بكثير مما أوحت به مضامين الاشاعات والأقاويل، أنه لأمر رهيب حقاً. فالغرب مع جميع شعوب البرابرة التي عاشت في ما بين شواطيء بحر الادرياتيكي ومضيق جبل طارق انطلقت مهاجرة في كتلة واحدة نحو آسيا وقد زحفت عبر أوروبا، بلداً بلداً تحمل معها جميع ما كانت تمتلكه وتقتنيه..»[٢]، وهذا الوصف لـ (آنا كومنين) يؤكد أن والدها كان خالي الذهن من الحملة الصليبية وأنه قد فوجيء بوصول هذه الكتائب من قوات الصليبين، في الوقت الذي كان يتوقع أن تصل عساكر مأجورة وعساكر فرادى، وجماعات صغيرة تنضم الى جيوشه تحت قيادة ضباطه وقيادته.

وهناك من يرى أن استجابة البابا اوربان الثاني بهذا الشكل لنداءات الامبراطور وأوضحها وآخرها خطبة وفده في بياتشنزا كانت هي هذه القوات التي جردتها أوروبا[٣]،

---

(١) باركر : مرجع سابق ، ص٢٠.

(٢) آنا كومنين : الألكسياد، ص١١١، (قام الدكتور سهيل زكار بترجمة الكتاب العاشر من الالكسياد، وهو الفصل الخاص بالحملة الصليبية الاولى، وتعامل الامبراطور الكسيوس معها ، ونشره ضمن كتابه الذي صدر في جزئين بعنوان «الحروب الصليبية : الحملتان الاولى والثانية حسب روايات شهود عيان كتبت اصلاً الاغريقية والسريانية والعربية واللاتينية» وصدر عن دار حسان للطباعة النشر ، دمشق ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

(٣) Munoro, D. C. , Did Alexius Ask for Aid at Picenza? American Historical Review, Vol. 27. New York 1922. P. 732.

ولكن هناك من يرى أيضاً أن البابا حركته عوامل كثيرة، لم تكن وليدة نداءات الامبراطور الكسيوس ولكن بعضها يعود الى فترة أبعد منذ أن كان تلميذاً وملازماً للبابا جريجوري السابع صاحب فكرة أول حملة نصرانية لاتينية على هيئة كتائب تنقذ كنيسة الشرق، وتحقق على المدى البعيد اهدافاً رأت البابوية القيام بها تكريساً لعالميتها وبسط نفوذها وسيطرتها وتوحدها على العالم النصراني[(١)].

وإذا كان مشروع جريجوري السابع قد فشل نتيجة لتسرعه وعصبيته وعدم قدرته على احتواء الموقف الديني والشقاق الذي حدث ، فإن تعامل البابا اوربان الثاني قد اختلف بما تميز به من صبر ودهاء[(٢)]، جعله يتحمل ما قوبل به عرضه للامبراطور الكسيوس كومنين عندما أرسل اليه وفداً ورفع قرار الحرمان عنه من تصرفات كنيسة القسطنطينية نحوه[(٣)].

فالبابا اوربان الثاني كان يحمل عشية اعتلائه كرسي البابوية مشروعاً قرر ان يحسن التخطيط والاعداد له لتحقيق الاهداف التي سبق ان اوضحناها عندما تحدثنا عن اهداف البابا ودوافعه من وراء اعلان الحروب الصليبية.

لقد تباينت أهداف الامبراطور الكسيوس كومنين عندما طلب الاستعانة بقوات من الغرب، مع ذلك الهدف الذي خططت له البابوية، فالامبراطور كانت اهدافه منصبةً على استعادة الاراضي التي كانت تحكمها الامبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى، بينما خطط البابوية تعدت هذا الهدف الى استعادة بيت المقدس[(٤)]، فكان التحول الى القدس يعني ما هو أكبر من مجرد تغيير الهدف الجغرافي للحملة، فقد تغير الهيكل الكامل للحملة من مجرد انضمام افراد من الجنود المرتزقة الى حملة جماهيرية صارت هي المحور الرئيسي الذي يدور حوله تاريخ أوروبا والشرق على مدى قرنين من الزمان[(٥)].

---

(١) Davis, R. H.C., A History of Medieval Europe, London, Longman, 1970 , P.279.

(٢) اسد رستم : كنيسة انطاكية ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٦٠.

(٣) لمزيد من التفصيل عن هذا الموقف انظر ص(٩٥)

(٤) فيشر : مرجع سابق ، ص١٧٧ ؛ وايضاً C. Stephenson, Op. Cit . , P. 295. ؛ وايضاً : Sidny Painter , Op.Cit., P. 203.

(٥) يوشع بروار : مرجع سابق ، ص٤١.

وكانت الحملات الصليبية كما ارادها الغرب تعتبر شيئاً غريباً كلية بالنسبة للامبراطورية البيزنطية، فبالنسبة لبيزنطة لم يكن هناك شيء جديد في الحرب ضد المسلمين، يستدعي وجود كل هذه القوات، فقد كانت الحروب بين الطرفين تهدأ وتتجدد من وقت لآخر نتيجة ظروف سياسية أو غيرها، وحتى مسألة استرداد الارض المقدسة التي كانت في يوماً ما اقليماً يخضع سياسياً للامبراطورية البيزنطية اعتبرته بيزنطة واجبها وليس التزاماً على كل العالم النصراني في الشرق والغرب[1].

كما أن بيزنطة نظرت لحملات الاسترداد في آسيا الصغرى التي كانت تزمع القيام بها بمساعدة الجنود المرتزقة -وكانت قد بدأت فعلاً هذه الحروب- على أنها واجب سياسي من واجبات الدولة، ولا علاقة للكنيسة به، في حين رأي الغرب اللاتيني انها من الواجب الديني الذي ترعاه البابوية[2].

كما أن الخلاف الديني الذي كان قائماً بين الكنيستين الشرقية والغربية الذي لم يكن ممكناً تجاوزه او حجبه رغم محاولات البابا اوربان الثاني يقطع بأن الكنيسة الشرقية لم تكن لتوافق على ان تتعاون مع مخطط الكنيسة اللاتينية في حروبها، بل ان الكنيسة الارثوذكسية كان لها رأيها في مسألة الحرب بصفة عامة، ففي الوقت الذي غدت الحرب لدى الكنيسة الغربية أمراً مقدساً ومشروعاً حتى ان رجالها سمح لهم بحمل السلاح ، نرى ان الكنيسة الارثوذكسية تنظر الى الحروب على أنها بدعة ولاتقرها، وقد أكد القديس بازل من قيساريه في كتاباته ان الحرب -أية حرب- لايمكن ان تكون امراً مقدساً حتى ولو كان نشوبها يمثل ضرورة حتمية[3]، والحق ان النصارى في الشرق فزعوا عندما شاهدوا بين أفواج الصليبيين أساقفة ورهبان وقسيسين مدججين بالسلاح، وعبرت آنا كومنين عن مشاعر معاصريها عندما انتقدت في مرارة بالغة مسلك رجل الدين اللاتيني الذي ما ان ينتهي من القداس حتى يمسك

(١) عادل زيتون : العلاقات السياسبة والكنيسة ، ص٣٥٦.
(٢) د. نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص٢٦٦.
(٣) اسحاق عبيد، مرجع سابق ، ص ٨٨.

سلاحه ويشارك في أعمال القتل وسفك الدماء[١]، كذلك فإن ثيوفيلاكت رئيس أساقفة بلغاريا عبر عن استغرابه عند مشاهدته لافواج الصليبيين والأهوال التي الحقوها -كهنة كانوا ام علمانيين- بالأراضي التي كانوا يعبرونها أثناء رحلتهم[٢].

وإذا كان الامبراطور يريد قوات مثل التي وصلته فإنه لايمكن بأي حال من الاحوال ان يفكر في جماعة كالنورمان، وفي قائد لهم كبوهيموند، الذي يعرفه جيداً، ويعرف احلامه في تقويض الامبراطورية البيزنطية واقتطاع أي جزء يطاله منها، وليست احداث معاركه الضروس مع النورمان ومع بوهيموند ووالده روبرت جويسكارد بعيدة عن ذاكرة الامبراطور فقد كانت اول ما افتتح به عهده وأولى الأزمات التي كان عليه مواجهتها بصلابه.

فالحركة الصليبية كانت مشروعاً غربياً بحتاً ووضع بيزنطة في هذه الحركة -كما يرى فازيليف- كان معقداً غاية التعقيد، فلم يكن لديها فكرة عن الحروب الصليبية بمعناها المعروف في الغرب اللاتيني، ثم ان امتلاك فلسطين لم يعد امراً حيوياً بالنسبة لبيزنطة في ذلك الوقت ولم تمهد الارض كما حصل في الغرب وانتشر المبشرون يروجون للحركة الصليبية ويبدو كما لو أن بيزنطة قد تورطت دون رغبة منها في الحروب الصليبية[٣]، كل ذلك يؤكد ما ذهب اليه الاجماع من ان بيزنطة لم تطلب من الغرب جيوشاً صليبية وانما جنداً مرتزقة[٤].

ولم يفرح الامبراطور الكسيوس كومنين بهذه الحشود اللاتينية لأنه كان يعلم بالتجربة ان الفرنج عنصر متقلب الأهواء متعطش للحصول على المال ولا يحفل بالوفاء بما يعقده من اتفاقيات[٥]، وكذلك فإن الشعب البيزنطي لم يظهر ارتياحاً كبيراً عندما رأى "منقذيه المزعومين" يجتازون أراضيه حتى ان الفلاحين أخفوا المؤن والأطعمه ، والجيش الامبراطوري

---

(١) آنا كومنين : الالكسياد ، ص١٢٣.

(٢) اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص٨٨.

(٣) A. A. Vasiliev, Byzantium and Islam, Op. Cit., P.322.

(٤) G. Ostrogorsky, Op. Cit. , P.321.

(٥) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص١٧٤.

المكلف بمراقبتهم وهم في طريقهم الى العاصمة لم يتوان عن استخدام العنف معهم عندما ينحرفون عن الطريق المرسوم.

فبيزنطة نظرت الى هذا المشروع الذي جاء يحمله هؤلاء القوم على أنه مشروع أُوروبي «فرنجي - بربري» ، واعتبرته حركة سياسية، وكان من حقها ان تشعر بالخوف من هذه الحشود التي اخذت تتدفق على أراضيها من كل حدب وصوب كالجراد [(١)] ، بل ان هناك من يرى ان هذه الحملات التي جردتها أوروبا كان شرها على الدولة البيزنطية اكثر من خيرها، فهذه الحرب قاربت بين عالمين عاجزين عن التفاهم فكانت النتيجة أن زادت في حدة الضغائن وأسباب الكراهية بينهما واطلعت أهل الغرب على غنى الدولة البيزنطية والميادين التجارية الواسعة فيها فأثارت بذلك نيران الطمع البالغ في نفوسهم، واضطرت بالتالي البيزنطيين ان يأخذوا حذرهم من القادمين الذين لم يكن ليطمأن الى جانبهم [(٢)].

لذلك فإن هذا الخلاف في التصور للحرب مع المسلمين، بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني، وذلك الاختلاف الحضاري الذي ساد بين الشطرين، اضافة الى الشقاق الديني، هو الذي قاد الى الصراع الذي ما لبث ان ظهر في العلاقة بين بيزنطة والصليبيين، بل ومع روما من خلالهم، فمنذ البداية اعلنت بيزنطة عن دهشتها لهذه الحركة التي حاول الغرب القيام بها عن طريقها ومن ثم تحولت هذه الدهشة الى ريبة وشك في الاهدف والنوايا، التي تحولت بدورها الى توتر في العلاقات بين الجانبين حتى اضطرت بيزنطة الى مقاومتها وهو ما سنستعرض مراحله في الفصول القادمة.

---

(١) آنا كومنين : الالكسياد ، ص١١٤.

(٢) شارل ديل : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، الطبعة الثانية ، بالقاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٥٧م ، ص٣٥١.

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الأولى في العاصمة البيزنطية

* الكسيوس كومنين والحملات الشعبية.
* الكسيوس كومنين والحملات النظامية.
* اتفاقية القسطنطينية.

الكسيوس كومنين والحملات الشعبية

بدأ الغرب يتجهز تلبية لدعوة البابا اوربان الثاني، وتجمعت كل الدوافع والأهداف، لتصب في هدف ظاهري واحد، هو استعادة بيت المقدس. ولقد رأينا في الفصل السابق كيف تباينت هذه الأهداف والدوافع واختلفت من فرد الى آخر، ومن أمير الى آخر، ولكن البابوية بخططها ودعايتها استطاعت ان تبلور كل هذه الاهداف والدوافع لتحقيق الهدف الأكبر والاوضح للحملة وهو استعادة بيت المقدس و اقامة مملكة نصرانية في تلك البقاع.

حددت البابوية تاريخاً لانطلاق حملتها الكبيرة هو ١٥ أغسطس ١٠٩٦م/٣ رمضان ٤٩٠هـ ومكاناً ليلتقي فيه المحاربون هو القسطنطينية[١]، ثم ينطلقون منه الى فلسطين، والتقط دعوة البابا اوربان الثاني في كليرمونت عدد من الدعاة والمتحمسين والذين كان منهم بطرس الناسك[٢]، وجوتيه المفلس وعدد آخر من المغامرين، وبدأوا يجمعون الفلاحين والمعوزين، الذين وجدوا في الدعوة الجديدة فكاكاً من أوضاعهم التي يعيشونها، ولم يستطع هؤلاء انتظار الموعد الذي حددته البابوية وبدأت جموعهم في الانطلاق، عبر أوروبا، يحملون جميع أمتعتهم وحيواناتهم وأطفالهم ونسائهم، وقاد بطرس احدى هذه الجموع، التي تفاوتت تقديرات المؤرخين عنها ففيما تبالغ آنا كومنين وتذهب بهم الى عشرات الألوف[٣]، إلا أن أقل التقديرات تجعلهم خمسة عشر ألفاً صليبياً وقد حوت مجموعته على عددكبير من الفلاحين وسكان المدن وصغار

---

(١) اسد رستم : كنيسة انطاكية، ج٢، ص٢٦٦.

(٢) بطرس الناسك Peter The Hermit احد الشخصيات التي افرزتها الحملة الصليبية لاولى، وكان احد انشط الدعاة الى الحملة، وتنسب اليه آنا كومنين الدور الاكبر في قيام الحملة وتسميه تحقيراً بطرس كوكو، وكان قد زار بيت المقدس وحمل تقارير الى البابوية، وادعى ان هاتفاً يدعوه للحج مرة أخرى، ولم يكن من ذوي المكانة، ولكنه كان بارعاً في مخاطبة الرعاع، وكان يسير حافي القدمين في ثياب قذرة، وكان يقتصر في طعامه على السمك، ويشبهه بعضهم بأنه أحد «المجذوبين» الذين حفلت بهم العصور الوسطى، انظر : آنا كومنين : الالكسياد، ص١٦٢؛ ود. حسن حبشي : الحملة الصليبية الاولى، ص٥٣؛ ووليم الصوري : المصدر السابق، ص١٠٦.

(٣) آنا كومنين : مرجع سابق، ص١١٥. وتقدر جند بطرس بثمانين الف من الرجال ومائة الف من الفرسان، وهي مبالغة واضحة.

النبلاء وقطاع الطرق والمجرمين وسار بطرس عبر المانيا لتحقيق هدفين : الحصول على الطعام الذي يستطيع أن يمون به قواته حتى القسطنطينية ومواصلة الدعوة الى الحروب الصليبية في ألمانيا حيث أنه لم يسبق أن تمت الدعوة فيها رسمياً بسبب الخلاف الديني مع كنيسة روما [١].

حصل بطرس على بغيته من الطعام ولكنه لم يحصل على اتباع من النبلاء الكبار الذين وجدوا في انضمامهم الى بطرس امتهاناً لكرامتهم [٢]، وانضم اليه عدد من النبلاء الصغار وعدد آخر من الفلاحين والفقراء.

وأثناء وجود بطرس في كولونيا حدث أول انشقاق عليه من أحد اعوانه الفرنسيين، حين اعلن والتر المفلس [٣] انه لن يستطيع التخلف في كولونيا وأُخذ جموعه من الرعاع الفرنسيين وتوجه بهم الى بلاد المجر حيث وصل الحدود المجريه في ٨ مايو وكتب الى ملكها كولومان Coloman يستأذنه في اجتياز مملكته ويطلب مساعدته في الحصول على المؤن، وأمده كولومان بالمؤن، وعند نهاية ذلك الشهر وصلت الجموع الى مدينة سملين Semlin على الجانب الآخر من الحدود المجرية حيث بدأت مشاكلهم مع الأُهالي، فقد تخلف عن الجيش الذي اجتاز نهر الساف عند بلجراد عدد من الجنود الذين حاولوا نهب احد اسواق سملين، فألقى المجريون القبض عليهم وجردوهم من اسلحتهم وملابسهم ثم ارسلوهم عراة الى بلجراد وعندما علم والتر بما حل بجماعته اراد الانتقام من بلجراد حيث وقع النهب حولها، فاستخدم القائد العسكري البيزنطي السلاح لمقاومتهم، فلقى عدد من رجال والتر مصرعهم [٤].

وواصل والتر سيره إلى مدينة نيش Nish ، وهنا وصل الامبراطور الكسيوس كومنين

---

(١) رانسيمان : الحروب الصليبية ، ج١ ، ص١٨٠.
(٢) حسن حبشي : الحملة الصليبية الأولى ، ص٥٤.
(٣) والتر المفلس : هو جوتيه سانزافوار sansavoir Gautier وهو أول من وصل الى القسطنطينية من الصليبين فقد وصلها في يوليو ١٠٩٦م ، ويقدر البعض الجماعة التي سارت معه باثني عشر الف ، انظر : عزيز سوريال : مرجع سابق ، ص٤٦.
(٤) Sidney Painter , Op. Cit. , P.202.

اول خبر عن الجموع التي تحركت من الغرب حيث أن حاكم نيش نيكتاس Nikitas بعد ان أُحسن استقبال والتر ورجاله كتب مسرعاً الى الامبراطور يخبره بأمر هذه الجموع وينتظر تعليماته، وتروي آنا كومنين كيف تلقي والدها خبر وصول اللاتين فتقول "خشى من وصولهم ... ومع هذا حافظ على رباطة جأشه، وأقدم على اتخاذ الاجراءات واستعد لخوض الحرب اذا ما دعت الضرورة . . ."[١] .

وبعث الامبراطور الكسيوس إلى نيكتاس امراً بأن يرسل والتر وجماعته وبرفقتهم الحرس الذين ارسلهم بعد ان زودهم بالمؤن لمرافقتهم ووصل الجميع الى فيليو بوليس ومنها الى القسطنطينيه حيث وصلوها في منتصف يوليو[٢]. و بدأ نيكتاس يستعد لاستقبال بطرس مزدواً بتعليمات الامبراطور .

أخذ بطرس يستعد لمغادرة كولونيا في ٢٠ ابريل ١٠٩٦م/ ٤٩٠هـ، وأُستطاع أن يضم الى حملته بضعة آلاف من الالمان، ووعوداً بأن ينطلق آخرون في أثرهم. وقاربت جموعه بمن انضم اليهم من الالمان عشرون الفاً[٣]. ووصلت الجموع الى سملين في ٢٠ من يونيه وارتاع حاكم المدينة وكان تركياً من الغز لضخامة الجموع اللاتينيه فشدد الحراسة عليهم، وعندما شاهد الصليبيون أُسلحة رفاقهم وملابسهم من جماعة والتر معلقة على جدران سملين غضبوا وقاموا باقتحام المدنية واستولوا على قلعتها بعد ان قتلوا اربعة آلاف من اهلها[٤] ونهبوا مقداراً كبيراً من المؤن حيث كانت المدينة وافرة بالطعام، ولما علم نيكتاس بما حدث بسملين ، ولضآلة مالديه من جنود ، فإنه ترك بلجراد التي هجرها أُهلها ايضاً ولجأ الى نيش[٥]. ووصل بطرس الى نيش في الثالث من يوليو ولكن لشدة تحصينها ومتانة أبراجها ووفرة المدافعين عنها لم يستطع مهاجمتها فكتب الى نيكتاس يرجوه فتح السوق ليتزود ورجاله بالمؤن وقد وافق

(١) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١١١.
(٢) A. Duggan , Op. Cit. , P.26.
(٣) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص١٨٢. ويقول وليم الصوري أنهم كانوا اربعين الفاً ، ص١١٥.
(٤) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص١١٥ . ويصف هذه الحركة بأنها هوجاء.
(٥) المصدر السابق ، ص١١٦.

نيكتاس بعد ان اخذ التعهدات والرهائن بعدم مهاجمة المدينة[١].

استعد جيش بطرس للانطلاق الى صوفيا ولكن خلال مغادرتهم قام عدد منهم[٢] باشعال الحرائق في سبعة طواحين كانت مقامة على النهر، وأحرقوا عدداً من البيوت الواقعة خلف الاسوار ولما علم نيكتاس بذلك أُرسل جنوده الذين هاجموا مؤخرة جيش بطرس واخذوا بعض الاسرى، وعندما علم بطرس بما حدث لمؤخرة جيشه عاد واجتمع بنيكتاس لتصفية المسألة، ولكن جيشه الذي كان ينقصه التنظيم مالبث ان التحم في قتال حقيقي مع الجيش البيزنطي الذي أنزل بهم هزيمة ساحقة، حيث لقي عدد كبير منهم مصرعه وضاعت خزانة المال التي كان يحملها بطرس الذي نجا بحياته بصعوبة بعد أن لجأ الى الجبال ، وفي اليوم التالي تفقد بطرس ما بقي من جيشه فلم يجد منه سوى سبعة آلاف[٣].

واصل بطرس سيره بمن بقي معه إلى مدينة صوفيا حيث قابله وفد امبراطوري مزود بالحرس والاوامر بتوفير المؤن للجيش، على أن لا يبقوا في اي مدينة أكثر من ثلاثة أيام ، ومن هناك سار الجميع حتى بلغوا القسطنطينية .حيث التقى بطرس امام اسوارها بوالتر المفلس والذين معه[٤] ، وهكذا وصلت شراذم الحملة الشعبية بقيادة بطرس الناسك الى القسطنطينية في أول اغسطس سنة ١٠٩٦م/٤٩٠هـ بعد رحلة استمرت ثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً[٥].

دعى بطرس لمقابلة الامبراطور الكسيوس كومنين الذي أكرمه وتأثر من سماع قصته عندما زار بيت المقدس ولكنه نصحه أن يلزم الهدوء هو وجنده حتى تصل بقية الحملة واعطاه الكثير من الهدايا والأموال[٦]، ولكن لم تجد هذه النصيحة آذاناً صاغية لدى رجال بطرس

---

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١، ص١٨٥.

(٢) يسميهم وليم الصوري أبناء الملعون ويقول انهم قرابة المائة من «التيوتون» اي الالمان ، ص١١٨.

(٣) رنسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص١٨٧.

(٤) وليم الصوري : مرجع سابق ، ١٢٤. وايضاً المؤرخ المجهول : مرجع سابق ، ص١٩.

(٥) د. قاسم عبده قاسم : الخلفية الايدولوجية للحروب الصليبية ، ط ١ ، دار المعارف القاهرة ١٩٨٣م ، ص٦١. نقلاً عن Hagenmeyer, Chrorologie, P. 246.

(٦) آنا كومنين : الالكسياد، مصدر سابق ، ص١١٥.

الذين كان يعوزهم النظام ويفتقدون القيادة الحازمة ولذلك نجدهم مرة أخرى يستهويهم النهب والسلب حيث أنهم أخذوا يقتحمون القصور والدور الواقعة في نواحي القسطنطينية، وسرقوا الرصاص من سقوف الكنائس كما سرقوا الماشية والدواب، ولم يجد الامبراطور بدأ من نقلهم بعيداً عن عاصمته ففي السادس من أغسطس اكتمل انتقال قوات بطرس عبر مضيق البسفور الى الجانب الآسيوي، وكرر الامبراطور نصحه لهم بأن لا يثيروا الترك وان يلزموا الهدوء حتى تصل بقية الحملات من الغرب(١).

ويهمنا في هذا المجال أن نتوقف هنا لنناقش موقف الامبراطور الكسيوس كومنين من هذه الحملة التي تعتبر بمثابة مقدمة للحملات الصليبية ضد الشرق الاسلامي، فالواقع يؤكد أن الامبراطور قد فوجيء كثيراً بمقدم هؤلاء القوم ، ويرى أحد المؤرخين ان حملة العامة او حملة الفلاحين كما تسمى أحياناً كانت مقدمه غير مشرفة للحرب الصليبية(٢) وتجمع المصادر المعاصرة للحملة بالذات الغربية منها أن هؤلاء الصليبيين قد أساءوا السيرة ولم يتورعوا عن اقتراف شتى المساويء ضد النصارى انفسهم، وان رحلتهم من اوروبا وصولاً الى القسطنطينية كانت دماراً على المناطق التي مروا بها وأن طبيعة تكوينهم من العامة واللصوص وقطاع الطرق والطامعين قد غلب على تصرفاتهم التي أتوها خلال رحلتهم من فرنسا.

وهناك من يرى ان حملة العامة كانت خيانة لدعوة اوربان فلم يكن البابا حين دعى للحملة الصليبية يستهدف هؤلاء الجياع ، بل انه حرص على ان يمانع في خروج الشيوخ والعجزة ولكن الجموع التي اتبعت بطرس الناسك لم تلتفت الى مناشدات البابا، لأنها وجدت في الحملة مخرجاً من ضنكها ، وأملاً في العسل واللبن اللذين بشر بهما البابا(٣) .

وشعر الامبراطور بالخطر الذي يحدق بامبراطوريته وهو يرى مقدمة الحملات الصليبية ممثلة في حملة العامة ، وأعمالها التي قامت بها حتى وصلت الى عاصمته واستشعر الخطر

(١) Duggan , op. cit., p. 26 .
(٢) عزيز سوريال عطية ، مرجع سابق ،ص٤٦.
(٣) د. نور الدين حاطوم : مرجع سابق ، ص٨٣٧.

أكثر حين علم بأن هناك دفعات جديده ستتوالى على عاصمته يقودها الأمراء والطامعون وبدأ الامبراطور ينسج خطته التي سيتعامل بها مع هؤلاء القوم، حيث انه وجد نفسه إزاء مشكلة لابد من التصدي لها وايجاد حل سريع قبل أن تستفحل ويتفاقم خطرها، ولما كان الامبراطور في حقيقة الامر لم يستدع هذه الجموع الا أنه في نفس الوقت لم يكن باستطاعته التصدي لها[(١)] او الحيلولة دون مرورها عبر امبراطوريته، خاصة وانه كانت تنقصه القوات التي يمكن ان تلعب دوراً مثل هذا ، وقد رأى الامبراطور - من واقع خبرته - ان هذا الجيش الذي جاء يقوده بطرس الناسك هو اضعف من أن يستطيع التصدي للاتراك السلاجقة ، أو يستطيع المقاومة امامهم ، ولكنه اخذ للأمر احتياطه الكامل فبدأ يعد جيوشه التي تكونت من فرق من بقايا الباتزنياك (البجناك) والكومان Kumans والتركوبول Turcopoles وكانوا يعملون كمرتزقه في الجيش البيزنطي ، ويتميزون بالطاعة العمياء لقادتهم[(٢)] ، وقد استخدمهم الامبراطور في حراسة جماعات الصليبين التي كانت تفد على أراضي الامبراطورية وفي رد هجماتهم على اهالي المدن التي يمرون بها ويثيرون بها الاضطرابات.

وبدأ الامبراطور يعد خطته منذ اللحظة الاولى التي وصله فيها خبر مقدم الصليبين ، وترسخت هذه الخطة، عندما قابل جموع والتر المفلس وبطرس الناسك في القسطنطينية، وكانت خطة بسيطة وحكيمة في نفس الوقت[(٣)]، فقد حرص على حسن استقبالهم ومدهم بالمؤن، ولكنه لم يغفل لحظة واحدة عن مراقبتهم ومحاولة ابعادهم قدر الامكان عن عاصمته التي ساوره الشك في أنها ستكون احد اهداف هؤلا المتبربرين ، لقد نبهت فوضوية حملة العامة الامبراطور الكسيوس كومنين، وجعلته يوالي استعداداته لتطوير خطته حتى يكون في مقدوره مواجهة الحملات القادمة التي ستكون أكثر تنظيماً وأصعب قيادة[(٤)]. وهو التطور الذي سنراه -

---

(١) د. جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، مرجع سابق ، ص١٢٤.

(٢) C. W. C. Oman , The Art of War in the Middle Ages, second printing, cornell University Press,1963, P.55.

(٣) Sidney Painter , Op. Cit. , P.203.

(٤) عادل زيتون : العلاقات السياسية والكنسية ، مرجع سابق ، ص٨٦.

مستقبلاً حين نجد الامبراطور يفكر في إمكانية الاستفادة منهم في الوقت المناسب لخدمة مصالحه الحيوية في استعادة الاراضي التي كانت تحكمها امبراطوريته سابقاً في آسيا الصغرى[١]. إلا أنه من المؤكد ان الامبراطور لم يجد في مجموعات بطرس الناسك ووالتر المفلس ما يمكن ان يفيده او يفيد مصالح الامبراطورية، فهي لم تكن جيوشاً بالمعنى الحقيقي لكلمة جيوش، كما أنها لم تكن تصلح لتكوين فرق مرتزقة من مثل تلك التي تعودت عليها الامبراطورية البيزنطية ، انما كانت جماعات من الرهبان والضعفاء والعجزة والجوعى، وعندما وصلت الى القسطنطينية كانت اعدادها قد تناقصت تناقصاً كبيراً.

الا أنه اذا كانت الاستفادة منهم غير ممكنة فلا أقل من حماية دولته واملاكه من طمعهم وجوعهم. ولم يكن من سبيل الى ذلك إلا بإغداق الهدايا والاموال والمؤن ، واحكام الرقابة والسيطرة عليهم، وذلك ما فعله الامبراطور، الذي شعر بالشفقة والرثاء من اوضاعهم، ولكه رثاء مشوب بالحذر والحيطة[٢].

وكما أن الامبراطور قد فوجيء بمقدم هؤلاء كذلك فوجيء بهم اهالي الامبراطورية ، فقد رأوا لأول مرة رهباناً وقساوسة وأناساً في اسمال بالية يحملون السلاح ، ولايتورعون عن النهب والتدمير والاحراق ، ولكن مناظر هؤلاء وتصرفاتهم في حين استحقت احياناً المقاومة ورد العدوان ، فإنها استدرت في احيانٍ اخرى الشفقة والاحسان.

ورغم ان بطرس الناسك سبق وأن تعهد بضمان تصرفات جنده وأن لا يسيئوا وهم النصارى الى أراض نصرانية ، الا ان رجاله لم يحترموا هذا التعهد ، والحقيقة ان بطرس لم يكن يستطيع ان يسوس الجنود الذين جمعهم، ولذلك فتعهداته سرعان ما كانت تتلاشى ، وتعليماته للجند سرعان ما كانت لا يعبأ بها.

---

(١) Ostrogorsky, Op. Cit. , P. 322.

(٢) حسن حبشي : الحملة الصليبية الاولى ، مرجع سابق ، ص٦٠.

عسكر الصليبيون في منطقة تسمى "سيفتوت"[١] على شاطيء مرمرة واستمروا في فوضويتهم ونهبهم للدور والقصور على طول شاطيء بحر مرمره رغم اقامتهم الطيبة والناعمة - كا يقول وليم الصوري - ورغم شتى صنوف المؤن التي كانت تصلهم من القسطنطينية والكميات الضخمة من البضائع التي تعرض عليهم كل يوم للبيع، وكان الامبراطور يواصل تحذيراته لهم بعدم مهاجمة الأتراك، وان يؤجلوا تحركاتهم الى حين وصول الحملات النظامية ، الا انهم واصلوا تحركاتهم حتى منطقة نيقوميديا - التي كانت على مقربة من نيقيه عاصمة السلاجقة وكانت نيقوميديا في تلك الفترة مدينة مهجورة ، وحدث في هذا الموقع انقسام جديد على بطرس ، حيث حدث شجارين بين الالمان والايطاليين من جهة وبين الفرنسيين من جهة أخرى[٢] ، فخرج الأولون على قيادة بطرس واختاروا «رينالد» الايطالي قائداً لهم ، وبقوة قوامها سبعة آلاف جندي سار «رينالد» يتوغل في آسيا الصغرى ، واقاموا عند حصن يسمى كيبوتس عند البيزنطيين وكيفتوت Civetot عند الصليبيين[٣] وكان الامبراطور الكسيوس قد اقام هناك قلعة[٤] لتكون معسكراً حصيناً وقاعدة امامية للتصدي للسلاجقة، وكان بها كميات وفيرة من الطعام وسائر المأكولات ، وفي طريقهم اليها لم يوفروا قطعان الماشية والاغنام .

وغار بقية الجند الذين ظلوا على ولائهم لبطرس وقيادته حين بلغتهم أخبار غنائم زملائهم الايطاليين والالمان، وبدأوا يتجهزرن لحملات مماثلة، مستغلين غيبة بطرس في القسطنطينية[٥] .

وينفرد المؤرخ المجهول بذكر أخبار ما حل بجماعة رينالد فيقول «ولما علم الترك باحتلال النصارى لهذه القلعة نهضوا لمحاصرتها، وكان أمامها بئر وعند سفحها نبع ماء حار، فنصب «رينالد» بجواره كميناً لاقتناص الترك الذين وصلوا يوم ٢٩ سبتمبر ١٠٩٦م/شوال ٤٩٠هـ

---

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص١٢٤-١٢٥.
(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص١٨٦.
(٣) نفس المرجع السابق ، ج١ ، ص١٨٨.
(٤) ويسميها المؤرخ المجهول قلعة Exerogorgo ، ص٢٠.
(٥) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص١٢٦.

حيث وجدوا رينالدورفاقه فوثبوا عليهم وفتكوا بعدد كبير منهم، ولاذ الباقون هرباً الى القلعة معتصمين بها، لكن سرعان ما حاصرهم الترك فيها، ومنعوا عنهم الماء، فاشتد الظمأ برجالنا شدة دفعتهم لفصد عروق جيادهم وحميرهم وشرب دمائها، وألقى الآخرون الخرق معلقة بالخطاطيف في الكنف وعصروها في افواههم، وكان احدهم يبول في يد رفيقه ثم يشرب الاثنان وحفر بعضهم الارض الرطبة، واضطجعوا فيها، وهالوا التراب على صدورهم، وهكذا وصلت شدة ظمئهم الى تلك الحال ... واستمرت هذه المحنة ثمانية ايام، ثم عقد زعيم الالمان اتفاقاً مع الترك وعاهدهم فيه على ان يسلمهم رفاقه ، وتظاهر بالخروج للقتال ثم هرب اليهم، وحذا حذوه الكثيرون فتبعوه، ولقى المنية كل من أبى انكار السيد (أي ترك النصرانية) أما الذين بقوا على قيد الحياة فقد تقاسمهم العدو كأنهم الانعام السائمة، ومضوا يتهادون البعض ويبيعون البعض الآخر، وأرسل بعضهم الى خرسان وأنطاكية وحلب ..."[١]

ولم تسلم بقية الجيش التي بقيت في معسكر بطرس من الفوضى ، كما انها لم تستمع الى نصيحة الامبراطور[٢] ، فقاد جفري بورل جماعة من الفرنسيين رغم معارضة والتر المفلس الذي كان يقوم بالقيادة في غيبة بطرس الناسك في القسطنطينية ، واخذ يغير على الاراضي الزراعية والقرى ، ويتوغل في الاراضي التي تحت سيطرة السلاجقة ، وفي منتصف سبتمبر توغل بقواته حتى بلغوا مدينة نيقيه عاصمة السلطان السلجوقي قلج ارسلان فنهبوا القرى وقتلوا السكان النصارى في وحشية بالغة، وخرجت من المدينة سرية من الجيش السلجوقي لقتالهم ، الا أنها عادت بعد قتال عنيف، وعاد الصليبيون الى سيفتوت فرحين بما أُصابوا من غنائم[٣] .

ولم يترك السلاجقة هذه الغزوة من الصليبيين تذهب دون عقاب، وخططوا، لاستدراج الصليبيين الى مواقعهم، وأرسلوا جاسوسين تركيين أعلنا في المعسكر الصليبي أن الصليبيين من

---

(١) المؤرخ المجهول، ص٢٠-٢١، ويلاحظ ان الحوليات الصليبية تستخدم اسم خراسان استخداماً مبهماً، بل واحياناً يطلقون هذا الاسم على البلدان الداخلة تحت سيطرة السلاجقة ، وبعضهم يرى ان بغداد هي عاصمة خراسان؟ !

(٢) Camb. Mid. Hist. , Vol.V, P.276.

(٣) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص١٩٠.

جماعة رينالد قد استولوا على نيقية وأنهم أخذوا يقتسمون الغنائم، فازداد الاضطراب في المعسكر[١]، وطالب الجند السماح لهم بالاسراع الى نيقية، لأخذ نصيبهم من الغنائم، وكان السلطان قلج ارسلان قد ملأ الطريق بالكمائن، وسرعان ما علم الصليبيون بحقيقة ما حاق بزملائهم من اعوان رينالد، فانقلبت فرحتهم إلى ذعر، وبدأوا يفكرون في الانتقام لزملائهم، ورغم ان والتر المفلس كان قد نصحهم بالتريث انتظاراً لعودة بطرس من القسطنطينية ومعه الامدادات، وكان قد وعدهم ان يعود بعد ثمانية ايام ، الا انهم انقسموا على انفسهم ، وزاد في ذعرهم ما علموه من توجه السلطان قلج ارسلان اليهم ، وانقسم المعسكر الي رأيين : رأي يرى الانتظار ، ورأي يرى المبادرة بالهجوم وانتصر اصحاب الرأي الثاني. حيث تحرك الجيش الصليبي في ٢١ اكتوبر بقوة تزيد على ٢٥ الف رجل ، مخلفاً في المعسكر الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى[٢].

وعلى مسافة ثلاثة أميال من المعسكر في الطريق المؤدي الى نيقية في واد زاخر بالغابات، وعند قرية اسمها "دراكون" وقع الصليبيون - الذين كان يملأ الضجيج والضوضاء تحركهم ، ويسيرون بغير نظام - في كمين نصبه السلاجقة ، فقد انهالت عليهم السهام من الغابة فاقتلعت خيولهم وتهاوى الفرسان الذين كانوا فريسة سهلة للسيوف التركية ، ودب الذعر في الجيش الذي حاول الفرار وتفرق الجند كل يبحث عن ملجأ، وعاد اكثرهم الى المعسكر الصليبي وفي أثرهم الفرسان السلاجقة ، وكانت معركة اخرى في المعسكر فتشرد جميع من فيه، ومن بقى حياً اخذ اسيرا .

وحلت بالصليبين هزيمة منكرة ، وتذكر آنا كومنين أن من قتل في هذا اليوم بيد السلاجقة (وتسميهم بني اسماعيل) من الحشود الفرنجيه كان كثيراً جداً ، الى حد أنهم لماجمعوا بقايا الذين قتلوا في مكان واحد ، شكلوا ما يماثل مرتفعاً كبيراً جداً ، وتضيف : في

---

(١) آنا كومنين : الالكسياد ، ص١١٦.

(٢) وليم الصوري ، ص١٢٨ ؛ رانسيمان ،ج٢ ، ص١٩١.

الحقيقة لا يمكنني أن أقول إنه مثل قطعة عظيمة من جبل أو أنه تل أو قمة، لكن أقول إنه جبل بارتفاع كبير وعميق وعريض وعظيم جداً [(١)] وقتل في هذه المعركة أهم قادة الحملة امثال والتر المفلس وغيره ، ونجا المتسبب فيها جفري بوريل ، وكاد بطرس الناسك ان يكون من ضمن القتلى[(٢)] ، وقد رغب السلاجقة في أسره وأعدوا لذلك عدداً من الكمائن الا انه استطاع النجاة هو وحفنة من الرجال فقط وتمكنوا من العودة الى هلينو بولس، وكان الامبراطور قد سمع بما حدث عن طريق احد البيزنطيين الذي استطاع العثور على سفينة انطلق بها الى القسطنطينية ليروي ما حدث ، ورأى الامبراطور ان الأمر سيكون عظيم الوقع، اذا ما وقع بطرس في الاسر، لذلك بادر الى ارسال قسطنطين يوفوربينوس مع جيش قوي ركب عدداً من السفن الحربية لانقاذ بطرس واصحابه وكانوا قلة قليلة، وجلبهم سالمين الى الامبراطور[(٣)] ، الذي أخذ يلوم بطرس بانه لم يستجب لنصحه بعدم التحرك او استشارة السلاجقة الا بعد وصول بقية الحملة ، ولكن بطرس اعلن عدم مسؤوليته عما حدث ، ووضع اللوم على رجاله لأنهم كانوا غير مطيعين له وتبعوا رغبات نفوسهم ، وانهم كانوا عبارة عن لصوص واوغاد ورجال عصابات ، فهم غير جديرين بالانتساب الى حملة الصليب [(٤)].

بهذه النهاية المفجعة للصليبيين انتهت حملة العامة التي اوصلها بطرس الناسك الى نيقيه في آسيا الصغرى، بعد أن استنفذت ماعند الامبراطور الكسيوس كومنين ورعاياه من صبر.

لقد كانت حملة العامه مثالاً للفوضى، وللطمع الذي غلف أهداف الرجال الذين شاركوا فيها ، ورغم ذلك فإننا لم نعدم شهادات تدين الامبراطور الكسيوس كومنين بأنه هو

---

(١) آنا كومنين : الالكسياد ، ص١١٧.
(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة.
(٣) يذكر رانسيمان ان بطرس لم يكن موجوداً في ارض المعركة ، وبالتالي فإن السفن التي ارسلت هي لفك الحصار عن حصن سيفتوت ، واعادة من تبقى من جيش بطرس ، فيما رواية اناتدل ان بطرس كان قد عاد الى الجيش ، وكان هدفاً لمحاولة اسره او قتله من قبل الاتراك. رانسيمان ، ج٢ ، ص١٩٤.
ويذكر وليم الصوري ان بطرس قد اخبر وهو في القسطنطينية بما حل برجاله وبهلاكهم واستطاع بتوسلاته وتضرعاته ان يحمل الامبراطور على ان يرسل بعض القوات الى هناك وليم الصوري ، مصدر سابق ، ص١٣٠.
(٤) آنا كومنين : المصدر السابق ، ص١١٨.

المسؤول عن النهاية المأسوية لحمله العامة. فقد ذكر ريموندا جيل انه «عندما وصل بطرس الناسك وحشود المزارعين التي صحبته الى القسطنطينية قبل شهور من وصول القوة الصليبية الرئيسية، خانه الكسيوس بان أجبره واتباعه، الذين لم يكونوا على معرفة بموقع الحرب ولابفنونها، على عبور المضايق وليس معهم دفاعات ضد الاتراك، وهكذا فعندما شعر أتراك نيقية بأنهم وقعوا على فريسة سهلة، قتلوا، بسرعة و سهولة ستين الفاً من المزارعين ...»(١) كما أن المؤرخ المجهول ذكر أن الامبراطور الكسيوس كومنين لم يكتم فرحته العظيمه حين ذاع خبر تشتيت الترك للصليبيين ، وأنه أصدر أوامره بنقلهم عبر البسفور بعد أن جردهم من كل سلاح يحملونه(٢). الا ان الامبراطور لم يعدم ايضاً من ينصفه من كتاب الغرب اذ يشير البرت دي اكس، الى سفارة الامبراطور الى زعماء الصليبيه الشعبيه وتحذيرهم من الزحف شرقاً نحو الاتراك، غير انهم لم يعملوا بالنصح ، ويؤكد ان الكارثة التي حلت ببني جلدته كان مردها سوء سلوكهم واختلاف قادتهم في الرأي(٣).

والواقع أن الامبراطور الكسيوس كومنين سبق أن حذر بطرس الناسك ورجاله مراراً من مغبة مهاجمة الاتراك قبل قدوم الحملة الرئيسية ، ووفر لهم من المؤن ما يغنيهم عن القيام بممارسة النهب والسلب والتحرش بالاتراك ، وأنه لم يقم بنقلهم الى آسيا الصغرى الا بعد أن زادت تحرشاتهم بالاهالي ونهبهم لدورهم وقصورهم ومهاجمتهم املاكهم حتى ان الكنائس لم تسلم من غاراتهم ، ورغم نقله لهم الى آسيا الصغرى إلا أنه واصل تحذيراته لهم .

---

(١) ريموندا جيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمه عن الانجليزية د. حسين محمد عطيه، الطبعة الأولى، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٩م ، ص٧٨.

(٢) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٢٢.

(٣) Al-Bert d'Aix, Liber Christianae (R. H. Cr Occ) , t. IV, P.284. نقلاً عن : اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص٩١.

ويعيد وليم الصوري ما حل بالصليبيين الى «الطيش الجنوني الذي كان عليه هؤلاء القوم الجفاة غير النظاميين، والمنصرفون عن الأخذ بمشورة من هم أحكم منهم[١]»

والغريب ان بعض المصادر العربية تذكر ان الامبراطور الكسيوس كومنين قد كتب فعلاً الى المسلمين يخبرهم بظهور الفرج ، فقد كتب العظيمي في أحداث سنة تسع وثمانين واربعمائة ما نصه «... وكتب ملك الروم الكس الى المسلمين يعلمهم بظهور الفرنج ...»[٢] ولعل العظيمي قد استند في كتابته هذه الى ما كتبه المؤرخ السرياني المجهول حيث كتب «...وعندما تقدمت جيوش الفرنجة وبدأت تدخل الحدود، ووصل قسم منهم الى بعض المعسكرات، ارسلت شراذم من المشاة والعمال للعبور قبل وصول الجند، لكن الكسيوس انذر الاتراك الذين كانوا في نيقية وما جاورها، وأخبرهم بقدوم هؤلاء وطلب منهم أن يهاجموهم، وهكذا اسرع الاتراك الى ملاقاة هؤلاء علي شاطىء البحر، وذبحوهم عن بكرة ابيهم دون شفقة او رحمة.."[٣]. واذا كان العظيمي قد استند فعلاً الي المؤرخ السرياني المجهول فليس مستغرباً ان يكتب هذا المؤرخ ماكتبه حيث كان السريان والارمن هم الحلفاء الرئيسيون للصليبين عند قدومهم، وقدموا لهم خدمات جليلة علي أرض الواقع، فقد أعانوهم في الإستلاء على المدن بالخيانة [٤]، وفي التعرف علي الطرقات، ودلوهم على عورات المسلمين ونقاط الضعف في تحصيناتهم ، وفي كتابة تاريخ حملاتهم على المشرق العربي .

لقد اخفقت حملة العامة التي قادها بطرس الناسك ووالتر المفلس إخفاقاً تاماً، وفي الوقت الذي استفاد الامبراطور الكسيوس كومنين من مقدم هذه الحملة في تكملة استعداداته لاستقبال الحملات النظامية القادمة، نجد أن الاتراك السلاجقة، لم يستفيدوا من مقدم حملة العامة ، فقد خدرهم انتصارهم الساحق عليهم، وجعلهم يعتقدون أن الحملات القادمة - إذا

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص١٣٠.
(٢) تاريخ العظيمي ، فصل في كتاب الحروب الصليبية : الحملتان الاولي والثانية حسب روايات شهوعيان كتبت اصلاً بالاغريقية والسريانية والعربية واللاتينية ، للدكتور سهيل زكار ، ج٢ ، ص٦٦٣.
(٣) المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٥٤.
(٤) كما حدث عندما حاصر الصليبيون انطاكية ودخلوها بالتآمر مع فيروز الارمني .

كان هناك حملات أخرى- لن تزيد عما قابلوه من جيش بطرس، وعصاباته التي تفتقدالنظام ومعرفة فنون الحرب، لذلك سرعان ماعادوا الى حروبهم ضد بعضهم في صراع الامراء العقيم، اذ اننا سنجد بعد ذلك ان الحملة النظامية الاولي تصل الى آسيا الصغري، بينما كان قلج أرسلان في حرب مع الدانشمنديين[١]، وعندما حاول توحيد الصفوف معهم للتصدي للعدو القادم، كان الوقت قد مضي، وسرعان ما اكتسحهم الصليبيون .

ولم تكن حملة بطرس الناسك ووالتر المفلس هي كل حملات العامة، فهناك ثلاث حملات آخرى تحركت من الغرب، حوت الفلاحين وقطاع الطرق والمغامرين، ولكن لم يقدر لها الوصول الى الشرق أو مقابلة الامبراطور أوحتي عبور الحدود البيزنطية، لانها انتهت في الغرب .

وقد قلنا سابقاً ان بطرس الناسك لم يستطع خلال اقامته في المانيا وبالذات مدينة كولونيا أن يضم الكثيرين من الالمان الى جماعته وانما ضم بعض المعدمين، وحصل علي وعود أن تتبعه جماعات آخري . فقد قام جوتشلك Gottschalk بالدعوة في المانيا على خطي بطرس الناسك، واستطاع أن يجمع مايقارب خمسة عشر الفاً[٢] من العامة، سار بهم مخترقاً المانيا الى بلاد المجر. ورغم استياء ملك المجر كولومان من تصرفات حملة بطرس الا انه أصدر أوامره لرعيته لتقديم البضائع باثمان معقولة، علي ان جماعات جوتشولك مالبثت ان عادت الى

(١) ينتسب الدانشمنديون ، الذين أسسوا دولة تركمانية تسمي الدانشمندية الي شريف عربي يعرف بإسم سيد بطال غازي، وقد اقاموا دولتهم في ملطية، وقد مات سيد بطال غازي سنة ١٢٢هـ ، ٧٤٠ م في قتال الروم ، ويذكر مؤرخ بيزنطي انهم من نسل الاشكانيين، وقد غزا جدهم الملك دانشمند احمد غازي آسيا الصغري ، متحالفاً مع قلج ارسلان الاول السلجوقي وفي ركابه، واسس فيها مملكة مستقلة، حاضرتها سيواس وتضم مدن اماسية وكانكري وجرم ونكسار (قيصرية الجديدة) وغيرها : دائرة المعارف الاسلامية، ج٩، ص١١٣. وسيد بطال غازي ، بطل اسطوري ، جاهد في سبيل الله وقبره في سيد غازي جنوب اسكي شهر ، وبطولته الاسطورية تستند الى شخصية تاريخية هي شخصية المقاتل الاسلامي عبد الله البطال. ويذكر الطبري (ج٧، ص١٩١) انه قتل عام ١٢٢هـ (٧٤٠م) في حرب الروم ويذهب المؤرخون الى ان اسمه الحقيقي هو ابن محمد جعفر بن السلطان حسين بن ربيع بن عباس الهاشمي، وانه ولد بملطية ، وقد ارتبط تاريخه بقصة شعبية تركية باسم سيد بطال ، وقد كتبت احياناً نثراً واحياناً شعراً، وقد نشرت في طبعات عديده وترجمت الى الالمانية، أنظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ج٣ ، ص٦٧٥.

(٢) وليم الصوري :مصدر سابق ، ص١٣١.

طبيعتها الفوضوية فبدأوا ينهبون الاهالي ويسيئون معاملتهم، فاستاء الملك من تعاملهم، وأمر بحربهم باعتبارهم أعداء يستحقون الاستئصال، وعند بلغراد اعد لهم الملك كميناً حيث أجبرهم أولاً علي تسليم اسلحتهم، ثم مالبث ان هاجمهم واجرى فيهم مذبحة لم ينجوا منها الكثير، واستطاع بعض رجال جوتشولك الهرب وعادوا سريعاً الى بلادهم وقراهم[١].

لقد وجدت جماعة جوتشولك وغيرها من الجماعات التي قامت بعد ذلك في اليهود عدواً قريباً يجب محاربته قبل الانطلاق إلى الشرق ومحاربة المسلمين، وكان اليهود ينتشرون في غرب اوربا علي هيئة جاليات عديدة على طول الطرق التجارية، وكانوا يقومون بنشاط تجاري كبير مستغلين صلتهم باليهود في الشرق الاسلامي والبيزنطي وأسسوا عدة بيوت تجارية تولت اقراض الأمراء والفرسان وغيرهم الأموال نظير فوائد كبيرة، مما اوقع الكثير منهم في حبائل الديون لليهود، وبالتالي مطالباتهم التي لاترحم. وكان اليهود يقيمون علاقات طيبة مع الامراء والاساقفة نظير امدادهم بالاموال والرشاوي، وكانت الدعوة للحروب الصليبية قد جاءت في مصلحة اليهود عبر مزيد من القروض والفوائد، ونتيجة لذلك ساءت أحوال كثيرين ممن اقترضوا من اليهود للتجهز للحملة الصليبية[٢].

وكان اليهود يدركون مقدار البغضاء التي ينظر بها اليهم سكان غرب أوربا ، وقد تلقوا التحذيرات من يهود شمال افريقيا بأن الحملة الصليبية قد تعود بالضرر عليهم ، فبدأوا يضيقون في إعطاء القروض[٣] .

بدأت جماعات جديدة تكونت تحت قيادة احد اللوردات الصغار واسمه اميخ Emich من منطقة ليزنجن الالمانية، وكان اميخ يدرك مقدار ماتتركه الخرافة من أثر على جماهير العامه التي التفت حوله، لذلك فقد أعلن لهم ذات صباح، أنه صحا من نومه علي صليب

---

(١) Camb .mid. hist,vol.v .P.276.

(٢) قاسم عبده قاسم : الاضطهادات الصليبية ليهود اوربا من خلال حولية يهودية : بحث في مجلة ندوة التاريخ الوسيط ، القاهرة ١٩٨٢م ، القاهرة ،دار المعارف، المجلد الاول ، ص١٣٩.

(٣) عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ١٤١.

مرسوم علي جسده، فازداد المنضمون اليه والمؤمنون بدعوته، فأعلن أن الحرب الصليبية ستبدأ يوم ٣ مايو ١٠٩٦م ولكن هنا في المانيا أولاً ضد اليهود العدو الاول للمسيح(١).

قاد اميخ جماعته الى مدينة شبير Spier ، الالمانية لتعقب اليهود الذين سارعوا لشرء الحماية من أسقف المدينة عبر الهدايا الضخمة التي قدموها له(٢)، فكف عنهم نقمة الجيش الصليبي الذي لم يستطع أن يفتك سوي باثني عشر يهودياً(٣).

وانضمت جماعات آخري من مدينة ورمز Worms الى جماعة اميخ وقاموا في الفترة من ١٨-٢٠ مايو بمهاجمة الحي اليهودي في ورمز ، حيث لجأ اليهود الى شراء حماية أسقفها، إلا ان الصليبين لم يأبهوا بهذه الحماية، فاقتحموا سكن الاسقف وقتلوا جميع من به من اليهود، وفي ٢٧ مايو ساروا الى مدينة مينز Mayence فوجدوها مغلقة امامهم انفاذا لأوامر رئيس أساقفتها الذي اشتري اليهود حمايته، وأرسل اليهود مجددا مائتي مارك الى الاسقف ليتشدد في حمايتهم ، والى أميخ سبعة أرطال ذهب فوعدهم بالامان(٤).ولكنه مالبث ان نقض عهده ودخل المدينة وسفك دماء يهودها واستمر القتل يومين ، ويقال ان عدد القتلي بلغ الفي قتيل ، ثم سار بجنوده الي كولونيا حيث حاول أن يفتك بيهودها في مطلع يونية إلا أنه لم يستطع أن يخترق الحماية التي فرضت عليهم(٥).

سار اميخ برجاله الى المجر ، وقد ازعجت ضخامتهم ملك المجر كولومان Coloman، كما ازعجته أيضا الحملة السابقة التي قادها جوتشولك، فلم يسمح لهم بعبور بلاده، وبدأ في

---

(١) حسن حبشي، الحرب الصليبية الاولى ، ص٥٦.

(٢) كان اليهود يشعرون بما يدور حولهم لذلك فقد لجأوا الى اسلوبهم القديم وهو الرشوة ومما يذكر في هذا المجال انه عندما سرت اشاعة ان جود فروي دي بويون والذي كان يعد حملة للمشاركة في الحملة الصليبية قد اقسم علي ان ينتقم بقتل اليهود اولاً ، سارع اليهود الى جمع المال وتقديمه لجودفروي ليعدل عن موقفه ، وقد عدل فعلاً بعد ان حصل علي خمسمائة قطعة فضية من يهودماينز ومثلها من يهود كولون . انظر : الاضهادات الصليبية ليهود اوربا ، مرجع سابق ، ص١٤٦.

(٣) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ،ص١٩٧، وايضاً : Camb ,med,hist, Vol v. P. 277

(٤) حسن حبشي : الحملة الصليبية الاولى ، مرجع سابق ، ص ٥٧.

(٥) قاسم عبده قاسم : الاضطهادات الصليبية ليهود اوربا ، ندوة التاريخ الوسيط ، ج١، ص١٥٠.

مقاتلتهم، وكاد اميخ أن يحقق انتصاراً، ولكنه مالبث أن هزم وقتل كثير من رجاله، وهرب هو عائدا الى بلاده ، مكتفياً من حملته بالاياب، وانضم من بقي من رجاله حياً الى الحملات النظامية التي بدأت تتأهب للانطلاق الى الشرق(١)

كما قاد فولكمار Volkmar جماعات من سكسونيا وبوهيميا واراد اللحاق ببطرس الناسك، الا أنه عندما سمع بما فعله اميخ باليهود ، وكان حينئذ قد وصل بجموعه الى براغ Prague اراد أن يفعل مافعله، وفعلا قام في ٣٠ مايو بمهاجمة يهود براغ إلا أن الهنغاريين اعطوهم الحماية، وقاموا بمحاربة جموعه وفرقوهم(٢). وهكذا انتهت حملة اميخ وفولكمار في المجر (هنغاريا) ولم تستطع اللحاق بحملة بطرس .

والواقع أن هذه الحركات الصليبية التي استهدفت اليهودكشفت عن مقدار الكراهية الشديدة التي كان يضمرها الألمان خاصة والاوربيون عامة لليهود ، كما انها تكشف عن الدور المالي الذي كان يلعبه اليهود في فترة العصورالوسطى في اوروبا الغربية .

وقد صور مؤرخ يهودي مقدار ما اصاب اليهود في هذه المذابح فقال ان هناك مجتمعات يهودية تلاشت بأسرها ، من جراء هذه المذابح، وصب جام غضبه على فولكمار واميخ وجوتشولك قادة هذه الحملات(٣) ، وقال انها توازي الهولوكست(٤) في عصرنا الحاضر .

والواقع أن الكنيسة النصرانية لم تكن دائماً، تربطها علاقات جيدة مع اليهود ، فهي ترى انه يجب أن يستمر احتقار اليهود واذلالهم كدليل قائم على انتصار الكنيسة المظفر عليهم، ولم تكن تصرفات رؤساء الاساقفة وحمايتهم لليهود تصدر من منطلق ديني وانما كانت بسبب تلك الرشاوي التي سارع اليهود بتقديمها لطلب الحماية وهي الطريقة التي تعودوا أن يلجأوا اليها عند كل ملمة، أو عندما يريدون التوسع في مشاريعهم او الحصول على الضغط اللازم

---

(١) Camb , mid, hist , vol. v . P. 277.

(٢) Ibid., p276.

(٣) يوشع براور: عالم الصليبيين ، مرجع سابق ، ص ٤٦ ، ٤٧.

(٤) الهولوكست هي المذابح التي تعرض لها اليهود في المانيا الهتلرية وكان دأب اليهود ومازال التهويل من أمر هذه المذابح لاستدرار التعاطف العالمي .

لاسترجاع ديونهم بفوائدها الكبيرة .

والحقيقة إن اليهود بتصرفاتهم المادية وسيطرتهم على شئوون المال والتجارة في أوروبا في العصور الوسطى، والديون الثقيلة التي كبلوا بها النصارى، والفوائد الربوية التي كانوا يطالبون بها ، كل ذلك كان له اثره في اذكاء نار العداوة نحوهم، وهي عداوة على أي حال كانت كامنة في نفوس النصارى منذ زمن بعيد .

ورغم أن هذه الحملات لم تستطع الوصول الى القسطنطينية الا أن الامبراطور علم بخبرها ، وأخذ درساً منها في الاحتياط للحملات القادمة، وبدأ يتخذ من الوسائل مايدفع به عن بلاده شرهم ، وتكاملت استعدادته لاستيعاب الحملات النظامية التي بدأت في التحرك، من الغرب .

تطرح النهاية التي انتهت اليها حملة العامة علي يد السلاجقة ، والتي كانت بمثابة المقدمة للحملات النظامية ، سؤلاً هاماً هو : الى أي مدي كان الامبراطور الكسيوس كومنين مسؤولاً عن هذه النهاية ؟! وماهو دوره فيها ؟!.

وكما ظهر من الاستعراض فهناك خلاف كبير في وجهات النظر ، فبينما نجد الكتاب اللاتين يحملون الامبراطور المسؤلية الكاملة عن هذه النهاية فهو الذي اصر علي انتقال الصليبيين إلى الجانب الشرقي من بحر مرمره ، حيث اصبحوا علي مقربة من السلاجقة وتحت رحمتهم ، نجد المصادر البيزنطية تدافع عن تصرف الامبراطور ، وتبريء ساحته من أي مسئولية عن هذه النهاية وتري ان هدفه من ذلك كان حماية عاصمته من غارات وهمجية هؤلاء اللاتين.

الواقع أن الامبراطور شعر بالخطر الكبير الذي يمثله وجود هذا النوع من العصابات أمام عاصمته، وتأكد له عدم استطاعة بطرس الناسك السيطرة علي جموعه، فهو كثيراً ما اعطي الوعود بعدم مهاجمة المدن البيزنطية أو سكانهاولكن رجاله بحكم تكوينهم وطبيعة ماضيهم، والهدف الذي تصوروه من خلال مشاركتهم في الحملة، كانوا يخذلون هذه التعهدات وتلك الوعود، كل ذلك أعطى الامبراطور المندوحة او المبرر على التعجيل بنقلهم الى الجانب الآسيوي اتقاءً لشرهم.

على أن سبباً آخر قد يكون عجل بقرار الامبراطور في نقلهم، هو وصوله الى اقتناع بأنه

لا سبيل لاستفادة حقيقية للامبراطورية من وراء هؤلاء الحفاة العراة الذين جمعهم بطرس، فهم ليسوا مقاتلين أشداء حتي يمكن ضمهم الى الجيش البيزنطي الذى يحفل بعشرات الكتائب المرتزقة ، بل إنهم سيكونون عبئاً على هذا الجيش اكثر من أن يكون لهم أي فائدة ، فهو يعرف بحكم خبرته وسابق حربه مع السلاجقة أن رجالاً مثل هؤلاء لايستطيعون الصمود امامهم، وهم الذين كانوا صنعتهم الحرب والقتال .

فإذا تضافر هذا العامل مع العامل السابق ، فإن قراره بنقلهم الى الضفة الشرقية للبسفور ، سيقدم له خلاصاً حقيقياً ممايمكن ان يمثلوه - ومثلوه فعلاً - من أخطار.

ثم ان طبيعة العلاقات التي سادت بين الامبراطورية وبين هؤلاء اللاتين سواء على مستوى القيادة او الشعب ، قد أكدت استحالة قيام اي نوع من العلاقة الودية بين الطرفين.

كان الامبراطور يضع دائماً مصالحه ومصالح امبراطوريته في كل تعامل، ولم يجد أن هناك ثمة مصلحة من وراء احتضان هؤلاء الذين كونوا حملة العامة، والذين سبقتهم اخبار تسيبهم ووحشيتهم منذ أن شقوا طريقهم من اوروبا الى ان وصلوا الى اسوار القسطنطينية، بل ولم تسلم العاصمة من فعالهم .

صحيح إن الامبراطور الكسيوس قد وفر المؤن والطعام للصليبيين -كما تعترف بذلك المصادر اللاتينيه- أثناء مقامهم في الضفة الاسيوية للبسفور، ولكنه من ناحية أخرى لم يستطع توفير الحماية اللازمة لهم، فلم ترافقهم فرقة او قوات بيزنطية، الى جانب علمه بفوضويتهم وشدة تلهفهم الى النهب والسلب والاغارة حتى على اخوانهم من النصارى الشرقيين.

ولو صح ما ذكره المؤرخ المجهول(١) ، من أن الامبراطور قد جرد الصليبيين من اسلحتهم عندما نقلهم الى الجانب الاسيوي، وهو ما نستبعده، فإن ذلك يرفع اصابع الاتهام في وجه الامبراطور ، بل ويؤكد هذا الاتهام حتى وان كانت هذه الاسلحة بدائية او لا تستطيع التصدي أو مقاومة السلاجقة كما تردد القول بذلك.

كما ان من المستبعد أيضاً أن يكون الامبراطور قد أخبر السلاجقة بمقدم الفرنج أو اتفق

(١) انظر رأي المؤرخ المجهول ، ص (٢٢) .

معهم على إبادتهم، فلم يرد مثل ذلك في المصادر اللاتينيه المعاصرة ، ولو وجد مثل ذلك لما غفره الكتاب اللاتين للامبراطور، ولعدوه خيانة عظمى مبكرة منه لهم، ولو وجد مثل ذلك لكان تصرف الحملات النظامية التي جاءت الى القسطنطينية قد اختلف. ثم إن السلاجقة على الجانب الآخر لو كانوا قد اخبروا بذلك، لبذلوا شيئاً من الاستعدادات والاتصالات، بل ان الامر يبدو كما لو ان السلاجقة قد فوجئوا بهم . على ان الامبراطور لم يكن بحاجة الى اخبار السلاجقة بقدمهم أو مجيئهم فهم ولاشك عبر تحرشاتهم وفوضويتهم واغاراتهم سيخبرون عن انفسهم، رغم التحذيرات التي بذلها لهم الامبراطور. الا ان هزيمتهم - فيما لو تعرضوا للسلاجقة - كانت مؤكدة لدى الامبراطور، الذي سبق وتأكد أنهم لايصلحون لحرب السلاجقة ولن يستطيعوا الصمود امامهم.

على أنه وسط هذا التعارض بين وجهتي النظر اللاتينيه والبيزنطية تبرز وجهة نظر المؤرخ الفرنسي شالندون -وهو احد كتاب الغرب الذين تناولوا تاريخ الامبراطورية البيزنطية وعلاقاتها بالغرب اللاتيني بحيادية- فهو ينفي مسؤلية ما حل بالصليبيين على أيدي السلاجقة عن الامبراطور ويلقيها على الصليبيين انفسهم الذين ضربوا عرض الحائط بنصائحه المتكررة بعدم التحرش بالسلاجقة، ولم يقتنعوا حتى بالمؤن والبضائع التي كان يبعثها اليهم الامبراطور[1].

وهناك من يرى أنه لا الامبراطور الكسيوس، ولابطرس الناسك كانا مسؤلين عن هذه النهاية، وانما المسؤول الأول هو عصابات بطرس التي كان ينقصها النظام وتحركها الأطماع والنهم والجوع، ولم يكن لهم علم بفن الحرب والقتال، ومع ذلك فلم تتورع عن مهاجمة قوم صناعتهم القتال، ومهارتهم الحرب،وهم غير مستعدين، ويقول وليم الصوري «... وهكذا فإن الطيش الجنوني الذي كان عليه هؤلاء القوم الجفاة غير النظاميين، المنصرفون عن الأخذ بمشورة من هم أحكم منهم قد أدى الى الابادة الشاملة ...»[2]

---

(١) Chalandon, Aleixis comne'ne, P. 172 .
نقلاً عن : جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، مرجع سابق ، ص١٦٩.
(٢) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص١٣٠.

أما كون الامبراطور الكسيوس قد فرح فرحاً عظيماً عندما بلغته أخبار الهزيمة الشاملة للصليبيين - كما تذكر بعض المصادر اللاتينية - فهذا ما لا نستبعده ، ولعل مصدر فرح الامبراطور جاء بسببين الأول : ما تمثله هذه الهزيمة من خلاص من هؤلاء القوم الذين شكلوا خطراً على امبراطوريته وعاصمته وأتوا من الفعال والأعمال الوحشية ما ضجت منه مدن الامبراطورية وشعبها ، وشغلوا جانباً كبيراً من اهتمام الدولة وسياستها وبلاطها وجيشها.

والثاني : استفادة الامبراطور من التجربة وما تتيحه له نهايتها من استعادة أنفاسه، واستعداده للتعامل مع الحملات القادمة. ولأن الامبراطور شعر مبكراً أن هناك من سيتهمه بالمسئوليه عن هذه الكارثة التي حلت بالصليبيين ، فإننا نجده يبادر عندما وصلته استغاثة بطرس بارسال فرقة من جيشه لانقاذ من تبقى منهم ، حتى يبدو أمام الصليبيين بمظهر المدافع عنهم والمهتم بامرهم ، انطلاقاً من دهائه وبعد نظره في معالجة الامور سريعاً ، مما دفع بطرس الى ان يحمل عصاباته ورجاله المسئوليه كاملة.

على أن النقطة المثيرة للاهتمام ما يلاحظ على الكتاب اللاتين الذين رافقوا الحملة الصليبية الاولى وسجلوا احداثها أنهم لم يظهروا تعاطفاً مع حملة العامة ، ففي الوقت الذي شجبوا التصرفات الغوغائية لرجالها ضد اخوانهم من النصاري سواء في القسطنطينية أو غيرها نجدهم يتغاضون عن تصرفات اقترفها رجال الحملة النظامية تجاوزت في النهب والسلب والقتل ما ارتكبه رجال حملة العامة ، بل إن هذه التصرفات كانت تجد التبرير والدفاع عنها من قبل هؤلاء الكتاب. ولعل السبب يعود الى أنهم قد خرجوا من تحت معطف الكنيسة ، وكان معظمهم من رجالها . وسبق أن ذكرنا أن الكنيسة لم تكن تسعى الى ان يشارك العامة في الحروب التي تبنتها ودعت اليها ، بل وحاولت منعهم عبر البيانات والتحذيرات التي اصدرها البابا اوربان الثاني[1] الا أن هؤلاء كان لديهم من الدوافع والأهداف ما يسعون الى تحقيقه ومن الظروف ما يسعون الى تغييرها ، ووجدوا في خروجهم رغم معارضة الكنيسة حلاً لكثير من مشاكلهم.

---

(١) سبق ان اشرنا الى تلك التحذيرات ، والى حرص البابا اوربان الثاني على جذب الامراء والفرسان فقط في صفحة (١٠٩ ، ١١٠).

على أنه رغم كل ذلك فلاشك أن المذبحة الشاملة التي تعرض لها صليبيو حملة العامه، قد ألقت بظلالها على مستقبل العلاقات بين البيزنطيين واللاتين وأثرت في سير هذه العلاقة، اذ أنها من الجانب البيزنطي أكدت على مخاوف الامبراطور البيزنطي وحقيقة ما ينتظره من دور لحماية امبراطوريته ، وجعلته يسارع في بلورة خطته التي يريد ان يتعامل بها مع جحافل الصليبيين التي أخذت أخبار انطلاقها من الغرب تتوافد الى عاصمته.

وعلى الجانب اللاتيني فإن الهزيمة وأخبارها بقيت في الذاكرة الصليبية رغم محاولات الامبراطور إحتواء القادة الصليبيين والاغداق عليهم بالهدايا والمنح ، والتأكيد على عدم مسئوليته عما ألم بأولئك الصليبيين. كما أن بعضهم اتخذها مبررا لمهاجمة العاصمة البيزنطية - كما فعل جودفروي - ثم انها أصبحت فيما بعد إحدى التهم التي توجه للامبراطور بخيانة الصليبيين وإساءة معاملتهم .

الكسيوس كومنين والحملات النظامية :

بلغت أخبار الحملات الشعبية وما انتهت إليه اسماع الغرب الأوروبي وبالذات البابوية ولكن ذلك لم يعطل خطواتها لانفاذ حملاتها المنظمة، بل قد يكون أسرع بها، وكان البابا قد كتب الى الآقاليم والمدن والأساقفة يؤكد على نوعية الذين يطلب منهم المشاركة في الحملة وهم الفرسان(١).

وبدأ الفرسان والأمراء يعدون أنفسهم للخروج في الحملة في الموعد الذي حدده البابا اوربان الثاني وهو الخامس عشر من شهر اغسطس سنة ١٠٩٦م/ ٤٩٠هـ. وما ان حل فصل الربيع حتى كان الفرسان قد أعدوا عدتهم وأسلحتهم، بعد أن استطاعوا حل مشكلة تمويل الحملات عبر طرق مختلفة، فجودفروي ضمن دعم اليهود له بعد الاشاعات التي سرت بأنه ينوي مهاجمتهم، ونجحت هذه الاشاعات في دفع اليهود الى أن يقدموا الكثير من الاموال التي ساعدته في تمويل حملته(٢) اضافة الى ما عرف عنه بأنه كان أحد أغنياء أمراء الاقطاع في اوروبا ، كما قام أمراء آخرون من الراغبين في الانضمام الى الحملة برهن أملاكهم أو التخلي عنها للكنيسة نظير الحصول على بعض الأموال(٣).

وسبق أن ذكرنا أنه نظراً لخلافات الكنيسة مع الملوك فلم يشارك احد منهم في هذه الحملة، وانما اقتصرت على الأمراء والنبلاء واتباعهم، ولكن ملك فرنسا فيليب الأول الذي لم يكن يريد أن تفوته فرصة المشاركة في الحملة وما توقعه منها من فوائد، ولأنه كان مقطوعاً من الكنيسة ومحروماً منها فقد دفع اخاه هيوج كونت فرماندوا للاشتراك في الحملة ، بعد أن دعمه بعدد من الجنود والفرسان(٤).

---

(١) انظر رسائل البابا وخطاباته الى بعض الكونتات والاساقفة التي سبق مناقشتها في اعقاب خطبة البابا اوربان الثاني في كليرومونت وكذلك : جوناثان رايلي سميث : مرجع سابق ، ص٤٨.

(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص١٩٧.

(٣) Edward M. Hulme , Op. Cit. , P. 475.

(٤) يوشع براور : مرجع سابق ، ص٥١.

كان أول المتحركين الى الشرق هيوج كونت فرماندو Hugues de Vermandois المعروف بالصغير(١) والذي ترك امارته في رعاية زوجته الكونتيسه ، وبدأ رحلته بالمرور بايطاليا على رأس جيش صغير من أتباعه ، وقام قبل رحيله بارسال رسول خاص الى الامبراطور الكسيوس كومنين في القسطنطينية يخبره بأمر رحلته ويطلب منه أن يعد له من الاستقبال والتشاريف ما يليق به وتذكر آنا كومنين نص رسالته وبأنها كانت على النحو التالي «أعلم أيها الامبراطور ، بأني أنا ملك الملوك ، وأعظم كل من هو تحت قبة السماء ، وإنها إرادتي وأوامري بأن تقوم بلقائي لدى وصولي ، وباستقبالي بكل مظاهر الأبهة والحفاوة التي تليق بمقامي النبيل ... »(٢) ورغم فجاجة رسالته الا أن الامبراطور فعلاً قد استعد لاستقباله هو وبقية الأمراء بأن بعث الى رجاله وقادته في جنوب ايطاليا بأن يبقوا يقظين وأن يخبروه أولاً بأول بوصول الأمراء وأن يعدوا لهم الاستقبال اللازم والحفاوة الكبيرة(٣) ، وانضم اليه أثناء مسيره عدد من الذين هربوا من بقايا حملة اميخ ، واجتاز هيوج وصحبه روما ، حيث بلغوا باري في أوائل أكتوبر ، ومن هناك ارسل سفارة ثانيه مكونه من ٢٤ فارساً الى دورازو (دراخيوم) لتخبر حاكمها يوحنا كومنين(٤) بقرب وصول سيدهم هيوج ويطالبون بالاستعداد لاستقباله . الا أن هيوج لم يهنأ بالاستقبال الذي أعد له ، إذ أن عاصفة ضربت الأسطول الصغير الذي استأجره ليجتاز به الادرياتيكي ، فغرقت بعض السفن بكل ما عليها من الركاب واستطاع هيوج النجاة بصعوبة ، حيث عثر عليه اثنان من حرس الشواطي في منطقة تسمى

---

(١) يعرفه البعض بأنه الكبير وهو خطأ، فقد كان الابن الاصغر لهنري الاول ملك فرنسا من زوجته الاسكندنافيه الاصل آن اميره كييف، ولم يكن يتجاوز الاربعين من عمره، وكان له من المكانة والقدر ما يزيد على ما لديه من ثروة، فهو لم يحرز امارته الصغيره الا بزواجه من وريثة هذه الامارة، ولم يكن له دور هام في السياسة الفرنسية وقد ورث القلق وعدم الاستقرار من اسلافه الاسكندنافيين وكان اهم دوافعه للمشاركة في الحملة امله ان يحوز في الشرق من السلطة والاموال ما يلائم نسبه واسرته، انظر : رانسيمان : مرجع سابق، ج١، ص٢٠٧. وايضاً المؤرخ المجهول ، ص٢٣.

(٢) انا كومنين : الالكسياد ، مصدر سابق ، ص١١٨.

(٣) آنا كومنين : المصدر السابق ، ص١١٩.

(٤) يوحنا كومنين، هو ابن اسحق أخ الامبراطور الكسيوس كومنين، وكان هو المشرف العام على أملاك الامبراطورية في جنوب ايطاليا وحاكم دورازوا.

"بليـز"، وقـامـا بتـوصـيله الى حـاكم دورازو الذي قـام بإكـرامـه وقـدم له المؤن والعـتـاد وحـاول التخفيف من مصابه ، ثم بعث به إلى العاصمة مرافقاً بالحراس البيزنطيين(١)، الذين اجتازوا به طريقاً مخالفاً عن ذلك الطريق الذي امتلأ بالحملات الأخرى. وفي القسطنطينية استقبله الامبراطور استقبالاً حاراً وغمره بالهدايا الكثيرة.

بمجرد وصول هيوج الى القسطنطينية كشف الامبراطور عن خطته التي يريد أن يتعامل بها مع الصليبيين ليحمي عاصمته وامبراطوريته خاصة وأن تجاربه مع اللاتين وبالذات النورمان كانت مريرة ، لقد قرر الامبراطور ان يبذل لهم العون والترحيب اللازم، وأن يكرس كل جهوده للاستفادة منهم ، ولكنه لكي يحمي حقوقه وأطماعه الامبراطورية كان لابد أن يحصل على ضمانات منهم لتحقيق أهدافه . لقد شعر الامبراطور ان للصليبيين الذين بدأوا يتوافدون على عاصمته أهدافاً تتجاوز أهدافه بحماية الامبراطورية واستعادة املاكها السابقة في آسيا الصغرى(٢). واعتقد بأن دوره الأول يجب أن يكون حماية عاصمته وامبراطوريته من مطامع الصليبيين، على أن الامبراطور لم يكن ليمانع أن يقوم اللاتين بتكوين إمارات لهم في الشرق تكون حاجزة بينه وبين المسلمين، الا أنه أراد الاطمئنان الى أنه سيكون السيد الأعلى على هذه الإمارات(٣). ولأنه كان يعلم أنه لن يتحقق له ذلك الا بالحصول على يمين الولاء المتبع في النظام الاقطاعي السائد في الغرب آنذاك فإن الامبراطور حرص على أن ينتزع هذه اليمين من جميع القادة الغربيين، وأن تشمل هذه اليمين كل فتوحاتهم القادمة في الشرق.

ولما كان هيوج هو أول الامراء الذين وصلوا الى القسطنطينية فإن الامبراطور أغدق عليه الهدايا والهبات وبهرته عظمة الامبراطور وسخاؤه وسرعان ما أقسم له يمين الولاء المعتاد

---

(١) اعتبر المؤرخون اللاتين هيوج اسيراً لدى الامبراطور، إذ يقول المؤرخ المجهول ان حاكم دورازو دبر خطة دنيئة، إذ القى القبض على هيوج ووليم ابن المركيز واهتم بترحيلهما الى القسطنطينية كما اعتبرهما بعض قادة الحملات الاخرين اسرى، وكانت اول مطالباتهم عند وصولهم الى القسطنطينية طلب اطلاق سراحهما ، ولكنهم فوجئوا ان هيوج كان قد اقسم يميناً للامبراطور، المؤرخ المجهول : مصدر سابق، ص٢٣، فوشيه الشارتري، ص٤٠.

(٢) Donald Mathew, Op. Cit. , P.35.

(٣) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢١٠.

لدى اللاتين بأن يصبح واحداً من أتباعه[١].

ولعل من العوامل التي جعلت هيوج يسارع الى قطع يمين الولاء للامبراطور، ضآلة من كان معه من الجنود بعد أن قضت عاصفة البحر الادرياتيكي على معظمهم[٢]، ثم قلق شخصيته الذي تمثل في الطمع الشديد والرغبة السريعة في الاستحواذ على المال والسلطان لمعالجة افتقاره الى الأرض والثروة التي توازي نسبه، ثم انه لم يكن مرتبطاً بولاء سابق لأي جهة أخرى.

كان جودفروي دي بويون Gaudefroi de Bouillon دوق اللورين الأدنى[٣]، هو ثاني القاده الذين وصلوا الى القسطنطينية بجيشه الكبير، والذي سار في الموعد المحدد بعد أن استأذن سيده الامبراطور هنري الرابع في الرحيل الى الشرق بحملته الصليبية[٤].

لم يشأ جود فروي ان يسلك الطريق عبر روما، ربما تحاشياً للقاء البابا لأنه كان مؤيداً للامبراطور هنري الرابع في صراعه مع البابا أوربان الثاني، كذلك لأنه أراد - كما يقال - أن يتشبه بجده شارلمان الذي قيل إنه سار في هذا الطريق في رحلته للحج[٥]. وسلك الطريق

---

(١) آنا كومنين: مصدر سابق، ص١٢٠.
(٢) يذكر فوشيه الشارتري (ص٤٣) انهم عندما عبروا البحر في اعقاب هيوج شاهدوا مئات الجثث في البحر، وكان هذا دافعاً لعودة الكثير من ضعاف النفوس (كما يقول) وتركوا الحج لأنهم لن يأمنوا هذا البحر الغادر على ارواحهم.
(٣) ولد جود فروي حوالي سنة ١٠٦٠م/٤٥٢هـ، وهو الابن الثاني لبوستاس الثاني كونت بولونيا، وينتسب الى شارلمان من جهة أمه، اظهر الولاء للامبراطور الالماني هنري الرابع، واشترك في الحملة الصليبية لأنه لم يكن شديد الأمل في مستقبله باللورين وقام برهن قلعته بويون عند اسقف كيبج، وباع ضيعته في روزاي على نهر الميز، وابتز اليهود وكل ذلك مكنه من اعداد جيش كبير وانضم اليه اخويه استاش وبلدوين وعدد كبير من اعلام الفرسان، كان مظهره جذاباً إلا أنه لم يكن جندياً ممتازاً، انظر: رانسيمان، مرجع سابق، ج١، ص٢١٠-٢١١.
(٤) قاسم عبده قاسم: الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية، مرجع سابق، ص١٤٨. نقلاً عن: زيمرن مؤرخ رحلة جودي فروي Chronique, de zimmern, p.21.
على ان هناك من يذكر ان البرت دي اكس هو مؤرخ حملة جودفروي انظر: جوزيف نسيم يوسف، مرجع سابق، ص ١٨١.
(٥) لم يثبت ان شارلمان قد قام بأداء الحج الى بيت المقدس وقد انتشرت في الغرب في فترة الحروب الصليبية قصيدتان هما قصيدة رولان وقصيدة حج شارلمان وكان الغرض منهما تحفيز اللاتين على المشاركة في الحملة الصليبية، وكلا القصيدتين من وحي الخيال ولايستندان الى حقيقة تاريخية وقد تصدى المؤرخ كارل ديفز لدراسة هذه النقطة وأثبت خطأ هذه الاسطورة، التي لم يكن من هدف لها سوى تعبئة الشعور بين اهل الغرب ضد المسلمين، كما انه ليس في المصادر اللاتينية او الاسلامية المعاصرة لشارلمان ما يؤكد قيامه بهذه الرحلة.
انظر: كارل ديفز، شارلمان، مرجع سابق، ص٢٨٧-٢٨٨، ٣٠٣.

الذي سبق أن سلكه جوتشلك وفولكمان واميخ وهو الطريق المار ببلاد المجر .

سار جود فروي بجيشه حتى بلغ حدود المجر حيث وصل مدينة تولينبورج Tolllenbarg يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٠٩٦م/شوال ٤٩٠هـ[١]، وهناك كان ملك المجر كولمان الذي سبق وأن تأذى من الحملات السابقة لهم بالمرصاد وعقد جودفروي اجتماعاً لقادته قرر بعده إرسال سفارة الى الملك كولمان توضح له مهمة هذا الجيش وتتعهد له بسلامة العبور وتحرى أسباب القضاء على الصليبيين السابقين، وحرص جودفروي أن يبعث على رأس سفارته رجلاً يعرفه الملك كولمان ويرتبط معه بصداقة ماضية وكان هو جود فروي ديش[٢]، والذي سبق له الخدمة في البلاط المجري.

استمرت المفاوضات ثمانية أيام عسكر خلالها جيش جود فروي خارج المدينة ، وتم الاتفاق على أن يبقى بلدوين (شقيق جودفروي) وأسرته وعدد آخر من الفرسان رهينة لدى ملك المجر، الى حين انتهاء العبور بسلام وارسل جود فروي من قبله أفراداً يطوفون بالجيش يعلنون ان كل من يرتكب العنف أو ينهب شيئاً من المجريين سيكون جزاءه الموت وتصادر أمتعته، وسار الملك كولمان بجيش كبير لمراقبة عبور الصليبيين، وعند وصول الجيش الصليبي الى سملين على الحدود البيزنطية المجرية سلم الملك رهائنه بعد أن زودهم بالهدايا الثمينة[٣]، لقد نجح جود فروي في كبح جماح جيشه وأستطاع ان يعبر به بلاد المجر في سلام.

بلغت أخبار جيش جودفروي الامبراطور البيزنطي واتخذت السلطات البيزنطية الاستعدادات اللازمة لاستقباله، وتذكر انا كومنين أن قوام جيشه كان عشرة آلاف فارس وسبعين الفاً من الرجاله[٤]، ولأن بلغراد كانت قد دمرت بفعل حملة بطرس الناسك فقد اتخذ نيكتاس مقراً له في نيش حيث استقبل جود فروي وزوده بالمؤن ومن هناك سار جود فروي مخترقاً البلقان دون عقبات حتى وصل الى فيليوبولس، حيث وصلته الإشاعات بأن هيوج كونت فرماندوا

---

(١) وليم الصوري ، مصدر سابق ، ص١٤٦.

(٢) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٣) نفس المصدر، ص١٥١.

(٤) آنا كومنين : الالكسياد ، مصدر سابق ، ص١٢٥. ويلاحظ مبالغة انا الدائمة في الاعداد والأرقام الخاصة بالجيوش، كما هي عادة مؤرخي العصور الوسطى.

محبوس لدى الامبراطور، فاستاء لذلك وبعث بسفارة الى الامبراطور يطلب اطلاق سراحه[١]، والواقع أن هيوج لم يكن سجيناً وإنما تناقضت الأخبار بشأنه بمعسكر جود فروي ، حيث ما زال بعضهم يعتقد أنه اسير بينما علم بعضهم الآخر بأمر الهدايا التي تسلمها من الامبراطور ، فأخذ يسرع للحصول على مثلها . وفي ١٢ ديسمبر ١٠٩٦م وصلت جموع جود فروي إلى مدينة ساليمبريا Selymbria علي بحر مرمره[٢]، ومالبث ان انهار نظام الجيش واخذ يعيث فساداً في القري المجاوره لمدة ثمانية أيام، ويبرر وليم الصوري هذه الفوضي التي عمت الجيش بسبب رفض الامبراطور الاستجابة لمطالبهم بإطلاق سراح هيوج كونت فروماندو[٣]. وبادر الامبراطور بارسال مبعوثين فرنسيين كانوا يعملون في البلاط الامبراطوري، الى جودفروي، دعياه الى وقف اعمال النهب والتحرك سريعاً الى القسطنطينية، واستجاب جود فروي حيث تحرك بجيشه ليصل القسطنطينية في ٢٣ ديسمبر، وضرب معسكره خارجها حيث عسكر في برو بونتس، ما بين الجسر القريب من دير القديس كوسماس وكنيسة القديس فوكاس[٤].

وما إن استقر جود فروي في معسكره حتي بعث اليه الامبراطور بسفارة تضم هيوج كونت فرماندو وعدد آخر من رفاقه لاقناعه بمقابلة الامبراطور ولكنه رفض الدعوة[٥]. وبدأ الامبراطور يشعر بخطر جود فروي ومايبيته لعاصمته، خاصة وأنه قد بدأ يظهر أن جود فروي يرفض أن يقطع يمين الولاء للامبراطور لأنه كان ملتزماً بيمينه لامبراطور المانيا، وكذلك اتضح أنه كان ينتظر وصول بقية الصليبين وفي مقدمتهم بوهيموند العدو اللدود للامبراطور، لينسق معه إمكانية عمل شيء ضد الامبراطورية، وزاد رفضه من تلبية دعوة الامبراطور عندما علم بما حل ببطرس الناسك، وما أشيع من خيانة الامبراطور له. وواضح أن جود فروي اخذ يظهر العداء

(١) وليم الصوري ، مصدر سابق ، ص١٥٤.
(٢) علي بعد يومين من القسطنطينية انظر : Camb ,mid , hist,vol v, p. 281.
(٣) وليم الصوري ، مصدر سابق ، ص ١٥٥
(٤) انا كومنين . مصدر سابق ، ص ١٢٥.
(٥) يذكر وليم الصوري ان هناك سفارة اخري غير هيوج ورفاقه ، اذ انه يصر ان هيوج كان معتقلاً وان اطلاق سراحه جاء بناء علي طلب جود فروي ، ص ١٥٦.

للامبراطور، واخذ الامبراطور يتخذ استعداداته للتصدي لهذا العداء، فبدأ يحرك قوات الاحتياط الامبراطورية[(١)]، واتخذ خطوة اخري حين امر بمنع المؤن التي سبق وأن وعد عساكر جود فروي بها[(٢)]. وقام بلدوين بالاغاره على بعض أرباض القسطنطينية، فعاد الامبراطور الى تزويدهم بالمؤن بعد أن وافق جود فروي علي نقل معسكره من القرن الذهبي الى بيرا حيث يكون بعيداً عن قصر بلاشرناى الامبراطوري، ولكي يستطيع هناك الاحتماء من برد الشتاء[(٣)].

وفي أواخر يناير جدد الامبراطور دعوته لجود فروي لمقابلته ولكن الاخير كان مصراً علي أن لا يلتزم بشيء الا بعد أن ينضم اليه سائر القاده الصليبين، ولكنه ارسل الى الامبراطور مجموعة من قادته للاستماع الى مقترحاته، ولكن الامبراطور لم يصل معهم الى نتيجة.

وفي نهاية مارس علم الكسيوس أن جيشاً صليبياً في طريقه الى القسطنطينية، وهو ما كان ينتظره جودفروي، فكان لزاماً عليه أن يحسم الامور، وأن يتخذ من الخطوات مايوقف هذا التمرد، وان يمنع اجتماع الجيوش الصليبية امام عاصمته، فبدأ أولاً بمنع ارسال العليق اللازم للخيول، ثم منع الخبز والسمك[(٤)]، فرد الصليبيون بالاغاره على القري المجاوره وتسارعت الاحداث لتؤدي الى اشتباك عساكر البجناك المكلفة بمراقبة جيش جود فروي، مع بلدوين الذي نجح في اعداد كمين لهم حيث لقي الكثير مصرعهم واستطاع أسر ستين منهم، وتشجع جودفروي حيث بدأ يهاجم القسطنطينية ذاتها، وسارع الامبراطور لحماية عاصمته.

ولأن الامبراطور لم يكن يريد القتال في هذا اليوم (الخميس الثاني من ابريل) لقدسيته لدى الارثوذكس البيزنطيين[(٥)]. فقام بارسال عدد من المبعوثين لتهدئة الصليبيين، الا أن جهوده لم تفلح فعقد اجتماعاً لاركان دولته تقرر فيه ان يرد علي الهجوم الصليبي، ولكنه أراد اعطاء جودفروي فرصة اخيره فبعث اليه سفارة صحبها هيوج، ولكن جود فروي وجه اليه اللوم

---

(١) انا كومنين : مصدر سابق ، ص ١٢٥ .
(٢) رانسيمان ، مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢١٦.
(٣) وليم الصوري ، مصدر سابق ، ص ١٥٧.
(٤) اشار سيد علي الحريري ايضاً الى سياسة التجويع التي اتبعها الامبراطو مع جيش جود فروي ، ص ٣٢.
(٥) انا كومنين :مصدر سابق ، ص ١٢٥.

والتجريح ونعته بالاستكانه لأنّه قبل التبعية للامبراطور الكسيوس كومنين[(١)] .

جرت خلال هذ الفترة مراسلة بين جود فروي وبوهيموند الذي كان في طريقه الى القسطنطينية ، ويتضح من الرسائل المتبادلة ان بوهيموند قد نصح جود فروي ان يحافظ علي جيشه وأن ينقله الى جهة آمنة ، وأن ينتظر وصوله .[(٢)]

وشعر الامبراطور ان الامور تقترب من مرحلة الخطر، وأن معني اجتماع جيشين صليبيين أُمام عاصمته هو تهديد مباشر له ولامبراطوريته ولذلك تقدم بعدد كبير من جنوده لرد الصليبيين عن العاصمة ولاخضاع جود فروي لمطالبه، وحين وجد الصليبيون أنهم لايستطيعون مواجهة الامبراطور وجيشه سارعو ا الى الفرار[(٣)]، ولجأ جود فروي الى موادعة الامبراطور ووافق على طلبه بان يقسم له يمين الولاء، ثم مالبث أن عبر بجيوشه البسفور الي آسيا الصغري[(٤)]. وجري الاحتفال بأخذ يمين جودفروي وبلدوين وكبار القادة، حيث اعترفوا بالامبراطور سيداً أعلى على كل ما يستولوا عليه من بلاد، وأُن يسلموا لموظفي الامبراطور كل ما يستردونه من بلاد كانت سابقاً تحت حكم الامبراطور، ثم تسلم جودفروي ومرافقوه هدايا رائعة واقيمت مأدبة غداء تكريماً لهم، ثم عبر بجيشه الى بليكانوم علي الطريق الى نيقوميديا حيث اقام معسكره،و أُصدر الامبراطور تعليماته بأن توفر له ولرجاله كميات كبيرة من المؤن[(٥)]. وحصل أُيضاً على

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٩ ، ولاتشير المصادر اللاتينية الى سفارة هيوج .
(٢) وليم الصور ي، المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ١٦٥.
(٣) يذكر وليم الصوري ص١٦٥ ومابعدها، قصة اخري لكيفية توقف القتال بين الامبراطور و جودفروي، اذ يقول ان الامبراطور عرض تسليم ابنه "حنا بيرفيرجنتس" ليكون رهينة عند جود فروي لحين قدومه الى الامبراطور والتفاهم معه، وان اللاتين قد اثلج صدورهم هذا الحل الذي عرضه الامبراطور، ثم أن جودفروي قابل الامبراطور الذي خطب فيه خطبة بليغة وانه عرض عليه ان يتبناه وان يكون ابنه وان يعهد اليه بالامبراطورية وانه بعد عودته الى معسكره محملاً بهدايا الامبراطور وذهبه اعادوا الى الامبراطور ابنه الذي كان رهينة، وبالطبع فهذه الاحداث تناقض الواقع وما انتهت اليها من تطورات الامور، وواقع هزيمة جودفروي ومسارعته الى قطع يمين الولاء للامبراطور ، وتغفل معظم المراجع هذه الحادثة الا ان موسوعة كمبردج للعصور الوسطي توردها مقتضية ، انظر : Camb ,med,hist, vol,v, p. 281.
(٤) المؤرخ المجهول ،مصدر سابق ، ص٢٥.
(٥) آنا كومنين ، مصدر سابق ، ص١٣٠.

منحة من الامبراطور ليستعين بها على إعاشة الفقراء[١].

واراد الامبراطور تأكيد اليمين الذي قطعه جود فروي ورجاله فاستغل مقدم جماعة أخرى مسلحة يرجح أنها كانت من النبلاء أتباع جود فروي الذين جاءوا عن طريق ايطاليا، وأظهروا من العداوة ما أظهره جود فروي من قبل، وحرصوا أن ينتظروا بوهيموند وجماعته الا ان الامبراطور استطاع السيطرة على حركتهم بالتلويح بالقوة تارة وباغداق الهدايا الوفيرة تارة أخرى، حتى وافقوا على أن يقسموا يمين الولاء للامبراطور، ودعا الامبراطور جودفروي وبلدوين لحضور هذه المناسبة، وشعر بعض اللاتين بما كان يهدف اليه الامبراطور.

وصادف أن جلس أحدهم على عرش الامبراطور وانبرى بلدوين لتأنيبه ولفت نظره الى حقيقة أنه اصبح من اتباع الامبراطور، غير ان القائد تمتم في غضب كيف يجوز للامبراطور ان يجلس في حين أن عدداً من القادة الشجعان يظلون واقفين ! ولما علم الكسيوس بهذه الملاحظة بعد أن ترجمت له، طلب ان يتحدث الى الفارس، الذي اخذ يتباهى ببسالته التي لم تنثلم في مبارزة فرديه، تلطف الامبراطور معه ونصحه بان يلتمس خططاً اخرى عند لقائه بالأتراك[٢].

ثم ما لبثت هذه المجموعة أن عبرت الى آسيا الصغرى بعد أن انضموا الى جيش جودفروي[٣].

وشغل جودفروي فراغه في آسيا الصغرى بأن قاد مجموعة من رجاله تزيد على ثلاثة آلاف فارس لفتح طريق الى ازنيق (نيقيه) يستطيع استيعاب الجيوش الكبيرة التي ستعبره الى املاك السلاجقة ووضعوا علامات على هذا الطريق ليستدل بها من سيأتي بعدهم[٤].

شعر الامبراطور بأنه أحسن التصرف في تعامله مع جيش جودفروي وحصوله على يمين الولاء، وانه فوت عليه أهم خططه بانتظار جيش بوهيموند الذي كان يقترب من العاصمة البيزنطية.

(١) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٢٥.
(٢) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٢٤ . وهذه الاحداث تنفرد بها آنا .
(٣) رانسيمان : مرجع سابق ، ج٢ ، ص٢٢١.
(٤) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٣٣.

وما كادت القسطنطينية تتخلص من أعباء حملة جودفروي حتى أقبلت أخبار حملة بوهيموند النورماني، والواقع أن جيش بوهيموند كان أكثر الجيوش الصليبية التي استغرقت جانباً كبيراً من حذر الامبراطور وشكه وخوفه، ليس بسبب العداء السابق بين النورمان والبيزنطيين فحسب والذي تأصل بهزيمة النورمان الساحقة أمام الامبراطور الكسيوس في عام ١٠٨٥م/٤٧٨هـ، ولكن لأن الامبراطور كان يعلم أن جيش النورمان هو أكثر الجيوش الصليبية قوة وتنظيماً وتجربة في الحروب، ثم ان الامبراطور كان ملماً بأحداث جنوب ايطاليا والصراعات التي كانت تجري فيها وخاصة بين ورثة روبرت جويسكارد. والواقع أن النورمان لم يحفلوا في أول الامر بدعوة البابا أوربان الثاني للحروب الصليبية، لأنهم كانوا مشغولين بالصراعات التي نشبت بينهم في اعقاب موت روبرت جويسكارد إذ أن روبرت قبل وفاته كان قد طلق زوجته التي انجب منها بوهيموند وأوصى بدوقية ابوليا الى ابنه روجر بورصا Roger Borsa من زوجته الثانية سيجلجايتا فاعلن بوهيموند الثورة على اخيه روجر، وعزم على أن يستخلص منه اوترانتو (تارنت) (١) في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة، وعلى الرغم من أن عمهما أمير صقلية قد حاول تسوية الامور بينهما (٢)، الا أن بوهيموند لم يعترف بهذه التسوية، واستمر يعمل على مناهضة أخيه، وحدث ان أهل أمالفي كانوا قد تمردوا على الحكم النورماني وأدرك النورمان خطورة هذا التمرد على سلطانهم، فاتحدوا لمقاومته، وعندما كان بوهيموند يحاصر جسر سكافارد بامالفي مرت به الجموع الصليبية وتحمس لفكرتها ورأى فيها تعويضاً عن الخسائر التي لحقت به في ايطاليا (٣). فهدف بوهيموند من المشاركة في الحملة الصليبية كان واضحاً منذ البداية، وربما يكون أبرز

---

(١) تارنت (Taranto) هي Tarentum القديمة، والثغر التجاري المعروف في جنوبي ايطاليا، واسسها الاسبرطيون حوالي سنة ٧١٠ ق.م ، واستولى عليها الرومان سنة ٢٧٢ ق. م وغزاها هنيبال القرطاجي سنة ٢١٢ق.م وكانت تسمى Tarentum Imbelle اي طارنت الجميلة، فتحها عرب صقليه سنة ٢٢٦هـ/ ٨٤٠م، ثم خلفهم فيها بعد حين عرب جزيرة كريت سنة ٢٢٨هـ/ ٨٤٢ و ٨٤٣م، واستعادها لويس الثاني ملك فرنسا سنة ٢٣٧هـ/ ٨٥١م وحاصرها العرب بأمر ابن الاغلب العباس بن الفضل : انظر : شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب، بيروت : دار الكتب العلمية ١٣٥٢هـ ؛ وايضاً رحلة بنيامين ، ص٧٠.

(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٢٢.

(٣) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٢٥ ، ٢٦ والمعروف أن المؤرخ المجهول هو مؤرخ حملة بوهيموند.

الامُراء المشـاركين في الحملة وضوحاً في هدفه خاصة وأن علاقته بالبابا اوربان الثاني لم تكن على مايرام رغم التحالف الذي كان يربط البابوية بالنورمان في تلك الفترة، ورغم زيارة البابا اوربان الثاني لبوهيموند في مدينة تارنتو عام ١٠٩٠م/٤٨٣هـ، ومرافقة بوهيموند للبابا خلال زيارته لمونت كاسينو في اغسطس١٠٩٣م/٤٨٦هـ[١].

لكل ذلك مثل جيش بوهيموند أكبر المخاطر التي استعد الامبراطور الكسيوس كومنين للتعامل معها أثناء توالي دفعات الحملة الصليبية الاولى الى العاصمة البيزنطية.

حرص بوهيموند على تشجيع جيشه على النظام وحسن السلوك والكف عن تخريب الامُاكن التي يمرون بها، وواصل مسيره الى ان وصل الى مدينة كاستوريا Castoria غرب مقدونيا، وهناك حصلت اولى اعتداءات بوهيموند على الأهالي حيث أُطلق لجيشه العنان ليحصل على ما يحتاجه من زاد ومؤنه[٢]. واختار طريقاً يمر عبر الجبال العالية ليكون بعيداً عن مراقبة الحراس البيزنطيين. ثم مالبث ان اتصل بالطريق الرئيسي (Via Egantia) ليجد حرس البجناك المكلفين بمرافقته، واجتاز الجانب الرئيسي من الجيش نهر الفاردار وحدث ما عطل جانباً صغيراً منه عن عبور النهر فحاول البجناك دفعهم لعبوره، وسرعان ما نشبت معركة بين تانكريد وبين البجناك[٣].

ولم يكد بوهيموند يصل الى اقليم ابيروس، حتى بادر بارسال سفارة الى الامبراطور البيزنطي، ولما اجتاز بجيشه سالونيك في طريقه الى سيرا Serra (في مقدونيا الشرقيه) التقى بسفرائه بعد عودتهم من القسطنطينية، وبصحبتهم موظف كبير من قبل الامبراطور[٤]. وفي الأول من أبريل ١٠٩٧م/جمادى الاولى ٤٩١هـ وصل بوهيموند بجيشه الى مدينة روسا[٥]، حيث ترك جيشه هناك بعد أن عهد بقيادته إلى ا بن أُخته تانكريد وسارع مع حفنة من رجاله

(١) اسحق عبيد : مرجع سابق، ص٩٧.
(٢) وليم الصوري : مصدر سابق، ص١٦٩.
(٣) رانسيمان : مرجع سابق، ج١، ص٢٢٦.
(٤) Camb , mid, hist, Vol. V , p. 282.
(٥) كوشان الحالية في تراقيا.

الى القسطنطينية حيث وصلها في ٩ أبريل ليكون على مقربة من المفاوضات التي يجريهاالقادة الصليبيون الذين سبقوه مع الامبراطور. فانزل خارج المدينة في دير القديسين كوزماس ودامين، قرب قصر بلاشرناي الامبراطوري[(١)].

وفي اليوم التالي سمح لبوهيموند بالمثول بين يدي الامبراطور، واتسم أول لقاء بين العدوين اللدودين بالألفة والحذر، ورغم أن الامبراطور كان يريد لقاءه على انفراد، الا أنه لما تبين انه جاء صديقاً هذه المرة، لم يمانع أن يحضر اللقاء جودفروي وبلدوين اللذين كانا ما يزالان في القصر الملكي، وتصف آنا كومنين لقاء والدها الامبراطور ببوهيموند بقولها : "وعندما مثل بوهيموند في حضرة الامبراطور، بادأه بمنحه ابتسامه، وسأله عن رحلته واين ترك بقية الامراء، واجاب بوهيموند على أسئلته بكل صراحة، وقدم له أحسن ما كان لديه من معلومات، وذكره الامبراطور بكل لطف باعماله الجريئة ضده في لاريسا ودراخيوم[(٢)] وبنشاطه العدواني السابق، فاجابه بوهيموند «لقد كنت آنذاك عدواً ، لكني قدمت الآن بمطلق حريتي وارادتي لاكون صديقاً لك ياصاحب الجلالة ، تحدث الكسيوس معه أحاديث طويلة وبشكل جانبي لعله يكتشف مشاعر الرجل الحقيقيه، ولدى استخلاصه بان بوهيموند على استعداد لأداء يمين الولاء قال له انك الآن متعب من الرحلة، اذهب واسترح ، وفي الغد يمكن أن نتباحث في القضايا ذات الاهتمام المشترك»[(٣)] .

كان بوهيموند كما قدر الامبراطور أشد الصليبيين خطورة ليس في عدد قوته والتي بلغت عشرة آلاف فارس وعشرين الفاً من المشاة المحاربين[(٤)]، ولكن من خلال طموحاته التي يعرفها الامبراطور جيداً وسبق ان لمسها بنفسه، ولكنه لمس هذه المره أن بوهيموند وإن كان مرحباً بقطع يمين الولاء للامبراطور إلا أن هناك ما يخفيه وما يستدعي التعامل معه بحذر. وتذكر آنا

---

(١) المؤرخ المجهول ، ص٣٠ حاشيه ١.
(٢) هي دورازو حيث شهدت آخر المعارك بين الامبراطور الكسيوس والجيوش النورمانيه.
(٣) اناكومنين : مصدر سابق ، ص١٣٥.
(٤) عزيز سوريال : مرجع سابق ، ص٤٧ ، وبالتالي يكون جيش بوهيمند اصغر حجماً من جيش جودفروي ، ولكنه كان يفوقه في عدته وتدريبه.

كومنين ان الامبراطور أراد أن يختبر نوايا بوهيموند، وما يعتمل في نفسه تجاهه، فعندما عاد الى جناحه وجد مائدة عليها جميع الاطعمة اللذيذه المطبوخة وغير المطبوخة وخاطبه الطباخون بقولهم : كما ترى اعددنا الطعام حسب طرائقنا المعتاده، وإن كان ذلك لايناسبك فها هنا لحم نيء يمكن أن يطهى تبعاً للطريقة التي ترغب بها [١]، وكانوا في تصرفاتهم هذه ينفذون تعليمات الامبراطور ، وتعلق آنا على هذه الحدث بقولها : "ولم يكتف ذلك الفرنجي الماكر برفض تذوق اي جزء من الطعام، بل إنه خشي أن يلمس أي شيء حتى برأس اصبعه، فقد رفض جميع انواع الطعام واقدم على توزيعها على خدمة دون اشارة الى شكوكه الخفية ... واخبر طباخه الخاص ان يقوم باعداد اللحم غير المطهو حسب الطريقة الفرنجية المعتاده ، وسأل في اليوم التالي خدمه عن أحوالهم فأخبروه انهم بخير ... ولدى سماعه هذه الكلمات أباح عن مكنون تخوفاته بقوله : بالنسبة لي، انني عندما تذكرت الحروب التي خضتها ضد الامبراطور ... كنت أُخشى أن يعمل على قتلي بدس السم في طعامي ...» [٢]

سارع بوهيموند في اليوم التالي (١١ ابريل ١٠٩٧م) في أداء قسم اليمين كما طلب منه الامبراطور، ولما فرغ من قسمه انهالت عليه الهدايا الثمينه [٣]. ويذكر المؤرخ المجهول أن تململاً قد ساد المعسكر الصليبي من استهداف الامبراطور للقاده الصليبيين بأداء قسم اليمين، ولكن هذا التململ ما لبث أن زال بعد أن اغدق الامبراطور عليهم الوعود والهدايا [٤].

فوجيء الامبراطور بأن بوهيموند يطلب منه أن يعينه في وظيفة «دمستق الشرق» مما يجعله القائد الأعلى للقوات الامبراطورية في الشرق، والواقع ان بوهيموند أراد بهذا الطلب أن يكون قائداً للحملة الصليبية، فقد شعر وهو الذي لم يكن يحمل تفويضاً من البابا لقيادة

(١) المعروف ان انا كومنين كما كتبت عن بوهيموند بطريقة لاتخلو من الكراهية والاحتقار ، إلا أنها في نفس الوقت لاتخلو من الاعجاب بجاذبيته وشخصيته وصفاته الجسمية والتي لم تستطع ان تخفي اعجابها بها. آنا كومنين، ص١٣٤.

(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٦.

(٣) وليم الصوري : مصدر سابق، ص١٧٤. وانظر صيغة قسم بوهيموند في الملحق رقم (٢) كما رواها البرت دي اكس . نقلاً عن : د. جوزيف نسيم يوسف الذي اوردها باللاتينيه.

(٤) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٣١ . ويشير المؤرخ المجهول هنا إشارة عابرة الى أن الامبراطور كان يخاف بوهيموند لأنه فر أكثر من مرة بجيشه من أمامه اشارة الى الحروب السابقة بين الامبراطور والنورمان.

الحملة، بأن الصدام قادم لاشك مع أي من القادة الآخرين، وأنه اذا حصل على تكليف رسمي من الامبراطور صار له من المكانة ما يجعله يباشر قيادة الحملة كلها، وبالتالي يسهل عليه ما كان يسعى لتحقيقه من أهداف.

أثار هذا الطلب حيرة الامبراطور الكسيوس ، ولكنه بادر الى رفضه ، وتعلق انا على هذا الرفض بقولها : «. . . وحتى لا يُشعر بوهيموند ان خططه مكشوفه وعده الامبراطور ومناه بأمان فارغة قائلاً : لم يحن الوقت بعد لمثل هذا ، ولكن مع نشاطك واخلاصك لن تنتظر طويلاً حتى تنال هذا الشرف . . »[١].

وبينما كان بوهيموند يقسم يمين الولاء للامبراطور، ويجري المفاوضات معه انتقل، تانكرد Tancrede أبن اخته بالجيش الى آسيا الصغرى[٢]، وعسكر بجوار قوات جودفروي، واخذت المؤن تصلهم من العاصمة الإمبراطورية .

شعر الامبراطور بعد ان أدى ثلاثة من أمراء الحملة الصليبية، وبالذات بوهيموند يمين الولاء والاخلاص له، و بعد حصوله على تعهداتهم بأن يعيدوا اليه الأراضي التي كانت تحكمها الامبراطورية والتي سيستخلصونها من السلاجقة، ان خطته التي رسمها ماضية في طريقها بنجاح ، ولكن رغم ذلك فإن شكوكه في بوهيموند واستسلامه بسهولة لقطع يمين الولاء زادته تمسكاً بمخاوفه من انقلاب بوهيموند، وأن هناك ثمة ما يدور في رأسه ويريد تنفيذه، وفي الواقع فإن تحليلات المؤرخين لموقف بوهيموند تؤكد هذه الحقيقة، فالمؤرخ فازيليف يرى أنه «ليس

---

(١) اناكومنين : مصدر سابق، ص١٣٨، ويذكر : Albert d'Aix, P. 313. ان بوهيموند قطع يمين الولاء والاخلاص على كره منه، ويذكر المؤرخ المجهول (ص٣١) ان الامبراطور وعد بأن يقطع بوهيموند ارضاً وراء انطاكية تمتد مسيرة خمسة عشر يوماً طولاً وثمانية ايام عرضاً، وينفرد المؤرخ المجهول بهذا الوعد ، وقد اثارت هذه الفقرة نقاشاً بين المؤرخين الا ان هناك اجماعاً بأنها اضيفت فيما بعد في اعقاب النزاع بين بوهيموند والامبراطور حول مدينة انطاكية، واضيفت بناء على تعليمات بوهيموند سنة ١١٠٤م/٤٩٨هـ ليؤكد حججه في الاستيلاء على انطاكية، انظر : Camb, med, hist.vol, V, P.282.

وايضاً : اسحق عبيد: بيزنطة وروما، مرجع سابق، ص١٠١، كما يشير اسد رستم (الروم، ج٢، ص١٢٨) الى ان الامبراطور وعد بوهيموند بأنه سيقطعه اراض فسيحه في منطقة انطاكية. وسنعود الى ذكر مزيد من الادلة التى تؤكد ان هذه الفقرة مدسوسة على النص الأصلي للمؤرخ المجهول ، عند التعرض للصراع الذي نشب بين الامبراطور وبوهيموند ، في اعقاب استيلاء بوهيموند على أنطاكية.

(٢) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص١٧٤. ويعلق وليم الصوري ان الامبراطور عندما علم بتجنب تانكرد المجيء الى حضرته، وأداء اليمين ، اشتد غضبه إلا أنه تمسك بالعقل وكظم غيظه .

من المستحيل إطلاقاً أن يكون بوهيموند قد أمل - للوهلة الاولى - في تسوية حسابه مع بيزنطه من خلال اشتراكه مع ابن أخته تانكرد في الحملة الصليبية الاولى»[(١)]. بينما يرى المؤرخ شالندون «ان الكسيوس كومنين كان يعتقد دائماً أن بوهيموند يطمع في عرشه، ولهذا فقد كان موضع حذره وشكه الدائمين»[(٢)]، كما يعتقد المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه "أن مخاوف البيزنطيين كانت سابقة لأوانها وذلك لأن بوهيموند لمس أثناء حملة أبيه -وعند قدومه لبيزنطه- صلابة الامبراطورية البيزنطية، ولهذا لم يكن يرغب في ذلك الوقت معاداة الامبراطور الكسيوس كومنين ،ولكنه لم يتخل عن أمل الاستفادة من الحملة الصليبية ليقطع لنفسه مملكة على حساب البيزنطيين"[(٣)]، على أن المؤرخ سدني بينتر يرى «أنه في الوقت الذي كان فيه عدد من الصليبيين مندفعين بغيرة دينية حقيقية، كان يبدو وأضحاً أن بوهيموند، لم يكن واحداً من هؤلاء، إذ كان هدفه الأول هو كسب إمارة اقطاعيه في الشام ، تعوض عليه الإمارة التي فشل في الحصول عليها في ايطاليا»[(٤)].

كان الجيش الرابع الذي أقبل على العاصمة البيزنطية جيش روبرت دوق نورمنديا ومعه صهره ستيفن كونت بلوا، وابن عمه روبرت الثاني كونت الفلاندرز[(٥)]. خرج هذا الجيش من

(١) Vasilieve , Op. Cit. , Vol. II , P. 454.

(٢) Chalandon . F, Essai sur le Regne d'alexis, I. P. 184.
نقلاً عن : د. عادل زيتون : مرجع سابق ، ص١٤٩.

(٣) Grousset, Hist des croisades, Vol. I , P.20.
نقلاً عن : د. عادل زيتون : مرجع سابق ، ص.١٥٠.

(٤) S. Painter, Op. Cit . , P. 203.

(٥) كان روبرت دوق نرمنديا هو الابن الاكبر لوليم الفاتح.، وكان في الاربعين من عمره ظل منذ وفاة ابيه في صراع مرير مع اخيه وليم روفوس ملك انجلترا ، والذي غزا دوقية نرمنديا مراراً ، ومقابل اشتراكه في الحملة الصليبية اغتنم البابا اوربان الثاني فرصة وجوده في شمال فرنسا خلال الدعوة للحرب فدبر امر التوفيق بينه وبين اخيه ، ورهن روبرت دوقيته مقابل عشرة آلاف مارك لدى اخيه وليم. وستيفن بلوا هو صهره، ولم يكن يميل للاشتراك في الحرب الا ان الكلمة النافذة لزوجته ابنة وليم الفاتح هي التي ارغمته على الاشتراك، وكان غنياً ولم يجد مشقة في تمويل مجموعته، وقد عهد بادارة املاكه لزوجته الحازمة ، اما روبرت الثاني كونت الفلاندرز فكان اصغرهم سنا، وكان قوي الشخصية وهو ابن روبرت الاول الذي تنسب اليه الرسالة التي يقال ان الامبراطور الكسيوس كومنين قد بعث بها الى الغرب ، وقد دخل في خدمة الامبراطور البيزنطي كقائد لاحدى الفرق المرتزقة، وظل على علاقة بالامبراطور حتى وفاته سنة ١٠٩٣م/٤٨٦هـ، وقد اشتهر جيش روبرت الثاني بعدته وتجهيزه، وعهد بادارة اراضيه اثناء غيابه الى زوجته الكونتيسه كلمنيتا البرجنديه، رانسيمان : مرجع سابق، ج، ص٢٣٧، ٢٣٨.

بونتاليه في فرنسا متوجهاً صوب الجنوب فاجتاز جبال الألب إلى ايطاليا وعند اجتيازه مدينة لوكا[١] Lucca في نوفمبر التقى بالبابا اوربان الثاني أثناء عودته من كريمونا إلى روما. ومن روما توجه عن طريق مونتي كاسينو الى باري حيث احتفى بهم روجر بورصا ، وقرر روبرت النورمندي وستيفن بلوا ان يمضيا فصل الشتاء في كالابريا، اما روبرت فلاندرز فقد بادر بالمسير حتى وصل الى دوروازو ومنها الى القسطنطينية حيث تلقفه رسل الامبراطور، ولم يجد الامبراطور مشقة في إقناعه بأداء اليمين[٢]، ولعل علمه بما فعله القادة السابقون وسابق خدمة والده للإمبراطور ، قد سهلت على الامبراطور إقناعه بأداء اليمين وكانت مجموعة من جنده يرأسها الكونت "ألوست" قد شاء سوء حظها أن تنحرف عن جيش روبرت الى أقصى الجنوب بالقرب من شيمارا، حيث التحمت بحامية المدينة البيزنطية فدارت معركة بحرية صغيرة انتهت بسيطرة البيزنطيين على هذه المجموعة[٣] .

وتحرك جيش روبرت النورمندي وستيفن كونت بلوا في نهاية مارس بعد أن فتر حماس عدد من رجالهم فعادوا الى بلادهم ، وقد وصل الجيش الى برنديزي ومنها تحرك بحراً حيث انقلبت أول سفينة استقلوها فغرقت وهلك أربعمائة من ركابها[٤] ، ولكنهم واصلوا طريقهم الى دورازو ومنها عبر الطريق الرئيسي وصلوا القسطنطينيه في مايو، وبادر زعماؤهم بحلف يمين الولاء للامبراطور الذي غمرهم بهداياه، وكان اكثر المتأثرين بهدايا الامبراطور ستيفن كونت بلوا الذي كتب الى زوجته مشيراً الى هذا السخاء الامبراطوري وكيف انه عرض عليه ان يؤدب أصغر ابنائه ، وفي غمرة ثنائه على الامبراطور كتب الى زوجته : أن والدك يا عزيزتي - وليم

---

(١) لوكا : اول اقليم في مقاطعة لومبرديا الشمالية ، وهي مدينة عامرة ، وكانت معروفة منذ سنة ١٦٦ ق.م ، وفي القرون الوسطى ظلت تحت سيطرة جمهورية بيزا حتى سنة ١٣٦٩م/٧٧١هـ ، ثم اصبحت جمهورية مستقلة حتى سنة ١٧٩٧م/١٢١٢هـ ، انظر : رحلة بنيامين التطيلي ، مصدر سابق ، ص٧٥.

(٢) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص١٧٥.

(٣) انا كومنين : مصدر سابق ، ص١٢١. وتسهب انا في ذكر تفاصيل هذه المعركة الصغيرة ، ويشير رانسيمان بأن السبب يعود الى ما يربطها من صداقة مع ماريانوس مافرو كاناكلون ابن قائد الاسطول البيزنطي الذي تصدى لهذه المجموعة ، رانسيمان ، ج١ ، ص٢٣٩.

(٤) فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص٤٣.

الفاتح- بذل منحاً كثيرة غير أنه لايضارع في ذلك بهذا الرجل[(١)].

كان آخر الجيوش التي وصلت الى القسطنطينيه هو جيش ريموند الرابع كونت تولوز ، والذي عرف باسم احب الممتلكات اليه سانجيل Saint-Gilles. وكان عند قيادته لهذه المجموعة من الصليبيين قد قارب الستين من عمره وكانت دوقيته التي ورثها عن أسلافه أغنى دوقية في فرنسا كما اضاف الى أملاكه ماركيزية بروفانس الغنية، وكان أول من تحمس للانضمام الى الحملة الصليبية في أعقاب مؤتمر كليرمونت، وكانت له سابقة في هذا المجال في اسبانيا[(٢)].

كان سان جيل يعتقد بأنه أحق القادة الصليبيين بقيادة الحملة الصليبية الى الشرق ، وله في ذلك مبرراته فهو أكبرهم سناً، وهو أقربهم لكنيسة روما ، واكثرهم ثروة، لذلك نجده يفوز برفقة المندوب البابوي الأسقف ادهيمار الذي عينه البابا مشرفاً على الحملة، ولكن لم تنعقد له هذه القيادة بسبب اشتداد المنافسة بين القادة .

قاد ريموند حملته وصحبه عددكبير من نبلاء جنوب فرنسا ، براً عبر ايطاليا حتى وصل دلماشيا[(٣)] ، ولعل ميل ريموند الى الاقتصاد هو الذي دفعه الى سلوك الطريق البري بدلاً عن عبور الادرياتيكي[(٤)] ، ولم يكن ذلك قراراً حكيماً، إذ كان عليه ان يعبر في الطريق الذي اختاره مناطق قاحلة وصخرية، وأثر ذلك على تمويل الجيش كما ان سكان المدن التي مر بها لم يرغبوا في التعامل معه، بل كانوا يفرون منه الى الجبال، فعاني الجيش من وعورة البلاد وقسوة الشتاء[(٥)].

---

(١) نشر د. جوزيف نسيم يوسف نص الخطاب باللغة الفرنسية نقلاً عن :هاجنماير:
Hagenmeyer, Epistolae et chartae, P. 138.
وقام بترجمة مقتطفات منه الى العربية ، انظر : جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحملة الصليبية الاولى ، مرجع سابق ، ص٢١٧ ، والملحق رقم (٤) ص٣٢٩ من نفس الكتاب.

(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٢٩ وعرفته المصادر العربية باسم "الصنجيلي".

(٣) يسميها ريموندا جيل ص (٥٤) سكلافونيا Sclavonia ويصفها بأنها ارض جبلية مهجورة يصعب الوصول اليها .

(٤) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٣١.

(٥) ريموندا جيل : مصدر سابق ، ص٥٩ ، والمعروف ان ريموندا جيل هو مؤرخ حملة ريموند سانت جيل ، كما ان المؤرخ المجهول هو مؤرخ حملة بوهيموند ، وفوشيه الشارتري مؤرخ حملة بلدوين الاول ، ومؤرخ جودفروي هوزيمرن Zimmern ولذلك فضلنا ان نعتمد على اخبار كل حملة من مؤرخها الاصلي كلما كان ذلك متوفراً.

ووصلت الحملة الى سكوتاري Scutari [١]، حيث لم تجد ماتتمول به ، ثم واصل المسير الى دورازو حيث ضربو ا مخيمهم خارجها، ورغم ترحيب يوحنا كومنين حاكم دورازو بهم، إلا أن الأمر لم يخل من بعض المشاكل، حيث كرهوا مراقبة حراسهم البجناك لهم ، ودارت معركة بين الطرفين فقد خلالها جيش ريموند اثنين من كبار قادته [٢]. ومن هناك ارسل ريموند سفارة الى الامبراطور البيزنطي، ثم واصلت الحملة سيرها، وفي الطريق حدث حادث كاد يذهب ضحيته الاسقف ادهيمار، حيث ضل الطريق واعتدى عليه البجناك وجرحوه وأسروه دون أن يفطنوا الى شخصيته [٣]. وتخلف الأسقف ادهيمار في سالونيك ليعالج من جراحه وواصل الجيش مسيره الى روسا Roussa في تراقيا حيث قاموا بمهاجمة المدينة بوحشية وهم يصرخون «تولوز تولوز» [٤] ونهبوها ثم انتقلوا الى رودستو Rodosto وكرروا فيها أعمالهم في روسا، والتقى ريموند هناك بالسفراء الذين سبق وأن بعث بهم الى الامبراطور يصحبهم مرافق من طرفه حيث عادوا برد ايجابي ، وبدعوة لسرعة مقابلته والقادة الصليبين الذين كانوا في القسطنطينية. وانفصل ريموند عن معسكره ، وأسرع الى القسطنطينيه والتي وصلها في ٢١ أبريل [٥]. وبرحيل ريموند عن الجيش خلا من قائد يستطيع السيطرة عليه وكبح جماحه ، ولم يكن ادهيمار يستطيع ذلك ، فضلاً عن أنه كان مريضاً ، فواصل الجيش إغاراته ونهبه للقرى ، فتصدى له الجيش البيزنطي ، وأوقع به هزيمة مؤثرة ، أدت الى تشتته [٦].

---

(١) سكوتاري : تعرف الآن باسم شكودر shkoder في البانيا وهي احدى مدن العصور الوسطى، وصلها جيش ريموند حوالي نهاية يناير ١٠٩٧م/صفر٤٩١هـ. انظر : هامش رقم (١٤) من هوامش الفصل الاول لكتاب ريموندا جيل، ص٦٤.

(٢) ريموندا جيل : مصدر سابق ، ص٦١.

(٣) يفسر ريموندا جيل تعقب الاسقف ادهيمار والاعتداء عليه من قبل البيزنطيين بأنه يعود الى الرغبة في الاستحواذ على ذهبه. ص٦٩.

(٤)تولوز تولوز، هي صيحة ريموند الاقطاعية بما يعني ان الجيش نسي قضيته وعاد الى ممارسة حروبه وغاراته الاقطاعية.

(٥) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٣٢.

(٦) ريموندا جيل : مصدر سابق ، ص٧٠ . وايضاً عاشور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص١٥٧.

لقي ريموند استقبالاً حافلاً في القسطنطينية من الامبراطور وامرائه ، ولكنه رفض أن يقسم يمين الولاء والإخلاص للامبراطور ، عندما طلبت منه[١] .

والواقع أن ريموند قد تردد في ان يقسم يمين الولاء للامبراطور لعدة أسباب منها شعوره أن الهدف الذي كان يسعى اليه من تعيينه قائداً للحملة قد يتأثر اذا اقسم يمين الولاء للامبراطور، فهو يبني طموحاته بناء على صلته بالبابا اوربان الثاني، ومرافقه المندوب البابوي له في حملته، وأن أي علاقة جديدة أو ارتباط بيمين الولاء للامبراطور قد يهدد هذه الصلة، وبالتالي يهدد طموحاته ، ثم إن مساواته بالقادة الآخرين الذين أُقسموا يمين الولاء للامبراطور، هو تهديد آخر لهذه الطموحات. كما أن وجود بوهيموند وتحسن علاقاته بالامبراطور، وهو المنافس الخطير له بين القاده هو تهديد آخر، خاصة بعدما أُشيع أن بوهيموند قد سعى لدى الامبراطور للحصول على تكليف رسمي بقيادة الحملة، كما أن ما سمعه من انباء سيئة حلت بجيشه جعلته يتشبث بموقفه.

كل ذلك دعاه لرفض قسم اليمين للامبراطور، وبدأ نوع من التوتر يسود المعسكر الصليبي، واجتمع مجلس الأقطاب المكون من الامبراطور وبوهيموند وجودفروي وريموند الصنجيلي، لمحاولة حل الاشكال والتقريب في وجهات النظر[٢]، ووضع ريموند شرطاً لأداء القسم هو مشاركة الامبراطور في قيادة الحملة ، على ان الامبراطور رد بأن أُحوال الامبراطورية قد لاتسمح له بأن يغادر بلاده ، ويبدو أن بوهيموند أدرك ما يهدف اليه ريموند من إضعاف موقفه الخاص ، ومحاولة تفويت الفرصة عليه للحصول على تلك المكانة الجديدة التي قد تساعده الظروف وقسمه اليمين للامبراطور في الحصول عليها. وكان بوهيموند حريصاً كل الحرص على أن لاتفلت هذه الفرصة من يده ، ففي قيادة الامبراطور للحملة حرمانه من الحصول على نصيب الاسد من الغنيمة كما كان يخطط، وانقسم المجلس الى فريقين أُحدهما في جانب الامبراطور، وقوامه جودفروي وبوهيموند، والآخر يتألف من ريموند كونت تولوز وحده، واكتفى

---

(١) ريموندا جيل : المصدر السابق ، ص٧١.
(٢) حسن حبشي : الحملة الصليبية الاولى ، ص٧٨.

الامبراطور الكسيوس بدفاع الأميرين اللاتينيين للأخذ برأيه واحتد النقاش حتى أن بوهيموند هدد في سورة غضبه بأن ينضم الى الامبراطور اذا أصر ريموند على موقفه ونشب القتال[١]. وبعد أن تشاور ريموند مع رجاله وافق يوم ٢٦ ابريل[٢] على أن يؤدي اليمين بشرط أن يعدل في صيغته إذ وعد باحترام وتبجيل حياة الامبراطور وشرفه ، وان يحرص على أن لايصيب الامبراطور ضرر من جانبه ، ومن جانب رجاله[٣]. ولأن الامبراطور كان يعرف ان هذه الصيغة من اليمين كانت معروفة في غرب أوروبا في التعامل الاقطاعي ومعترف بشرعيتها في فرنسا منذ القرن التاسع للميلاد[٤] فقد وافق عليها وأقرها.

رحل بوهيموند وجودفروي وانضما الى جيوشهما ، ووصلت جموع ريموند الى القسطنطينية، برفقة الأسقف ادهيمار، وأعطى رحيل بوهيموند خاصة الامبراطور فرصة لتحسين علاقته بريموند الصنجيلي وتذكر آنا كومنين أن الامبراطور أبدى المزيد من الاهتمام والعاطفة تجاه ريموند وذلك لعدة اسباب منها «أنه كان عالي الثقافة وله سمعة ممتازة وحياة نقيه ... فقد كان في جميع الظروف والاحوال يحترم الصدق ويقدره، وفي الحقيقة بز صنجيل جميع اللاتين، وفاقهم بجميع الصفات وكان بالنسبة لهم كالشمس بالنسبة للنجوم»[٥]. تعددت المرات التي التقى فيها الامبراطور بريموند حيث أوضح له لون المخاطر التي على الفرنج توقعها أثناء زحفهم، وبين له بوضوح شكوكه حول خططهم، وفتح قلبه للكونت وحذره من بوهيموند وطلب منه أن يبقى يقظاً تجاه اضاليله، حتى إذا ما حاول أن يخرق المعاهدة يمكنه تعويقه وتعطيل خططه، وشارك ريموند الامبراطور في حذره من بوهيموند، واضاف ان بوهيموند قد ورث المكر والخداع من آبائه، ووعده ببذل كل ما يستطيع للحفاظ على وعوده وتنفيذ أوامر الامبراطور[٦].

(١) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٣٢. وريموندا جيل ، ص٧٢.
(٢) اي بعد خمسة ايام من وصول ريموند الى القسطنطينية.
(٣) Camb. med. hist. Vol.V. P.283.
(٤) حسن حبشي : الحملة الصليبية الاولى ، ص٨٠.
(٥) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٣٩.
(٦) نفس المصدر ، ص١٤٠.

شعر الامبراطور أنه بحصوله على يمين الولاء من جميع القادة الصليبيين المشاركين في الحملة، قد حفظ للامبراطورية الحق في استعادة الأراضي التي كانت تحكمها في السابق ، وبدأ يشعر بالاطمئنان أنه استطاع أن يكبلهم بالعهود التي تحفظ له هذا الحق إلا أن أهم انجازاته كان ذلك التنافر الذي بثه بين القاده الصليبيين، وهو الذي تبدى واضحاًبين ريموند الصنجيلي وبوهيموند النورماني، ولم يكتف الامبراطور بأن أوقع الفرقة بين الزعماء الصليبيين، بل انه وجد نفسه وقد حصل على تعهدين من بوهيموند، الاول حين أُقسم يمين الولاء، والثاني حين قطع بوهيموند على نفسه العهد بأن يقف بجنده الى جانب البيزنطيين في حالة خروج أيٍ من الأمراء الصليبيين على الامبراطور[1].

وبعد ان قضى ريموند قرابة اسبوعين في العاصمة البيزنطية غادرها ، وهو على أُفضل علاقة مع الكسيوس لينضم الى الفرق الصليبية الأخرى التي كانت ترابط في آسيا الصغرى، انتظاراً لساعة الإنطلاق.

(١) ريموندا جيل : مصدر سابق ، ص٧٢.

اتفاقية القسطنطينية

باكتمال وصول الجيوش النظامية الى القسطنطينية وانتقالها الى آسيا الصغرى، التي سبق وأن شهدت تدمير الحملة الشعبية، تبلور موقف الامبراطور الكسيوس كومنين تجاه الصليبيين، وبدأت خطته التي اعدها للتعامل معهم في التكامل.

وفي الواقع فإن السياسة التي اتبعها الامبراطور مع الصليبيين منذ علم بمقدم حملة العامة وتتابع حملة الفرسان النظامية قد نجحت في تحقيق الهدف الذي سعى إليه، خاصة وقد كفل لها الامبراطور جميع عوامل النجاح، فرغم المآسي التي تعرضت لها الامبراطورية خلال توافد هؤلاء اللاتين اليها من مختلف انحاء اوروبا، الا أن الامبراطور استطاع أن يسيس اموره معهم وان يحصل منهم على يمين الولاء الذي قطعوه له، والذي تصور الامبراطور أنه سيكون حامياً له منهم، ومحققاً لآماله في الحملة .

لقد تعددت وسائل الامبراطور التي اتخذها للسيطرة على الحملة الصليبية فقد نافق بعضهم، وهدد آخرين، وأهدى البعض الآخر هدايا ثمينة، وبذل وعوده بتقديم المساعدات الحربية والمعيشية لتموين الجيوش[(١)] .

تحقق للامبراطور ما كان يهدف إليه بربط قادة الحملة بنظام الاقطاع الذي كان سائداً في اوروبا آنذاك ، واتخذ الامبراطور خطوته هذه لمعرفته بذلك النظام وقوانينه التي تحدد العلاقة بين التابع والمتبوع والأرض.

فالإقطاع - كما مر بنا- يرتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً ، فكان الامبراطور يهبها للملوك وهم بدورهم يهبونها للامراء والنبلاء الذين يهبونها لمن دونهم الى أن تصل الى رقيق الارض في أسفل السلم الاجتماعي[(٢)] ، ومع الأرض تنشأ التبعية وما يرتبط بها من واجبات، ولأن الامبراطور اراد أن يستفيد من هذا التنظيم كان إصراره على أن تؤدي له اليمين حسب النظام والقسم الذي كان معروفاً آنذاك في الغرب الأوروبي.

---

(١) Edward M. HUL ME , Op. Cit. , P.478.

(٢) كوبلاند : مرجع سابق ، ص١٦ . وايضاً : ابراهيم العدوي : مرجع سابق ، ص١٠١.

لقد استعان الامبراطور الكسيوس بالصبر الذي اقترن بالحزم والدهاء ، ليحمي عاصمته وملكه أولاً من همجية هؤلاء القوم ، ولتتيسر له الاستفادة منهم فيما بعد في استعادة الاراضي التي كانت تحكمها الامبراطورية سابقاً. فإذا كان ما يرغبه من الغرب هو الحصول على عساكر مأجورة فإنه قد جاءه بدلاً من ذلك جيوش ضخمة يتولى كل منها قادة منهم ، فما من حكومة لاتحفل حقاً بان تجد اعداداً من القوات المتحالفة المستقلة تقتحم بلادها ، ولاسيما اذا كانت هذه القوات في الدرك الاسفل من الحضارة ، فلابد أن يعرف كيف يدير اموره معها ويزودها بالمؤن حتى يتخلص من خطرها ويمنعها من ان تنقلب ضده(١).

وبالرغم من تضارب المصالح واختلاف الأهداف والأطماع فإنه كان لا مفر من الاتفاق بين الامبراطور وهؤلاء اللاتين ، فزعماء الفرنج بدورهم شعروا بأنه لابد من الحصول على تأييد الامبراطورية البيزنطية ومدها لهم بالمؤن والدعم حتى يستطيعوا أن يحققوا الهدف الذي اعلنوا انهم جاؤا من أجله(٢) ، وبيزنطة رأت أن من مصلحتها استخدام هذه الجيوش فيما يحقق لها اهدافها السياسية في استعادة الأراضي التي سبق وان فتحها السلاجقة منذ عهد قريب.

إلا ان الملاحظ أن الامبراطور قد اكتفى بيمين الولاء الذي حصل عليه من قادة الحملة من الامراء الصليبيين منفصلين ، ولم يحاول تطوير هذا اليمين الى اتفاقية محكمة تحكم العلاقة بين الطرفين بشكل محدد وتضع حداً لكثير من المشاكل التي ثارت فيما بعد.

والكثير من المؤرخين - وبالذات المراجع الحديثه - ترى ان هذا اليمين يرقى الى ما يمكن ان يكون معاهدة أو اتفاقية سميت باتفاقية القسطنطينية، الا أن تصرف الامبراطور وتجاهله لهذا الامر لايزال محل استغراب، خاصة وانه كان يعلم أطماع بعض هؤلاء القادة وتقلباتهم ، ولم تكن حقيقة نواياهم خافية عليه، الى جانب أن الكثيرين منهم طارئين في التعامل مع الامبراطورية البيزنطية.

لقد وضع الامبراطور بعدم اهتمامه بتطوير هذا الاتفاق الذي تم مع القادة الصليبيين الى اتفاقية او معاهدة محكمة ومحددة المعالم بذرة للخلاف الذي ما يلبث ان يستشري بعد

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٤٢.
(٢) فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص٤٥.

فترة وجيزه بين الطرفين، والذي سيكون له أثره في توتر العلاقة بينهما.

وربما ان امراً كهذا لم يغب عن بال الامبراطور ولكنه وجد أن مناقشته ستكون لها مضاعفاتها الشديدة على الامبراطورية خاصة وأن جيوش الصليبيين مازالت تعسكر بجوار القسطنطينية وان اكبر هم للامبراطور في تلك المرحلة هو أن يبعد خطرهم عن عاصمته ، ثم إن أطماعه التي رأي انه يستطيع أن يحققها عن طريق الحملة لم تكن محددة ، فعلى أي الاراضي يستطيع ان يستولي ، والى أي مدى تستطيع الحملة ان تصل ؟! وربما ان مناقشة أمر كهذا قد يعطل عليه بعض أطماعه أو يحول دون تحقيقها.

وهكذا وجد الامبراطور نفسه راضياً وهو يوقع في مايوم ١٠٩٧م في القسطنطينية إتفاقاً مع زعماء الفرنج[(١)].

ونص هذا الاتفاق، الذي نظر اليه المؤرخون على أنه اتفاقية ، على تعهد الصليبيين بأن يعيدوا الى سلطة الامبراطورية البيزنطية الأراضي والأقاليم التي كانت تحت حكمها فيما مضى، وذلك بعد تخليصها من السلاجقة، وأنهم بقسمهم يمين التبعيه والاخلاص للامبراطور يصبحون من اتباعه وجنداً في خدمته. ومن جانبه تعهد الامبراطور بمساعدتهم والمحافظة على سلامتهم خلال مرورهم عبر أراضي الامبراطورية، وأن يسهل لهم مسألة التموين ، وأن يضع فرقة من الجيش البيزنطي تحت تصرف زعماء الحملة تعينهم وتدلهم على الطريق[(٢)]. وكان هذا هو محتوى القسم الذي سبق وان تلاه جميع القادة الصليبيين في اعقاب اتفاقهم مع الامبراطور الكسيوس كومنين.

وهناك من المؤرخين من يرى أن الامبراطور قد تعهد أيضاً بالاشتراك في الحملة وأن يكون على رأس الجيش المتجه صوب بيت المقدس[(٣)].

(١) Camb, med, hist, Vol.V, P.284. ، واسد رستم ، الروم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص١٢٩.

(٢) كان اول المرافقين للحملة هو القائد البيزنطي تاتكيوس، وقد وصفه وليم الصوري، بأنه كان لئيم الطبع غداراً، يدل انفه الافطس على ما انطوت عليه نفسه من السوء، وليم الصوري، مصدر سابق ، ص١٩١.

(٣) Chalandon, Alexis Comnene, P.188. نقلاً عن جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، مرجع سابق ، ص٢٢٣. ويصح ان يكون ذلك صحيحاً ولكن ليس في بداية تحرك الحملة ، فقد سبق وان اعتذر الامبراطور عن ان يقود الحملة بنفسه عندما طالبه ريموند الصنجيلي بذلك ووضعه شرطاً لادائه القسم ، وانما يصح ان يشارك الامبراطور في الحملة بنفسه عندما تحقق نوعاً من التقدم في بلاد الشام.

ورغم ذلك فقد جاءت مشاركة الامبراطور في الحملة ضئيلة ومحدوده جداً ، وذلك يستدعي سؤالاً آخر : لماذا كانت مشاركته بهذا القدر مع أن عداء الامبراطورية البيزنطية والامبراطور نفسه للمسلمين لايقل باي حال من الاحوال عن عداء الصليبيين، واطماعهم هي نفس اطماع الصليبيين ؟ ! فهل كان ذلك لأن الامبراطور بعد وصول الصليبيين وتلمسه لحقيقتهم تراكمت لديه من الاسباب ما جعلته يتراجع عن الدفع بكل قواته لدعم الحملة ؟ ! أم أنه اراد أن يعطي نفسه وقواته فرصة من التأمل ومراجعة الموقف وفق توالي الاحداث والنتائج ؟ ! أم أن الامبراطور وجد في الصليبيين اعداء جداً لايقلون في عدائهم للامبراطورية عن السلاجقة ففضل أن يتمهل في بلورة موقفه والمشاركة بحجم ضئيل من القوات انتظاراً لما يسفر عنه الصدام بين السلاجقة والصليبيين، لعل كل ذلك كان وراء محدودية المشاركة البيزنطية بالفرقة الصغيرة التي قادها تاتكيوس ضمن القوات الصليبية التي انطلقت الى الشرق، هدف منها الامبراطور اولاً المحافظة على صورته في العالم النصراني، وثانياً -كما تروج المصادر الغربية- مراقبة الحملة وقادتها وبعث تقارير عنها اليه.

وربما بتأثير من السببين وهما عدم تطوير يمين الولاء إلى اتفاقية ومحدودية المشاركة البيزنطية في الحملة ما تلبث المشاكل أن تثور بين الكسيوس كومنين وزعماء الحملة الصليبية الاولى.

فاللاتين قالوا إنهم لايعتدون بالاتفاق لأن الامبراطور خذلهم ولم يصدق معهم في إرسال المؤن والغذاء، ولم يشارك معهم في الحرب، وبيزنطة تمسكت به بشده، وربما بالغت في بعض الاحيان في تفسيره بأكثر مما يحتويه.

وتوقف المؤرخون طويلاً عند نقطة "تلك الأراضي التي كانت تحكمها الامبراطورية البيزنطية في السابق" فهل يقصد بها تلك الأراضي التي كانت تدخل في نطاق الامبراطورية البيزنطية في اوائل القرن الحادي عشر، اي قبل موقعة ملاذكرد (١٠٧١م/٤٦٣هـ) وعلى وجه التحديد أيام باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م/٣٦٦-٤١٦هـ) أم أنها شملت أيضاً المقاطعات القديمة للامبراطورية الرومانية منذ عهد هرقل (٦١٠-٦٤١م) اوجستنيان (٥٢٧-٥٦٥م)[1]، وفي

(١) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، مرجع سابق ، ص٢٢٤.

هذه الحالة تصبح بيت المقدس داخلة في هذه المطالبات.

ونعتقد أن الامبراطور الكسيوس كومنين وهو يوقع هذا الاتفاق مع الصليبيين لم يكن يفكر في ذلك ، لأن اهتماماته ومطالباته فضلاً عن جهوده انصبت على استرجاع مناطق آسيا الصغرى التي فتحها السلاجقة في الفترة القريبة التي سبقت توليه العرش.

وفي الحقيقة ، وحسب منطق الاتفاق، فإنه لا الامبراطور كان حراً في تسيير الحملة، ولا الصليبين كانوا سادة أنفسهم في التحكم في سيرها -على الاقل في بدايتها- فلو كان الامبراطور يملك توجيه الحملة لتحقيق مصالحه وحسب لكان قد استخدمها في إجلاء السلاجقة عن بثينيه وليديه وفريجيه، وهي مناطق حيويه بالنسبة للامبراطورية وتأتي في المرتبه الاولى من اهتمامها والقرب منها، وهي الدافع الأول لطلب الفرق المرتزقه من الغرب.

وكذلك فإن الصليبيين لو لم يرتبطوا بذلك الاتفاق مع الامبراطور، لاتجهوا رأساً الى قليقيه عبر آسيا الصغرى، ولكانت أنطاكية وليست بلدان آسيا الصغرى، هي أول اهدافهم، الا أن تشابك المصالح وربما تكاملها في المرحلة الأولى من الحملة هو الذي أوجد ما سمى باتفاقية القسطنطينية وجعلها مبدأ مقبولاً للتعاون بين الطرفين المتنافرين، والذين تجمعهما عداوات وخلافات لاحصر لها ، اكدت الاعمال التي اتاها الصليبيون وهم في طريقهم الى القسطنطينية بروزها ووجودها على أرض الواقع رغم المحاولات الكثيرة التي بذلت لتجاوزها ورغم الادعاءات التي صورت الحملات الصليبية بأن هدفها الأول هو نصرة نصارى لنصارى، فلو لا ذلك التنافر والخلاف لما ارتكبت تلك المجازر، ولولاه أيضاً لما بلغت اعداد المحتشدين في آسيا الصغرى عدة مئات من الآلاف فقط [١] ، في الوقت الذي يقدر فوشيه الشارتري عدد الخارجين من الغرب استجابة لدعوة البابا أوربان الثاني بأكثر من ستة ملايين محارب لكن قتل

---

(١) يقدر وليم الصوري عدد الذين احتشدوا في آسيا الصغرى «بستمائة الف شخص ذكر وأنثى مشاة لاظهر عندهم ، اما الفرسان من اصحاب الدروع فكانوا مائة الف ...» وليم الصوري مصدر سابق ، ص١٩٢. ويقول فوشيه الشارتري «يقدر العارفون بأن هذا الجيش ضم ستمائة الف شخص قادر على الحرب من بينهم كان هناك مائة الف مدرع ومدجج بالقلانس والدروع ، هذا اضافة الى من لم يحمل السلاح اي رجال الكنيسة والنساء والاطفال». فوشيه الشارتري ، مصدر سابق ، ص٤٦.

الكثيرون منهم ، ومنهم من عاد بعد أن قدر مشاق الطريق [(١)].

وعودة الى اتفاقية القسطنطينية نجد أن الامبراطور قد نجح الى حد كبير فيما كان يرمي الى تحقيقه، لقد حمى دولته من اللاتين، ومن حشدهم المخيف الذي اجتمع بالقسطنطينية واستطاع الحصول على موافقتهم للدخول في خدمته والتعهد برد أملاكه السابقة

(١) فوشيه، مصدر سابق، ص٤٦ ؛ مع الاخذ في الاعتبار المبالغات التي تعود عليها مؤرخوا العصور الوسطى من ذكر ارقام الجيوش وعدد المحاربين والاسرى، على ان مرجعاً حديثاً ومؤلفاً هو الدكتور سهيل زكار يذكر في مقدمة تحقيقه لكتاب «الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين» والذي يعتقد ان مؤلفه هو احمد بن علي الحريري، من مؤلفي القرن العاشر للهجرة وهو غير المؤلف السابق سيد علي الحريري ، والذي سبق وان تعرضنا لكتابه وقلنا انه من مؤلفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري ، انظر : ص (٩٧) يذكر في مقدمته الطويلة ما نصه : «عبرت هذه الحشود التي قيل بأنها فاقت المليون انسان من اوروبا الى آسيا الصغرى تريد الوصول الى بيت المقدس» انظر سهيل زكار ، مقدمة تحقيق كتاب "الاعلام التبيين" ، دمشق مكتبة دار الملاح ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص٢٧ و ٣٥.

والمراجع الحديثة - العربية والاجنبية - تذهب الى ارقام اقل من ذلك كثيراً وقد اورد المؤرخ ستيفن رانسيمان ملحقاً في ختام الجزء الاول من كتابه عن تاريخ الحروب الصليبية : «الملحق الثاني ص٤٨١-٤٨٩» خصصه لمناقشة مختلف الآراء التي ذكرت عن عدد قوات الجيوش التي شاركت في الحملة ، وعن العدد الاجمالي للحملة ، وهو يذهب به الى ما يتراوح بين ٤٢٠٠ - ٤٥٠٠ فارس و ٣٠٠٠٠ من الرجالة فقط ، ولكن لم يذكر رانسيمان اذا كان هذا العدد هو ما يعتقد انه قد احتشد في آسيا الصغرى ام ذلك الذي كان يحاصر انطاكية ، ام ذلك الذي كان يحاصر بيت المقدس. فلاشك ان الصليبيين رغم تقدمهم في اراضي اسيا الصغرى وبلاد الشام حتى وصولهم الى بيت المقدس قد تعرضوا لكثير من ضربات السلاجقة وهجماتهم مما افقدهم الكثير من رجالهم، كما ان الكثير من المخاطر التي تعرضوا لها في الطريق قد جاءت على عدد لايستهان به من قواتهم ولعل هناك هدفاً من خفض العدد الى ذلك الرقم حتى يبدوا انهم حققوا انتصاراً سهلاً على القوات الاسلامية رغم قلة عددهم. وبعيداً عن مبالغات مؤرخي العصور الوسطى واهداف المؤرخين المحدثين يبدوا الرقم الذي ذكره ريموندا جيل ص(٨٦) وهو مائة الف مقاتل اقرب الى الواقع خاصة اذا اخذنا في الاعتبار مسألة التموين واحوال المدن التي كان يمر بها هذا الجيش وامكانيات اوروبا في القرون الوسطى في توفير هذه الاعداد وهي التي كانت تشكو ضآلة في عددالسكان.

كما ان ارنست باركر، ص(٢٧)، يرى ان الجيش الصليبي قارب ١٥٠ الفاً من الرجال الاشداء . ويذكر الدكتور عزيز سوريال عطيه، ص(٤٧)، ان اعلى تقدير لهذا الجيش بلغ ستين الفاً وينسبه الى فوشيه الشارتري واقل تقدير بلغ عشرة آلاف وينسبه الى ريموندا جيل، وبالطبع هذا خطأ واضح ، ففوشيه يذكر ان العدد كان ستمائة الف وريموندا جيل يذكر ان العدد كان مائة الف ومن المؤسف ان كتاب الدكتور عزيز سوريال عطيه قد تعرض لأخطاء كثيرة من هذا النوع - سبق ان اشرنا الى احدها- ولاندري هل سببها الترجمة ام الطباعة مع ان الكتاب حوى آراءً وتحليلاً جيداً وهذه الاخطاء تفقده الكثير من قيمته.

-

بعد الاستيلاء عليها من أيدي السلاجقة[١] .

ولاشك أن نجاح الامبراطور الكسيوس كومنين بالوصول الى هذا الاتفاق مع الصليبيين رغم ما كانوا يتصفون به من كبرياء وصلف وغطرسه، ورغم الكراهية والاحقاد التي يحملونها للبيزنطيين واعتبارهم هراطقه وبرغم طموحاتهم بالاستيلاء على أجزاء من الامبراطورية البيزنطية فضلاً عن تقويض عرشها فإن الامبراطور استطاع أن يدير أموره معهم ويحصل على أقصى مايستطيع من التعهدات والضمانات، وكل ذلك يصب في خانة مهارة الامبراطور ودبلوماسيته وحسن تصرفه.

لقد حققت اتفاقية القسطنطينية للامبراطور جانباً من سياسته التي توخاها في التعامل مع الصليبيين فقد حافظ على دولته من عدوان الفرنج، ويصح أن نقول ان الاتفاقية بعد ذلك لم تنفذ روحاً ونصاً -كما سيظهر في الاحداث التالية- لأن اللاتين لم يكونوا صادقين في توجههم للامبراطور، إذ سرعان ما سيطرت أهدافهم ومطامعهم فبدأوا يعملون لحسابهم، ويعيد الكتاب الغربيون سبب فشل الإتفاقية ليس لأنها لم تكن صعبة التنفيذ أو غير عملية، ولكن بسبب سوء تصرف الامبراطور حيال الفرنج[٢] مشيرين في ذلك الى تقاعس الامبراطور في بعض الاحيان بمد اللاتين بالمؤن والمساعدة ، والى ما اشيع أحياناً باتصالاته بأعداء الفرنج ، كما حدث مع الفاطميين[٣]. إلا أن حقيقة الامر أن خطة بيزنطة نجحت في بداية الامر بفضل شخصية الامبراطور نفسه الذي أجل سقوط دولته في ايدي اللاتين قرابة قرن أو يزيد لكن

---

(١) فطن المؤرخون المسلمون الى اتفاقية القسطنطينية فيذكر ابن القلانسي في كتابه ذيل تاريخ دمشق ، ص١٣٥. «... وقد كان الفرنج عند ظهورهم قد عاهدوا ملك الروم بأن يسلموا اليه اول بلد يفتحونه ، ففتحوا نيقيه ، وهي اول بلد يفتحوه ، فلم يفوا له بذلك ، ولاسلموها اليه على الشرط ...» وبالطبع فإن خبر المعاهدة صحيح ، ولكن ليس صحيحاً انهم لم يسلموا اليه نيقيه حسب الاتفاق ، وليس اول بلد يفتحونه فقط ، بل وجميع الاراضي التي كانت تحكمها الامبراطورية سابقاً .

(٢) C. Stephenson , Op. Cit., P.95.

(٣) القى الصليبيون القبض على رسول كان يحمل رسالة من الامبراطور البيزنطي موجهة الى الوزير الافضل شاهنشاه في القاهرة في أعقاب استيلاء الصليبين على انطاكية وتوطيد بوهيموند مركزه بها انظر :
Chalandon , Alexis Comnen , P.207. نقلاً عن الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٢١٧.

الخطة فشلت آخر الامر بسبب أطماع اللاتين في بيزنطة وأملاكها القديمة ، ونتيجة لطباعهم الخشنة وسوء سلوكهم[١] ، ولكن ولأن اتفاقية القسطنطينية - شأنها شأن كل الاتفاقيات - معرضة للصمود كما هي معرضة للاختراق رأينا اللاتين سرعان ما يخترقون هذه المعاهدة ويفرغونها من مضمونها الذي حملته.

لقد كانت الخلافات بين الطرفين أكبر من أي معاهدة أو اتفاق يمكن أن يقوم بينهما ، ولكن لأن الامبراطور البيزنطي أصر على هذه الإتفاقية ورأى فيها حماية لحقوقه ولدولته ، ولأن الصليبيين كانوا مكرهين عليها، فكان لزاماً أن تقوم ، ولكن لتكون سرعان ما تخترق وتصبح حبراً على ورق .

ويرى المؤرخ هربرت فيشر انه : «... يندر في أي حرب من الحروب -حتى ولو انتهت تلك الحروب بالنصر والظفر- أن يشعر الحلفاء بعد الحرب بشيء من الاعتراف بالمساعدات التي بذلت أو الرضا بالنتائج التي تحققت، فمما لاشك فيه أن الصليبيين مدينون بكثير من الفضل للامبراطور الكسيوس فلو لا الحرس البيزنطي والإمدادات البيزنطية والأدلاء البيزنطيين، لما استطاع اللاتين أن يتغلبوا على رحلتهم الطويلة من البلقان الى الشام ، غير أنه يساوي ذلك - إن لم يزد عليه- ما يدين به الكسيوس للجيوش الغربية التي أخرجت السلاجقة من عاصمتهم نيقية وهي ادنى للقسطنطينية من قاب قوسين، واعادت الى الدولة البيزنطية عدداً من اقاليمها الغنية. وحلت عقدة الخوف التي ساورت الناس في استيلاء السلاجقة على تراقيا الأوروبية . . . »[٢].

على أنه يبقى أن أهم دلالات اتفاقية القسطنطينية التي وقعها الامبراطور الكسيوس كومنين مع الزعماء اللاتين ، أن الخلاف بين الشطرين النصرانيين لم يكن من السهل تجاوزه أو تخطيه ، فكيف يستطيع الامبراطور البيزنطي أن يأمن اللاتين وهم لايزالون ينعتونه وشعبه بالهراطقه، وكيف يأمن لهم ومازالت محاولات روبرت جويسكارد النورماني وابنه بوهيموند في

---

(١) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، مرجع سابق ، ص١٣٨.
(٢) فيشر : مرجع سابق ، ج١ ، ص١٨٤.

تقويض الامبراطورية حديثة العهد ، ولم تمض عليها بضع سنوات ، وكيف يأمنهم وهذه نذرهم قد جاءت تحمل السلب والنهب والحرق في أراضي الامبراطورية التي مرت بها. فلم تستطع الاتفاقية أن تقفز على الخلافات والتباينات التي تواجدت بين الشطرين ، كما أنها لم تستطع ان تصمد امام الدوافع الحقيقية التي حملها المحاربون اللاتين .

وهناك من المؤرخين من وصم الإمبراطور بالحكمة[١] ، وهناك من وصمه بالخيانة للقضية الصليبية وبين الموقفين تنوعت الآراء ووجهات النظر التي قيمت موقف الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين، إلا أن معظمها يجمع على أن الإمبراطور لم يكن متحمساً للمشروع الصليبي[٢] .

(١) هسي : العالم البيزنطي ، مرجع سابق ، ص١٨٠.

(٢) Duggan , Op. Cit. , P. 37.

الفصل الرابع

الحملة الصليبية الأولى في آسياالصغرى وبلاد الشام

* الاستيلاء على نيقية والعلاقات بين البيزنطيين واللاتين .
* الاستيلاء على قونيه وأول خرق لاتفاقية القسطنطينية .
* المسألة الانطاكية وتوتر العلاقات بين الامبراطور البيزنطي واللاتين .
* إعلان حملة صليبية جديدة ضد بيزنطة .

الاستيلاء على نيقية والعلاقات بين البيزنطيين واللاتين :

اكتمل توافد الصليبيين في آسيا الصغرى، وتجمعت القوات كلها على الشاطيء الآسيوي قرب سميرنا (إزمير الحالية)، بعد أن تم الاتفاق علي استخلاص طرق آسيا الصغري التي توصلهم الي بيت المقدس من ايدي السلاجقة، ورافقت الجموع الزاحفة الفرقة البيزنطية بقيادة تاتكيوس، ولكن نظراً لضخامة الجيوش وكثرة أعدادها ومراعاة لمسألة التموين فقد انقسم الجيش الى قسمين : قسم زحف عبر بثينيا ونيقوميديا نحو نيقية والقسم الآخر عبر المضيق إلى كيبوتز(١)، وكان الامبراطور الذي انتقل الى بليكانوم(٢)، واتخذها قاعدة له ليكون علي مقربة من الحملة، قد زار الصليبين وزودهم بالنصائح عن طرق محاربة الأتراك .

وكان هدف الجيش الصليبي المشترك الاستيلاء على نيقية(٣)، عاصمة سلاجقة الروم، وعاصمة إقليم بثينيا، والتي يجتازها الطريق الحربي البيزنطي القديم .

اختار الصليبيون توقيتاً مناسبا لحصار نيقية، فقد كان السلطان السلجوقي قلج أرسلان غائباً عنها وقتذاك، حيث كان في الحدود الشرقية لدولته ينازع الأمراء الدانشمنديين السيادة على ملطية، والواقع أن السلطان السلجوقي كان قد اغراه الانتصار السريع الذي حققه على جماعة بطرس الناسك، واعتقد أن أي جموع صليبية جديدة ستصل بلاده لن يتعدى مستواها او خبرتها الحربية الحملة السابقة، كما أن جواسيسه وعيونه في العاصمة البيزنطية قد قدموا له

---

(١) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٤١.

(٢) هناك خلاف بين المؤرخين علي تحديد موقع بليكانوم ، فبعضهم يري انها علي بعد ١٦ ميل من غربي نيقوميديا ، ويري آخرون انها شديدة القرب من خلقيدونية ، الا ان المؤكد انها كانت في موقع يكفل لها الاتصال المستمر بالقسطنطينية ، انظر رانسيمان، ج١ ، ص٢١٩.

(٣) نيقية تسمي الآن ازنيق علي مقربة من القسطنطينية وبنيت في عهد الامبراطور انتجونوسANTIGONUS حوالي عام ٣١٦ ق.م، وعقد بها اول مجمع ديني في عهد الامبراطور قنسطنطين الاول، حيث ظهرت مشكلة الاريوسية، كما عقد بها مجمع ديني سنة ٧٨٧م/١٧١هـ عرف بالسابع في عهد الامبراطور قسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧م/١٦٤-١٨١هـ) ابن الامبراطوره ايرين حينما ظهرت مشكلة اللا أيقونية مجدداً. وتقع المدينة علي شاطيء بحيرة اسكانيوس ASCANIUS في آسيا الصغري، وتقع في الاقليم السهلي وتتمتع بموقع رائع وتشرف عليهاالجبال التي تحيطها من كل النواحي، وهي منطقة خصبة وبها غابات واحراج كثيرة، وتتمتع بحصانة كبيرة، وابراج مرتفعة. انظر : وليم الصوري، مصدر سابق، ص ص١٩٩ ، ٢٠٠.

معلومات مضلله ،وصوروا له الخلاف الذي كان قائماً بين الامبراطور وقادة الحملة الصليبية تصويراً مبالغاً فيه[١]، مما جعله يطمئن علي اوضاع عاصمته وقدرتها على صد أي هجوم ، حتي انه خلف فيها زوجته وأولاده وأمواله .

اخذ الصليبيون في حصار نيقية من مختلف جهاتها إبتداء من يوم ١٤ مايو ١٠٩٧م (٨ جمادي الثانية ٤٩١هـ) ماعدا الجهة الجنوبية حيث أنها أعدت ليقوم بحصارها جيش ريموند الصنجيلي، وكذلك الجزء الذي يطل علي بحيرة اسكانيوس، ولم تستطع حامية المدينة الكبيرة التي تركها قلج ارسلان لحمايتها التصدي للمهاجمين، فتحصنوا داخل أسوارها .

وانفدت زوجة قلج أرسلان التي كانت تدير الامور في المدينة الرسل إلى زوجها ليسارع لإنقاذ عاصمته ، واشارت عليه أن يدخل المدينة من الناحية الجنوبية لأنها كانت خالية من المحاصرين، ولكن ريموند الصنجيلي مالبث ان وصل يوم ١٦مايو فاكتمل حصار المدينة[٢].

ولم تصل أول قوة تركيه لنجدة نيقيه الا بعد وصول ريموند الصنجيلي حيث اشتبك معها في قتال عطل فيه دخولها الى نيقيه، وقتل منهم الكثير قبل أن يستطيع الناجون منهم الانسحاب الى الجبال[٣].

شدد الصليبيون الحصار على مدينة نيقية وبدأوا يستعملون أدوات هدم الابراج من الكباش والدبابات[٤]. ولكن هذه الوسائل لم تكن فعالة بسبب شدة تحصين المدينة، كما شعر الصليبيون أن هناك منفذاً مازال مفتوحاً أمام المدينة وتصل عبره رسل السلطان قلج أرسلان إلى

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٥١.
(٢) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٣٤.
(٣) ريموندا جيل : مصدر سابق ، ص٧٧.
(٤) الدبابة : آلة تصنع من الخشب يدخل فيها المقاتلون، وغالباً النقابون الذين يقومون بالاقتراب من الاسوار بقصد الاحتماء بها، كما انها تستخدم سترة للرجال الذين يقومون بجر المنجنيق وما شاكله من ان يرموا بالحجارة، وسميت دبابه لأنها تدفع فتدب. ويذكر المؤرخون اللاتين ان جنودهم هم الذين صنعوا هذه الاسلحة، بينما تذكر آنا كومنين ان والدها قد زودهم بها. انظر : المؤرخ المجهول، ص٣٣ هامش رقم (٤)، ويذكر وليم الصوري (ص٢١٥) ان رجلاً لمبارديا هو الذي فكر في صنع هذه الآلة ونفذها امام اسوار نيقية بعد ان جاءوا له بالمواد اللازمة وانه قادها بنفسه مع جماعة من الرجال حتى حاذوا بها اسوار المدينة، وتغلبت على قذائف الترك من فوق الاسوار، وانهم استطاعوا بواسطتها تهديم احد الابراج.

المحاصرين داخلها حتى ان الصليبين استطاعوا أُسر واحد من هؤلاء الرسل وحصلوا منه على معلومات هامة عن خطط السلطان لمهاجمة المدينة وساعة الهجوم[١].

وبدأ الامبراطور يتحرك، وكان الأتراك قد بعثوا اليه يطلبون منه حمايته من المهاجمين للمدينة[٢]، فاعطى الامبراطور تعليماته الى قائده مانويل بوتوميتس Butumites للتفاوض مع المحاصرين، والذي نفذ الى المدينة ليجري المفاوضات مع قادتها، ولكن هذه المفاوضات مالبثت ان توقفت بعد ان وصلت الانباء الى نيقية ان السلطان قلج أرسلان في طريقه لفك الحصار بقوات ضخمة[٣].

واشتد الحصار واستمر سبعة أسابيع وثلاثة ايام[٤]، وفي ٢١ مايو أقبل السلطان قلج أرسلان بجيشه من جهة الجنوب -كما سبق وان نُصح- فبادر بمهاجمة الصليبيين، وتحمل ريموند الذي كان يحاصر الناحية الجنوبية الصدمة، ولم يستطع بوهيموند و جودفروي أن يخليا مواقعهما لمساعدته، وقام بمساعدته روبرت كونت الفلاندرز حيث دارت معركة عنيفة استمرت يوماً بأكمله، ومع ذلك لم يستطع السلاجقة أن يشقوا لهم طريقاً الى داخل المدينة، وأمام ضخامة الجيش الصليبي وعجز قلج أرسلان عن اختراقه، قرر الانسحاب، وترك المدينة تواجه مصيرها[٥].

لم تستطع زوجة قلج أرسلان وقادته المحاصرين داخل المدينة أن يتحملوا شدة الحصار، وانهارت مقاومتهم عندما شاهدوا سقوط أحد الابراج، فأمرت زوجة قلج أرسلان باعداد السفن للهرب، ولما كان الصليبيون قد استطاعوا أيضاً السيطرة على الطريق البحري بعد أن قدم لهم الامبراطور امداداً بحرياً تحت قيادة برتوميتس الذي استطاع السيطرة على بحيرة اسكانيوس[٦]،

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٠٣.
(٢) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٤١.
(٣) المصدر السابق ، ص١٤٢ ؛ ورانسيمان ، ص٢٥٣.
(٤) هكذا يذكر المؤرخ المجهول اي ان الحصار استمر من ٦ مايو الى ٢٦ يونيو ، فيما يذكر فوشيه الشارتري ان الحصار استمر خمسة اسابيع ص (٤٧) وكذلك يذكر ريموندا جيل ص (٧٨).
(٥) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٤٣.
(٦) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٥٥.

ألقى الصليبيون القبض على زوجة قلج أرسلان وولديها ووضعوهم تحت حراسة مشددة[١]. وكان السلطان قلج أرسلان عند انسحابه قد استطاع أن يبعث برسالة إلى المدينة المحاصرة وأخطر حاميتها بأن تقوم باحسن ما تظنه من التصرف، اذ ليس بامكانه أن يمد لها يد المساعدة.

وجدت الحامية السلجوقية في نيقية أن أفضل ما أمامها ، وقد بدأت بعض تحصيناتها بالانهيار، وعجز السلطان عن ان يفك حصارها، أن تعود الى ما سبق وأن عرضه الامبراطور بتسليم المدينه إليه ، خاصة وأنه كان مايزال يضغط في هذا الجانب ، لانه يريد أن يتسلم نيقية خالية من التخريب، كما أنه يريد أن يستحوذ عليها ويجنبها نهب الفرنج لها خاصة وأنها كانت مدينة أثيرة لدى الامبراطورية، وأغلبية سكانها من المسيحيين فكان يريد تجنيبهم فوضى الاستيلاء الفرنجي عليها. فبدأ الاتصال مرة أخرى بين الحامية التركيه وبين بوتوميتس الذي كان يسيطر بأسطوله على البحيرة التي تطل عليها المدينة، والذي اقنعهم بالاستسلام للامبراطور، وأن بامكانهم الاعتماد على حسن معاملته لهم، وأنه اذا كان لامفر من استسلام المدينة ، فإن من الافضل ان تستسلم للامبراطور عن هؤلاء القوم المجهولين[٢].

وبينما كانت هذه المحادثات تجري بين موفد الامبراطور والأتراك كان القادة الصليبيون يعقدون اجتماعاً للتشاور ، قرروا فيه القيام بهجوم شامل على المدينة، وقد تحدد يوم ١٩ يونيه[٣] للقيام به ولكنهم فوجئوا أن شاهدوا في صبيحة ذلك اليوم الرايات البيزنطية فوق ابراج المدينة ، إذ أن الترك استسلموا مساء ذلك اليوم ودخلت القوات الامبراطورية ومعظمها من البجناك عبر البحيرة إلى المدينة.

وتروي آنا كومنين أن دخول البيزنطيين الى المدينه كان على شكل جماعات ودفعات متتاليه ، ما بين كل دفعه وأخرى بعض الوقت ، حتى لايشعر بهم الصليبيون ، وكذلك خرج

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢١٦.
(٢) آنا كومنين ، ص١٤٧ ؛ وليم الصوري ، ص٢١٧.
(٣) هذا ما يذكره رانسيمان (ج١ ، ص٢٥٥) بينما يذكر فوشيه الشارتري ووليم الصوري ان ذلك تم يوم ٢٠ مايو ، بينما تذكر الحاشية رقم (٢) في صفحة (٣٧) من المؤرخ المجهول ان ذلك تم يوم ٢٦ يونيو ، ومعظم المراجع تذكر ان سقوط نيقيه تم يوم ١٩ يونيو ١٠٩٧ : انظر Camb , med, hist, Vol. V , P.285.

منها الترك على دفعات حتى لايتجمعوا ويتآمروا على الرومان (البيزنطيين) وهذا ما خطط له بوتوميتس حيث امر بأن يتم توجيه القاده (التركمان) مباشرة نحو الامبراطور، حيث يتسلمون هداياهم وتسجل أسماؤهم في قائمة الاعطيات السنويه[١]، وترجع آنا هذا التصرف الى طول خبرة بوتوميتس ، إذ أنه حدث لدى قائدين آخرين هما رودمير ومونا ستراس[٢] ما كان يخشاه بوتوميتس ، فقد تغافلا عن مخاطر تجمع التركمان الذين ابقوهم لديهم مما أدى الى ازدياد عددهم وبالتالي حاولوا تدبير مؤامرة ضد حراسهم الرومان اما بقتلهم او اخذهم أسرى إلى السلطان قلج أرسلان، وهذا ما نفذوه فعلاً إذ أنهم انقلبوا على آسريهم وهاجموهم ليلاً واتجهوا بهم نحو قمة تدعى "ازالا" على بعد ثلاثمائة ذراع من أسوار نيقية ، وكان القائدان رودمير وموناستراس يفهمان لغة الترك، فأقنعا آسريهم بالاغراء على تركهم والتوجه معهم إلى الامبراطور والاستفاده من اعطياته، وانهم لن يستطيعوا الفرار بعيداً فالفرنج وحشود الرومان خلفهم ، وأن مرافقتهم الى الامبراطور ستعود عليهم بالثروات والجاه حتى إنهم يستطيعون الانضمام الى جيش الامبراطورية ، واقتنع الترك بذلك وبعد أن اخذوا التعهدات اللازمة رافقوهم الى بليكانوم حيث استقبلهم الامبراطور وابدى غضبه من تصرف القائدين البيزنطيين ، إلا أنه سلم جميع الترك أعطياتهم ، وأما الذين رغبوا في الالتحاق بخدمته فقد أغدق عليهم، ومنهم من طلب العوده الى وطنه[٣].

انزعج الصليبيون من ضياع فرصتهم في الاستيلاء على نيقية والاستحواذ بها ونهبها وبدأوا يطالبون وفقاً للاتفاق المبرم مع الامبراطور بأن تدفع غنائم المدينة واسلابها الى الجيش الصليبي تعويضاً لهم عن الخسائر التي تحملوها والمشاق التي كابدوها[٤].

---

(١) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٤٨.

(٢) تصف آنا رودمير بأنه كان بلغارياً وأنه كان ابن خالها ، وتصف موناستراس بأنه نصف بيزنطي ، وان كلاهما يجيد اللغة التركية الاول بحكم اسره الطويل لدى الترك ، والثاني بسبب نصف اصله والذي كان تركياً.

(٣) آنا كومنين ، ص١٥٠ ، وآنا هي المصدر الوحيد الذي اعتمدنا عليه في هذه الاحداث ، ولايستبعد ان تكون هناك مبالغة.

(٤) وليم الصوري ، ص٢١٨ ، ويذهب وليم الى ان قادة الصليبيين قد بعثوا رسلاً من قبلهم الى الامبراطور يحملون اليه رسالة يطلبون فيها ارسال قوة كافية لتسلم المدينة التي استسلمت بجهود الصليبيين الصادقة الدؤوبه، وبالطبع هذا يخالف الواقع من ان المدينة قد استسلمت للبيزنطيين.

وهناك من يرى أن قادة الصليبين - الكبار منهم - كانوا على علم بهذه المفاوضات التي كانت تجري بين الامبراطور وحامية المدينة ، ولم ينكروها ، لأنهم رأوا أنه لاداعي مطلقاً لأن يضيعوا الوقت وان يفقدوا مزيداً من الرجال من أجل اقتحام مدينة لن يسمح لهم بامتلاكها، على أنهم بقوا في جهل تام بالمراحل الختامية للمفاوضات[١].

على كل لم يخف الصليبيون انزعاجهم حيث أنهم كانوا يأملون في الاستيلاء على كنوز نيقية والاستفادة من فداء الأسرى، فاشتدت الكراهية للامبراطور، وهم يرون جنوده يصادرون كل الثروة التي خلفها السلاجقة، على أن هذه الكراهية ما لبثت أن توارت بعد ان اغدق الامبراطور الهدايا والمنح على القادة الذين توجهوا الى بليكانوم بناء على تعليماته. وبعد أن الح عليهم بوتوميتس، الذي عين حاكماً لمدينة نيقية، بأن في ذهابهم فرصة لتلقي المزيد من الهدايا، وتعلق آنا : «ولدى سماعهم هدايا ومنح واموال كان بوهيموند اول من أطاع نصائح بوتوميتس، فقد كان فيه جشع كبير للمال بلا حدود..»[٢].

وحرص الامبراطور وهو يسلم هداياه ومنحه للصليبيين أن يؤكد يمين الولاء السابقة ، وأن يحصل على اليمين بالولاء والاخلاص من أولئك الذين لم يؤدوها سابقاً واذعن لطلبه عدد من صغار الساده الاقطاعيين، الذين لم يشأ الامبراطور أن يزعجهم بذلك عند اجتيازهم للقسطنطينيه[٣]، كما أن يمينهم قد لايحمل نفس الاهمية التي يحملها يمين القادة الكبار للحملة ، على أن الامبراطور كان يركز في الحصول على يمين الولاء من تانكريد، والذي كان شرساً غليظ الطبع، ولايخفى كراهيته للامبراطور ودولته كما فعل خاله بوهيموند، ورغم اغداق الامبراطور عليه الا أن تانكريد -كما تعتقد آنا- كان رجلا له روح استقلالية ويتفاخر بأن في عنقه ولاء لرجل واحد هو بوهيموند، ورغم تعرض تانكريد للضغط من الآخرين إلا أنه

---

(١) رانسيمان ، ج١ ، ص٢٥٧ ، ويعلق وليم الصوري بان هذا العرض (استسلام المدينة) لم يكن مرفوضاً من جانب القاده الصليبيين ، الا انهم كانوا يتطلعون الى خاتمة تختلف كل الاختلاف عن هذه الخاتمة ، ولم يكن في غرضهم ان يقيموا في نيقيه اكثر مما اقاموا ، وليم الصوري ، ص٢١٨.
(٢) آنا كومنين: مصدر سابق ، ص١٥٠
(٣) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ،ص٢٥٧.

رفض أن يقسم يمين الولاء ثم أعلن بانه سوف لن يحلف مالم يمنحه الامبراطور ملء سرادقه[١] الكبير ذهباً . وأن يعطيه قدرما أُعطي جميع القاده المجتمعين من المال وأغاظ هذا الاعلان باليولوجوس صهر الامبراطور، وقام بدفع تانكريد بحنق، فانقض عليه تانكريد مغضباً، مما حمل الامبراطور علي النهوض من عرشه للتدخل ومحاولة تهدئة الموقف، ومن جانبه قام بوهيمند بتأنيب ابن أُخته، مخبراً إياه بأنه كان من الخطأ أن يتصرف هكذا في حضرة الامبراطور من غير مراعاة له، فخجل تانكريد، ومالبث أن انصاع حاقداً فاقسم يمين التبعية[٢].

ورغم كل ما أعطاه الامبراطور ومنحه للصليبين حيث يذكر فوشيه الشارتري أن «الامبراطور امر بإعطاء الهدايا والمنح لقوادنا ، هدايا من الذهب والفضه والثياب و أمر بتوزيع قطع النحاس التي يسمونها "ترترون" على المشاه»[٣] الا أن الصليبين لم يغفروا للامبراطور حرمانهم من الاستيلاء على نيقية ونهبها مما جعل المؤرخ ريموندا جيل يقول «إن الناس سيسبونه -أي الامبراطور- ويصفونه بالخيانه طالما كان حياً[٤]». ودفع وليم الصوري إلى القول" لقد اتضح ماعزم الامبراطور عليه من احتجاز كل شيء لنفسه ولخزائنه الخاصه، ... وانه نكث عهده وخالف نصوص الاتفاقية التي نصت على أنهم إذا استولوا اثناء زحفهم كلهم معاً على اي مدينة من المدن التي كانت تابعة للامبراطورية وجب عليهم ردها اليه، أما الغنائم والأسلاب فتؤول من غير جدال الى العسكر مكافأة علي جهودهم وتعويضاً عن النفقات التي تكبدوها...»[٥] واعترف المؤرخ المجهول فقط بالصدقات التي وزعها الامبراطور على الفقراء[٦].

إلا أن أكثر ما أزعج الصليبين هو تعامل الامبراطور الكسيوس كومنين مع الأسرى الترك الذين كانوا يريدون أن يشفوا غليلهم منهم، أو يحصلوا على أموال كثيرة عن طريق

(١) تصفه آنا بانه سرادق لم ير احدٌ سرادقاً باتساعه ، مصدر سابق ، ص ١٥١.
(٢) آنا كومنين: مصدر سابق ، ص١٥١.
(٣) فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص ٤٧.
(٤) ريموندا جيل : مصدر سابق ، ص ٧٨.
(٥) وليم الصوري: مصدر سابق ، ص ٢٢٠
(٦) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص ٣٨

افتدائهم، ويقول وليم الصوري : "إن الامبراطور لم يكتف بمعاملتهم بالرحمة ، بل زاد فبالغ في الاحسان اليهم واكرامهم، إذ لم تكد تنقضي ايام قلائل حتى رد عليهم حريتهم، وكان بينهم زوجة قلج[١] أرسلان وولداه[٢]". ويعتقد، وليم أن تصرف الامبراطور مرده الى أنه كان يراوده الامل في اكتساب مودة الترك، وما كان يطمع فيه من تحويلهم ضد الصليبيين، من غير جهد يبذل، وما كان يقدره من أن قوات الصليبيين لو حاصرت أي مدينة اخرى فلن يخامر أهل تلك المدينة خوف منه، إن هم استسلموا له على هذه الصوره التي استسلمت له بها مدينة نيقية[٣]. على أن المؤرخ المجهول يرى أن السبب «ليكونوا على أتم أهبة لنصب الكمائن للفرنجة ووضع العقبات في سبيلهم»[٤]. والواقع أن الصليبيين لم يستطيعوا فهم سر تصرف الامبراطور، لأنهم كانوا طارئين على المنطقة ، ولم يكونوا يعرفون معنى أمثال هذه التصرفات من إطلاق الأسرى، والمحافظة على كرامة العدو المغلوب، وخاصة أن الامبراطور كان جاراً للاتراك المسلمين، ويعرف رد فعل مثل هذه التصرفات، وقيمة ما يبديه من تصرفات مع العدو اذا هُزم، ولكن الصليبيين نظروا اليها على أنها خيانة للقضية الصليبية ، وأنه ليس مخلصاً لهم ، وأنه أطلق سراحهم ليعدو الكمائن للفرنجة.

قام بوتوميتس ، الحاكم الجديد للمدينة باصلاح ما تهدم من أسوارها، وقد منع دخول الفرنج الى المدينة خوفاً من تصرفاتهم، ولم يسمح لهم بزيارتها الا عبر مجموعات لاتزيد عن عشرة اشخاص ، ووفق مراقبة دقيقة[٥]، كما أن بعضاً من اللاتين قد تخلفوا في نيقية، ولكن

(١) زوجة السلطان قلج ارسلان، هي ابنة الامير جكا، والذي سبق ان تخلص منه قلج ارسلان بالموت عن طريق دعوته الى مأدبة مسممه، بعد ان كان الامبراطور الكسيوس كومنين قد اوغر قلب السلطان قلج عليه، وأوهمه بأنه يتآمر عليه (انظر الفصل الاول، ص٦٥) وقد جرى استقبالها في القسطنطينية بحفاوة ، وكان لابد من بقائها حتى تصلها رسالة من زوجها عن الموضع الذي تلحق به ، وتقرر انفاذها الى السلطان مع ابنائها وحاشيتها دون فديه ، انظر رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٥٨.

(٢) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٢١.

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٤) المؤرخ المجهول ، ص٣٧.

(٥) آنا كومنين ، ص١٥٠.

كموظفين لدى الإمبراطور [١] .

ووصلت أنباء هذا الانتصار الكبير الى الغرب، حيث جرى إنفاذ الرسل إلى هناك، تعلن أن هذا الموضع المبجل قد عاد نصرانياً مرة اخرى، وتلقى أهل الغرب الأنباء بحماس شديد حتى إن المدن الايطالية والتي ظلت حتى ذلك الحين شديدة الحذر والتمهل في المشاركة في الحملات الصليبية اشتد اهتمامها وحرصها على المشاركة فيها [٢] .

وتلقى الامبراطور رسالة من مقدم دير مونت كاسينو يهنئه فيها باستعادة نيقيه ويوصيه خيراً بالصليبيين فرد عليه الامبراطور بخطاب يؤكد فيه أنه حريص على التعاون مع الصليبيين، وانه أنفق عليهم اكثر مما يمكن لأحد أن يحصيه ، وأنهم سيستمرون في نعيمه ومساعدته طالما كانت الاغراض الطيبة هي التي تقودهم [٣] .

على أي حال أثمرت الجولة الاولى للصليبيين عن اعادة نيقيه الى حكم الامبراطورية البيزنطية، بعد أن استمرت تحت حكم السلاجقة ستة عشر عاماً، وتنفست القسطنطينية الصعداء باستعادتها لهذا الحصن الهام الذي شكل فقدانه خسارة كبيرة للامبراطورية وتهديداً دائماً لها، كما أن استعادتها اعطت الامبراطور الفرصة لارسال قواده لاستعادة بقية أجزاء آسيا الصغرى التي مازالت في يد الأتراك والتي كونوا فيها امارات مستقلة ومتنازعة.

وحدت الهزيمة التي تعرض لها قلج أرسلان بينه وبين الدانشمنديين فاتحد معهم واصبحوا يؤلفون قوة حربية شديدة البأس في وسط آسيا الصغرى وشرقيها، على أن الامبراطور استهدف في المرحلة التالية وعقب الاستيلاء على نيقية وإصلاح تحصيناتها، استرجاع الشطر الغربي من آسيا الصغرى، حيث يستطيع بفضل قواته البحرية الناميه ان يمهد الطريق نحو الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى لذلك أنفذ صهره القيصر يوحنا دوكاس يسانده أسطول بحري بقيادة كاسباس الذي عين قائداً للاسطول البيزنطي للاستيلاء على ساحل ايونيا

---

(١) Camb. med. hist. Vol. V , P.285.
(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٥٩.
(٣) Edward Peters , The first Crusade, Op. Cit. , P.150.

وفريجيا ، وكان هدف الحملة سميرنا (ازمير الحالية) التي كان يحكمها تزاخاس[١] ، وما حدث من الهجوم براً وبحراً جعل حاكم سميرنا يبادر الى الاذعان وتسليم امارته في مقابل الانسحاب الى الشرق[٢]. وأوغل الجيش البيزنطي في المسير الى داخل آسيا الصغرى، حتى أن افسوس سقطت بعد قتال لم يستمر يوماً كاملاً[٣]. واستمر الجيش بستولي على أهم مدن ليديا الواحدة بعد الاخرى، ولم ينقض خريف سنة ١٠٩٧م حتى صار كل الاقليم في يده[٤] ، ثم بدأ يستعد للزحف على فريجيا بهدف الوصول الى الطريق الرئيسي الذي كان قد سلكه الصليبيون.

فتح الاستيلاء على نيقية أمام الدولة البيزنطية الفرصة لاستعادة الاناضول وآسيا الصغرى، مما شكل أهمية كبيرة واستثماراً جيداً أقدمت عليه الامبراطورية بعد الانتصار في نيقية، وتتضح هذه الاهمية عند المقارنة بين ما كانت عليه خريطة الشرق الادنى سنة ١٠٩٥م/٤٨٩هـ وبين ما صارت عليه في مطلع سنة ١٠٩٨م/٤٩٢هـ. ففي الأولى كانت الحدود التركية البيزنطية تقوم عند مدينتي نيقية ونيقوميديا أي على مسافة قصيرة من بحر مرمره والبوسفور، في حين آل حكم ازمير وافسوس الى الأمراء الاتراك، أما في الثانية فكان قد تم اخراج الترك من بثينيا وايونيا وليديا وفريجيا[٥]، ومن ثم عادت هذه الأقاليم إلى الحياة البيزنطية[٦].

(١) يذكر رانسيمان ، ج١، ص٢٧٥ : ان ابن جكا هو الذي كان يحكم سميرنا (ازمير) وان الحملة قد اصطحبت معها زوجة السلطان قلج ارسلان، التي هي شقيقة ابن جكا، ولكن آنا تذكر ان حاكمها كان تزاخاس وقد مر بنا انه كان قرصاناً تركياً، وان قلج ارسلان اشترك مع الامبراطور فيما مضى في مقاومته، كما تذكر آنا ان السيده التركية التي رافقت الحملة هي ابنة تزاخاس والتي كانت من بين الاسرى الذين اسروا عند الاستيلاء على نيقية، وان الهدف من اصطحابها تأكيد استيلاء البيزنطيين على نيقيه، فيسلمون من غير قتال ، دون ان تشير الى أنها زوجة السلطان قلج ارسلان ، انظر : آنا كومنين ، ص١٥٨.

(٢) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٦٠.

(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٤) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٧٦.

(٥) اقاليم آسيا الصغرى .

(٦) عاشور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص١٧١. انظر خريطة الدولة البيزنطية قبل الحرب الصليبية الاولى وفي اعقابها في ملحق الخرائط.

الاستيلاء على قونيه واول خرق لاتفاقية القسطنطينية

بعد أسبوع من الاستيلاء على نيقية بدأ الصليبيون يتجهزون للمغادرة ومتابعة سيرهم الى أنطاكية ففي ٢٦ يونيو ١٠٩٧م/رجب ٤٩٠هـ، اخذت مقدمة الجيش الصليبي في التحرك[(١)]، بعد أن ودع القادة الصليبيون الامبراطور وتزودوا بنصائحه، وتحركت معهم الفرقة البيزنطية بقيادة تاتكيوس -والذي كان خبيراً بالطريق- لتقودهم في مجاهل آسيا الصغرى.

وبعد يومين سارت بقية الجيش تتبع مقدمته، واجتمع الجيش الصليبي عند جسر جسكو[(٢)] على النهر الأزرق، عند بلدة لويكي Leuce ، حيث عقد الصليبيون مؤتمراً تقرر فيه تقسيم الجيش الى فرقتين لتسهيل عملية التموين[(٣)]، وتقرر أن يكون الفاصل بين الفرقتين مسيرة يومين[(٤)]. وتكون الجيش الاول من نورمان جنوب إيطاليا وشمال فرنسا وعسكر كونت الفلاندرز وستيفن كونت بلوا، فضلاً عن الادلاء البيزنطيين ويقود هذه المجموعة بوهيموند، وتكون الجيش الثاني من عسكر جنوب فرنسا واللورين وعساكر كونت هيوج فرماندوا ويتولى قيادة هذه المجموعة الكونت ريموند الصنجيلي.

وما إن تم تقسيم الجيش حتى أخذ بوهيموند طريقه الى ضورليوم. واتجه الجيش الثاني على نفس الطريق ولكن الى ناحية أخرى بحيث لايفصلهم سوى ميلين حيث توفر لهم المرعى الطيب والماء الغزير.

---

(١) هكذا يحدد رانسيمان تاريخ الانطلاق من نيقيه، ج١، ص٢٦٠، فيما يذكر فوشيه الشارتري ان التحرك بدأ في اليوم الثالث قبل بدء شهر يوليو، ص(٤٧)، ويذكر وليم الصوري ان التحرك بدأ يوم ٢٩ يونيو، ص(٢٢٢)، بينما يغفل ريموندا جيل امثال هذه التواريخ، وحدد في Cam, med, hist, Vol.V, P.286 بيوم ٢٧ يونيو.

(٢) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٣٨.

(٣) اعتقد ريموندا جيل ان بوهيموند وبعض الامراء تصرف تصرفاً غير حكيم ، عندما انفصلوا عن الكونت ريموند والاسقف ادهيمار والدوق جودفروي ، ويعلل مترجم كتابه ايراده لهذه العبارة بأنه لم تسمح له مرتبته بحضور مجالس امراء الحملة، وبالتالي لم يعلم ان الأمراء قد عقدوا اجتماعاً اتفقوا فيه على تقسيم الجيش الى قسمين لحل مسألة التموين والتحرك الضخم، انظر هوامش الفصل الثالث حاشية رقم (٧)، ص٨٣ من كتاب ريموندا جيل.

(٤) المؤرخ المجهول ، ص٣٨، بينما يذكر رانسيمان ان الفاصل يوم واحد، ج١، ص(٢٦١) ويؤيده وليم الصوري حيث يذكر ان الجيش الثاني تحرك بعد مسيرة يوم ، ص (٢٢٢).

لم ييأس السلطان قلج أرسلان لما أصابه في نيقية، وزاده تصميماً فشله في استعادتها أن يعيد الكرة مرة اخرى، فكان أن اتجه الى الشرق وعقد اتفاقاً مع الأمراء الدانشمنديين لمواجهة الخطر الجديد الذي لم يكن يتوقعه أحد من أمراء آسيا الصغرى من الأتراك. وبدأ قلج أرسلان يبعث عيونه وجواسيسه لتتبع أثر الفرنج ومسيرتهم، فعلم أنهم سيمرون بوادي ضوريليوم فكمن لهم هناك(١).

وفاجأ السلطان قلج أرسلان بوهيموند بجيش كبير(٢) انطلق من الجبال، وهم يهللون ويكبرون(٣)، وتجمع الصليبيون من غير المقاتلين في وسط المعسكر حيث ينابيع المياه، وبعث بوهيموند برسول الى الجيش الثاني ليسارع الى نجدته، كما عقد اجتماعاً سريعاً مع قادته حثهم فيه على الاستعداد لخوض قتال عنيف وان يلتزموا أول الأمر خطة دفاعية، ولم يخالف أوامره الا فارس واحد، هو الذي سبق وأن جلس على كرسي الامبراطور الكسيوس كومنين بالقسطنطينية وتعرض للتأنيب من زملائه أمام الامبراطور(٤).

أحاط الترك من كل جانب بالصليبيين، واثخن بوهيموند بالجراح، واشتد التضييق على الصليبيين ولم يكن امامهم سوى الاستسلام، وزادت حرارة الجو في يوليه من مصاعبهم، واستولت الدهشة على الصليبيين من قوة قتال الترك، ومن مقدرة السلطان قلج أرسلان على جمع هذا العدد من المقاتلين(٥)، ولم ينقذ الصليبيين من الفناء في هذه المعركة الا وصول ريموند كونت تولوز الذي كانت قد وصلته استغاثه بوهيموند فأسرع بجيشه حيث وصل في منتصف النهار

---

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٢٣.

(٢) يقدره وليم الصوري، ص(٢٢٤) بأنه جاوز مائتي الف مقاتل سوى الخياله، ويقدره ريموندا جيل ص(٧٩) بمائة وخمسين الف مقاتل، وفوشيه يذهب بعيداً في المبالغة فيقدره بـ ٣٦٠,٠٠٠ مقاتل ، ص(٤٨) وكذلك المؤرخ المجهول ، ص(٤٠)

(٣) يذكر رانسيمان ان ذلك تم يوم ٢٠ يونيه ، وهذا خطأ اذ كيف يكون الجيش قد غادر نيقيه يوم ٢٦ يونيو ثم تكون معركته القادمة مع قلج ارسلان يوم ٢٠يونيو ؟ ! ، ومعظم المصادر والمراجع تذكر ان ذلك كان يوم ١ يوليو، انظر وليم الصوري ، ص٢٢٣، والمؤرخ المجهول ص (٤٢)، وايضا. Camb, med, hist, Vol.V, P.286 ويذكر ابن القلانسي ان ذلك تم يوم ٢٠ رجب سنة ٤٩٠هـ ، ص(١٣٤).

(٤) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٥٢.

(٥) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص ص ٣٩ ، ٤٠.

والتحم في القتال، مما قوى عزيمة الصليبيين وأضعف من قوة الترك، واستطاع الصليبيون إقامة جبهة طويلة، كان في ميسرتها بوهيموند وروبرت النورمندي وستيفن بلوا فيما كان في الوسط ريموند وروبرت فلاندرز، وفي ميمنتها جودفروي وهيوج، واخذ الصليبيون في القيام بهجوم شامل[١].

وبلغ عدد الذين سقطوا من قوات الافرنج قرابة الألفين حتى أن تانكريد كاد يقتل لولا الدور الذي لعبه بوهيموند في إنقاذه[٢]. انقلب ميزان المعركة الى جانب الافرنج حيث استطاعوا بالدعم الجديد الذي وصلهم، ان يحيلوا الانتصار الذي كاد قلج أرسلان أن يحققه الى هزيمة ساحقة للاتراك. إذ سرعان ما انهار جيش قلج أرسلان واخذ الناجون يلوذون بالفرار إلى الشرق، حتى إنهم لم يستطيعوا ازالة معسكرهم وخيمة السلطان، فظل قائماً حيث وقع في أيدي الصليبيين بما فيه من ذخائر وثروات، وجمع الصليبيون ما استطاعوا جمعه من خيل الأتراك لاستعمالها حيث أن خيولهم قد انهكت وقد قتل الكثير منها[٣]. كما استولوا على قوافل الجمال التي كانت معدة للحمل، وكانت هي المرة الأولى التي يتعرف فيها الافرنج على هذا النوع من الحيوانات الذي يستخدم في النقل[٤]. ويحدد وليم الصوري خسائر الافرنج بأربعة آلاف من العامه وقائدين من كبار القواد، بينما يحدد خسائر الترك البشرية بثلاثة آلاف من الرجال البارزين[٥].

ورغم هزيمة الترك إلا أن الفرنج قد أشادوا بشجاعتهم وقوة شكيمتهم وقدرتهم القتالية، وتمنى المؤرخ المجهول لو كان هؤلاء الترك نصارى خاصة وأنه يجمعهم ما يجمع الصليبيين من كره للدولة البيزنطية ومقاومتها[٦].

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٦٤.
(٢) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٢٥.
(٣) فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص٥٠.
(٤) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٢٧.
(٥) المصدر السابق ، ص ص ٢٢٧ ، ٢٢٨.
(٦) المؤرخ المجهول ، ص٤١.

وكان انتصار الفرنج هذه المرة انتصاراً مدوياً، فقد تصدوا لأكبر مجهود استطاع السلطان قلج أرسلان جمعه لمقاومتهم، ونستطيع أن نقول إن هذه الهزيمة التي تلقاها قلج أرسلان قد قضت على جهوده للتصدي للفرنج وأخرجته من ساحة المواجهة معهم.

من جانبهم فإن الفرنج أكدوا بذلك الانتصار الذي حققوه في ضورليوم ، انتصارهم السابق في نيقية ، وأصبحوا حقيقة واضحة على أرض الواقع في الصراع الجديد في الشرق الادنى، وقوة لايمكن الاستهانة بها او تجاهلها، ولم يكن وقع الهزيمة عظيماً على السلاجقة وحدهم بل على المسلمين قاطبة، ويصف ابن القلانسي أثر هذه الهزيمة بقوله « ... وتواصلت الأخبار بهذه النوبة المستبشعة في حق الاسلام فعظم القلق وزاد الخوف والفرق واشترى ملك الروم من السبي خلقاً كثيراً وحملهم الى القسطنطينية ...»[(١)].

لقد كان هذا النصر الصليبي في ضورليوم[(٢)] ايذاناً بفتح أبواب الأناضول أمامهم فأصبحت معنوياتهم أكثر مما كانت بعد سقوط نيقية ، فلم يوجد هنا من يشاركهم الغنائم ، وتراءى لهم انه ليس ثمة شيء سيقف في طريقهم، ولكن طريق القدس مازال طويلاً وعسيراً[(٣)].

وبعد أن استراح الصليبيون في ضورليوم يومين بدأوا يستعدون لمواصلة عبورهم آسيا الصغرى ، وتحركوا في ٣ يوليو في جمع متصل بعد أن وجدوا أن تقسيم الجيش لن يكون في مصلحتهم كما حدث في المرة السابقة ، وشقوا طريقهم نحو الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول حيث اجتازوا مضيق Polybotus ثم انحرفوا الى أنطاكية بيسيديا (أنطاكية الصغرى)[(٤)]

---

(١) ابن القلانسي : مصدر سابق ، ص١٣٤.

(٢) يرى رانسيمان ان المعركة الفاصلة لم تكن في ضورليوم (اسكى شهر الحاليه) وانما في سهل ساري سو Sari-su حيث السهل والجبال الغربية التي تنطبق عليها اوصاف المعركة. والتحديد الدقيق لمكان المعركة ما زال موضع نزاع ، وقد قام رانسيمان بزيارة الموقع والوقوف عليه، ووصل الى هذا الاستنتاج، انظر رانسيمان، مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٦٤.

(٣) انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد غسان سبانو ، ونبيل الجيرودي ، دمشق ، دار قتيبه ، ١٩٨٥م ، ص٧٢.

(٤) فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص٥٠.

والتي افلتت فيما يبدوا من تخريب بقايا جيش قلج أُرسلان الذي عمل خلال انسحابه على تخريب القرى والمدن التي يتوقع أن يمر بها الصليبيون ، حتى لايستفيدوا منها . وتيسر لهم في انطاكية الصغرى الحصول على المؤن والطعام والمياه ، ثم اجتازوا باشارة من مرشديهم البيزنطيين دروب جبل السلطان حتى إذا بلغوا فيلو ميلوم اتخذوا من جديد الطريق الرئيسي، واخذوا يجتازون الاقليم الصحراوي الموحش الذي يقع بين الجبال والصحراء ، ويشير وليم الصوري الى أن الرغبة في اختصار الطريق هو الذي دعاهم دون قصد الى النزول في إقليم جاف يكاد يكون باكمله خال من الماء، وصاروا بذلك فريسة لخطرين جسيمين : الظمأ وشدة قيظ يوليو ، فأخذ بعضهم في الهرب حتى إن الحوامل من النساء طرحن ما في بطونهن من شدة الظمأ والحر المهلك وكان ذلك حدثاً لم يسجل التاريخ له مثيلاً[(١)] .

واشتدت معاناة الصليبين وهم يقطعون هذا الاقليم الذي لم يكونوا متعودين على تضاريسه أو أجوائه ، حيث لم يجدوا من الماء إلا ما يتيسر لهم في المستنقعات المالحة في الصحراء ، ولم يجدوا من النبات الا أشجار الشوك التي حاولوا ان يطحنوها ويعلكوها، وقد نفقت معظم الجياد، واضطر الفرسان للترجل، ودفعهم نقص المطايا الى استعمال الثيران بدلاً من الجياد، ووسط حاجتهم الملحة استعملوا الماعز والخراف والكلاب لحمل الامتعة[(٢)] .

وصب الصليبيون غضبهم على مرافقيهم من البيزنطيين وأنهم هم الذين قادوهم الى هذا الطريق الموحش لانهاكهم، وبدأوا يرتابون في خيانتهم، وبدأت الكراهية تظهر بين الطرفين[(٣)] .

وفي منتصف أُغسطس ١٠٩٧م/رمضان ٤٩٠هـ بلغ الصليبيون قونيه، وكان قلج أُرسلان قد اتخذها عاصمة له، وجمع بها فلول جيشه[(٤)] ، ولكن ما إن سمع الترك بمقدم

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٢٩ .
(٢) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٤٤ .
(٣) Camb, med, hist, Vol. V , P.287.
(٤) حسن حبشي ، الحملة الصليبية الاولى ، مرجع سابق ، ص٩٤ . ويذكر ياقوت الحموي ان قونيه من اعظم مدن الاسلام بالروم وبها وباقصري القريبه منها سكنى ملوكها ، وبها قبر افلاطون الحكيم بالكنيسة التي في جنب الجامع ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤١٥ .

الصليبيين حتى تركوها وفروا الى الجبال يحملون ما يستطيعون من أمتعتهم المنقولة، ولم يسعفهم الوقت لتخريب البساتين والغدران التي تقع على نهر ميرام العذب الذي يروي المدينة، ووجد الصليبيون هنا ضالتهم من المياه والمطعم، وقد وصفها المؤرخ المجهول بأنها منطقة تفيض بالاطايب من المأكولات وتزخر بشتى انواع الحياة[١]. وأتيح للصليبيين هنا أن يعالجوا مرضاهم، وكان أهم مريضين هما : جودفروي الذي اصيب بجراح بالغة، لتعرضه لدب بري أثناء محاولة اصطياده[٢]، وريموند كونت تولوز الذي كان محمولاً على محفة وقد قارب الموت، حتى إن وليم اسقف اورانج قد جهزه طبقاً للطقوس النصرانية ايذاناً بقرب وفاته[٣]، الا أنه مالبث أن أبل من مرضه عقب هذه الاستراحة في قونية.

وعندما اراد الصليبيون التحرك بعد عدة أيام الى هرقليه نصحهم من بقونيه من الأرمن -وقد أبدوا تعاوناً معهم- ان يحملوا ما يستطيعون معهم من المياه ولما يكفي مسيرة يوم واحد.

قام السلاجقة في هرقلية بآخر محاولة لصد الصليبيين ولكنها كانت محاولة فاشلة حيث صادف الصليبيون في هرقلية جيشاً من الترك بقيادة الأمير حسن والامير الدانشمندي غازي كمشتكين[٤]، والظاهر أن الأميرين التركيين لم يكونا يريدان القتال وانما حماية املاكهم في قبادوقيا، وكانا يرغبان في الوصول إلى تفاهم مع الصليبين لاجتياز جبال طوروس بعيداً عن املاكهما، غير ان الصليبيين بادوروا بمهاجمتهم حيث قاد هجومهم بوهيموند، وسرعان ما آثر الترك الانسحاب صوب الشمال الى الجبال وتركوا المدن للصليبيين، فدخل الصليبيون هرقلة ولبثوا بها أربعة أيام[٥].

---

(١) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ج١ ، ص٤٤.
(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٦٨.
(٣) ريموندا جيل : مصدر سابق ، ص٧٩.
(٤) دائرة المعارف الاسلامية : مرجع سابق ، المجلد التاسع ، ص١١٤ ، وهرقليه مدينة ببلاد الروم سميت بهرقلة بنت الروم ، وكان هارون الرشيد قد غزاها بنفسه ثم فتحها عنوة بعد حصار وحرب شديدة ورمى بالنار والنفط اهلها، ياقوت الحموي ، ج٥ ، ص٣٩٨.
(٥) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٤٤.

بدأ النقاش مرة أخرى حول الطريق الذي يجب أن يسلكه الصليبيون في مرحلتهم الجديدة، ووضع أمامهم مرافقوهم البيزنطيون خيارات الطريق الذي يجب أن يسلكوه الا أن العلاقة بدأت تسوء بينهم وبين البيزنطيين، وأصبح الصليبيون يشكون في إخلاص البيزنطيين لهم ، فعلى مسافة قصيرة من الشرق الى هرقلية كان الطريق الرئيسي الذي يخترق جبال طوروس خلال الدرب الكبير المعروف بأبواب قليقية، ومنها يكون الطريق المباشر الذي يؤدي الى أنطاكية، واوضح لهم البيزنطيون عيوب هذا الطريق، فليس يسيراً أمام جيش ضخم وبطيء الحركة أن يجتاز ابواب قليقية، لأن الطريق في بعض مراحله يبلغ من شدة الضيق والانحدار ما يهيء لقوة معادية صغيرة الحجم تتركز في أي من الجبال العاليه المشرفة على الطريق أن تثير الاضطراب والفوضى في الجيش ، إلى جانب أن قليقية مازالت بأيدي الترك ، وأوضح لهم الادلاء البيزنطيون ان مناخ قليقية في سبتمبر بالغ السوء[١] ، ووضعوا أمامهم خياراً آخر هو الطريق الى قيصرية[٢] ، حيث أصبح الطريق اليها مفتوحاً في أعقاب الهزيمة الاخيرة للترك ، ومنها يتصلون بالطريق البيزنطي العسكري الذي يقودهم الى مرعش[٣] بعد اجتياز جبل اللكام او جبال طوروس الأمامية، ثم يهبط الى الدرب الواسع المنخفض من دروب الامانوس الى سهل أنطاكية[٤]. وأوضح لهم الادلاء البيزنطيون أن هذا الطريق هو طريق التجارة بين أنطاكية والقسطنطينية ، ومن مزاياه انه يجتاز بلاد يحكمها نصارى من أمراء الأرمن ومعظمهم مازالوا موالين للامبراطور.

---

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٦٩.

(٢) قيصرية : مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم، ومن المراكز الهامة في دولة بني سلجوق ، وبها موضع يقال انه حبس محمد بن الحنفيه بن علي ابن ابي طالب، وجامع ابي محمد البطال ، انظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤ ، ص٤٢١.

(٣) مرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم ، ولها سوران وخندق وفي وسطها حصن يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد الشهير بمروان الحمار ، ثم احدث الرشيد بعد سائر المدينة وبها ربض يعرف بالهارونيه ، وذكر ان السلطان قلج ارسلان كان له طباخ اسمه ابراهيم ، وكان في خدمته منذ صباه ، فرآه يوماً فقال له : يا ابراهيم انت طباخ حتى تصل الى القبر، فاجاب : هذا بيدك ايها السلطان ، فالتفت الى وزيره وقال له : وقع له مرعش ، واحضر القاضي ، والشهود لاشهدهم بأني قد ملكته اياها ولعقبه من بعده ، فذهب اليها وتسلمها وقام بها مدة ثم مرض فمات ، فصارت الى ولده من بعده ، انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص١٠٧.

(٤) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٧٠.

ونصح تاتكيوس بالتزام الخيار الثاني، الا أن معارضة شديدة قوبلت بها نصيحته، وخاصة من القادة المعارضين للامبراطور، وهنا يبدأ اول انفصال في الجيش الصليبي وأول خرق لاتفاقية القسطنطينية، وأول خطوة في تحقيق المصالح الشخصية للأمراء او لقادتهم الصليبيين، إذ أن تانكريد ومعه جماعته من نورمان جنوب ايطاليا، وبلدوين شقيق جودفروي، وجماعة من الفلمنكيين وعساكر اللورين ، عزموا على أن يفترقوا عن الجيش الرئيسي وأن يعبروا الى قليقية[١] .

كانت قليقية مركزاً لتجمعات أرمنية، وتعرف بارمينية الصغرى، وقد استطاع الأرمن في الربع الاخير من القرن الحادي عشر أن يقيموا لهم دولة فيما وراء جبال طوروس، تعرف باسم إمارة فلارتوس نسبة الى ملكها، وكانت مملكته نتيجة من نتائج هزيمة البيزنطيين في مانزكرت (ملاذكرد)[٢] واستمرت أوضاعها حتى وفاة فيلارتوس الأرمني سنة ١٠٩٠م/٤٨٣هـ، وان اخذت الامارة في التدهور، ثم تولى بعده توروس Thoros، الذي حاول توسيع حدود الامارة واعمارها وتنظيمها[٣]. واستطاع الأرمن المحافظة على استقلالهم من سلاجقة الروم، مستعينين بطبيعة إقليمهم الجغرافية التي جعلتهم بمنجاة من هجماتهم.

والواقع أن مسارعة بلدوين (شقيق جودفروي) الى الانضمام الى تانكريد في الانفصال عن الجيش ليس رغبة في دعم تانكريد أو مؤازرة له، ولكن جاءت بدافع استباقه الى الفريسة، فمما يذكر أن بلدوين قد تجمع لديه من المعلومات وهو في نيقيه الشيء الكثير الذي حرك اطماعه لتكوين امارة مستقلة لنفسه، فقد اتصل هناك برجل أرمني يدعى بغرات Bagrat الأرمني[٤] ، يعرف مجريات الامور في تلك النواحي واحوالها السياسية ، فتوثقت الصداقة بينهما ، وحصل منه على معلومات هامة عن احوال الأرمن وأوضاعهم وميولهم نحو حكامهم ،

(١) وليم الصوري، ص٢٣١ ، ويبرر وليم هذا الانفصال بان وراءه غرضاً واحداً لايختلفون فيه هو استطلاع الطرق واستشكاف الاقليم المجاور ، مع ان الحقيقة هي البحث عن مصالحهم الشخصية ، كما سنرى في الاحداث التالية.
(٢) حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ، مرجع سابق ، ص٩٦.
(٣) استارجيان (ك. ل) : تاريخ الامة الارمنية ، الموصل : مطبعة الاتحاد الجديد ، ١٩٥١م ، ص٢٠٧.
(٤) Albert d'Aix, P.350. نقلاً عن حسن حبشي ، ص٩٨.

ولفت نظره كثرة الامارات الأرمنية واستقلالها في الحكم عن بعضها، فانسحب في مجموعة تزيد عن تلك التي صحبها تانكريد ميمماً وجهه شطر أرمينية[١].

ومما يلفت النظر ان هذين القائدين بالذات كانا ممن فقدا فرصتهما في الغرب في تكوين إمارات مستقلة بهما او أن يكون لهما حكم خاص في اقطاعيات خاصة بهما في الغرب، لذلك ارادا ان ينتهزا هذه الفرصة في تكوين امارات خاصة بهما في الشرق. كما أن فرصتهما فيما بعد أمام الشخصيات الكبرى ستكون ضئيلة أيضاً، فالانفصال الآن يحقق لهما اهدافهما.

تحرك القائدان الصليبيان كل على حده، وليس في خطتهما سوى المطامع الشخصية، ومحاولة تأسيس إمارات مستقلة بهما بعيداً عن المنافسة الصليبية، والنفوذ البيزنطي.

كان تانكريد أسبق في الوصول الى طرسوس[٢] والتي كانت غالبية سكانها من النصارى الارمن، وليس بها سوى حامية تركية صغيرة، الا أن قوته التي لا تتعدى مائة فارس لم تستطع اقتحامها، فاخذت في حصارها واستطاع أن يتصل سراً بارمن المدينة الذين مدوا له يد المساعدة الا أن قوته لم تسعفه في الاستيلاء على المدينة فشدد في حصارها، وضرب معسكره خارجها[٣].

وكان بلدوين بعد أن اشتدت به الحاجة الى الطعام قد وصل صدفة الى مقربة من طرسوس حيث شاهد معسكر تانكريد فظنه معسكراً للأعداء. ولكن عندما اقترب منه وجده معسكر تانكريد[٤]، وسرعان ما اتحدت جهود الجيشين في محاصرة المدينة. وعندما شاهد

---

(١) Sidney Painter , Op. Cit, P.206.

(٢) طرسوس : مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم، عليها سوران وخندق واسع، ولها ستة ابواب ويشقها نهر البردان، وسبق وان استولى عليها نقفور فوكاس اثناء حملاته سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م، ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٢٨.

(٣) وليم الصوري : مصدر سابق، ص٢٣٦.

(٤) هناك من يرى ان تانكريد هو الذي استدعى مجموعة بلدوين اليه لمعاونته في الاستيلاء على طرسوس بعد ان فشل بقوته الصغيرة في اقتحامها، وذلك بخلاف الرواية التي يرويها وليم الصوري، انظر : Albert d'Aix , P.350 نقلاً عن حسن حبشي، ص٩٩. وستثبت الاحداث بعد ذلك ان هذه الرواية غير صحيحة.

الترك مقدم الجيش الجديد تركوا قلعتها وفروا هاربين ، فلما أُشرق الصباح وعرف خلو القلعه من حاميتها، فتح أرمن المدينة أبوابها لتانكريد - وكانوا أميل إليه -[١] فدخل المدينة ورفع راياته عليها، واغضب بلدوين استيلاء تانكريد على طرسوس ولما كان هو أيضاً له اتصاله بسكانها، فإنه انزعج لذلك ، واخذ يسب تانكريد ويهدد بتخريب المدينة إذا لم تنزل راية تانكريد، وشعر القائد النورماني أن قواته لاتعينه على مقاومة بلدوين ، ففضل تحمل الهزيمة وترك طرسوس لبلدوين، الذي رفع رايته عليها وانفرد بحكمها[٢]. ورحل تانكريد إلى بلدة مجاورة هي «اذنه»[٣] ، ولكن فرنجياً آخر اسمه جيلف[٤] من البرجندين كان قد سبقه واستولى عليها، وكان أحد الذين انفصلوا عن الجيش الرئيسي الصليبي واخذ يعمل لحسابه ، وهاجم الحامية التركية باذنه واستولى عليها واستحوذ لنفسه ما وجده بها من ثروات[٥]. وعندما وصلها تانكريد وهو غاضب أشد الغضب من تصرف بلدوين، بعث جماعة من رجاله يطلبون الإذن من "جيلف" للسماح لهم بالتزود بالمؤن من اذنه، فسمح لهم بعد اخذ التعهدات، وعند الصباح غادرها متوجهاً الى المصيصة[٦].

من جانبه فإن بلدوين الذي خلصت له طرسوس ، فوجيء بجماعة نورمانيه تصل الى المدينة وتطلب دخولها[٧] ؛ هي في الحقيقة النجدة التي كان طلبها تانكريد عند محاصرته

---

(١) حسن حبشي : مرجع سابق ، ص٩٩

(٢) المؤرخ المجهول ، ص٤٥ ، فوشيه الشارتري ، ص٥٢ والجدير بالذكر ان فوشيه قد صحب بلدوين في انفصاله عن الجيش الرئيسي وتوجه معه الى طرسوس.

(٣) اذنه : عمرت سنة ١٩٠هـ علي يدي ابي سليم وهو قائد تركي للرشيد ، الذي ولاه الثغور وهو الذي عمر طرسوس وعين زربه ، ولاذنه نهر يقال له سيحان ،ولها ثمانية ابواب وخندق وسور وهي قريبة من المصيصه ، انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص١٣٣.

(٤) يسميه رانسيمان "ولف" ويرجح أنه سار اولاً مع جيش بلدوين ثم انفصل عنه التماساً للكسب والغنيمة، انظر : رانسيمان ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٨٣.

(٥) وليم الصوري :مصدر سابق ، ص٢٣٩.

(٦) المصيصة : مدينة على شاطيء جيحان من ثغور الشام ، بين انطاكية وبلاد الروم وتقارب طرسوس ، تنسب الى معمرها وهو مصيصه ابن الروم بن اليمني بن سام بن نوح، واشتهرت بصناعة الفراء الذي يحمل الى أرجاء العالم، ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ ، ص١٤٤.

(٧) كان عددهم ثلاثمائة نورماني من جماعة بوهيموند.

لطرسوس ، ولكن بلدوين رفض دخولهم إلى المدينة خوفاً من غدرهم ، فعسكروا خارجها ، وفي الصباح وجدوا جثثاً هامدة إذ هاجمتهم حامية تركية وقضت عليهم عن بكرة أبيهم ، وبلغت أخبارهم تانكريد الذي كان قد استولى على المصيصة في أكتوبر ١٠٩٧م/ذي الحجة ٤٩٠هـ حيث رحب به سكانها الأرمن[1]، وبدأ الغضب النصراني في طرسوس من تصرف بلدوين وحملوه مسؤلية الذين قتلوا حيث رفض احتماءهم بالمدينة، وكادت ان تقع ثورة ضده ، ولم ينجده سوى وصول فرقة أوروبية وصلت الى طرسوس، وكان في أشد الحاجة الى دعمها وكانت هذه الفرقة بقيادة بحار اسمه جينمار البولوني الذي كان يرأس مجموعة من القراصنة الدانمركيين والفلاندرزيين الذين جاؤا للمشاركة في الحملة تكفيراً عن ذنوبهم السابقة وسرعان ما انضموا الى بلدوين وكونوا قوة اخذ يستولى بمساعدتها على عدة مدن، وعندما ظهر بلدوين بجيشه أمام المصيصة التي كان تانكريد قد استولى عليها، رفض السماح له بدخول المدينة انتقاماً لمقتل النورمان الذين سبق وان رفض بلدوين دخولهم طرسوس وخوفاً من منافسته عليها، وما لبثت المعركة أن اشتعلت بين الخصمين الفرنجيين[2]، وتبدت هنا أكثر من أي مكان آخر المطامع الشخصية للصليبيين وميولهم ودوافعهم التي كانت تحركهم.

إن نظرة على هذه الجموع الصليبية بالقيادات الثلاث : بلدوين ، تانكريد ، وجيلف ، هي تأكيد على ان هذه الجموع اللاتينية جاءت وهي تحركها دوافع ومطامع أخرى ، غير تلك التي صورت بها الحملة الصليبية، وسيكونوا طلائع هذه الافكار والمطامع والدوافع التي ما لبثت ان تسيطرت على القادة الآخرين .

لم ينته الصراع بين بلدوين وتانكريد على مهزوم، ثم رأي الطرفان أن المنطقة أكبر من أن تحصر في صراعهما، وأن في الأرض متسعاً لطموحاتهما ودوافعهما، ولذلك ترك بلدوين المصيصه، وصحبته جماعته الى الشرق حيث اخذوا يستولون على مزيد من المدن الأرمنية

---

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٤٢.

(٢) حسن حبشي : الحرب الصليبية الاولى ، ص١٠١.

والسلجوقية كان أهمها تل باشر التي سلمها الأرمن لبلدوين[(١)].

وعاد بلدوين للالتحاق بالجيش الرئيسي ليس لأنه عاد إلى صوابه ولكن لأنه سمع بأن زوجته وأطفاله مرضى وان شقيقه جودفروي يعاني من المرض هو ايضاً، وبعد وفاة زوجته "جودهيلد" عاد بلدوين الى الشرق ليواصل أحلامه وطموحاته في الاراضي الارمنية والسلجوقية.

ومن جانبه فإن تانكريد قد انفرد بالاستيلاء على قليقية واخذ الأرمن نتيجة لتزايد قوته يتنافسون في المبادرة بإرسال الرسل والهدايا إليه علهم يكسبون وده وحمايته[(٢)].

وشعر بلدوين أنه لم يحقق مطامعه ، وأن تانكريد قد فوت عليه فرصة تكوين إمارة مستقلة ، ولم يقنع بما استولى عليه حتى الآن من مدن وقلاع فيمم وجهه شطر الرها، وما كاد يصل الى عينتاب[(٣)] حتى اتجه ناحية الشرق، وتخلي عن الاتجاه الى الجنوب حيث أنطاكية، وهناك وصلته رسل من توروس أمير الرها ، تستنجد به ضد السلاجقة والبيزنطيين ، وكان دافع توروس للاستنجاد به ما اشيع من أن كربوقا أمير الموصل يتجهز بحملة لانقاذ أنطاكية من محاصريها الصليبين -كما سنطالع عند تتبع تحرك الجيش الرئيسي- وهناك وجد بلدوين ينتظره ما هو أكثر من الاستنجاد، إذ أن توروس العجوز والذي لم يكن قد ترك وريثاً قد اتخذه ولداً وشريكاً له في الحكم[(٤)]. الا أن بلدوين اخذ يسعى للانفراد بالحكم مستغلاً العداء الذي يقابل به المواطنين الأرمن حاكمهم توروس فدبر بلدوين مؤامرة ذهب ضحيتها توروس، ومالبث أن قتل عند خروجه منفياً من المدينة هو وزوجته وانفرد بلدوين بالحكم وثبت أقدامه في الرها (اوديسا) وبدأ يسوم اهلها سوء العذاب، وينزع إلى إيثار الفرنجة في معظم الادارات

---

(١) فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص٥٢. وتل باشر قلعه حصينه وكوره واسعه في شمال حلب ، وبينها وبين حلب يومان ، واهلها نصارى أرمن ، ولها ربض واسواق عامره ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٠.

(٢) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٤٧.

(٣) عينتاب : قلعه حصينه ، تقع بين مدينة حلب وانطاكية كانت تعرف بدلوك وهي من اعمال حلب ، ياقوت معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٧٦.

(٤) فوشيه الشارتري : ص٥٣ ، والمعروف ان فوشيه هو مؤرخ بلدوين وقسيسه.

والوظائف المدنية والحربية[١].

كان بلدوين وتانكريد هما أول من أفصح عن نواياهما وحقيقة دوافعهما من المشاركة في الحملة الصليبية الأولى، إذ ما لبثا أن وجدا الفرصة سانحة حتى أخذا يعملان على تحقيق مطامعهما الشخصية قبل أن تنفذ الحملة هدفها الرئيسي وهو الاستيلاء على بيت المقدس فعند أول فرصة انفصلا عن الجيش الرئيسي وذهبا لتجريب حظهما، وإقامة الإمارات المستقلة بهما بعيداً عن منافسة القاده الآخرين من الجيش الصليبي، وبعيداً عن نفوذ الدولة البيزنطية.

وبالرغم من أن الرها تاريخياً، وبحكم تبعية توروس للامبراطور كانت تابعة للدولة البيزنطية إلا أن بلدوين لم يكن حريصاً على الوفاء بتعهداته للامبراطور، ولم يعر اهتماماً لحقيقة تبعيتها للدولة البيزنطية فقد خرق اتفاقية القسطنطينيه وكون فيها حكومة لاتينية صرفة، أما الامبراطور الذي كان مشغولاً في ذلك الوقت بتوسيع دائرة نفوذه في آسيا الصغرى، ولم يكن عندئذ في مركز يسمح له بالمطالبة بحقوقه في الرها، لبعدها اولاً عن قوة مركز الامبراطورية ، ولانشغاله في استعادة أراضي آسيا الصغرى ، ليلتقي بالصليبين بعد ذلك في أنطاكية ، فنجده يؤجل هذه المطالبة ، ويتغاضى مؤقتاً عن ما حدث في الرها[٢]. على أن بلدوين استغل هذا التغاضي في تحقيق مزيد من التوسع لأمارته اللاتينيه والتي ستصير أول الإمارات اللاتينية بالشرق في القيام ، وأولها أيضاً في السقوط.

وقد خبر الامبراطور الكسيوس كومنين بلدوين شقيق جودفروي ووجد فيه عدواً شرساً وقائداً عنيداً ولكنه لم يكن يتوقع أن يكون أول الخارجين على اتفاقية القسطنطينية، بالرغم من أنه كان أحد الموقعين عليها وأحد الذين أعطوا تعهداتهم للامبراطور، على أن هذا التصرف أكد للامبراطور أن شكوكه في قادة الحملة الصليبية كانت في محلها ، وقد أكدتها سابقة خبرته بهم وجديد تعامله معهم.

---

(١) حسن حبشي : الحملة الصليبية الاولى ، مرجع سابق ، ص١٠٨.

(٢) Setton , Op. Cit. , Vol., I , P.304.

هذا عن الجزء الذي انفصل عن الجيش أما الجيش الرئيسي، فقد تحرك نحو قيصرية -كما اشار تاتكيوس- وعند قرية «اوجستابوليس» التقت به فرقة من الأتراك بقيادة الأمير حسن ، ولكنهم كانوا قوة قليلة وسرعان ما هزموا أمام الصليبين[١].

وحرص القادة الصليبيون على أن لايضيعوا الكثير من وقتهم في هذه المناطق وطلب أمير ارمني اسمه سمعان أن يحكمها باسم الامبراطور فأعطيت له. وواصلوا سيرهم حتى بلغوا قيصريه فوجدوها خاوية وقد خربها الترك ، فلم يقفوا بها وتحركوا إلى مدينة كومانا Comana - ويسميها البيزنطيون Placentia - وكان يحاصرها الدانشمنديون، ولكن ما أن رأوا الصليبين حتى تركوها واختفوا بعد أن حاصروها ثلاثة اسابيع، وكانت وافرة الغنى والرخاء ، ويسكنها الأرمن[٢]. ورشح تاتكيوس لحكم المدينة فارس بروفنسالي هو بطرس الأبوسي، فلاقى الخيار قبولاً لدى الطرفين، فالفرنج وافقوا عليه لأنه فرنجي وتاتكيوس رشحه لأنه سبق وعمل في خدمة الإمبراطور[٣].

وسار الجيش من هناك صوب الجنوب الشرقي الى كوكسن[٤]، وهي مدينة وافرة الثروة والرخاء، يسكنها الارمن، فاقاموا بها ثلاثة أيام واستقبلهم السكان بالمودة وحصلوا على تموينات وافرة من المؤن، وانضم إليهم عدد وافر من أرمنها[٥].

---

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٧٠.

(٢) المؤرخ المجهول : مصدر سابق، ص٤٦، والجدير بالذكر ان فوشيه لم يذكر هذه الاحداث لأنه كان موجوداً في حملة بلدوين، وريموند جيل اغفلها تماماً، وآنا كومنين كانت مشغولة بتتبع تحركات والدها الامبراطور في آسيا الصغرى.

(٣) كان بطرس الابوسي (Petrus de Alpibus) من الفرسان البروفنساليين وقد قدم مع روبرت جويسكارد أثناء قتاله للامبراطور ثم دخل في خدمة الكسيوس كومنين مثل كثيرين من جيش جو يسكارد في اعقاب هزيمته، بل انه كان احدهم ويدعى "جي" أخ غير شقيق لبوهيموند ، وكان قد شارك في حملة ابيه جويسكارد سنة ١٠٨٤م/٤٧٧هـ غير انه ترك جيش ابيه وانضم الى خصمه الامبراطور ودخل في خدمته انظر : المؤرخ المجهول ، ص٤٦ ، هامش رقم (٣).

(٤) كوكسن Coxon هي جكشن الحالية في تركيه ويسميها المؤرخ المجهول جسكو ، ص٤٦.

(٥) استار جيان : مرجع سابق ، ص٢٠٧.

واصبح الجيش قريباً من انطاكية ، وسرت إشاعة في المعسكر الصليبي أن الحامية التركية في أنطاكية قد تخلت عنها وهربت ، فما كان من ريموند الصنجيلي الا أن أُسرع بعد التشاور مع خاصة قادته الى إرسال مجموعة مكونة من خمسمائة فارس من جيشه بقيادة بطرس كاستيون (القشتالي) للاستيلاء على المدينة ، والاستحواذ بها لنفسه(١).

والواقع أن ريموند أُسرع في هذا التصرف حتى لاينافسه بقية الصليبيين على المدينة، وهو دلالة على أنه حتى القادة الكبار في الجيش الصليبي بدأوا يبحثون لأنفسهم عن إمارات خاصة.

ولما عاد بوهيموند إلى المعسكر، وكان غائباً عنه في مجموعة من رجاله لمطاردة الدانشمنديين استاء لهذا التصرف من ريموند كونت تولوز وعرف نواياه، ومنذ تلك اللحظة سيبدأ تنافس الرجلين للفوز بانطاكية واضحاً وسافراً. غير أن تلك المجموعة التي بعثها ريموند سرعان ما اكتشفت كذب الاشاعة وأن ما حدث غير ذلك إذ أن المدينة وصلتها إمدادات جديدة، وأراد بطرس القشتالي أن يعود الى الجيش ولكن أُحد القادة المرافقين له ويدعى بطرس رويكس(٢) انفصل بمن معه ودخل وادي الروج(٣)، واستولى على بعض القلاع بمساعدة الأرمن ، وبعد قتال سريع استسلم له عدد من الحصون.

وصادف الجيش الرئيسي الذي اخذ يجتاز كوكسن ظروفاً طبيعية قاسية ، اذ كانوا وقتذاك في أوائل أكتوبر حيث اخذت أُمطار الربيع تنهمر بغزارة ، واجتازوا جبل اللكام بالغ الوعورة ، حيث ساروا في منحنيات شديدة الانحدار ، فاخذت طوابير من الجياد ، والدواب تسقط في الوادي، ولم يجرؤ أحد من الصليبيين ان يمتطي دابة خوفاً من سقوطها في الوادي

---

(١) ثبت ان هذه الاشاعة كاذبة ولكنها حملت مؤشراً هاماً على تنافس القادة الصليبيين، حيث ان ريموند اختار الفرسان من جيشه ولم يشاور بقية قادة الجيش الصليبي، وانما انفرد بالقرار والتصرف.

(٢) ويسميه المؤرخ المجهول بطرس روبيه ، ص٤٧.

(٣) الروج تعرف في المراجع الغربية باسم Rusa وواديها يقع الى الشرق من انطاكية على الطريق الى حلب ، وقد اقام بها الصليبيون بعد ذلك قلعة تسمى Chasel Rouge ، عن تحديدها انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٢، ص١٢٨.

شديد الانحدار، وحرص الفرسان على التخلص مما معهم من عتاد لسهولة الحمل، إما بالبيع لمن ليس معه سلاح أو بالتخلص منها في الطريق، وصبوا جام غضبهم على ادلائهم البيزنطيين، ولم يخرجوا من غمهم الا عند الوصول إلى مرعش وكان وصولهم إليها في ١٣ اكتوبر ١٠٩٧م/٤٩٠هـ.

ومكثوا اياماً في مرعش بعد ان رحب بهم حاكمها ثاتول وسكانها الأرمن ، وقد أقر ثاتول في منصبه حيث أنه كان موظفاً بيزنطياً[١] . وهناك لحق بهم بوهيموند ، وجاء بلدوين ليلقي النظرة الاخيرة على زوجته التي توفيت هنا، ثم عاد الى الشرق حيث الرها ، ومن هناك تحرك الجيش الى وادي نهر العاصي (الاورنت) حيث أشرفوا على حدود مدينة أنطاكية والتي وصلوها في ٢٠ اكتوبر ١٠٩٧م/ذي القعدة ٤٩٠هـ.

وصل الجيش الصليبي اخيراً إلى أنطاكية ليبدأ مرحلة هامة من مراحل الحملة الصليبية الأولى، ولتكتسب العلاقات بين الصليبيين والامبراطور البيزنطي سمة جديدة هي التوتر والاختلاف وتبادل الاتهامات بالخيانة، فمنذ أن وصل الجيش الى أنطاكية بدا وكأن اتفاقية القسطنطينية أصبحت غير ذات جدوى او مكان، كما أن العلاقة بين الطرفين دخلت مفترقاً جديداً وطوراً حاسماً.

وإذا نظرنا إلى رحلة الجيش الصليبي من نيقية الى أنطاكية نجد أن هناك الكثير من الاختراقات قد تعرضت لها اتفاقية القسطنطينية، فبلدوين وتانكريد ظهر واضحاً أن همهما الأول كان البحث عن مكاسبهما الشخصية ، بل إنهما انفصلا عن الجيش الرئيسي ليخدما هذه الأغراض ويؤسسا لنفسيهما إمارات ودويلات مستقلة.

وكثيراً ما أدى التضارب في المصالح بين الرجلين إلى القتال، وقد اشتد الصراع والشك بينهما لدرجة أن بلدوين رفض أن يأوي في طرسوس جماعة من النورمان خوفاً من انقلابهم عليه.

ولم تكن التطلعات والأغراض الشخصية خاصة بالقادة الكبار وإنما شملت أيضاً صغار القادة والكونتات.

---

(٤) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٢٧٣.

كما ظهر واضحاً تبرم الصليبيين من الادلاء البيزنطيين الذين كانوا يرافقون الحملة، مما ينبيء أن التعاون بين الطرفين اخذ يتدرج في الصعوبة يوماً عن يوم، وكاد الموقف أن يصل بين الطرفين الى درجة الانفجار.

كما أن تاتكيوس القائد البيزنطي المرافق للحملة ، رغم خبرته بمراحل الطريق ، إلا أنه وجد من الصليبيين من يخرج على مشورته وعلى رأيه ، ولولا دبلوماسيته وخبرته لما استطاع ان يحافظ على مسيرة الحملة ، وقد أعانته هذه الدبلوماسية في الاتفاق معهم على بعض القادة الذين سلمت اليهم المدن التي استولى عليها الصليبيون في آسيا الصغرى ليحكموها باسم الامبراطور ، كما نصت الاتفاقية ، على أن الصليبيين شعروا أن هناك نقصاً في التموين في بعض نواحي الطريق حملوا مسؤليته للامبراطور ومندوبه الذي كان مكلفاً بأن يسهل لهم ذلك.

كما ظهر أن هناك خلافاً بين قيادتين من قيادة الجيش هما بوهيموند وريموند الصنجيلي، فقد كان كل منهما يحاذر الآخر، ويسعى لأن يسبقه للفوز بالغنائم، كما حدث عند ظهور اشاعة تخلي الترك عن حماية انطاكية، ومسارعة ريموند إلى بعث فرقة من رجاله للاستيلاء عليها وغضب بوهيموند منه.

كما ظهر أن العقيدة الدينية او "الايدولوجية" التي دفعت هؤلاء النصارى اللاتين لترك ديارهم والاتجاه الى الشرق كانت تتوارى وتختفي وتحل محلها الرغبة في الانتقام وتحقيق الأهداف والمطامع الخاصة، ولكن التعصب الديني ما يلبث أن يظهر بوضوح عند الأزمات وعندما يتعرضون لأي معوقات طبيعية أو ضغط عسكري[1] . كما أن العناصر الأرمنية النصرانية لعبت دوراً كبيراً في تسهيل مهمتهم وتجاوز العقبات التي تعرضوا لها ، وان دور هؤلاء وأثرهم كان ملموساً في الكثير من المواقف والمواقع ، فقد سهلوا عليهم اقتحام كثير من الحصون والاستيلاء على عدد من المدن ، ودلوهم على كثير من عورات المسلمين وتآمروا معهم وناصروهم ، وقادوهم في مجاهل الطرق وأرشدوهم الى تجمعات الأتراك المسلمين ، وسهلوا لهم

---

(٤) د. قاسم عبده قاسم : الخلفية الايدولوجية للحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ص١٩٨.

إقامة أول إماراتهم في الشرق وهي امارة الرها ، وليس أدل على حرص بلدوين على مطامعه الشخصية من اشتراكه في المؤامرة اللئيمة ضد توروس أمير الرها الذي تبناه واتخذه شريكاً ووليا في حكم إمارة الرها ، ولكنه عرضه للطرد والموت عبر المؤامرة التي اشترك في تدبيرها ضده ، وأعانه عليها أرمن المدينة.

وأهم ما نستخلصه من تتبع مسيرة الجيش الصليبي حتى أنطاكية أن التوترات في الموقف بين الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين وبين قادة الحملة الصليبية الأولى قد تراكمت ، ومالبثت أن انفجرت عندما بدأوا في محاصرة أنطاكية ثم الاستيلاء عليها بعد ذلك ليصبح العداء سافراً بين الطرفين.

المسألة الانطاكية وتوتر العلاقات بين الامبراطور البيزنطي واللاتين

أخيراً وصل الجيش الصليبي الى انطاكية[١]، وبدأ في محاصرتها. وكان القادة قد اجتمعوا وعقدوا مؤتمراً وهم على مقربة منها حيث اقترح بعضهم أن يؤجلوا حصارها حتى مطلع الربيع نظراً لقرب دخول الشتاء، ولتشتت الجند في المدن والقلاع المختلفة، وانتظاراً لما اعتزمه الامبراطور الكسيوس من ارسال فرقة كبيرة من قوته، والكتائب الجديدة المتوقع قدومها من أوروبا للانضمام الى الجيش الصليبي والتي سيكون لها دور في الاستيلاء على المدينة وتقوية مركز الصليبيين، على أن وجهة نظر أخرى رأت المبادرة الى حصار المدينة لما في ذلك من تفويت الفرصة على أهل انطاكية لدعم وسائل دفاعهم، وتحسباً لوصول مساعدات خارجية اليهم لذلك تقرر المباشرة في حصار المدينة[٢].

ومن جانبه اتخذ أمير أنطاكية باغي سيان عدة اجراءات ليضمن حماية المدينة فبدأ اولاً بتكديس المؤن والطعام في الداخل، كما عمد الى إخراج النصارى من المدينة خوفاً من

---

(١) انطاكية: تقع مدينة انطاكية على نهر العاصي (الاورنت) على مسافة ١٢ ميلاًمن البحر، وانشأها سنة ٣٠٠ ق.م سيلوقوس الاول ملك سوريا، واطلق عليها اسم ابيه انطيوخس، وفي زمن الرومان اصبحت ثالث مدن العالم. ضربها في القرن السادس الميلادي زلزال عنيف، وتعرضت للنهب على ايدي الفرس، وفتحها المسلمون على يد ابي عبيده عامر بن الجراح سنه ٣٢هـ/٩٣٨م، اثناء فتح الشام، وبقيت في يد المسلمين حتى استولى عليها الامبراطور نقفور فوكاس سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، ثم عادت الى ايدي المسلمين عندما فتحها سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٥م، فلما مات انتقلت الى حوزة السلطان ملكشاه فعين عليها باغي سيان التركي حاكماً لها، وحكمها مدة ١٠ سنوات.

وتتمتع المدينة بجغرافية فريدة فهي على شكل دائرة قطرها متصل بالجبل والاسوار تصعد مع الجبل فتتم دائرة يبلغ محيطها اثني عشر ميلاً، ويمكن اجتيازها عن طريق عدة ابواب ويتم حراسة هذه الاسوار عن طريق ثلاثمائة وستين برجاً، وعدد شرفاتها حوالي اربعة وعشرون الف شرفه، وفي اقصى جنوبها توجد قلعة حصينة لايمكن اختراقها. ومن الملاحظ ان فتح انطاكية على يد السلاجقة تم على ايدي الصليبيين لم يتم الا عن طريق الخيانة من داخلها، حتى ان صلاح الدين في اوج قوته وجد ان امرها يطول، ولم تسقط المدينة بالسيف الا في عهد الظاهر بيبرس المملوكي لأنه لم يكن بداخلها من يدافع عنها. فهي مدينة هائلة التحصين. وكانت انطاكية عزيزة على النصارى فقد اقام بها بطرس اول اسقفية، وبها العديد من الكنائس معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع. انظر: ابن الاثير: الكامل، ج٨، ص١٢٦؛ ياقوت الحموي. معجم البلدان، ج١، ص٣٥٤؛ اسد رستم: كنيسة انطاكية، ج٢، ص٢٦٨؛ رانسيمان: مرجع سابق، ج١، ص٣٠٣.

(٢) وليم الصوري: مصدر سابق، ص٢٨١.

خيانتهم[١]. وكان معظم رعايا أنطاكية من النصارى الأرمن واليونانيين والسريان ، وكان ياغي سيان يعاملهم بالتسامح حتى إنه أجاز للبطريرك يوحنا الرابع ان يقيم في المدينة وان يمارس طقوسه الدينية ، ولكن عندما اقتربت انباء الحملة الصليبية أودعه باعتباره رأس اكبر جالية في أنطاكية السجن ، ووضعت كاتدرائية القديس بطرس تحت التحفظ ، وان كان هناك من يذكر أنها تحولت الى اسطبل لخيول ياغي سيان[٢].

كما أنه اخذ يلتمس النجدة من حلفائه من الأمراء المسلمين، ووجه رسله وفي مقدمتهم ابنه شمس الدولة[٣] لطلب العون ، فاستعد لنجدته دقاق أمير دمشق وجناح الدولة أمير حمص وكربوقا امير الموصل ، ورفض رضوان أمير حلب أن يبذل اي مساعدة انتقاماً لما بدر من ياغي سيان في السنة الماضية[٤]. كما استعد أيضاً أرسلان تاش صاحب سنجار ، وسكمان ابن رتق أمير ديار بكر وغيرهم من الأمراء[٥].

باشر الصليبيون محاصرة أنطاكية ، فاحتل بوهيموند القطاع المواجه لباب القديس بولص ، واتخذ ريموند موضعه في القطاع المواجه لباب الكلب ، ونزل جودفروي إلى يمين ريموند تجاه باب الدوق[٦] . أما الجيوش الباقية فاتخذت مواقعها خلف بوهيموند ، واستعدت لأن تتحرك حيث تكون الحاجة ماسه إليها ، وخلا باب الجسر وباب القديس جورج من أي قوات ، غير أن العمل مالبث أن بدأ في إقامة جسر من السفن لاجتياز النهر من معسكر جودفروي إلى

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج٨ ، ص١٨٦.
(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٠٤.
(٣) يسميه فوشيه الشارتري : سانكسادو ، فوشيه : مصدر سابق ، ص٥٤.
(٤) رغم ان ياغي سيان يعتبر رسمياً تابعاً لرضوان صاحب حلب ، الا انه لجأ الى الايقاع بين رضوان ومنافسيه امير دمشق وامير الموصل ، وغدر برضوان اثناء القتال مع دقاق ، على ان ما بذله ياغي سيان من المساعدة لدقاق لم يمكنه من الاستيلاء على حلب ، ولم يغفر له رضوان هذه الخيانة ، ولذلك رفض مساعدته عندما استعان به ضد الفرنج على الرغم مما في ذلك من قصر نظر سياسي. انظر : ابن الاثير : الكامل ، ج٨ ، ص١٨٤.
(٥) ابن الاثير : مصدر سابق ، ج٨ ، ص١٨٧.
(٦) سمى بذلك الاسم منذ ان عسكر الدوق جودفروي امامه ، واخذ يقيم عدة انشاءات واستحكامات ، انظر وليم الصوري ، مصدر سابق ، ص٢٨٣.

قرية تاليكي حيث تقع مقبرة المسلمين ، كما جرت المبادرة بإقامة معسكر بشمال الجسر[١] وهكذا أحاط الصليبيون بالمدينة وبدأوا حصاراً طويلاً ، وبدأ الفريقان المحاصَرين والمحاصِرين ينتظرون النجدات وان لم تختف المناوشات بين الطرفين.

وهنا برز الخلاف بين اثنين من قادة الحملة هما بوهيموند وريموند، وبلغ التوتر في العلاقة بينهما أقصاه ، اذ يبدو أن بوهيموند اخذ يخطط للاستحواذ على مدينة أنطاكية دون بقية الأمراء لذلك بدأ يدبر أمر الاستيلاء عليها دون تعريضها لنهب الجيش الصليبي ، محاكياً خطة الامبراطور الكسيوس عند حصار نيقية.

وبدأت أمام أنطاكية حرب من نوع جديد هي حرب الجواسيس، فاستخدم بوهيموند عدداً من النصارى المبعدين عن أنطاكية، والذين مازال لهم أقارب داخل المدينة لإمداده بالمعلومات، وكذلك استعان ياغي سيان بالسريان الذين لم يظهروا ميلاً كبيراً نحو الصليبيين واخذوا يمدونه بمعلومات عن المعسكر الصليبي، وعلم منهم أسباب إحجامهم عن مهاجمة المدينة والخلافات التي بين القادة الصليبيين ، وبدأ يرتب إرسال فرق تخترق المعسكر الصليبي وتحدث فيه أضراراً بالغة.

ووصل للصليبين وهم يحاصرون أنطاكية أول مدد غربي حيث قدم من جنوة أسطول مكون من ثلاثة عشر سفينة، وكانت هذه أول استجابة جنويه لدعوة البابا أوربان الثاني ، وجلبت هذه السفن الامداد من المؤن والرجال[٢] مما رفع الروح المعنوية لدى الصليبين.

ولكن وبعد مرور ثلاثة أشهر على الحصار بدأ تناقص ملحوظ في المعسكر الصليبي وبدأت المعاناة ، والواقع أن الصليبين حينما أقبلوا على سهل أنطاكية وجدوه زاخراً بالمؤن ، والمواشي وعلف الجياد ، وتوقعوا أن يستمر ذلك ، ويعلق وليم الصوري على ذلك بقوله : «وتوهم الناس - جرياً على عادة الجهال - أنهم سوف يظلون ناعمين بهذا الوضع السوي ، ومن ثم لم يحسنوا التصرف فيما بين أيديهم من خيرات ... ولم يكن هناك حد للإسراف مما نجم عنه

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٠٨.
(٢) المؤرخ المجهول ، ص٦٠ ، وكان وصولهم يوم ١٧ نوفمبر ١٠٩٧م.

أن أصبح الجيش باجمعه موشكاً على الفناء ، وانتشرت المجاعة وبدأ التناقص في عدد المحاربين... »[١] وبدأ عدد من المحاربين يفكر في الهرب، وتقرر عقد مجلس اتفق فيه الأمراء على إرسال فرقتين من الجيش بقيادة بوهيموند وروبرت فلاندرز اللذين غادرا المعسكر في ٢٨ ديسمبر/محرم ٤٩١هـ للبحث عن الطعام ، وتكفل ريموند كونت تولوز وادهيمار بالقيادة في المعسكر[٢]. وعندما علم ياغي سيان برحيلهم قام في اليوم التالي بهجوم قوي وانقض عبر الجسر على الصليبيين الذين عسكروا شمال نهر العاصي (الاورنت) ولكن ريموند استطاع أن ينقذ الموقف ويرد هجوم الترك ، وبينما كان الفرسان الصليبيون يطاردون حصاناً بلا فارس فوق الجسر، ظن المشاة أن ذلك انسحاباً من الفرسان ، فقامت الفوضى والاضطراب في الفرسان المتراصين على الجسر، وساد الذعر بين الصليبيين وقتل عدد كبير منهم ، وعلى رأسهم هرقليوس Heraclius حامل راية ادهيمار[٣].

كان بوهيموند وروبرت كونت فلاندرز قد توجها ناحية الجنوب ولذلك لم يكونا يعلمان بالأحداث التي وقعت خارج أنطاكية، وفي الطريق التقى جيش روبرت بنجدة اسلامية كانت في طريقها الى أنطاكية ، إذ أن دقاق أمير دمشق وطغتكين كانا يصحبان شمس الدولة بن ياغي سيان لنجدة أنطاكية وعند حماه انحاز اليهما أميرها بجيشه وتجمعوا في ٣٠ ديسمبر في شيزر، وهناك أعدوا كميناً لروبرت الذي كان يسبق جيش بوهيموند وكادوا أن يظفروا به لو لا أن سارع بوهيموند لانقاذه ، وأنزل خسارة فادحة بجيش دمشق الذي سارع للاحتماء بحماه ، وعادت الفرقتان الصليبيتان مسرعة الى المعسكر خارج أنطاكية مكتفين بهزيمة اول نجدة تحاول إنقاذ أنطاكية من محاصريها[٤].

---

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٩٢.

(٢) ريموندا جيل : مصدر سابق ، ص٨٨.

(٣) المصدر السابق ، ص٨٩ ، وحاشية رقم (٩) ص ٩٥.

(٤) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٥٢.

زادت الأحوال سوءاً في المعسكر الصليبي ، وبدأت الاوبئة في التفشي وازداد الفرار من المعسكر، وكاد الجيش يصل الى نصف ما كان عليه عند بدء الحصار[١]. وفي الأول من يناير ١٠٩٨م/٤٩١هـ وقعت هزة أرضية[٢]، وفي الأسابيع التالية انهمرت الأمطار دون انقطاع ، واشتدت البرودة وشعر الصليبيون باليأس، وبدأت الدعوات تنهال على مختلف مناطق النصارى الأرمن لامدادهم بالطعام ، والذين وجدوا في ازمة المعسكر الصليبي تجارة مفيدة، حيث اخذ الأرمن والسريان يفدون الى المعسكر الصليبي ومعهم القليل مما استطاعوا جمعه. لقد بلغت المجاعة حداً أن الصليبين أكلوا الخيول والحمير والجمال والكلاب والجآذر، بل ان الفقراء منهم أكلوا جلود الحيوانات وبذور الحبوب التي وجدوها في روث الماشية[٣].

وزاد في بؤس الصليبيين حين وصلتهم الاخبار بمقتل نرمين ابن ملك الدانمركيين والذي خرج في حملة لانجاد الصليبيين ، وبعد ان استقبله الامبراطور ورحب به واصل رحلته الى انطاكية ، لكن الأتراك أعدوا له كميناً هووجيشه الذي بلغ الف وخمسمائة مقاتل حيث أغاروا عليه عند مدينة فيلو مليون وقتلوه ، وعندما وصل خبر مقتله الى الجيش الصليبي امام أنطاكية زادهم ذلك بؤساً على بؤسهم[٤].

وكلما ازدادت حدة المجاعة ازداد عدد الجنود الذين يفرون من المعسكر، ولم يعد الفرار خاصاً بصغار الجند وانما وصل الى كبارهم حتى أن بطرس الناسك ووليم النجار، فرا ذات ليلة، ولكن تانكريد استطاع اللحاق بهما وأعادهما الى المعسكر الصليبي، وتعرضا للتأنيب، ثم تعهدا بعدم تكرار الفرار، الا أن وليم سرعان ما كرر المحاولة وفر من المعسكر. ويذكر المؤرخ المجهول بأنه لم يبق في المعسكر من الفرسان أصحاب الجياد السليمه سوى الف فارس[٥].

---

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٩٣.
(٢) ريموندا جيل : مصدر سابق ، ص٩١.
(٣) فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص٥٦.
(٤) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٢٨٦.
(٥) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٥٦.

وسط هذه الظروف بدأ بوهيموند يحكم خطته للاستيلاء على أنطاكية، والاستحواذ عليها لنفسه، ووجد أن هناك معوقين او منافسين أمامه للحصول على المدينة، أولهما ريموند الصنجيلي، وثانيهما تاتكيوس البيزنطي، فبدأ بأن بث في المعسكر الصليبي رغبته في الرحيل بجنوده وبرر ذلك بأنه إتخذ ذلك القرار لأنه رأى رجاله وخيوله تموت من الجوع، فضلاً عن ذلك فإنه رجل ذو امكانيات محدودة لاتكفي ثروته الشخصية لحصار مطول، وهدف من ذلك الى إحراج القيادات الاخرى، والى اظهار مدى حاجة الصليبيين الى قيادة مثله في هذه الظروف الصعبة، وتحقق له ما هدف اليه إذ أن الصليبين توسلوا اليه وأعطوه من الوعود والتنازلات ما أراد.

وعندما علم ريموند الصنجيلي بخطته وحتى لايتأثر رجاله بها، سارع الى إسقاطها بأن جمع قادته والأسقف ادهيمار، وفي نهاية الاجتماع وزع خمسمائة مارك على المجموعة ، واشترط عليهم اذا فقد أي واحد من الفرسان حصانه يعطي واحداً آخر بدلاً منه من الخمسمائة مارك ، ومن أرصدة أخرى وضعها لهذا الغرض[١].

ثم اتجه بوهيموند الى تاتكيوس وبدأ يحاول معه بالارهاب والتخويف حتى يغادر المعسكر الصليبي وهنا تتعدد الروايات عن اسباب رحيل تاتكيوس ومغادرة المعسكر الصليبي، فبينما يذكر المؤرخون اللاتين ان ذلك عائد الى خوفه وجبنه بعد أن بدأت أخبار ورود حملة إسلامية قوية لنجدة أنطاكية تتواصل في المعسكر الصليبي، وأنه حضر اجتماعاً للقادة حاول اقناعهم فيه بترك حصار أنطاكية والتراجع الى القلاع القريبة[٢]، وعندما لم يستجيبوا له أخبرهم بعزمه على مغادرته ليذهب الى الامبراطور ، ويحثه على الاسراع في نجدتهم ، نجد آنا كومنين تذكر ان بوهيموند قد ابدع خطة شيطانية لابعاد تاتكيوس عن المعسكر الصليبي ، وأنه أرسل له ذات يوم وأخبره في سرية تامة أن القادة الآخرين يعتبرون الامبراطور مسؤولاً عن

---

(١) ريموندا جيل ، ص٩١ ، ويعلق مترجم كتاب (ريموندا جيل) بأنه بهذه المنحه قد وضع اساس نظام الاخوة brother hood الذي تطور بعد ذلك في الجيش الصليبي الى المنظمات الصليبية . مع العلم ان الكثير من المنظمات الصليبية قد تطورت عن المنظمات التي نشأت مبكراً خلال فترات الحج الاولى.

(٢) المؤرخ المجهول ، ص٥٦ ؛ ريموندا جيل ، ص٩١ ؛ وليم الصوري ، ص٢٩٩.

تشجيع الترك ، وعن أُحوالهم السيئة، وأن القوات الاسلامية القادمة جاءت بناء على أُوامر الامبراطور، وأن الأُمراء يتآمرون لقتله انتقاماً لأنفسهم، وذكر له بأنه من واقع مسؤوليته عن سلامته وسلامة رجاله، وصداقته للامبراطور يخبره بهذا السر، وأُخبره أُن الخطر وشيك وأن عليه أن يفكر في حياته وحياة رجاله، وأن يختار ما يراه مفيداً له. وتذكر آنا كومنين ان تاتكيوس خاف، خاصة وانه رأي بحكم خبرته استحالة اختراق أُسوار أُنطاكية، فركب هو ورجاله السفن الراسية في ميناء السويدية(١)، ومنها توجه الى قبرص(٢).

وبرحيل تاتكيوس تخلص بوهيموند من أخطر معارضيه للاستحواذ على المدينة ، وحيث استطاع بوهيموند أن يدخل في مفاوضات مع أحد حراس الأُبراج من الأرمن لتسليمه المدينة فقد اخذ يضغط في المعسكر الصليبي للحصول على تعهد من بقية الامراء على تسليمه أُنطاكية إذا استطاع اقتحامها، وساعدته الظروف السيئة التي كان يمر بها المعسكر الصليبي في الحصول على هذا التعهد فبعد أن أُخبرهم بأن الامبراطور الكسيوس كومنين قد تخلى عنهم عرض جميع القادة ماعدا ريموند كونت تولوز تسليم أُنطاكية إلى بوهيموند في حالة الاستيلاء عليها(٣).

أُصبح بوهيموند بالتفويض الجديد سيد المعسكر الصليبي دون منازع ، مما أُتاح له فرصة التخطيط للاستيلاء على المدينة، واخذ يوغر صدور بقية اللاتين على الامبراطور الكسيوس كومنين وعلى تصرفه معهم، وبدأ يستعرض الخطط التي ستتيح له الاستيلاء على المدينة، ولم يكن أُمامه سوى منفذ واحد هو الحصول عليها عن طريق الخيانة، وبدأ يركز في هذا الجانب ويوليه اهتمامه ويحيطه بالسرية.

واحسن بوهيموند استغلال الشك الذي كان مسيطراً على الصليبين تجاه نوايا البيزنطيين: إمبراطوراً وجنداً وشعباً ، إذ أن بوهيموند كان يرى سبباً واحداً لبقاء تاتكيوس في

---

(١) يسميه الصليبيون ميناء سان سيمون ، وهي مدينة ساحليه تقع عند مصب نهر العاصي (الاورنت) ، وكان قد استولى عليها الجنويه عند بداية حصار انطاكية.
(٢) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص ص١٥٤ ، ١٥٥.
(٣) ريموندا جيل : مصدر سابق ، ص٩٢.

الحملة هو تعويق حصوله على أنطاكية التي كان يفكر بها حتى وهو مازال في القسطنطينيه ، وسبق أن طلبها بعد أن أقسم يمين الولاء للامبراطور الكسيوس كومنين.

لقد اعتقد بوهيموند أن بقاء تاتكيوس سيشكل مانعاً دون حصوله على أنطاكية وأنهم لو تمكنوا من الاستيلاء على أنطاكية بعد الجهد الكبير الذي بذلوه وسيبذلوه فإن مندوب الامبراطور سيقوم بالاستحواذ عليها بموجب اتفاقية القسطنطينية. وقد حز في نفسه أن يكون بلدوين شقيق جودفروي قد استطاع تكوين امارة خاصة به، بينما هو تكاد احلامه ان تتحطم أمام صخرة أنطاكية، ولم يجد وسيلة امامه سوى خديعة تاتكيوس وإرغامه على الرحيل، ويستطيع فيما بعد ان يصور رحيله على أنه تخلٍ من الامبراطور البيزنطي عن وعده للصليبين، وعن مساعدتهم والتي كانت تمثلها كتيبة تاتكيوس.

وبرحيل تاتكيوس وما صور به، وبتفويض بقية القادة له حكم أنطاكية -ما عدا ريموند- داعب خيال بوهيموند مرة أخرى حلم تكوين إمارة في الشرق يكون مركزها أنطاكية ، وبعيداً عن نفوذ الدولة البيزنطية ، وبدأ يجتهد في تحقيق هذا الحلم.

استطاع بوهيموند أن يحبط النجدة الثانية التي اقبلت لانقاذ أنطاكية ، فقد لجأ ياغي سيان الى سيده السابق رضوان أمير حلب، الذي عفى عنه وأعلن استعداده لنجدته، وتجمع جيش اسلامي بقيادة أمير حلب وأمير ديار بكر وأمير حماة، واستطاع الحلف الجديد أن يستعيد قلعة حارم[(١)] في اوائل فبراير سنة ١٠٩٨م/٤٩١هـ. واحتشدوا بها كيما يهاجموا المعسكر الصليبي[(٢)]. وعقد الصليبيون اجتماعاً برئاسة بوهيموند قرروا فيه بقاء المشاة في المعسكر لحراسته، أما الفرسان فعليهم المبادرة الى مهاجمة القادمين، وفي ٨ فبراير وعند حلول الليل تسلل الفرسان من المعسكر الصليبي وعند الفجر هاجموا جيش رضوان وحلفائه في ضغط شديد فتراجعوا وحلت بهم الهزيمة واستعاد الصليبيون قلعة حارم[(٣)].

---

(١) قلعة حارم تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً عن انطاكية الى الشرق منها، ويذكر المؤرخ المجهول (ص٥٠) ان الصليبيين قد استطاعوا هزيمة حاميتها، ولكنه يبدو انهم لم يستطيعوا ان يبقوا به حامية تستطيع الدفاع عنها.

(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٢٠.

(٣) المؤرخ المجهول ، ص٥٩.

وشد هذا النصر من عزيمة الصليبين، وارتفعت روحهم المعنوية وجاءت كميات من المؤن والأطعمة الى ميناء السويدية قادمة من قبرص، جمعها كل من البطريرك الذي وصلته استغاثة الصليبيين، وتاتكيوس الذي كان قد وصل الى قبرص، كما وصل أسطول بقيادة ادجار اثلنج المطالب بعرش انجلترا وكان يعيش في المنفى حيث التحق بخدمة الامبراطور البيزنطي الذي قام بشحن كثير من المؤن للصليبيين مما يؤكد ان الامبراطور مازال عند وعده للصليبيين بتزويدهم بالمؤن، ولكن الصليبيين رفضوا أن يعترفوا بهذه الحقيقة[١].

وكان الصليبيون قد فكروا في بناء برج على الضفة الشمالية الغربية منهم، إلا أن النقص في مواد البناء والبنائين، قد أعوزهم فأجلوا الشروع فيه، وعندما وصلتهم أنباء الأسطول الذي وصل الى السويدية انتقل اليها ريموند وبوهيموند، وكان يكفي ان يذهب أحدهما، ولكن عدم توفر الثقة بينهما أدى إلى ذهابهما جميعاً لمرافقة الصناع وادوات الحصار، وعند عودتهما الى المعسكر في ٦ مارس ١٠٩٨م تعرضا لكمين اعده الأتراك ، فتركوا ما بأيديهم من مواد حصار وفروا هاربين، وانتشرت إشاعة في المعسكر الصليبي بأن بوهيموند وريموند قد قتلا[٢]، وتجهز جودفروي لإنقاذ الجيش المهزوم قائداً مجموعة من الفرسان استطاعوا ان ينقذوا زملاءهم ووجدوا هناك ريموند وبوهيموند، حيث استطاعا رد المغيرين الترك وهزيمتهم واستعادوا أدوات البناء، وبلغ قتلى الترك كما يذكر المؤرخ المجهول ١٥٠٠ قتيل[٣]. وعندما حاول الترك في مساء ذلك اليوم دفن موتاهم في مقبرة المحمرة ، قام الصليبيون في اليوم التالي بنبش قبورهم واخرجوهم كي ينزعوا ما عليها من الذهب والفضة.

واستطاع الصليبيون بناء قلعة المنبر ، التي سميت بعد ذلك بقلعة ريموند بناء على الحاحه واكتمل بناؤها في ١٤ مارس[٤]، كما بنيت قلعة ثانية في أبريل سنة ١٠٩٨م وأوكلت

(١) رانسيمان : المرجع سابق ، ج١ ، ص٣٢٢.
(٢) وليم الصوري ، ص٣١٨.
(٣) المؤرخ المجهول ، ص٦٢.
(٤) ريموندا جيل ، ص١٠٨.

الى تانكريد وقدم له كونت ريموند الصنجيلي مبلغ مائة مارك فضي ليتقوى بها على حماية القلعة ، وقدم له آخرون المساعدة[١] ، وبذلك أمكن إحكام الحصار على أنطاكية[٢] .

وفي الربيع اقبلت سفارة مصرية الى المعسكر الصليبي، وكانت إحدى نصائح الامبراطور للصليبيين ان يحسنوا الاستفادة من الأعداء التقليديين للسلاجقة في المنطقة وكان الفاطميون في المقدمة، والواقع ان السفارة المصرية جاءت تحمل مشروعاً للتعاون مع الصليبيين ولتأمين أراضيها في فلسطين، وكان من بين هذه الأراضي مدينة القدس، مما يؤكد أن الفاطميين لم يفطنوا الى حقيقة الحركة الصليبيه واعتبروا الصليبيين جنداً مأجورين للامبراطور، فنجدهم يعرضون مشروعاً لاقتسام الاراضي السلجوقية فيحوز الصليبيون شمال الشام، بينما تأخذ مصر فلسطين، على أساس الأوضاع التي كانت سائدة قبل استحواذ السلاجقة على بلاد الشام[٣] واستطاع الصليبيون استغلال هذه السفارة وحصلوا منها من المزايا ما يساعد على تدبير المؤامرات ضد الدولة الاسلامية، كما فعلوا مع صاحب حلب ودمشق ليثبطوهما عن نجدة انطاكية ، فقد كتبوا اليهما اننا لانريد سوى البلاد التي كانت بيد الروم[٤] .

وبدأت الأخبار تصل الى المعسكر الصليبي عن تحرك الجيش الكبير القادم من الموصل، بقيادة كربوقا[٥] لنجدة انطاكية. وازداد التوتر بين الصليبيين ، وشعروا انهم اذا لم يستولوا على المدينة فإنهم واقعون لامحالة بين مطرقة الجيش القادم وسندان الجيش الذي يحاصرونه في أنطاكية ، وكان أول ما فعلوه أن تذكروا الامبراطور الكسيوس كومنين ، فبعثوا اليه نداء حاراً

---

(١) المصدر السابق ، ص١١٠.
(٢) وليم الصوري ، ص٣٢٨.
(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج٨ ، ص١٨٦.
ويذهب ابن الاثير بعيداً في امر العلاقات بين الصليبيين والفاطميين فيذكر : «ان اصحاب مصر من الصليبيين (ويقصدد الفاطميين) لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزه ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ودخول الافسيس الى مصر وحصرها ، فخافوا وارسلوا الى الفرنج ، يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين والله اعلم».
(٤) نفس المصدر ، ونفس الصفحة.
(٥) يذكر ريموندا جيل الموصل باسم كورزان Corozan ، ولكنه يخطيء فيخلط بين نجدة كربوقا ونجدة رضوان بن تتش صاحب حلب ، والتي سبق وان تصدى لها الصليبيون ، ريموندا جيل ، ص١٠٣.

يلتمسون فيه النهوض لنجدتهم[(١)]، وكان الامبراطور قد أكمل العديد من جولاته في آسيا الصغرى وحقق الكثير من الانتصارات واستعاد الي حوزته عدداً من المواقع، وبدأ يستعد فعلاً لنجدة الصليبين والاتصال بهم وأصبح قريباً منهم حيث وصل الى فليو مليون وبصحبته جيش كبير يزمع المسير به لنجدة الصليبيين[(٢)]. إلا أن بوهيموند شعر بالضيق والقلق من هذه الدعوة للامبراطور، لأن معناها حرمانه من احلامه في الاستيلاء على انطاكية والاستحواذ عليها لنفسه، كما أن وصول الامبراطور ومساعدته في الاستيلاء على المدينة او على الاقل هزيمة الجيش الجديد القادم، هي كلها امور معطلة لخطة بوهيموند. على ان بوهيموند لم يتراخ واعاد فتح النقاش مع الأمراء، الذين كرروا له التزامهم بوعدهم السابق له ماعدا ريموند الذي اصر على موقفه، وجرى الاتفاق بعد شيء من النقاش والجدل على أنه إذا كان عسكر بوهيموند هم اول من يدخل الى انطاكية، واذا لم يقدم الامبراطور، فان بوهيموند ينفرد بالمدينة، ومع ذلك فإن ريموند اعترض على هذا القرار، لأنه كان يعتقد أن الامبراطور قادم لامحالة، وأنه لامبرر لانفراد بوهيموند بأنطاكية، ولكن بوهيموند شعر بالاطمئنان لهذا القرار لأنه كان لديه ما يدبره[(٣)].

وفي هذه الأثناء وقع حدثان هامان ساعدا بوهيموند كثيراً في اتمام خطته، فقد هرب من معسكر الصليبيين الكونت ستيفن بلوا ومعه رجاله[(٤)]، واستطاع أن يغذ السير للعودة إلى

(١) رانسيمان، ج١، ص٣٢٧.

(٢) آنا كومنين، ص١٦١، ومدينة فليومليون هي مدينة آق شهر الحالية في تركيا.

(٣) Edward M. Halme , Op. Cit. , P.479.

(٤) فوشيه الشارتري، ص٥٧؛ وليم الصوري، ص٣٣١؛ ويذكر وليم ان ستيفن لم يهرب وانما هو سأل اخوانه ان يأذنوا له -وقد تعلل بالمرض- ان يفارقهم ليذهب الى الساحل مستصحباً معه خدمه واتباعه وكل ما يملك، وانه ذاهب الى الاسكندرونه ثم يعود اليهم، وان ما أخذه معه كانوا اربعة آلاف رجل كانوا في معيته، ولما رأوا اثر ما فعله اتهموه بالخيانة وانه اتى فعلاً مشيناً، وحدث هروبه يوم ٢ يونيه ١٠٩٨م اي اليوم الذي سبق سقوط انطاكية في يد الصليبيين.

أوروبا ، وإذا به يلتقي بالامبراطور الكسيوس كومنين عند فيلوميلون القريبة من طرسوس، وهناك أقنعه بأنه لاجدوى من نجدته وأن الصليبيين قد هزموا وشتت جيشهم ولا أمل في إنقاذهم، وأن الجيش القادم من الموصل في طريقه لقطع طريق الامبراطور، ودفعت هذه الأنباء التي نقلها ستيفن كونت بلوا ومرافقيه الامبراطور الى أن يعدل عن خط سيره ، ورأى من الحكمة أن يعود لحماية عاصمته من ارتداد الترك عليه[١] .

والحدث الثاني الذي استفاد منه بوهيموند أن كربوقا بدلاً من ان يبادر الى مهاجمة الصليبيين المحاصرين لأنطاكية ، انحرف لمواجهة بلدوين اولاً في الرها ، وامضى ثلاثة أسابيع هامة في حصارها كانت كافية لأن يتدبر بوهيموند أمره في أنطاكية ، وبرغم انفاق كربوقا لهذه الاسابيع الثلاثة الا أنه لم يستطع التغلب على بلدوين[٢] .

لقد عمل هذان الحدثان عملهما في تمكين بوهيموند من المضي قدماً في خطته ، فالأول عطل وصول الامبراطور الكسيوس كومنين ، والثاني عطل وصول كربوقا وأعطاه الوقت اللازم لانجاح خطته التي رسمها منذ وقت مبكر.

كان بوهيموند قد عمل منذ فترة طويلة على الاتصال بأحد حراس أبراج المدينة الذي أبدى استعداده للتعاون معه وخيانة اميره ياغي سيان، ولم تعدمه الحيلة او الوسيلة لذلك، فالأرمن والسريان كانوا كثيراً ما يفدون الى المعسكر الصليبي ويستطيعون في نفس الوقت أن يصلوا الى المدينة وينقلوا أسرارها، وساعد طول فترة الحصار الذي استمر فترة تزيد على تسعة أشهر[٣] على ايجاد نوع من العلاقات والصلات بين المحاصِرين والمحَاصَرين، كما أن امتداد فترة الحصار جعلت بوهيموند يدرك انه لاسبيل الى الاستيلاء على المدينة الا عن طريق الخيانة، وبدأ بوهيموند يتقرب من أحد الحراس الذي كانوا على استعداد للخيانة ، وكان أرمنياً يدعى

---

(١) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٦٢.

(٢) ابو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغري بردي) : النجوم الزاهرة في ملك مصر والقاهرة، القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٧٢م ، ج٥ ، ص١٤٦.

(٣) استمر الحصار من ٢٠ اكتوبر ١٠٩٧م الى ٣ يونيو ١٠٩٨م.

فيروز[(١)] ، ويتولى مسؤلية الدفاع عن أحد أبراج المدينة ، هو برج الاختين الشقيقتين ، والذي كان يواجه قلعة تانكريد. ويبدو ان محاولات التفاهم بين بوهيموند وفيروز قد اخذت وقتاً قبل أن يستقر الاتفاق على الليلة التي تقرر فيها تنفيذ العملية ، وهكذا تم الاتفاق بين الجانبين على أن يتم اقتحام المدينة في مساء الثالث من مايو عام ١٠٩٨م/٢٦ جمادى الآخرة ٤٩١هـ ، وتمثلت الخطة بان يوهم الصليبيون الترك بأنهم راحلون لمواجة كربوقا ثم عند منتصف الليل ينقضون على أحد الأبراج في الناحية الغربية حيث يسهل لهم فيروز دخول المدينة وفتح ابوابها ليتدفق الصليبيون الى داخلها[(٢)].

واستطاع الصليبيون بعد طول عناء وتعب أن يدخلوا الى أنطاكية وسيطروا عليها ، وفي اليوم التالي وجد ياغي سيان حاكم المدينة مقتولاً ، إذ قتله احد الأرمن واخذ رأسه الى بوهيموند الذي قدم له مكافأة مجزية.

---

(١) يسميه ابن الاثير «روزبه» ويقول انه كان زراداً ، ثم اصبح احد المستحفظين للابراج ، وانه كان يتولى حفظ برج يلي الوادي، الكامل، ج٨، ص١٨٦ ، بينما يذكر المؤرخ المجهول انه كان يتولى حراسة ثلاثة ابراج ص(٦٨)، ويسميه ابن القلانسي فيروز ص (١٣٦) وكذلك يسمبه ابوالمحاسن (ج٥ ، ص١٤٦). ولم تهتم المصادر العربية باصله اكان ارمنياً أم تركياً ، اما المصادر اللاتينيه فتختلف في اصله ، فبعضها يقول انه تركي ، والبعض الآخر يقول انه ارمني. ويذكر ابن القلانسي ان فيروز كان غاضباً على ياغي سيان لمصادرته بعض امواله واخذ غلته ، اما المصادر الاجنبيه فتضيف سبباً آخر وهو ان زوجة فيروز قد خانته مع احد الترك ، فوجد في خيانة ياغي سيان انتقاماً لشرفه ، وانه كان متردداً في خيانة سيده الى ان تأكد له خيانتها. ويعطيه وليم الصوري من التضخيم والمكانه والشرف ما يفوق وضعه، ويقول ان الصداقة قد قامت بينه وبين بوهيموند طوال مدة الحصار وانه كان يزدوه بالمعلومات ، ويذكر نصاً لرسالة بعث بها فيروز الى بوهيموند مليئة بالمودة توضح له طريقة الاستيلاء على المدينة، وليم الصوري ، (ص ص٣٣٤، ٣٣٧). كما يذكر وليم ان فيروز قد قتل اخاه عندما علم بمعارضته لما انتواه من خيانة ياغي سيان ، (ص٣٥٥).

أما ريموندا جيل -مؤرخ ريموند الصنجيلي منافس بوهيموند- فإن روايته توحي بان اتفاق فيروز كان مع جميع القادة الصليبيين ، وليس مع بوهيموند وحده ، وهدفه معروف بالطبع من هذا التعميم ، ريموندا جيل ، ص١١٩. اما فوشيه الشارتري وبحكم انه كان تسيساً فيسرد رواية لخيانة فيروز سرداً دينياً صليبياً ، يذكر ان الرب - تعالى الله عما يصفون - ظهر في المنام لتركي معين وقال له انهض ايها النائم ، اني آمرك ان ترجع هذه المدينة الى النصارى ، وانه ظهر له مرة ثانية وثالثة حتى استسلم واخذ يخطط مع الصليبيين سراً لتمكينهم من الاستيلاء على انطاكية ، فوشيه : مصدر سابق ، (ص ص٥٧ ، ٥٨).

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ، مصدر سابق ، ص١٢٣. والغريب ان ابن العبري يذكر ان الصليبين قد حاصروا القسطنطينية ٩ اعوام حتى سمح لهم الامبراطور بالعبور الى بلاد الشام، ويسمى فيروز بـ «رزباه الفارسي» ويذكر انه حصل على ذهب نظير خيانته.

إن الحدث الذي يهمنا هنا بالدرجة الاولى هو نكوص الامبراطور الكسيوس كومنين ، وعودته الى عاصمته بعد ان كان متوجهاً لنجدة الصليبين كما وعدهم، إذ أن بوهيموند استطاع استغلال هذا الموقف من الامبراطور بالغ الاستغلال في دعم مطالبته بانطاكية. والواقع أن حضور الامبراطور الى أنطاكية حتى بعد استيلاء الصليبيين عليها كان مطلوباً، وكان يمكن لو حدث أن يغير ميزان القوى، وأن يغير مجرى الاحداث، إذ أن الصليبيين بعد أن استولوا على انطاكية وجدوا انفسهم هذه المرة هم المحاصرين وتعرضوا لضغط شديد من جيش كربوقا، وكانوا في أشد الحاجة الى أي قوة تفك عنهم هذا الحصار.

فالامبراطور البيزنطي -كما تؤكد ابنته- كان عازماً أشد العزم على التوجه لنصرة الصليبيين ومساعدتهم، وكان يقود جيشه في جوف آسيا الصغرى على الرغم من ان كثيراً من مستشاريه نصحوه بعدم القيام بحملات متعددة بعيداً عن عاصمته في مناطق ليست آمنة بعد وتحفل بالكثير من الأعداء ، إلا أنه كان عازماً على تنفيذ هدفه ونجدة الصليبيين، ولكن حدث في منتصف يونيه ١٠٩٨م/رجب ٤٩١هـ وبينما كان يستعد لمواصلة سيره أن ظهر في المعسكر البيزنطي ستيفن كونت بلوا ووليم النجار قادمين من طرسوس لمقابلة الامبراطور بعد أن سمعا بقربهما من مواضعه، وهناك أخبراه بالأوضاع التي كانت سائدة أثناء حصار الصليبين لانطاكية، وما يمر به الصليبيون حتى يوم رحيلهما في ٢ يونيه، وأكدوا له أن الصليبيين لاشك قد هلكوا وان جيشهم قد تحطم[١]. وفي نفس الوقت وصل الى المعسكر البيزنطي بطرس اولب الذي سبق ان تسلم حكم كومانا باسم الامبراطور، فقد تخلى عن موقعه وجاء مسرعاً الى الامبراطور يخبره بان جيشاً تركياً يمضي في زحفه لقتاله قبل أن يبلغ أنطاكية[٢]. ولم يجد الامبراطور ما يدعوه الى ان يشك في اقوال هذين اللاتينيين خاصة وانه يعلم انهما كانا صادقين معه ، فالأول سبق وأن اشاد بالامبراطور كثيراً وأحبه وأحب كرمه ، والثاني وإن كان فرنجياً إلا أنه عمل في

---

(١) آنا كومنين :مصدر سابق ، ص١٦٢.

(٢) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ،ص٣٤٩.

خدمة الامبراطور منذ فترة طويلة. وانطلاقاً من ان الامبراطور لم يكن رجلاً مغامراً وانما كان أمامه مسئولية تأمين دولة، ورعاية مصالحها، فإنه رأى في مواصلة سيره الى أنطاكية مغامرة محفوفة بالمخاطر، وإن مسئولية مصالح دولته تحتم عليه العودة الى عاصمته، ليتدبر أمر الدفاع عنها أمام الهجمات الجديدة المتوقعة(١). على أن الامبراطور عقد مجلساً لقادته ومستشاريه تداول معهم الامر، وكان من بين هيئة قيادته امير نورماني يعرف باسم "جاي" وهو أخ غير شقيق لبوهيموند ابن روبرت جويسكارد (٢)، تأثر كثيراً بما حدث لأبناء جلدته ولأخيه فحاول إقناع الامبراطور بمواصلة المسير لعل هناك ما يستطيعون عمله، الا أنه لم يوجد في المعسكر البيزنطي من يساند مطالبات جاي، فأخذ الامبراطور بمشورة قادته وعاد الى عاصمته، بعد أن أمر بتخريب المسالك ليعطل على الأتراك استخدامها في هجومهم المرتقب(٣).

وحينما نما الى علم الصليبين الذين كانوا الآن محاصرين داخل أنطاكية خبر نكوص الامبراطور وتراجعه اشتدت كراهيتهم له ، وضاعف مقدار الشك والريبة والكراهية التي حملها اللاتين اصلاً للاغريق وامبراطورهم ، وستكون هذه العودة واحدة من النقاط الجديدة التي يرتكز عليها بوهيموند في إيغار صدور اللاتين على البيزنطيين وتأكيد استحقاقه في الانفراد بأنطاكية دون اعارة اتفاقية القسطنطينية أي اهتمام.

على أن الصليبيين على الرغم من ذلك انحوا باللوم على ستيفن كونت بلوا، الذي حرمهم من مساعدة كانوا في مسيس الحاجة اليها ، واتهموا عمله بانه عمل لايمكن غفرانه أبداً وأنه صادر عن نزعة شريرة يأباها الشرف(٤).

---

(١) Camb. med , hist, Vol,V. P.294.

(٢) سبقت الاشارة الى ان هذا النورماني اخ لبوهيموند، كما سبقت الاشارة الى كيفية التحاقه بخدمة الدولة البيزنطية ، ويسميه وليم الصوري باسم «جيدو» ويقول انه حاول ان يعترض على رواية ستيفن ويتهمه بالجبن ، ولكن وليم دي جراند مينزل - والذي يصفه وليم الصوري بانه شريف المولد لا الخلق وانه صهر بوهيموند- قام باسكات جيدو ، وليم الصوري ، ص٣٩٢.

(٣) اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص١١٦.

(٤) وليم الصوري ، ص٣٩٣ ، ويقول وليم ان الصليبيين وصموه بالفجور الابدي ، وراحوا يلعنونه هو ووليم دي جراند مينزل صهر بوهيموند وكل من شارك في هذه الخيانة الملعونه.

ولعل شعور الصليبين بأن الامبراطور كان جاداً في القدوم لمساعدتهم لولا نصيحة ستيفن كونت بلوا ، هو الذي جعلهم بعد هزيمة جيوش كربوقا [١] المحاصرة لهم ، وبعد ان استقروا في انطاكية يكتبون اليه أن يسارع بالالتحاق بهم لقيادة الحملة الى بيت المقدس مما يعني العودة الى اتفاقية القسطنطينية ، ورغم معارضة بوهيموند للكتابة الى الامبراطور الا ان الصليبيين شعوراً منهم بصدق نوايا الامبراطور بعد ان اتضحت لهم حقيقة الموقف، وتحت الحاح الكونت ريموند الصنجيلي الذي كره أن ينفرد بوهيموند بأنطاكية ، عقدوا اجتماعاً موسعاً بعد ان اشتد الخلاف حول من يؤول اليه حكم انطاكية، وتقرر في هذا الاجتماع أن يبعثوا بسفارة تكونت من سفيرين هما هيوج فرماندوا وبلدوين من مينزا الى القسطنطينية ليطلبا من الامبراطور الحضور الى أنطاكية ليتسلمها من القادة الصليبيين، تنفيذاً لاتفاقية القسطنطينية، شريطة ان يشاركهم شخصياً في الزحف على بيت المقدس [٢]. على أن سوء حظ هذه السفارة أن قام الأتراك بمهاجمتها وهم بعد في آسيا الصغرى ، واختفى بلدوين في حين ان هيوج لاذ بالفرار الى القسطنطينية ، ولم يصلها الا في الخريف، حيث أبلغ رسالته ثم سارع بالعودة الى فرنسا [٣]. إلا أن الامبراطور لم يسارع للاستجابة لسفارة الصليبيين ورسالتهم وإنما رأى أن

---

(١) يذكر ابن الاثير، ج٨، ص١٨٧ ان سبب هزيمة كربوقا انه اساء السيرة بمن معه من المسلمين واغضب الامراء وتكبر عليهم، فاضمروا في انفسهم الغدر به، كما انه يشير الى الحربة التي كانت مدفونة بانطاكية وكيف تقوى باسطورتها الصليبيون وان كربوقا قد أساء في القتال فلم يبادرهم عند خروجهم من انطاكية، وانما انتظر حتى اكتمل خروجهم فهجموا عليه كتلة واحدة ، فانهزم المسلمون وفر كربوقا من المعركة وقتل عدد كبير منهم. وتطنب المصادر اللاتينيه في الحديث عن هذه المعركة ويعيدونها الى سر الحربه المقدسة المزعومه، اذ انه في اعقاب فشل سفارة بطرس الناسك الى كربوقا وجد الصليبيون انه لامفر من القتال، وكان ان دبروا حكاية الحربه المقدسة ليقووا عزائم المقاتلين، فوشيه ص ص(٦٠-٦٣)، ويذكر المؤرخ المجهول ان حصار كربوقا استمر ستة وعشرين يوماً، ذاق الصليبيون فيها الامرين حيث انعدمت الاقوات وخلت الخزائن وغلت الاسعار، واضافة الى المجاعة كان هناك الخوف من الجيش الذي يحاصرهم، ثم يشير الى قصة الحربه ورؤى بطرس بورثمليوس حتى أمكن استخراج الحربه وقويت عزائم المقاتلين، ثم خرجوا متفرقين لقتال الترك، المؤرخ المجهول، ص ص٩٠-٩٤. والواقع ان هزيمة جيش كربوقا كانت سهلة لأن الجيش الاسلامي كان متفرقاً وظهرت فيه عوامل الخلاف قبل ان تبدأ المعركة ، ويبدو ان كربوقا لم تكن تهمه القضية كثيراً بقدر ما كان يهمه الاستيلاء على المدينة لذلك وجدناه يشترط استلام القلعة اولاً من ابن باغي سيان شمس الدولة قبل ان يبدأ اي قتال، ورغم ان ابن باغي سيان قد رضخ لشروطه الا ان تراخيه كان واضحاً.

(٢) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص ص٩٧ ، ٩٨.

(٣) اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص١١٧.

الوقت ليس ملائماً حينئذ لأن يجتاز بحملة جبال آسيا الصغرى ، ولم يكن يسيراً عليه الوصول الى أنطاكية إلا بعد الربيع المقبل[١]. على أنه سرعان ما وصل إلى البابا اوربان الثاني -وقبل ان يصل الجواب الامبراطوري- خطاب من المعسكر الصليبي وذلك في سبتمبر ١٠٩٨م/شوال ٤٩١هـ يخبر بكل الأحداث التي جرت حتى الاستيلاء على أنطاكية ويخبر بوفاة المندوب البابوي ادهيمار[٢]، وفي نهاية الخطاب يُطلب من البابا الحضور لتسلم أنطاكية وكنيستها ويؤكد له الصليبيون انهم قد انتصروا على الترك (الوثنين كما قالوا) ولكنهم على أية حال لم يقضوا بعد على الهراطقة الاغريق (البيزنطيين) والأرمن والسريان واليعاقبة[٣].

أحكم بوهيموند سيطرته على أنطاكية ، واحتفظ في يده بالأبراج الرئيسية بعد أن نجح في طرد زملائه الأمراء ، واشتدت ثائرة ريموند الصنجيلي من تصرفاته إلا أنه انفرد بالسيطرة على الحصن المنيع وقصر ياغي سيان اللذين استولى عليهما ، ولكنه ما لبث ان سقط مريضاً ، وبدأ بوهيموند يتصرف كما لو انه سيد انطاكية الوحيد فعلاً[٤]. ففي ١٤ يوليو منح الجنويين الذين سارعوا الى المدينة للسيطرة على تجارتها سوقاً وكنيسة وثلاثين بيتاً حتى يستطيع أن يرتكن الى نصرتهم وتأييدهم له في قضية أنطاكية[٥].

(١) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٥٧.
(٢) توفى ادهيمار المندوب البابوي في اول اغسطس ١٠٩٨م/شعبان ٤٩١هـ وكانت وفاته وآخرين نتيجة وباء تفشى في انطاكية لكثرة الجثث التي لم يتم مواراتها التراب ، ريموندا جيل ، ص١٥٩. هامش ٣ ، ٥.
(٣) فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص٦٧ ؛ وايضاً : Hans , Mayer , Op. Cit. , P.57.
وتقوم دلالات اكيدة على ان بوهيموند هو مملي هذه الرسالة وهو صاحب فكرتها اذ تردد اسمه في الرسالة في تأكيد غير عادي، ويصور على أنه البطل الاوحد في انطاكية ، كما تسهب الرسالة في قصة الحربة التي انبثقت من معسكر بوهيموند مع ان المندوب البابوي ادهيمار قد كذب قصة هذه الحربه، كما يرد اسمه مرة اخرى في الرسالة في صورة محطم الترك ومعيد كرسي القديس بطرس ، ولايخفى غرضه من مداعبة احلام الكنيسة اللاتينيه باستعادة سيطرتها على الشرق ، كما ان عبارات الكراهية والبغض التي تفيض بها الرسالة للبيزنطيين لايمكن ان تصدر الا عن بوهيموند ، وفيها اشارة واضحة لخيانة الامبراطور البيزنطي لقضية الصليبيين وانه عرض جندهم الى التهلكة. والجدير بالذكر ان البابا عقد في سبتمبر ١٠٩٨م/شوال ٤٩١هـ - في أعقاب وصول هذه الرسالة- مجمعاً في مدينة باري حضره بعض رجال الكنيسة البيزنطيين ، وكان من حضوره القديس انسلم رئيس اساقفة كانتربري الذي طالب البابا ان يقف ليدافع عن كنيسة روما ضد اغلاظ البيزنطيين، واعيد فتح ملف القضايا الدينية الشائكة بين الفريقين. انظر : اسحق عبيد : مرجع سابق ، ص ص.١٢٠ ، ١٢٢.
(٤) Sidney Painter, Op. Cit. , P. 206.
(٥) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٥٧.

وبدأت العلاقات بين الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين والصليبيين تأخذ مساراً جديداً تطور الى العداء المكشوف بفضل تصرفات بوهيموند واصراره على السيطرة على أنطاكية.

ووجد بوهيموند فرصته في تدعيم سيطرته على أنطاكية عندما اخذ الأمراء الصليبيون يرحلون لمواصلة زحفهم الى القدس، فبدأ يعد لمعركته القادمة مع الامبراطور لأنه شعر بأنه لن يتركه ينعم بتحقيق حلمه في انطاكية، خاصة وأن أسطول الامبراطور الكبير كان يعسكر بالقرب منه في اللاذقية، وشعر بوهيموند أيضاً ان اي توسع الآن وقبل أن يتخذ الامبراطور خطته لرده سيكون في مصلحته مستقبلاً ، فبدأ باللاذقيه فحاصرها حصاراً شديداً في أواخر اغسطس، واستعان باسطول للبيازنه وصل الى المنطقة، وكان يقود قواته ابن اخته تانكريد، وهكذا بدأت اول مواجهة سافرة بين الامبراطور البيزنطي وأحد زعماء الحملة الصليبية الاولى وهو بوهيموند، وتصف آنا كومنين تصرفه هذا بقولها : «اظهر بوهيموند ما أبطنه طويلاً من صنوف الكراهية التي حملها ضد الإمبراطور»[(١)] ولكن ريموند حليف الامبراطور ما ان سمع اخبار هذا الحصار حتى سارع لمحاولة إثناء تانكريد، الذي تراجع مؤقتاً عن حصار اللاذقيه، ليعود بوهيموند الى محاصرتها بعد ذلك، وواصل بوهيموند هجماته على المواقع البيزنطية، فأخذ في مهاجمة افاميه وحلب ومرعش، وكانت الأخيره قد أعيدت الى البيزنطيين بموجب معاهدة القسطنطينية[(٢)].

وازعجت تصرفات بوهيموند الامبراطور وأزعجه أكثر سقوط اللاذقيه في يد النورمان فكتب رسالة الى بوهيموند جاء فيها : «لاشك انك عارف بالمواثيق والعهود التي صنعتها للامبراطور البيزنطي، ليس من قبلك وحدك وانما من قبل بقية الامراء وأنت الآن أول من يحنث بوعده ، لقد استوليت على أنطاكية، وقمت بالاستحواذ بطرائق خفية على عدد آخر من الاماكن بما في ذلك اللاذقية نفسها، انني اطالبك أنت بالذات بالجلاء عن مدينة أنطاكية والأماكن الأخرى ، فبذلك تكون قد قمت بصنع ما هو صحيح ، ولا تحاولن إثارة العدوان

---

(١) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٦٩.
(٢) أسد رستم : الروم ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص١٣٠.

والحرب مجدداً ضد نفسك»[(١)].

وأراد الامبراطور بهذه الرسالة ان يقدم انذار واضحاً إلا أن رد بوهيموند على رسالة الامبراطور جاء مخيباً لآماله فقد حمل رده اتهاماً للامبراطور بأنه قد تخلى عن وعده بدعم الصليبيين ، ولذلك فهو لايستحق أن يشاركهم في ثمرة تعبهم ، وأضاف «أنا لست مسؤولاً عن هذه الاشياء ، لكنك أنت المسؤول فأنت الذي وعدت بان تلحق بنا على رأس قوة كبيرة ، لكنك لم تكن راغباً في دعم وعودك بالاعمال ، اما بالنسبة لنا فاننا عانينا بعد وصولنا الى أنطاكية صراعاً رهيباً، مع مجاعة لايمكن نسيانها وكانت شديدة الى حد أجبرت فيه معظمنا على أكل اللحوم المحرمه بالشريعة ، ومع هذا قمنا وصمدنا أحسن ما يمكن ، وبينما كنا نفعل ذلك فقد قام تاتكيوس خادمكم المخلص يا صاحب الجلالة، الذي عينتموه لتقديم العون لنا، قام بالتخلي عنا في محنتنا ومضى بعيداً ، وخلافاً لكل ما كان متوقعاً تمكنا من الاستيلاء على المدينة ، وألحقنا الهزيمة الماحقة بالقوات التي قدمت من خراسان لمساعدة رجالات أنطاكية ، والآن أخبرنا كيف يمكن لنا التخلي هكذا بكل سهولة عما نلناه بعرقنا وتعبنا»[(٢)].

ووصل الامبراطور وهو يقرأ رسالة بوهيموند التي عاد بها سفراؤه من انطاكية الى ان بوهيموند الزعيم الصليبي الحالي هو نفسه بوهيموند المغامر القديم، وبدأ يحدد خطته لكيفية التعامل معه ، ومع الصليبيين بصفة عامة .

وهنا بدأ موقف الامبراطور من الحملة الصليبية الأولى يتخذ مساراً جديداً فبدلاً من دعمهم صار يخطط للوسائل التي تمكنه من كبح جماح بوهيموند والتصدي لمخططاته والتعامل مع الصليبيين عامه، على ان بوهيموند من جانبه ذهب بعيداً في إعلان حربه ضد الامبراطور وضد بيزنطة عموماً، فقام بتنحية البطريرك يوحنا الرابع[(٣)] متهماً إياه بالتعاون مع الترك وكان يوحنا قد اعيد الى بطريركيته على يد ادهيمار المندوب البابوي ، ومن ثم طرده بوهيموند

---

(١) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٧٣.

(٢) المصدر السابق ، ص١٧٤.

(٣) رانسيمان : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٥٢ ؛ Hans Mayer , Op. Cit. , P.58.
ويذكره الدكتور اسد رستم في كتابيه كنيسة انطاكية «ج ٢ ، ص٢٧٦» والروم (ج٢ ، ص١٣٠). باسم يوحنا السابع و ان خليفته في القسطنطينية كان يوحنا الثامن ، بينما تذكر المراجع الاخرى بأنه يوحنا الرابع .

من المدينة وعين مكانه بطريركاً لاتينياً هو برنارد فالنس، فأحدث انشقاقاً جديداً في العلاقات الدينية في أنطاكية، فقد أُصبح هناك هيئتين دينيتين، كما أنه أحدث توتراً جديداً في العلاقات الدينية المتوترة اصلاً، بين اللاتين والبيزنطيين ولجأ البطريرك المطرود الى قبرص ومنها رحل الى القسطنطينية حيث قدم استقالته فعينت القسطنطينية بطريركاً جديداً حفاظاً على حقوقها الدينية في انطاكية ودلالة على عدم الاعتراف بالبطريرك الجديد الذي عينه بوهيموند في انطاكية، على ان بوهيموند حاول التغطية على خطوته هذه فأخذ الكتاب اللاتين يعلنون أن يوحنا هو الذي قدم استقالته ولم يجبر عليها[١].

بدأ ضيق الامبراطور من تصرفات بوهيموند يتصاعد، واخذ يدرك معنى قيام امارة نورمانيه في أنطاكية وخطورته على الدولة البيزنطية وشعر بأنها، ستكون مخفراً متقدماً للصدام مع نورمان جنوب إيطاليا، وإنها ستكون بمثابة الخنجر في جنب الامبراطورية البيزنطية يعيق سياستها لا في شرق البحر المتوسط وآسيا الصغرى فحسب، وإنما في أوروبا عامة وايطاليا خاصة[٢]. اضافة الى قرب انطاكية من اراضي الدولة البيزنطية وصلتها التاريخية بها وأُهميتها الحيويه والسياسية والدينية لبيزنطة[٣]. لذلك شعر الامبراطور أن عليه أن يفعل ما هو اكثر من بعث الرسائل الى بوهيموند، والاكتفاء بمناشدته ليتبع الصواب، فاخذ الامبراطور يجهز اسطولاً بحرياً ووضع قيادته تحت إمرة تاتكيوس الذي كان عائداً لتوه من أنطاكية وزوده بـ«لاندولف»[٤]، كمسئول عن العمليات البحرية وغادر الأُسطول العاصمة البيزنطية في ابريل ١٠٩٩م/جمادى الآخر٤٩٢هـ، وبعد عدة عمليات حربية وصل الاسطول الى قبرص[٥] حيث أصبح قريباً من اللاذقية واستقر رأيهم مرة أخرى الى بعث سفارة للتفاهم

(١) وليم الصوري : مصدر سابق ، ص٤٢٠.
(٢) عادل زيتون : العلاقات السياسية والكنسية ، مرجع سابق ، ص١٦١.
(٣) Ostrogorsky , Op. Cit. , P.323.
(٤) لاندولف : ايطالي واحد اللاتين الذين كانوا يعملون في خدمة الامبراطور ويعود اختياره لهذا العمل الهام لفهمه وخبرته في عمليات البحرية اللاتينيه.
(٥) لعبت جزيرة قبرص دوراً هاماً في هذه المرحلة من العلاقات بين البيزنطيين واللاتين، اذ افادالامبراطور من موقعها القريب في مواجهة الساحل السوري، لادارة هذه الحرب واتخذها قاعدة لقواته التي اعدها لهذا الغرض وهو مهاجمة بوهيموند، وعمل على حمايتها من اي هجوم يأتي من ناحية بوهيموند او اي دعم يصله من جنوب ايطاليا، انظر د. سعيد عبدالفتاح عاشور، قبرص والحروب الصليبية، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م، ص ص٢١.٢٢.

مع بوهيموند واختاروا بوتاماميتس الا ان بوهيموند اعتقل السفير البيزنطي لمدة خمسة عشر يوماً ثم أطلق سراحه بعد أن قال له «إنك لم تقدم لأجل الصداقة، وليس وجودك هنا للبحث عن السلام ، ولكن لتحرق سفني ، اذهب بعيداً واعتبر نفسك سعيد الحظ لأني سمحت لك بالذهاب سليماً من الأذى»(١).

وشعر الامبراطور أنه لابد من حليف محلي يعينه على بوهيموند ولما كان يرتبط بالصداقة مع حكام مصر الفاطميين نجده يكتب اليهم رسالة سريه يؤلبهم فيها على الصليبيين ويقدم فيها معلومات عن الجيش الصليبي(٢).

ويبدوا أن الامبراطور لم يفقد الأمل في بقية الصليبيين -خاصة أن بينهم مخلصين له أمثال الكونت ريموند الصنجيلي- لذلك نجده يكتب لهم في ابريل ١٠٩٩م/٤٩٢هـ وهم يحاصرون عرقه، يعرفهم بجحود بوهيموند وخلفه للوعود التي قطعها، وذكر لهم المبعوث البيزنطي ان الامبراطور سيقدم لهم مبالغ كبيرة من الذهب والفضة إذا أعانوه في قضية أنطاكية وان عليهم ان ينتظروه حتى اواخر يونيه حتى يستطيع ان يسير معهم الى بيت المقدس. وسرى جدل في المعسكر الصليبي فهناك من رأي انتظار الامبراطور امثال الكونت ريموند ولكن الأغلبية كانت مع مواصلة السير وعدم الارتكان الى وعود الامبراطور الذي سبق وان وعدهم

(١) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص١٧٩.

(٢) يشير ريموندا جيل (ص١٨٨) الى هذه الرسالة والى ان الصليبيين وجدوا بعد ان انتصروا في موقعة عسقلان رسائل من الامبراطور الكسيوس الى الفاطميين تدور حول هذا المعنى، وبالتالي تأكد لهم خيانة الامبراطور لهم ، ويذكر الدكتور جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، (ص٢٤٧). ان امر هذا الاتفاق بين الامبراطور والفاطميين لم يذكر الا في المصادر الغربية ولم تشر اليه المصادر العربية ولذا يجب تناول اخباره بحذر ، كما ينقل عن المؤرخ شالندون تبريره لتصرف الامبراطور اذ يرى شالندون ان اغتصاب بوهيموند لانطاكية اثار غضب الامبراطور وسخطه على الصليبيين مما دفعه الى الاتفاق مع الفاطميين ضدهم، على ان ابن القلانسي يذكر في ذيل تاريخ دمشق، ص ص١٧٣، ١٧٤. انه في جمادى الاخرة ٥٠٤هـ وصل رسول ملك الروم بهدايا وتحف الى القاهرة ومراسالات مضمونها البعث على قصد الافرنج والايقاع بهم والاجتماع على طردهم وترك التراخي في امرهم ، واستعمال الجد والاجتهاد بالفتك بهم، قبل اعضال امرهم واستفحال شرهم ، ويقول انه قد منعهم من العبور الى بلاد المسلمين وبعد ان يبرر سبب سماحه بعبورهم، يبالغ في الحث والتحريض على الاجتماع لحربهم وقلعهم من هذه الديار. ومع انه يوجد احتمال ان ابن القلانسي يشير الى السفارة التي ذكرها ريموندا جيل وقد يكون حصل تحريف في تاريخها ، الا ان الارجح ان اشارة ابن القلانسي تخص سفارة اخرى وصلت في وقت متأخر .

بالمسير إليهم وأخلف(١) .

وفيما بعد وبعد أن استطاع الصليبيون الاستيلاء على بيت المقدس أراد بوهيموند أن يصبغ الشرعية على حكمه في أنطاكية فنجده يذهب الى بيت المقدس وهناك يسعى إلى تدعيم الأسقف دايمبرت البيزي الذي سبق وان تعاون معه في مقاومة البيزنطيين عند اللاذقية، وينجح في تعيينه بطريركاً علي بيت المقدس، وكان أن رد له البطريرك الجديد الجميل فقلده منصب الإمارة على أنطاكية، وحصل بذلك على اعتراف وصبغة شرعية لحكمه على أنطاكية(٢) .

ثم اخذ يسعى لتثبيت ذلك تاريخياً فنجده يضيف الى كتاب مؤرخه -المؤرخ المجهول- نصاً غريباً ينفرد به دون جميع المؤرخين اللاتين حين يذكر ان الامبراطور كان قد اقطع بوهيموند أرضاً وراء أنطاكية تمتد مسيرة خمسة عشر يوماً طولاً وثمانية أيام عرضاً إذا أقسم يمين الولاء للامبراطور(٣) .

بالاستيلاء على بيت المقدس يوم الجمعة ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ/١٦ يوليو ١٠٩٩م

---

(١) ريموندا جيل، ص ٢١٦. وينفرد ريموندا جيل بخبر هذه السفارة وينقلها عنه وليم الصوري، ولم يشر اليها المؤرخ المجهول، والذي سبق وان انفصل عن بوهيموند وواصل الرحلة مع الصليبيين الى بيت المقدس.

(٢) Setton, Op. Cit. , Vol. I , P.377.

(٣) سبق ان ذكرنا (الفصل الثالث ص.١٦٠) ان هناك اجماعاً بين المؤرخين على ان النص الذي يذكر فيه المؤرخ المجهول ان الامبراطور قد وعد بوهيموند بان يمنحه اقطاعاً في انطاكية هو نص مدسوس على النص الاصلي للكتاب، وان هذا النص وضع بمعرفة بوهيموند سنة ١١٠٤م/٤٩٨هـ ، بعد ان تفاقم نزاعه مع الامبراطور حول انطاكية ولم يكن من وضع المؤلف الاصلي، ونضيف هنا مزيداً من الادلة على ذلك : (١) ان بقية النص تتحدث عن قادة الصليبيين في صيغة الجمع بينما ينفرد الجزء الخاص بشخص بوهيموند بالمفرد. (٢) ان نقاشاً حاداً قد دار بين قادة الصليبيين اثناء حصار انطاكية بعد الاستيلاء عليها، والغريب ان المؤرخ المجهول لم يشر اطلاقاً عند ذكره لذلك النقاش الى تلك المنحة المزعومة ، ولو كان هناك وعد بذلك فان هذا وقت ابرازه، وفي ذلك انهاء لكل ذلك النقاش والخلاف. (٣) لو كان الوعد حقيقة التزم بها الامبراطور لما كان هناك داعياً للسفارة التي ارسلت الى القسطنطينيه بعلم بوهيموند ورضا القادة الصليبيين. (٤) لم يستخدم بوهيموند هذا الوعد، او يلوح به - اذا كان حقيقياً - في اي من المناسبات حتى عندما وبخه اقرانه لهجومه على البيزنطيين في اللاذقيه، كما لم يستخدم في مراسلاته مع الامبراطور ما يفيد ان هنالك وعداً سابقاً منه. (٥) في الحوليه التي كتبها اكيهارد من اورا ، اعتمد على النسخة الاصلية لكتاب المؤرخ المجهول والتي عثر عليها في بيت المقدس عند زيارته لها سنة ١١٠٢م/٤٩٦هـ بعد نجاح الصليبيين في الاستيلاء عليها، ولم ترد فيها اي اشارة لهذا النص. كل ذلك يؤكد ان بوهيموند- والذي اصطحب معه نسخاً من الكتاب- قد اضاف سنة ١١٠٤م/٤٩٨هـ وعند اعتزامه العودة الى اوروبا للاعداد لحملة صليبية ضد الامبراطور هذا النص ليدعم حججه وليؤكد دعاويه بدون علم المؤرخ المجهول الذي كان قد انفصل عنه وواصل الزحف مع بقية الصليبيين الى بيت المقدس انظر : Setton,Op.Cit.Vol. I, P.391.
وايضاً ؛ اسحق عبيد : مرجع سابق، ص١٠٢.

تكون الحملة الصليبية قد حققت هدفها الرئيسي إلا أن الصراع بين الامبراطور الكسيوس كومنين وبين بوهيموند لم يصل الى نهايته بل سيبقى محتدماً وسينتقل الى ساحات أخرى غير ساحة أنطاكية او آسيا الصغرى، فبوهيموند الذي استطاع ان يتخطى كل العقبات ، وأن يحصل على كل هذه المعطيات للاستحواذ على أنطاكية ، وجد نفسه محتاجاً لمزيد من التوسع لأمارته ولنفوذه ولم يكن امامه سوى الاراضي التي كانت تحكمها الدولة البيزنطية وأملاك جيرانه المسلمين ، يجد فيها مرتعاً خصباً للتوسع.

ولكن قبل التعرض لذلك الصراع الذي احتدم بين الامبراطور الكسيوس كومنين وبين بوهيموند والذي تطور الى إعلان بوهيموند ومن خلفه الغرب اللاتيني وكنيسة روما لصليبية جديدة ضد الامبراطورية البيزنطية ، لابد من القاء نظرة على طبيعة المسألة الانطاكية وكيف نظر اليها الغرب وكيف عالجها كتابه.

لقد اضحت المسألة الانطاكية مشكلة ماثلة أمام الامبراطورية البيزنطية استغرقت جانباً كبيراً مما بقي من فترة حكم الامبراطور الكسيوس كومنين والتي امتدت الى سنة ١١١٨م/٥١٢هـ وفترة من جاء بعده، ولم يستطيعوا انتزاعها رغم الجهود المضنيه التي بذلت، فقد استمرت مستعمرة لاتينية وإمارة مستقلة حتى استطاع المسلمون استعادتها سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م في أيام السلطان الظاهر بيبرس(١).

وقد تباينت مواقف الكتاب الغربيين من المسألة الانطاكية ومن كيفية نشؤها ، فالبعض يحمل الامبراطور مسئولية قيامها لأنه لم يبادر الى الالتزام بوعوده ، كما أنه لم يبادر الى نجدة الصليبيين عندما احتاجوا اليه حينما كانوا يحاصرون انطاكية او عندما اصبحوا محاصرين فيها، كما انه لم يبادر الى الاستجابة الى سفارتهم التي بعثوها اليه في أعقاب استيلائهم على أنطاكية ودعوتهم له لاستلامها ومشاركتهم الحملة الصليبية الى القدس(٢).

على ان هناك مؤرخين آخرين يرون أن الصليبيين لم تكن لديهم الرغبة الصادقة في مواجهة

---

(١) ابو المحاسن : مصدر سابق ، ج٧ ، ص١٨٦.

(٢) Groussat, Hist. Des. Croisades, Vol. I , P.108. نقلاً عن د. عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنيسة ، مرجع سابق ، ص٥٨.

الامبراطور البيزنطي والتفاهم معه للوصول الى حل يحقق مصلحة الطرفين ، ويرى أصحاب هذا الرأي أن الامبراطور قد فعل الكثير وغمرهم بالكثير من الإموال والهدايا، مما لو صرفه على حرب الترك لحقق له نتائج أفضل من تلك التي أوصله اليها الصليبيون[١].

لقد نظر كتاب الحوليات اللاتينية الى أن الامبراطور الكسيوس كومنين كان معوقاً للحملة في بعض مراحلها، فقد صوروا القسم الذي أصر الامبراطور على الحصول عليه من قادة الصليبين قبل عبورهم الى آسيا الصغرى بأنه أمر مزر للصليبيين[٢]، واستغلال واضح لحركتهم، ونسوا أن الامبراطور لم يجد من جانبه ما يضمن له حقوقه وحقوق امبراطوريته سوى إلزام الصليبيين بهذا القسم، كما أن الصليبيين امتلأت نفوسهم بالحقد والكراهية والخشونه تجاه البيزنطيين حتى قبل أن يصلوا الى القسطنطينيه ، وكان ذلك دافعاً آخر للامبراطور لإلزامهم بالقسم[٣].

كما نظر هؤلاء الكتاب الى الفرقة البيزنطية التي رافقتهم بقيادة تاتكيوس في رحلتهم من نيقيه نظرة الريبة والشك[٤]، ولم يولوا نصائح قائدها الكثيرة وهو الخبير بالطريق وطريقة حرب الاتراك الكثير من اهتمامهم، بل ان بوهيموند وجد ان تاتكيوس احد بل واهم معوقات استحواذه على انطاكية، لذلك اخذ يفكر في التخلص منه بالحيلة التي ابتكرها حتى كان ادعاؤه أن تاتكيوس قد فر لخوفه وجبنه ولمؤامرته هو وامبراطوره.

ويبدو أن تفكير بوهيموند في انطاكية قد سبق وصول الصليبيين اليها، وقد يكون ترسخ لديه وهو مازال في القسطنطينية بعد أن سارع بقسم يمين الولاء للامبراطور لأنه وجد ان ذلك يسهل له ما يفكر فيه ، والمؤكد انه قد توفرت لديه الرغبة حتى قبل ان يعلن انضمامه للحملة الصليبيه ، في تكوين إمارة مستقلة به في الشرق ، وعندما بدت أمامه أنطاكية بعظمتها وفخامتها ومناعتها سيطرت عليه فكرة الاستحواذ عليها وأصبح مستعداً لأن يقاتل في سبيلها

---

(١) C. Diehl, L'europe Orientale, Paris 1945 , P.23. نقلاً عن جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، مرجع سابق ، ص٢٤٩.
(٢) المؤرخ المجهول : مصدر سابق ، ص٣٠.
(٣) آرنست باركر : الحروب الصليبية ، مرجع سابق ، ص٣٠.
(٤) ريموندا جيل ، ص٩٢ ؛ المؤرخ المجهول ، ص٥٦ ؛ وليم الصوري ، ص٢٩٨.

حتى زملاءه في الحملة الصليبية .

كما أن هذه المشاعر لم تسيطر على بوهيموند وحده وانما شملت معظم قادة الحملة وفرسانها فإن فكرة تكوين إمارات خاصة بهم مستقلة عن النفوذ البيزنطي داعبت أحلامهم وسارعوا لتنفيذها، فرأينا بلدوين يسارع لتأسيس إمارة الرها، في حين سارع غيره من الفرسان الى السيطرة على قلاع وحصون تكون مقدمة لامارات خاصة بهم، حتى إن ريموند الصنجيلي كونت تولوز لم يكن بمنجاة من هذا التفكير وهو أقرب القادة الصليبيين الى الامبراطور البيزنطي، فهناك من يؤكد ان ريموند أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما وجد زملاءه يسارعون في تكوين امارات مستقلة فيما هو مازال بعيداً عن ذلك ، فحاول في أنطاكية وفشل وحاول في غيرها وفشل ، وكانت خيبة أمله عندما حاول الحصول على عرش بيت المقدس ولكنه وجد بلدوين ومن قبله جودفروي يسبقونه اليه[١] ، واخيراً لقي مصرعه عند أسوار طرابلس وهو يقوم بآخر محاولة له لتكوين امارة مستقلة به[٢] .

فأزمة أنطاكية كانت ستقوم سواء رافق الامبراطور الصليبيين أم لم يرافقهم، وسواء أغدق عليهم ام لم يغدق عليهم، وسواء أوفى بعهدهم أم خان قضيتهم، فالامارة النورمانية في أنطاكية لم تكن وليدة الحملة الصليبية الاولى فحسب وإنما هي في حقيقة أمرها وليدة الصراع المرير الذي نشب بين نورمان جنوب ايطاليا والامبراطورية البيزنطية، فرغم فترة الهدوء التي عاشتها بيزنطة في اعقاب هزيمتها لروبرت جويسكارد ووفاته سنة ١٠٨٥م/٤٧٨هـ إلا أن الخطر النورماني ظل ماثلاً أمام الحكام البيزنطيين، بل إن بذرة ذلك العداء لبيزنطة انتقلت من جويسكارد الى ابنائه من بعده[٣] وترسخت في أحلامهم السيطرة على الامبراطورية البيزنطية

---

(١) هامش رقم (٤) في كتاب ريموندا جيل ، ص١٧٦ ؛ انطوني بردج ، مرجع سابق ، ص١١٦.

(٢) كان ريموند قد بنى قلعة امام طرابلس لمحاصرتها والاستحواذ عليها ورغم تعدد محاولاته للاستيلاء على طرابلس الا انه فشل ، وقد قام بنو عمار الذين كانوا يحكمون طرابلس بمحاولة هدم القلعة واشعال النار فيها ، واصيب ريموند نتيجة محاولتهم بجروح لسقوط بعض اجزاء القلعة المشتعلة عليه ، وما لبث ان توفي نتيجة جراحه وكان ذلك في نهاية فبراير ١١٠٥م/٤٩٩هـ ، وبذلك فشلت كل مشاريعه لاقامة امارة خاصة به ، انظر : ابن الاثير، مصدر سابق، ج٨، ص٢٣٥.

(٣) المح الى ذلك الكونت ريموند الصنجيلي في محادثاته مع الامبراطور الكسيوس بعد مغادرة بوهيموند للقسطنطينية وبعد تقريب الامبراطور له انظر : أنا كومنين ، ص١٣٩.

والتوسع في أُملاكها ولذلك لم يكن مستغرباً علي الاطلاق أن يسعى بوهيموند بعد عقد ونيف من وفاة والده لتأسيس إمارة مستقلة به في الشرق ضارباً عرض الحائط بأُطماع الامبراطورية للاستحواذ على أنطاكية، لذلك اخذت بيزنطة في اعتبارها دائماً أُطماع أبناء روبرت جويسكارد في أَرضها وعاصمتها، ولقد كان مفاجأة ومصدر خوف وقلق لدى الامبراطور أن يجد بين قادة الصليبيين الذين وصلوا الى القسطنطينيه عدوه القديم بوهيموند. لقد ظلت بيزنطة تنظر الى الوجود النورماني في جنوب ايطاليا على أنه وجود غير شرعي، لذلك فإن البيزنطيين لم ينسوا ممتلكاتهم في ايطاليا والتي اغتصبها آل هوتفيل بموافقة البابويه[١]، كما أُنهم لم يهملوا في تثبيت مطالبتهم بأنطاكية التي اغتصبها بوهيموند ومن تتابع من أسرته، وقام خلفاء الكسيوس بالمثابرة على المطالبة بتنفيذ اتفاقية القسطنطينية سنة ١٠٩٧م/٤٩٠هـ واتفاقية ديفول سنة ١١٠٨م/٥٠٢هـ التي وقعها الامبراطور الكسيوس كومنين مع بوهيموند في اعقاب هزيمته في صليبيته الجديدة ضد الامبراطورية البيزنطية -كما سنرى- ورغم جهود يوحنا كومنين (١١١٨-١١٤٣م/٥١٢-٥٣٨هـ) ومانويل الاول (١١٤٣-١١٨٠م/٥٣٨-٥٧٦هـ) في هذا الشأن واستخدامهم كافة الطرق من حربية ودبلوماسية وحتى التزاوج السياسي مع النورمان في أنطاكية، الا ان كل تلك الجهود لم تعد أُنطاكية الى الامبراطورية ولم تزل ذلك العداء المستحكم بين الدولتين وبين الأُسرتين.

---

(١) د. عادل زيتون : العلاقات السياسية والكنسية ، مرجع سابق ، ص ١٤٧.

اعلان حملة صليبيه جديدة ضد الامبراطورية البيزنطية

بعد عودة بوهيموند من بيت المقدس سعيداً بالصبغة الشرعية التي حصل عليها ، بدأ يفكر في توسيع إمارته على حساب الدولة البيزنطية والأملاك الاسلامية، وكانت إمارة حلب الاسلامية هي المنافس له في شمال الشام، حيث تقع بين الرها وأنطاكية، وبدأ بوهيموند عدوانه بأن ضرب الحصار حول أفاميه[١]، منتهزاً الخلاف بين رضوان أمير حلب وخلف بن ملاعب صاحب أفاميه، ولكنه فشل في الاستيلاء على حصنها فاتلف زرعه[٢]، ثم توجه لمحاربة سلاجقة حلب حيث التقى برضوان والذي هزم واستبيح معسكره وقتل خلق كثير من رجاله وأسر قرابة خمسمائة نفس وذلك في ٢٥ شعبان ٤٩٣هـ/٥ يونيو ١١٠٠م[٣]، وتمكن من احتلال بعض الابراج وكادت حلب ان تسقط في يده بعد ان تمزق جيش رضوان ، لولا أن ظروفاً حلت بجيش بوهيموند دعته لتغيير خططه[٤] .

ولكن حدث عندما أراد بوهيموند نجدة ملطية[٥] ، التي استنجد به صاحبها جبرائيل، أن وقع اسيراً بعد تعرضه لهجوم من الامير غازي كمشتكين الدانشمندي ، وكان أسره في أوائل رمضان ٤٩٣هـ/منتصف اغسطس ١١٠٠م حيث حمل بعد ذلك هو وعدد آخر من مرافقيه الى قلعة ينكسار بالقرب من البحر الأسود[٦] .

وشعر الامبراطور الكسيوس بالسعادة لأسر بوهيموند واخذ يحاول الوصول إليه وفك

---

(١) أفاميه : مدينة حصينة، وكورة من كور حمص، ويسميها بعضهم فاميه، ويقول ياقوت انه بناها سلوقوس في السنة السادسة من موت الاسكندر ، ياقوت الحموي، ج١، ص٢٢٧.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج٨ ، ص١٩٦.

(٣) حسين عطيه : امارة انطاكية الصليبية والمسلمون، ط١ الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩م، ص١٢٧.

(٤) ابن العديم (كمال الدين عمر) زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق سنة ١٩٥١م، ج٢، ص١٤٤.

(٥) ملطية : مدينة من بناء الاسكندر ، وهي من بلاد الروم المشهورة ، تتاخم الشام وهي للمسلمين ، في سنة ١٤٠هـ وجه ابوجعفر المنصور عبدالوهاب بن ابراهيم لاعمار ملطيه فاقام عليها سنة حتى بناها واسكنها الناس ، وغزا الصائفة ، ياقوت معجم البلدان ، ج٥ ، ص١٩٢. وكان استيلاء بوهيموند على ملطيه سيتبح له السيطرة على دروب جبل اللكام وهو الطريق الذي يمكن ان تسلكه اي حملة بيزنطية ضد انطاكية .

(٦) حسين عطيه : مرجع سابق ، ص١٢٧.

أُسره ودفع فدية كبيرة من المال والخلاص من شره ، الا أن كل محاولاته وضغطه على الأمير الدانشمندي باءت بالفشل. ولكن تانكريد الوصي على املاك خاله في أنطاكية[١] لم يكن أقل عداءً من خاله للامبراطورية البيزنطية فأخذ ينفذ مخططاته وذهب بعيداً في تنفيذها. على أن الأمير غازي كمشتكين مالبث أن اطلق سراح بوهيموند في شعبان ٤٩٦هـ/مايو ١١٠٣م ، نظير فدية كبيرة ، ونظير تبادل إيمان الإخلاص والتحالف[٢]. واستغل الامبراطور اطلاق سراح بوهيموند فكتب اليه مجدداً ليعود الى اتفاقية القسطنطينية[٣] ، فرفض بوهيموند الاستجابة له، وبدأ بتنفيذ مزيد من التوسعات، فلم يكن أمام الامبراطور الا أن يجرد حملة عسكرية سارت بحذاء شاطيء البحر المتوسط لاحتلال طرسوس واذنه والمصيصه وانتزاعها من النورمان ولكن تلك الحملة لم توفق ، ثم مالبثت ان عادت الى القسطنطينية استعداداً لجولة ثانية.

وبدأ الامبراطور يبحث عن حليف محلي للتصدي لبوهيموند. وكان أن اتفق مع قلج أُرسلان ابن سليمان صاحب قونيه[٤] ، الذي قام بمساعدة البيزنطيين بهزيمة بوهيموند هزيمة كبيرة.

وجد بوهيموند نفسه بين نارين ، وأن عدويه البيزنطيين والسلاجقة اخذا يتحدان عليه وان رفاقه في الرها وبيت المقدس لا يستطيعون نصرته ، ولم يجد افضل من أن يعود الى أوروبا وهناك يدعو إلى حملة صليبية جديدة ولكن هذه المرة ضد بيزنطة وامبراطورها.

غادر بوهيموند الشرق في خفيه[٥]، بعد أن استدعى تانكريد ليباشر حكم أنطاكية ،

---

(١) يذكر فوشيه ، ص٨٨ : ان الذي استدعى تانكريد وامره بالوصاية على انطاكية هو بطريريك بيت المقدس، فيما يذكر المؤرخون الآخرون ان الذي استدعاه هم رجال الدين والوجهاء في انطاكية.
(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٤٠١ .
(٣) اسد رستم : الروم ، ج٢ ، ص١٣١.
(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج٨ ، ص٢٤٢.
(٥) تنفرد آنا كومنين ص (١٨٤ ، ١٨٥) بذكر القصة التالية عن سفر بوهيموند وتخفيه فتقول انه نشر اشاعة في انطاكية انه قد مات ، ثم اعد تابوتاً من الخشب وسفينة ذات صفين من المجاديف ، ووضع التابوت على ظهرها ، بينما ظل هو داخل التابوت جسداً ميتاً لكنه يتنفس الهواء ، وكان يظهر للجميع ان بداخل التابوت ميتاً ، حيث يتظاهر بانه ميت كلما مرت السفينة في مكان ساحلي ، ولكن في عرض البحر يخرج من التابوت، ويتقاسم اتباعه طعامهم معه ، وحتى لايبدو الجسد في حالة شاذة من عدم التفسخ وظهور النتن قاموا بخنق او قطع عنق احد الطيور ووضعوه معه في التابوت، وفي اليوم الرابع او الخامس كان النتن ينبعث من التابوت، وتقول آنا كومنين ان الدهشة تعتريها ويتولاها العجب من تصرف بوهيموند ولكنه لايوجد ما يعوقه اذا اراد تنفيذ شيء ، وان هذا دليل على وحشيته التي لانظير لها.
وكما قلنا فان آنا كومنين تنفرد بهذه القصة ولايوجد لها ذكر في المصادر الغربية وتدل على مقدار حرص بوهيموند ان لايتعرض للخطف في عرض البحر اذا علم به الامبراطور.

واخذ معه ماتيسر حمله من ذخائر الشرق ومجوهراته، وبالذات الذخائر الدينيه، ونسخاً من كتاب المؤرخ المجهول عن الحملة الصليبية الأولى، وكل ذلك ليستعين بها في دعايته الجديدة ضد بيزنطة ، وعندما وصل الى كورفو قابل حاكمها البيزنطي بعجرفه وطلب اليه بأن يبعث بالرسالة التي سلمها له إلى الامبراطور الكسيوس كومنين ، وكانت رسالته على النحو التالي :

«اليك . انا بوهيموند الابن الشهير لروبرت ، لقد علمك الماضي وعلم امبراطوريتك كم هي مخيفة شجاعتي وعداوتي . . انني لن أتوقف عن الانتقام لكل الشرور التي لحقت بي في الماضي منذ ان استوليت على أنطاكية فكل ما لحقني من شرور كان بفعلك وفعل جيشك ... من كورفو أبعث اليك اخباراً عدوانية ، لن يسرك قراءتها، لقد سلمت انطاكية الى ابن أُختي تانكريد، وتركته هناك عدواً كفؤاً للرد على عساكرك، أما أنا فسأذهب الى بلادي اتآمر لوضع نهاية شريرة لك وحتى أثير الفوضى في العالم البيزنطي الذي أنت حاكمه . . . وإذا ما وصلت الى ايطاليا والقيت نظري على اللومبارديين وجميع اللاتين والجرمان والفرنجة ، وهم جميعاً رجال حرب أشاوس ، عندئذ سأقوم بالعديد من المذابح في مدنك ، وسأجعل الدم يسيل في بلدانك حتى اركز رمحي في القسطنطينية . . . »[(١)]

قوبل بوهيموند في ايطاليا بحماسة شديدة ، واخذ يوزع ذخائره الدينية التي جلبها معه على الأديرة والكنائس ليكسب ودها. ويبث دعايته ضد بيزنطه، ووجد بوهيموند قبولاً لدى الرأي العام لحملته ضد بيزنطة وضد امبراطورها حيث أعلن أنه يعتبره أسوأ عدو للصليبيين، وأن الاستيلاء على القسطنطينيه يجب أن يكون هدفاً سياسياً لأي برنامج ينطلق مستقبلاً من الغرب[(٢)]. كما لقي مشروعه دعماً من البابا باسكال الثاني Pascal II (١٠٩٩-١١١٨م/٤٩٣-٥١٢هـ) الذي خلف اوربان الثاني ، وزوده بمندوب بابوي هو الاسقف برونو Bruno ليساعده في التبشير بحملته الجديده[(٣)]. ورأس الاسقف برنو مجمعاً دينياً في بواتيه Baiters عام ١١٠٦م/٥٠٠هـ خصص للدعوة الى الحملة الجديدة، ثم انتقل بوهيموند الى

(١) آنا كومنين : مصدر سابق ، ص ص١٨٦ ، ١٨٧ .
(٢) Camb, Med, hist, Vol. IV, P.215.
(٣) Vasiliev, Op. Cit. , Vol II, P.410.

فـرنسـا يدعـو لحـملتـه وهناك عـقـد قـرانه على ابنة ملك فـرنسـا فـيليب، والتي تدعى كونستانس[١]، وجمع ما توفر له من المحاربين، واخذ يتجهز لبناء أُسطول ضخم.

وقـام الامـبراطور الكسـيوس كومنـين من جانبـه باتخـاذ الاسـتعدادات الدبلوماسـية والعسكرية للرد على بوهيموند، فعلى الصعيد الدبلوماسي كتب الى الجمهوريات الايطالية، يستعيد تحالفه معها وبالذات البندقيه ويحثهم على عدم الانضمام الى بوهيموند في مشروعه، كما قام بالتوسط لدى الخليفة الفاطمي للافراج عن ٣٠٠ من الاسرى الافرنج لديه ، وتم إطلاق سـراحـهم وسلمـوا للامـبـراطور الذي اكـرمـهم وردهم الى بلادهم ليكونوا رسل دعـاية له ضـد ادعاءات بوهيموند[٢]. وعلى الجانب العسكري فإن الامبراطور قام بجمع جيوشه وما استطاع جمعه من المرتزقه وحشدهم في جنوب ايطاليا.

وفي سبتـمبر ١١٠٧م/٥٠١هـ انطلق بوهيـموند بقواته لمحاصرة دورازو ، وكـان جيشه يحوي خليطاً من فرنسا وايطاليا وانجلترا والمانيا واسبانيا[٣]. وضرب الامبراطور معسكره في مدينة ديابوليس بالقرب من دورازو لمقابلة بوهيموند الذي كان يفرض عليها الحصار.

واستفاد الامبراطور من اخطائه السابقة التي ارتكبها في المواجهة الأُولى مع النورمان قـبل ربع قـرن في نفس المكان، كـمـا حظي بمسـاعـدة اسطول بحري بندقي -حلفـاؤه السـابقين- وبدأت المعـارك بين الجانبين في البـر والبحـر، واخذ مـيـزانهـا يتـحـدد منذ البـداية الى جـانب الامـبراطور وسرعـان ما أدت أسبـاب تشابه أسباب هزيمة النورمـان السـابقـة، الى هزيمة جـيش بوهيـموند هزيمة فـاضحة، فـقد انتشرت في جيشه المجاعة والعوز الشديد بسبب قطع الأُسطول البندقي والبيـزنطي لخط اتصـاله وامداداته مع ايطاليـا، كـمـا أن جيـشـه تعرض للاوبئة بسـبب تناولهم لبعض النبـاتات الضاره مما أُصابهم بمرض الدوسنتـاريا[٤]، وشعـر قـادة جيش بوهيـموند

---

(١) فوشيه الشارتري : مصدر سابق ، ص١٣٤.
(٢) Anna, Op. Cit. , P.301. نعود الآن الى كتاب آنا كومنين باللغة الانجليزية ، حيث ان الجزء الذي ترجمه الدكتور سهيل زكار كان الفصلان العاشر والحادي عشر فقط والخاصين بالحملة الصليبية الاولى.
(٣) Setton, Op. Cit. , Vol. I , P.391.
(٤) عادل زيتون : العلاقات السياسية الكنسية ، مرجع سابق ، ص١٨٣.

بالتذمر، ونزولاً على نصيحة وضغط كبار رجاله قرر بوهيموند التقدم بمبادرة لعقد معاهدة سلام مع الامبراطور البيزنطي.

وبعد عدة سفارات حضر بوهيموند الى المعسكر البيزنطي ووقع معاهدة ديفول Devol سنة ١١٠٨م/٥٠٢هـ والتي تسمى أيضاً بمعاهدة ديا بوليس باسم المكان الذي وقعت فيه ، وحملت المعاهدة بنوداً كثيرة تحدد أطراً جديداً للعلاقة بين بوهيموند والامبراطورية البيزنطية وتضع حداً لكل اطماعه فيها ، فهي تنص على نسخ الاتفاقية التي وقعت بين بوهيموند والامبراطور في القسطنطينية عام ١٠٩٧م/ ٤٩٠هـ بسبب تغير الظروف وان يعتبر بوهيموند فصلا تابعاً للامبراطور البيزنطي ولولي عهده من بعده، عليه ما على الافصال من حمل السلاح للدفاع عن الامبراطورية. وان لا يحتفظ باراض تخص الامبراطورية ما عدا تلك التي يمنحه اياها الامبراطور، وأن لايدخل في تحالف يضر مصالح الامبراطورية وأن لا يأوي رعايا الامبراطور الفارين بل يعيدهم الى تبعية الامبراطور، ويتعهد بوهيموند وجميع المرافقين له وافصاله في الشرق على أداء اليمين للامبراطور او للمندوب الذي يعينه الامبراطور لهذا الغرض، كما يتعهد بأن يحارب ابن أُخته تانكريد اذا لم يرضخ لتعليمات الامبراطور ويعيد الأراضي التي يسيطر عليها في الشرق، ما عدا تلك التي تمنح له بموجب مرسوم امبراطوري. كما يجب عليه الا يضايق المسلمين الذين يرغبون في ان يصبحوا رعايا للامبراطورية البيزنطية، وأن عليه أن يقبل بطريرك بيزنطي على بطريركية أنطاكية وليس لاتينياً[(١)].

---

(١) اوردت آنا كومنين النص الكامل للمعاهدة ، اما النسخة التي سلمت الى بوهيموند فقد فقدت ، Ann, Op. Cit. , P. 348. على ان فوشيه الشارتري يلخص المعاهدة بقوله ص (١٤٣) «وبعد ان اقترب الامبراطور على رأس جيشه من بوهيموند ربطت اواصر الصداقة بينهما بعد عدة مؤتمرات ووعد الامبراطور بعد ان اقسم على الآثار المقدسه النفيسه ان يؤمن منذ ذلك اليوم فصاعداً سلامة الحجاج، وان لايصيبهم اي اذى بالبر او البحر على مدى امتداد سلطة الامبراطور وان لايؤسر او تساء معاملة اي واحد منهم، واقسم بوهيموند بدوره ان يحافظ على السلام والولاء للامبراطور في جميع الامور».

على ان بوهيموند في اعقاب توقيع هذه المعاهدة المذلة له ، لم يعد الى انطاكية وانما عاد مباشرة الى اوترانتو ليعيش كأمير مغمور وليتوفى في مارس عام ١١١١م/٥٠٥هـ.

على أن هذه المعاهدة ما لبثت أن أصبحت حبراً على ورق ، إذ أن تانكريد عندما بعث اليه الامبراطور برسالة لتنفيذ المعاهدة سخر منه وذكره باقذع الألفاظ وسخر من البيزنطيين ورفض حتى مجرد الالتفات الى مطالبهم.

وبدأ الامبراطور معارك جديده استكملها بعده خلفاؤه طوال عهد الأسرة الكومنينيه لمحاولة استعادة انطاكية ومعالجة هذه المشكلة التي كانت واحدة من النتائج التي أدى إليها موقف الإمبراطور الكسيوس كومنين من الحملة الصليبية الأولى.

الخاتمــــة

الخاتمـــة

تتبعنا في الفصول السابقة من هذا البحث جانباً من العلاقات التي سادت بين شطري الامبراطورية الرومانية القديمة، أو بين الغرب اللاتيني والشرق البيزنطي، وهي علاقات سادها التباغض والتنافر، وارتكزت على عدة محاور منها الخلاف المذهبي والعقائدي والتباين الحضاري واللغوي، واختلاف المصالح والأهداف وتصادمها في بعض الأحيان، وجاءت الحملة الصليبية لتكون ميداناً واسعاً لاختبار نوعية هذه العلاقة ووضعها على المحك.

لقد مرت العلاقات بين الطرفين منذ ان تم انقسام الشطرين ، وعلى مدى عدة قرون بعدة أدوار ، اتسمت بالعدواة والخلاف والتربص، فروما أزعجها انتقال المجد والسيطرة الى روما الجديدة (القسطنطينيه) وكانت تسعى جاهدة لاستعادة ما فقدته، وعندما فشلت في استعادة سيطرتها السياسية ركزت على استعادة السيطرة الدينية، وعلى الجانب الآخر فإن روما الجديدة لم يكن هيناً عليها أن تفقد أملاكها في الشطر الغربي، ولذلك تعددت محاولاتها ونضالها للمحافظة على هذه الاملاك وخاضت حروباً طويلة ضد الزحف الجرماني على الشطر الغربي أولاً ثم الغزو النورماني وأطماع النورمان في جنوب ايطاليا ومخططات البابويه لتقليص نفوذ بيزنطة. وكان من الصعب تجاوز هذه الأدوار من العلاقات التي اخذت تلقي بظلالها على الحركة الصليبية وموقف الامبراطورية البيزنطية منها .

لقد برزت أول آثار تلك العلاقات بين الطرفين منذ الأيام الأولى للحملة الصليبية فاللاتين بدأوا أول عملياتهم الحربية ضد البيزنطيين وهم في طريقه الى القسطنطينية ، ولم يجد البيزنطيون بداً من التصدي لهم ومقاتلتهم .

ورغم وصول الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين الى اتفاق مع زعماء الحملة على الخطوط العامة للعمل المشترك واقتسام الغنيمة، الا أن العلاقات بينهما لم يكن يسودها الاخلاص التام أو التفاهم المتبادل، وذلك لان هناك تضارباً حاداً في المصالح والغايات، فالبيزنطيون أرادوا الانتفاع بالمحاربين اللاتين لخدمة أغراضهم السياسية ، في الوقت الذي كان

اللاتين لايفكرون الا في الغزو والاستيلاء لمصلحتهم الخاصة، على أن هذا الاتفاق الذي عرف باتفاقية القسطنطينية جاء منذ البداية غامضاً ويحمل مبكراً بوادر الفشل، فقد حصل الامبراطور البيزنطي على يمين الولاء من الامراء اللاتين بشكل انفرادي ومن كل أمير على حده ولكنه لم يستطع أن يبلور هذا الاتفاق الى اتفاقية محدده وواضحة تكون ملزمة لجميع الأطراف.

وهكذا اصطبغت العلاقات بين الطرفين أثناء الحملة الصليبية الأولى بمزيج من التناقضات التي كانت تتصاعد يوماً عن الآخر مع ما كان يصحبها من الشك وسوء النية من الفريقين المتعاقدين والمتحالفين.

لقد انزعج الصليبيون اللاتين من الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين حين أصر على الزامهم بأداء يمين الولاء، والذي بذلوه له وهم عازمون على عدم الالتزام به، وانتهاز أتفه سباب للتحلل منه !.

وأنزعجوا منه عندما قرر عدم الاشتراك بشخصه معتذراً بحاجة عاصمته لبقائه فيها خلال فترة تقدم الحملة الصليبية الاولى، وعدوها خيانة منه لهم، ولكن بوهيموند القائد النورماني «الذي كان له مخططاته ومشاريعه» تحمس لعدم مشاركة الامبراطور ودافع عنها ، ووجد فيها مشجعاً له في المضي في احلامه ومشاريعه.

وحقدوا عليه عندما كانوا يصلون الى نقص في الإمدادات أو الغذاء ، وعدوا ذلك سبباً كافياً للتراجع عن يمينهم الذي بذلوه وهم كارهون.

من جانبه فإن الامبراطور وجد أنه رغم كل ما بذله للاتين وهم في عاصمته من اموال وهدايا وأعطيات، وما اخذ يمدهم به من امدادات، فإنهم ما يلبثون أن يتراجعوا عن التزاماتهم حتى قبل أن تصل الحملة الى هدفها النهائي فقد قام تانكريد وبلدوين بمساعدة وتشجيع من قائديهما، بوهيموند وجودفروي، بالانفصال عن الحملة والاستيلاء على المدن لحسابهم الخاص وبالتالي الخروج عن الاتفاق مع الامبراطور البيزنطي لتحقيق أهدافهما وأطماعهما الخاصة بتأسيس امارات في الشرق، ولعل بلدوين وتانكريد كانا أكثر الصليبيين صراحة مع نفسيهما، فلم تكن الحملة الصليبية بالنسبة لهما -وربما منذ الوهلة الأولى- حملة مقدسة ، وإنما مغامرة

عسكرية لاستعمار المشرق سواء كان هذا المشرق عربياً إسلامياً ام بيزنطياً نصرانياً ! وكانا اكثر الصليبيين عداءاً لبيزنطة منذ البداية حتى ان الاتفاق الذي توصل اليه الامبراطور الكسيوس مع الصليبيين بدا وكأنه لم يكن يعنيهما في شيء ولم يكونا يعترفان به.

على أن أخطر وأصعب جانب في العلاقة بين البيزنطيين واللاتين هو ما ظهر بين الامبراطور الكسيوس كومنين وبين القائد النورماني بوهيموند عندما اثيرت مشكلة أنطاكية، والى من تؤول، فبموجب اتفاقية القسطنطينية كان يجب أن تعود الى الدولة البيزنطية، ولكن بوهيموند وجد انه عند اسوار انطاكية يجب ان ينتهي دور الصديق الذي كان يلعبه حتى هذه اللحظة، وان يضع حداً للنفاق الذي كان يظهره للامبراطور الكسيوس ويبدأ في وضع مخططاته ومشاريعه قيد التنفيذ.

لقد أثبتت أحداث الحملة الصليبية الأولى، وما ساد فيها من علاقات بين اللاتين الغربيين والبيزنطيين الشرقيين أنه من الصعب القفز على احداث التاريخ وعلى مظاهر العداء التي كانت مستحكمة بين الطرفين، والتي ترسخت عبر القرون، فلم يغب عن اللاتين أن إمبراطورية الشرق كانت تحكم من الغرب، وأن القسطنطينية قد سلبت روما مجدها وسيطرتها، ولم ينس اللاتين الكاثوليك ان البيزنطيين الأرثوذكس يعتبرون «هراطقه» ضالين عن الدين الحقيقي الذي ترعاه كنيسة روما - كما يزعمون - ولم يتجاوزوا عن الخلافات الدينيه منذ قطيعة فوشيوس (٨٦٩م/٢٥٦هـ) إلى القطيعة الدينية الكبرى سنة (١٠٥٤م/٤٤٦هـ)، بل ذهبوا الى اكثر من ذلك حين لم يروا في البيزنطيين سوى رجالاً فاقدي الرجولة[١]، كما لم ير البيزنطيون في اللاتين سوى برابرة خشني الطباع[٢].

على أن الذي يجب تأكيده في خاتمة هذا البحث أن الحملة الصليبية الأولى وما ترتب عليها من مواقف للامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ، كما كانت محكاً لاختبار نوعية

---

(١) نورمان كانتور : التاريخ الوسيط ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص٤٠٠.

(٢) آنا كومنين : الالكسياد ، مصدر سابق ، ص ص ١١٣ و ١٨٧.

العلاقة التي كانت سائدة بين الطرفين البيزنطي واللاتين حتى ذلك الوقت ، فإنها كانت أيضاً منحنىً خطيراً انحدرت فيه العلاقة بعد ذلك، لتسير في اتجاه أكثر حدة وخطورة في العداء بين الشعبين اللاتيني والإغريقي (البيزنطي) -والذي ظهر جلياً خلال أحداث الحملة- واخذ يتفاقم ويبرز مع ما تبعها من حملات ونتائج ومواقف.

فالغرب اللاتيني -كنيسة وقيادة وشعباً- لم يتخل عن تحميل بيزنطة والامبراطور البيزنطي خاصة ؛ مسؤولية الصعاب والكوارث التي حلت بالحملة الصليبية الأولى ، وإن بيزنطة قد وضعت من العراقيل والمعوقات ما جعل طريق الحملة صعباً وتكلفة نجاحها في الوصول إلى هدفها النهائي والمحافظة على مكتسباتها عالية ، ولذلك فإننا سرعان ما سنرى كنيسة روما والبابا (باسكال الثاني) والرأى العام الغربي يدعمون فكرة الحملة الصليبية التي دعا اليها بوهيموند سنة ١١٠٧م/٥٠١هـ لتقويض الامبراطورية البيزنطية باعتبارها العدو الاخطر والاقرب لروما واللاتين ، والمعوق لنجاح أي مشاريع صليبية مستقبليه في الشرق -كما روج بوهيموند والبابا باسكال الثاني- ومن جانبهم فإن البيزنطيين بدأوا يستعيدون مواقف الغرب منهم، ولم ينسوا الدعم الذي قدمته البابويه لروبرت جويسكارد حينما فكر في غزو الامبراطورية البيزنطية، وخاض معها حروباً مريرة انتهت بهزيمته خلال السنوات (١٠٨١-١٠٨٥م/٤٧٤-٤٧٨هـ)، ولا دعم البابويه ايضاً لحملة ابنه بوهيموند ضد الامبراطورية البيزنطية، والتي انتهت بهزيمته ايضاً، كما لم ينس البيزنطيون مدينة أنطاكية التي استحوذ عليها بوهيموند ورغم تعدد وتنوع محاولاتهم لاسترجاعها الا انهم لم يستطيعوا الى ذلك سبيلا.

وكما أن الحملة الصليبية الاولى ونتائجها وموقف الامبراطور البيزنطي منها ، كانت منحنى خطيراً للعلاقات بين الشرق والغرب الاوروبيين فانها كانت وقوداً جديداً لذلك التوتر الذي ساد بين الشقين والذي يعيده البعض الى فترة مبكرة، منذ أن تم تأسيس القسطنطينية ونقل العاصمة اليها في القرن الرابع الميلادي، وكان أن شهدت العلاقات على مختلف الأصعدة توتراً شديداً وفشلت كل المحاولات التي بذلت لتدارك هذا التدهور، لتكون الحملة الصليبية الرابعة التي انطلقت من الغرب برعاية البابوية ، وأطاحت بالامبراطورية البيزنطية سنة ١٢٠٤م/ ٦٠٠هـ ، خاتمة لفصل طويل من العلاقات بين روما القديمة وبيزنطة ، أو روما الجديدة.

—

الملاحق

ملحق رقم (١)

رسالة الامبراطور الكسيوس كومنين المزعومة الى كونت الفلاندرز يطلب اليه سرعة نجدته من الأتراك السلاجقة (١)

[من امبراطور القسطنطينية الى السيد الأجل اللورد روبرت أمير الأراضي الواطئة،

-والى جميع كبار رجال المملكة المؤمنين بالعقيدة النصرانية، والى رجال الدين والدنيا- تحية وسلاماً

أيها السيد العظيم حامي العقيدة أود أن أحيطك علماً بما وصل اليه تهديد البجناك والأتراك للامبراطورية الاغريقية النصرانية المقدسة، فهم يعملون فيها السلب والتخريب كل يوم، ويتوغلون في أراضيها دون انقطاع، وكم من مذابح وتقتيل وجرائم تفوق حد الوصف يقترفونها ضد النصارى الإغريق، فضلاً عن السخرية والتحقير، فإنهم يذبحون الأطفال والشباب داخل أماكن التعميد، حيث يريقون دماء القتلى محتقرين بذلك المسيح.

لقد استولى أولئك القوم على كل البلاد الواقعة بين بيت المقدس وبلاد الاغريق ، اذ امتلكوا بلاد اليونان كلها، بما في ذلك أجزاءها العليا، وهي كبادوكيا الصغرى ، وكبادوكيا الكبرى ، وفريجيه ، وبثينيه ، وفريجية الصغرى ، اي طروادة ، وكذلك بنطش ، وغلاطية ، وليدية ، وبجفيلية ، وايسورية وليكية وجزائر خيوس وميتيلينا الرئيسية كما وضعوا ايديهم على مناطق وجزائر أخرى حتى تراقية ، وغير ذلك مما لايقع تحت عد أو حصر ، ولم يبق الآن تقريباً سوى القسطنطينية.

---

(١) نشر الخطاب باللاتينية هاجنماير Hagenmeyer نقلاً عن جيلبرت دي نوجنت Guilbert de Nogent ، وقد نشره الدكتور جوزيف نسيم يوسف بالعربية في كتابه العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، وقد اعدنا نشره هنا لصلته الوثيقة بالبحث ولاهميته في تتبع العلاقات بين البيزنطيين واللاتين قبل واثناء الحرب الصليبية الاولى انظر ص ١١١ وما بعدها من هذا البحث لمعرفة الآراء التي طرحت لمناقشة هذه الرسالة وبالتالي القطع ببطلان صدورها عن الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين .

لذا استحلفك بمحبة الله ، وباسم جميع النصارى الاغريق ، أن تمد لنا وللنصارى الاغريق يد العون والمساعدة ، وذلك بتقديم جميع الجنود النصارى ، من كبير وصغير فضلاً عن العامة ممن يتسنى جمعهم من بلادك.

وبناء على ذلك يجب أن تحاربوا بكل ما اوتيتم من قوة وشجاعة قبل سقوط القسطنطينية، وستسعدون ويكون لكم في السماء اجراً عظيماً ، ومن الافضل ان تكون القسطنطينيه في حوزتكم وليست في قبضة الاتراك ، لأن بها اثمن أثار السيد ، وهي الصليب الذي صلب عليه والسوط الذي ضرب به، والرداء القرمزي الذي البسوه اياه وتاج الشوك وكذلك الملابس التي نزعت عنه أمام الصليب، وقطعه كبيرة من خشب الصليب الذي صلب عليه(١) ، ورأس يوحنا المعمدان وخصلات شعره باكملها ولحيته فضلاً عن بقايا اجساد كثير من القديسين.

فإذا لم يحفزكم كل هذا للقتال، وتفضلون عليه الذهب، فسوف تجدونه في هذا المكان اكثر مما يوجد في العالم كله ، فكنائس القسطنطينيه ملأى بكنوز من الفضه والذهب والحلى والاحجار الكريمه ، والمنسوجات الحريرية التي تستخدم في صنع الاردية والملابس التي تكفي جميع كنائس العالم.

سارعوا إذن بكامل رجالكم ، وحاربوا بكل ما لديكم من قوة حتى لاتقع كل هذه الكنوز والنفائس في ايدي البجناك والأتراك ، إذ ينتظر وصول ستين الفاً منهم بين وقت وآخر.

ولهذه الاسباب مجتمعة اعملوا قبل فوات الأوان كي لا تفقدوا مملكة نصرانية، وما هو أهم وأعظم قبر المسيح، وسوف يكون جزاؤكم ليس الدينونة في هذا العالم وانما ثواب الآخرة عند الله] .

---

(١) هذه هي عقيدة النصارى عن اختفاء عيسى عليه السلام ، اما المسلمون فيعتقدون كما نص على ذلك القرآن الكريم : «وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وان الذين اختلفوا فيه لفي شك فيه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً». سورة النساء، الآية ١٥٧-١٥٨.

ملحق رقم (٢)

صيغة اليمين التي أداها بوهيموند للامبراطور الكسيوس كومنين .

صيغة اليمين باللاتينية كما ذكرها البرت دي اكس :

«Audivi de te quoniam miles et princeps potentissimus sis in terra tua , et vir prudentissimus ac perfectae fidei. Quapropter te in filium adoptium suscipio ; et universa quac possideo in tua potestate constituo, ut per imperium meum et terra a facie praesentis et affuturae multitudinis liberari ac salvari possit. »

صيغة اليمين بالعربية :

«إن الطاعة والولاء هما الآن شعار جميع جنودنا ورؤسائهم، وإننا لنلتزم بعدم معاودة الحرب ،واتباع الحكمة في تصرفاتنا مع الإخلاص التام والولاء للإمبراطور، ومن خلال إحساسنا بأننا قد أصبحنا في مرتبة الأبناء بالتبني للإمبراطور، فإن إعادة ما سبق وإن استحوذنا عليه إلى الإمبراطورية يصبح أمراً جوهرياً ، بما في ذلك كافة المناطق المتميزة (المدن والإقاليم) التي سوف تتمتع بعودتها إلى الإمبراطورية بكامل استقلالها بعد إنهاء إحتلالنا لها » ...

ملحـــق رقـم (٣)

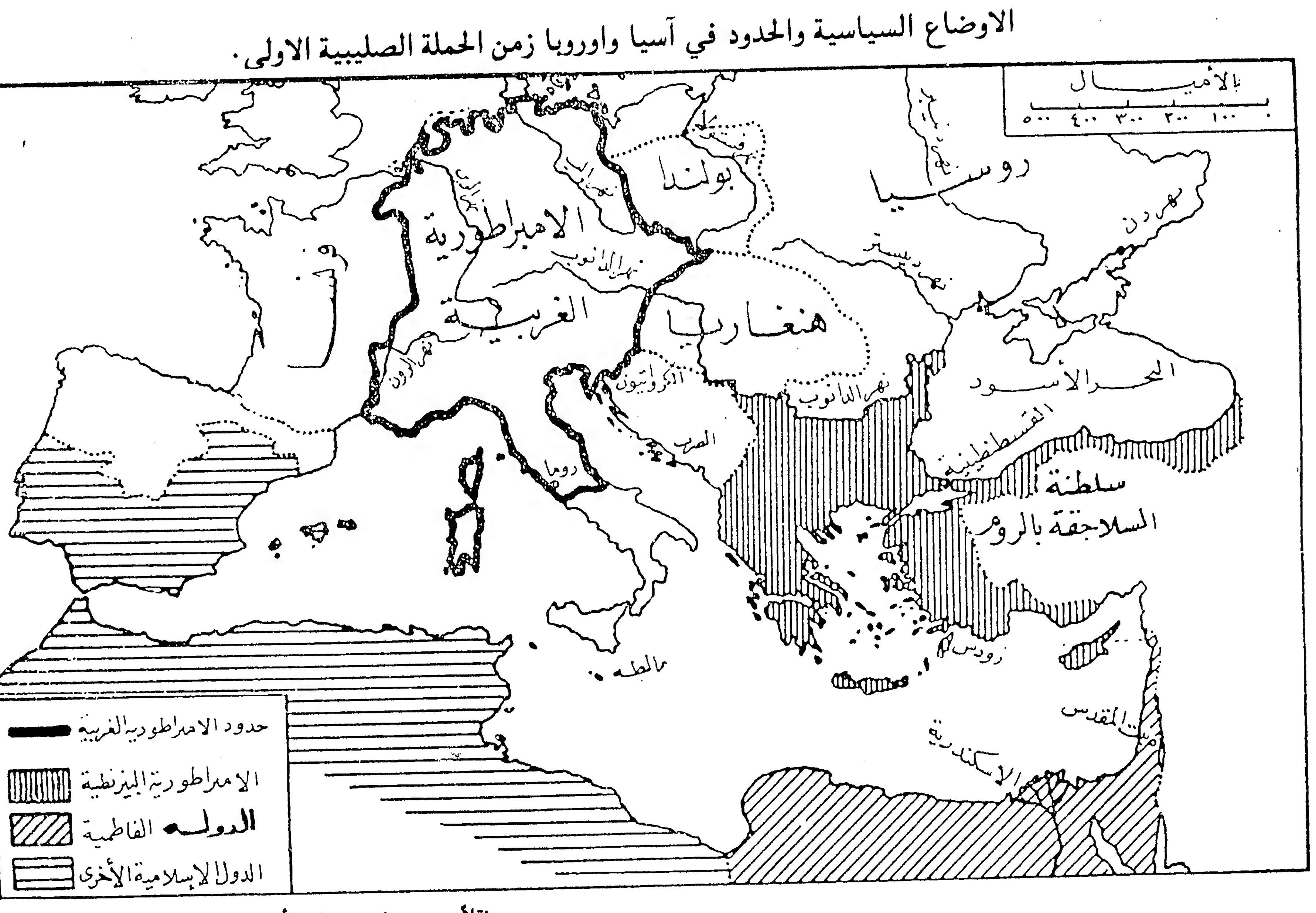
خطبة البابا أوربان الثاني في كليرمونت كما ذكرها مكسيوس مونرود في كتابه عن الحروب الصليبية ، بما يمثل نصاً جديداً عن الصيغ التي ذكرت عن خطبة البابا أوربان الثاني خلال دعوته للحروب الصليبية

[أيها «النصارى» إن تلك الأرض المقدسة بحضور شخصي المخلص فيها، وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا وذلك الجبل الذي تألم ومات من أجلنا، وذلك الضريح الذي تنازل لآن يدفن فيه ضحية للموت، كلها أضحت ميراثاً لشعب غريب، وغاب كل بهائها الأصلي، وهياكلها قد خربت ، وأشعة نورها الساطعة تحولت إلى ظلام حالك ، وهي تستحق الندب الشديد والبكاء ، ولم يعد لله من معبد داخل المدينة المقدسة الخصوصية ، وجهات آسيا الأكثر ثروة وغناً قد أصبحت في فقر مهين، وأنطاكية وأفسس ونيقية قد صارت مدن «الاسماعيليين» والأتراك قد مدوا ولايتهم إلى حدود هاليبوتوس ، لا ، بل الى أبواب القسطنطينية ، ومن هناك ذراع هذه الشعوب القوي يهدد بالاستيلاء على كل ممالك الغرب.

لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الاسلام تلك الأسلحة التي اتخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر لأخذ الثأر عن بعض إهانات، فالحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هي لأخذ الثأر من إهانات ضد البشر، بل عن الإهانات الصادرة ضد الله، وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي اقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لاتحصى فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين ، وأنتم املكوها لذواتكم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً ..]

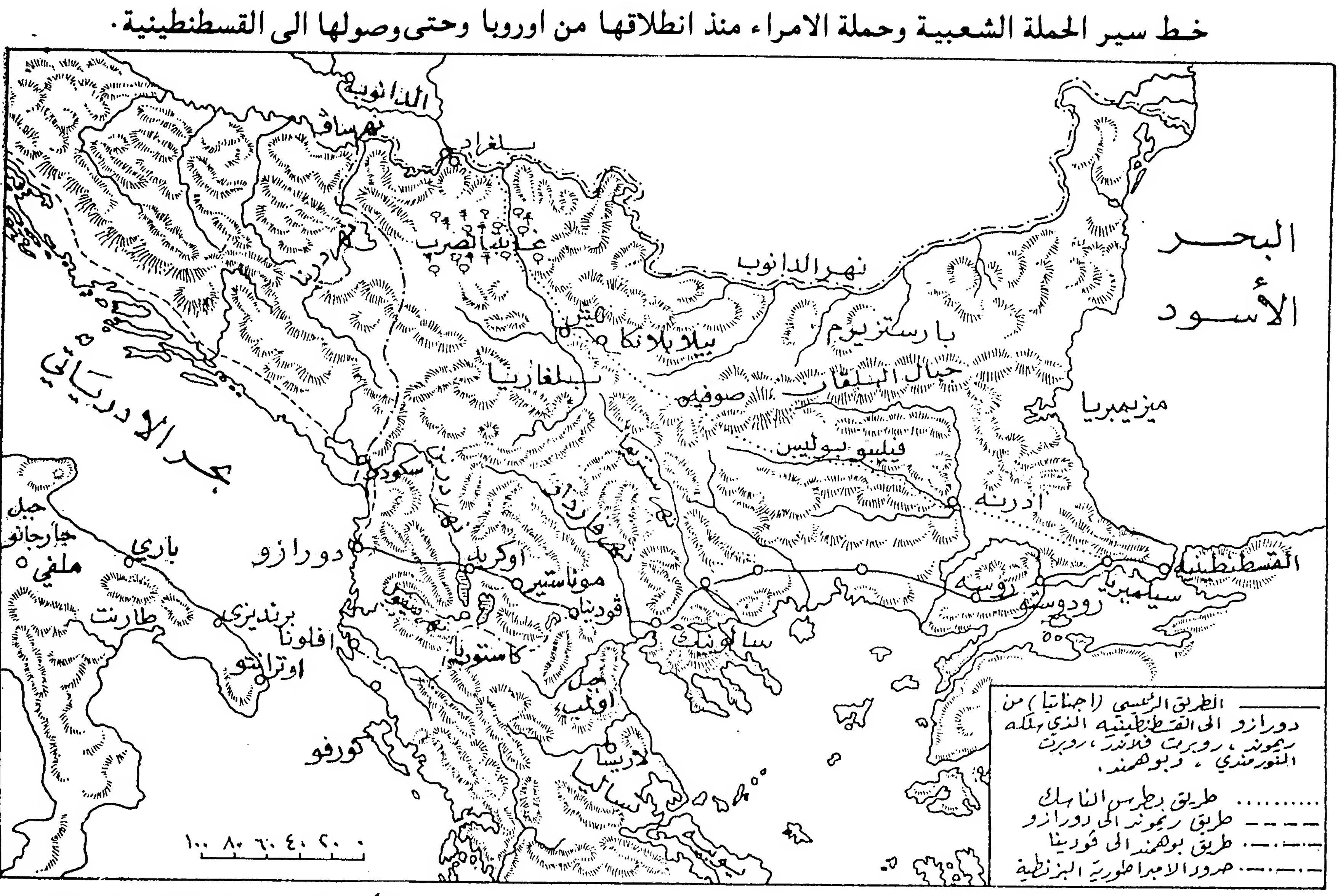
الخـــرائــــــــط

الاوضاع السياسية والحدود في آسيا واوروبا زمن الحملة الصليبية الاولى.



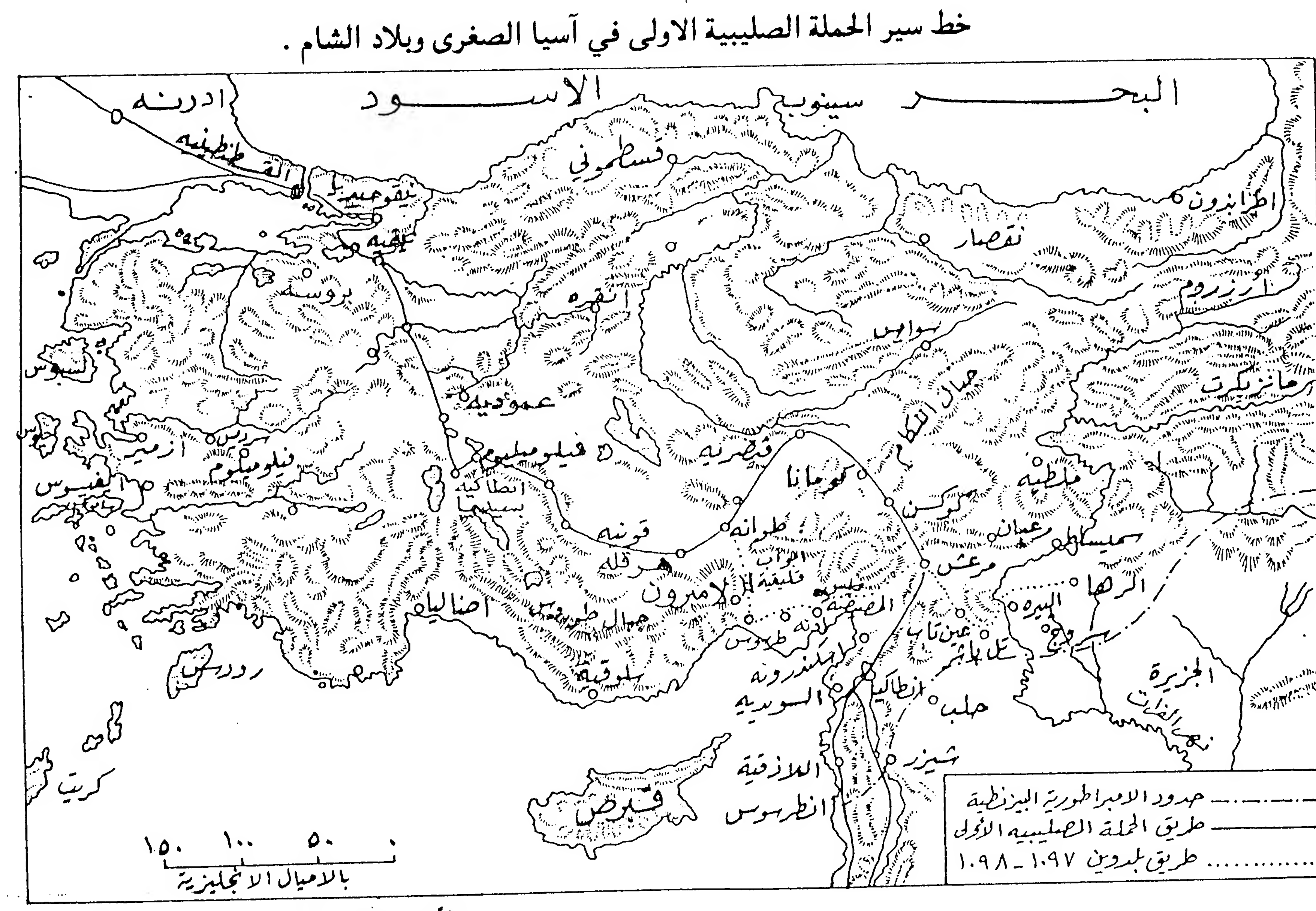
نقلاً عن : هـ. فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص١٨٣.

خط سير الحملة الشعبية وحملة الامراء منذ انطلاقها من اوروبا وحتى وصولها الى القسطنطينية.



نقلاً عن رانسيمان : الحروب الصليبية، ج١، ص٢٠٩.

خط سير الحملة الصليبية الاولى في آسيا الصغرى وبلاد الشام .



نقلاً عن رانسيمان : الحروب الصليبية ، ج١ ، ص ٢٥٧.

الدولة البيزنطية قبيل الحملة الصليبية الاولى

Robert S. Hoyt, Europe in the Middle Ages, P.251 نقلا عن

الدولة البيزنطية في اعقاب الحملة الصليبية الاولى

ميل ٢٠٠ ١٠٠ ٠

كيلومتر ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠

الحدود البيزنطية في عهد الكسيوس ١١١٨م

الحدود البيزنطية في عهد يوحنا ١١٤٢م

الحدود البيزنطية في عهد مانويل ١١٨٠م

نقلاً عن : Camb, med , hist, Vol.IV, P.212.

المصـــادر والمراجـــع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

ابن الاثير (ابي الحسن علي بن عبدالواحد الشيباني) : الكامل في التاريخ ، الجزء الثامن ، بيروت : دار الفكر ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ، تحقيق عبدالقادر احمد طليمات ، القاهرة : دار الكتب الحديثة ١٩٦٣م.

ابن الجوزي (أبي الفرج عبدالرحمن بن علي) : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، الطبعة الاولى الجزء الثامن ، حيدر آباد : مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٩هـ.

ابن العبري (ابي الفرج جمال الدين) : تاريخ الزمان ، ترجمة اسحاق ارمله، بيروت : دار المشرق ١٩٨٦م.

ابن العديم (كمال الدين عمر بن احمد هبة الله) : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، الجزء الثاني ، دمشق : طبعة المعهد الفرنسي بدمشق ، ١٩٥١م.

ابن القلانسي (ابويعلي حمزه) : ذيل تاريخ دمشق، بيروت : مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٨م

ابو الفضل البيهقي : تاريخ البيهقي، ترجمه عن الفارسية يحيى الخشاب وصادق نشأت، بيروت: دار النهضة العربية ١٩٨٢م.

ابو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغري بردي) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة : دار الكتب المصرية ١٩٧٢م.

الانطاكي (يحى بن سعيد) : تاريخه ، باريس ١٩٢٤م ، (وبه ترجمة بالفرنسية قام بها جي كراتشكوفسكي ، أ. فاسيليف).

الحموي (شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن عبدالله) : معجم البلدان ، بيروت : طبعة دار صادر ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

الحريري ، أحمد بن علي : الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق : مكتبة دار الملاح ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزاوغلي) : مرآة الزمان ، مخطوطه بمكتبة احمد الثالث في استانبول رقم ٢٩٠٧ - الجزء الثالث عشر ، (فصل من كتاب الحروب الصليبية لسهيل زكار، دمشق : دار حسان ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. الصفحات ٧٣٩-٧٨٦).

تاريخ العظيمي ، مخطوط في مكتبة بايزيد في استانبول رقم ٣٩٨ ، (فصل من كتاب الحروب الصليبية لسهيل زكار، الطبعة الاولى، ج٢، دمشق : دار حسان ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. الصفحات ٦٦١-٧٣٨).

ثانياً : مصادر معربه :

التطيلي (بنيامين التطيلي الاندلسي) : رحلة بنيامين ، ترجمها عن العبريه عزرا حداد ، الطبعة الاولى ، بغداد : المطبعة الشرقية ١٩٤٥م .

جيل ، ريموندا : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة حسين محمد عطيه ، الطبعة الاولى ، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ١٩٩٠م.

المؤرخ المجهول : اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتقديم حسن حبشي، الطبعة الاولى، القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٥٨م.

المؤرخ السرياني المجهول : الحملة الصليبية الاولى، ترجمة وتحقيق سهيل زكار، الطبعة الاولى ، ج٢ ، دمشق : دار حسان ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

الصوري، وليم : الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الطبعة الاولى، الجزء الاول، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، رقم (٤٥) من سلسلة تاريخ المصريين ، ١٩٩١م.

الشارتري ، فوشيه : تاريخ الحملة الى القدس ، ترجمة زياد العسلي ، الطبعة الاولى ، عمان : دار الشروق ١٩٩٠م.

كومنين ، آنا : الالكسياد، (فصل من كتاب سهيل زكار ، ج١، دمشق : دار حسان للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ ، الصفحات "١١-١٨٧").

ثالثاً : مراجع عربية ومعربة :

اسكندر ، فايز نجيب : موقعة ملاذكرد وصداها في القسطنطينية ، سلسلة بحوث في تاريخ وحضارة الامبراطرية البيزنطية رقم (٤)، الاسكندرية دار الفكر الجامعي، ١٩٨٨م.

غزو الامبراطورية البيزنطية لارمينيه، دراسات في تاريخ وحضارة ارمينيه رقم (٦)، الاسكندرية : دار الفكر الجامعي ١٩٨٨م.

استيلاء السلاجقة على عاصمة ارمينيه «آني»، دراسات في تاريخ ارمينيه رقم (٣) الاسكندرية : دار الفكر الجامعي ١٩٨٧م.

البيزنطيون والاتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد في مصنف نقفور برينيوس ، سلسلة بحوث ودراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية رقم (١)، الاسكندرية : دار نشر الثقافة ١٩٨٤م.

استارجيان ، ك. ل. ل. : تاريخ الامة الارمينيه ، الموصل : مطبعة الاتحاد الجديدة ، ١٩٥١م.

ارسلان ، شكيب : تاريخ غزوات العرب ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٣٥٢هـ .

اسماعيل ، ليلى عبدالجواد : تاريخ الروس من خلال المصادر العربية ، القاهرة : دار الثقافة العربية ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

بردج ، انتوني : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة احمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي ، دمشق : دار قتيبه ١٩٨٥م.

براور، يوشع : عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفه حسن، الطبعة الاولى، القاهرة : دار المعارف ١٩٨١م.

باركر ، ارنست : الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار النهضة العربية ١٩٦٧م.

بارو ، ر. هـ : الرومـان ، ترجمة عبدالرزاق يسري، سلسلة الالف كتاب رقم (٦١٢)، القاهرة : دار النهضة مصر ، ١٩٦٨م.

باراكلاف (و. ج) وهارتمان (ل. م) : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨١م.

بينز، نورمان : الامبراطوريـة البيزنطيـة، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايـد، الطبعة الثانية القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧م.

الجنزوري ، عليه عبدالسميع : الثغور البريه الاسلاميه على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٩م.

الحريري ، سيد علي : الاخبار السنيه في الحروب الصليبية، تحقيق عصام محمد شبارو، الطبعة الاولى ، بيروت : دار التضامن ودار الكتاب الحديث ، ١٩٨٨م.

حبيبه ، علي : المسلمون والصليبيون ، القاهرة : مكتبة الشباب ١٩٩٠م.

حسين ، عبدالمنعم محمد : دولة السلاجقة ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٥م.

حاطوم، نور الدين : تاريخ العصر الوسيط في اوروبا، ج١، الطبعة الاولى، بيروت : دار الفكر الحديث، ١٣٨٦هـ/١٩٨٧م.

حبشي، حسن : الحرب الصليبيه الاولى، الطبعة الاولى، القاهرة دار الفكر العربي ١٩٥٨م.

دولي، دونالد. ر : حضارة روما، ترجمة جميل يواقيم الذهبي، وفاروق فريد، القاهرة : دارنهضة مصر للطبع والنشر، بدون تاريخ نشر.

ديل، شارل : الامبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، الطبعة الثانية، القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧م.

دائرة المعارف الاسلامية ، اصدرها باللغة العربية احمد الشنتاوي ، وابراهيم زكي خورشيد، وعبدالحميد يونس ، مراجعة محمد مهدي علام ، القاهرة : دار الفكر ١٩٣٣م.

ديفز ، هـ و. ك : شارلمان ، ترجمة الباز العريني ، القاهرة : مكتبة النهضة ١٩٥٩م.

رانسيمان، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، الجزء الاول، الطبعة الاولى، بيروت : دار الثقافة ١٩٦٧م.

الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، مراجعة زكي علي ، سلسلة الالف كتاب رقم (٣٧٩)، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م.

رستم، اسد : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، بيروت : المكتبة البولسيه ١٩٨٨م.

كنيسة مدينة انطاكية العظمى ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية ، بيروت : المكتبة البولسيه ١٩٨٨م.

حرب في الكنائس، بيروت : منشورات قسم الدراسات التاريخية بالجامعة اللبنانية ١٩٥٨م.

رمضان، عبدالعظيم : الصراع بين العرب واوروبا من ظهور الاسلام الى انتهاء الحروب الصليبية القاهرة : دار المعارف ١٩٨٣م.

زيتون، عادل : العلاقات السياسية والكنسيه بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، الطبعة الاولى، دمشق : دار دمشق للطباعة والنشر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، الطبعة الاولى، دمشق : دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

زيعور ، علي : اوغسطينيوس ، الطبعة الاولى ، بيروت : دار اقرأ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

سميث، جوناثان رايلي : ما هي الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، القاهرة : بدون دار نشر ١٩٩٠م.

سليمان ، أحمد عبدالكريم : المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجري التاسع والثاني عشر الميلادي ، الجزء الاول ، الطبعة الاولى ، القاهرة : دار السعادة ١٤٠٤هـ/١٩٨٢م.

صبره ، عفاف سيد : الامبراطوريتان البيزنطية والرومانية زمن شارلمان ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

عاشور ، سعيد عبدالفتاح : الحركة الصليبية ، الجزء الاول ، الطبعة الثانية ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١م.

قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧م .

اوروبا في العصور الوسطى (التاريخ السياسي) الجزء الاول ، الطبعة الثانية ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦١م.

عاقل ، نبيه : الامبراطورية البيزنطية ، الطبعة الاولى : دمشق بدون دار نشر ١٩٣٩م.

العدوي ، ابراهيم أحمد : المجتمع الاوروبي في العصور الوسطى ، القاهرة : مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي ، ١٩٨٤م.

العريني ، الباز : الدولة البيزنطية (٣٢٣-١٠٨١م) بيروت : دار النهضة العربية ١٩٨٢م.
تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ، بيروت : دار النهضة العربية ١٩٦٨م.

عبيد، اسحق تاوضروس : روما وبيزنطة (من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة القسطنطينية) ، القاهرة : دار المعارف ١٩٧٠م.

عمران، محمود سعيد : معالم تاريخ اوروبا في العصور الوسطى، بيروت : دار النهضة العربية ١٩٨٢م.

عطية ، عزيز سوريال : الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ، ترجمة فيليب صابر سيف، الطبعة الثانية القاهرة : دار الثقافة ١٩٩٠م.

عطية ، حسين محمد : امارة انطاكية الصليبية والمسلمون ، الطبعة الاولى ، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩م.

فيشر ، هربرت أ. ل. : تاريخ اوروبا - العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، الجزء الاول ، الطبعة الخامسة ، القاهرة : دار المعارف ١٩٦٩م.

الفقي ، عصام عبد الرؤوف : بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي ، القاهرة : دار الفكر العربي ، بدون سنة نشر.

فينو جرادوف : النظام الاقطاعي ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة : مطبعة النهضة ١٩٥٨م.

فرح ، وسام عبدالعزيز : الزواج الرابع للامبراطور ليو السادس (٨٨٦-٩١٢) الابعاد الدينية والدلاله السياسية ، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩١م.

قاسم ، قاسم عبده : الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق : القاهرة دار نافع للطباعة والنشر ١٩٨٤م.

ماهية الحروب الصليبية ، سلسلة عالم المعرفة رقم (١٤٩) ، الكويت : ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

الخلفية الايدلوجية للحروب الصليبية ، الطبعة الاولى ، القاهرة : دار المعارف ١٩٨٣م.

كيلاني ، محمد سعيد : الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الفرجاني ١٩٨٤م.

كوبلاند ، ج. و : الاقطاع والعصور الوسطى بغرب اوروبا ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية ، القاهرة : مكتبة الهضة المصرية ١٩٥٥م.

كانتور، نورمان ف. : التاريخ الوسيط قصة الحضارة : البداية والنهاية، ترجمة قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية ، الجزء الثاني ، القاهرة : دار المعارف ١٩٨٦م .

كولتون ، ج. ج. : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، الطبعة الثالثة ، بيروت : دار النهضة العربية ١٩٨١م

لانجر، وليم : موسوعة تاريخ العالم ، اشرف على الترجمة محمد مصطفى زياده، الجزء الثاني، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م.

مخزوم ، محمد : مدخل لدراسة التاريخ الاوروبي (عصر النهضة) ، الطبعة الاولى ، بيروت : دار الكتاب اللبناني ١٩٨٣م.

هيمنة البابوية على غرب اوروبا في العصور الوسطى ، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد (١٤) بيروت : ديسمبر ١٩٧٩م ، الصفحات ٢٠-٢٥.

النبراوي ، فتحية : العلاقات السياسية الاسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى ، الطبعة الاولى القاهرة : دار التضامن للطباعة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

نـدوة التاريخ الوسيط، تحرير قاسم عبده قاسم ورأفت عبدالحميد، الاضطهادات الصليبية ليهود اوروبا ، القاهرة : دار المعارف ١٩٨٢م ، المجلد الاول ، الصفحات ١٣٧-١٦٦.

هسي، ج. م : العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبدالحميد، الطبعة الثالثة، القاهرة : دار المعارف ١٩٨٤م.

هلستر ، س. ورن : اوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٨م.

وير، تيموثي : الكنيسة الارثوذكسية في الماضي والحاضر، ترجمة هاشم الحسيني ، بيروت : منشورات النور ، ١٩٨٢م.

ويستنفلد، ف : جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلاديه بأيامها وشهورها، ترجمة د. عبدالمنعم ماجد وعبدالمحسن رمضان ، ط٢ ، القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٠م.

يوسف ، عبدالقادر أحمد : العصور الوسطى الاوروبية ، دراسات تاريخية رقم (٢) ، بيروت : المكتبة العصرية ١٩٦٧م.

يوسف ، جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٩م.

دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الطبعة الثالثة، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩م.

تاريخ الدولة البيزنطية ، الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ١٩٨٤م.

رابعاً : مصادر ومراجع أجنبية :

Bernard , Leon , and Hodges , Theodore. Readings in European History. NewYork ; The MacMillan Co. , 1958.

Baynes , N. H, and Moss , H. St. L B. Byzantium , Oxford Paper backs. Oxford : University of Oxford Press , 1962.

Commnen , Anna . The Alexiad . , Trans By E. A. S. Dawes. Second Edition, London 1967.

Carlton, J. H. and Baldwin M. W. History of Europe , Volume one. NewYork : MacMillan Co. , 1959.

The Cambridge Medieval History :

Volume IV , part I , Byzantium and its neighbor, ed. By J. M. Hussey Cambridge : the University Press 1966.

Volume V, Contest of Empire and Papacy. ed By G. R.Tanner, C. W. Previtearton , Z. N. Brooke. due university press, 1968.

Volume VI, Victory of papacy, edited by G. R. Tanner, C. W. Previtearton , Z. N. Brooke. the University Press 1968.

Davis, R. H. C. A History of Medieval Europe , Revised Edition, London 1970.

Duggan , Al Fred. The Story of the Crusades. London : Faber and Faber , 1963.

Diehl , Charles. The History of the Byzantiom Empire. Translated from French By George. E. Ives, London 1953.

Hay , Denys. The Medieval Centuries. London : Methuen and Coltd, 1964.

Hulme , Edward. M. The Middle Ages. Revisd edition , NewYork : Henry Holt and company , 1929.

Keen , Maurice . Medieval Europe. London : Penguin Books 1968.

Matthew , Donald. The Medieval European Community. London : B. T. Batsford Ltd , 1977

-

Mayer , Hanse berhard . The Crusades. Trans. By John Gillingham , Oxford : Oxford University Press , 1981.

Munro , d. C. , Did the Emperor Alexius I ask for aid to the Council of Piacenza? NewYork : American Historical Review. Vol. 27. 1922.

Munro , C. C. The Speech of Pope Urban II at Clermont ; NewYork : The American Historical Revew , Vol. XI , 1906.

Omman , C. W. C. The Art of War in the Middle Ages , NewYork : Cornell Unversity Press , 1963.

Ostrogorsky , George. History of the Byzantine State. Trans. from the German by Joan Hussey second edition , London : T. J. Press , 1968.

Peters , Edward . The First Crusade. Philadlphia : University of Pennsylavnia Press , 1971.

Painter , Sidney. A History of the Middle Ages. London : MacMillan 1970.

Runciman , Steven. The Eastern Schism. Oxford : Clarendon Press , 1956.

Stephenson , Carl. Mediaeval History. Revised Edition , London : Harper and Brothers Publishers , 1943.

Setton , K. M. (ed) , History of the Crusades, 2 Vols, Second Edition, Wisconsin Press , 1969.

Vasiliev , A. A. A History of the ByzantineEmpire. 2 Vols , Wisconsin : The University of Wisconsin Press , 1970.